فى الأدب الحديث

تأليف

عمر الدسوقى

أستاذ الأدب ، ورئيس قسم الدراسات الأدبية
بكلية دار العلوم -- جامعة القاهرة

الجزء الأول

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين

مقدمة الطبعة الأولى

فى مستهل القرن التاسع عشر أخذت مصر والبلاد العربية تستيقظ من سبات طويل وتفرك عيونا طالت هجعتها ، وتنظر دهشة إلى دنيا حافلة بالجديد فى نظم العيش ، ووسائل التغلب على قوى الطبيعة وتذليلها للانسان ؛ بالمخترعات الحديثة ، وفى نظم الفكر ، وعالم المعانى ، والآداب ، وما خلقه أدباء الغرب من صور ودبجوه من كتب ؛ ونظموه من شعر ، وسطروه من علم مبنى على التجارب المحصة ، ومن حقائق مؤيدة بالبراهين الساطعة . ومنذ ذلك الوقت ، ومصر والبلاد العربية تزداد بالغرب صلة ، وبأهله تعرفا ، وبحضارته وثقافته ولوعاً . ولم تنس ماضيها وتراثها المجيد من الحضارة والثقافة ، فأحيت ما ورثته عن العرب من آداب ضخمة ، وأخذت تتناول من القديم ، وتتناول من الجديد وتمزج بين الثقافتين .

وكان اتصالها بالغرب عن طرق كثيرة : فمن بعثات ترى رأى العين ، وتتلقى العلم على أساتذة مختصين ثمة ، وتعود فتنقل صوراً جديدة من العادات والحياة ، وأفكاراً وآراء لم تكن موجودة من قبل ، ومن ترجمات لآثار العلماء الغربيين ورجال الأدب والفكر ، والفن والقانون ، يطلع عليها جمهرة المتعلمين من الشعوب العربية ، ويدرسونها فيستقر ما بها من آراء فى عقول الناس نتيجة التداول ، ومرور الزمن ، وتصير من تراث

الأمة العقلى ؛ تظهر دون تعمد على ألسنة الخطباء ، وعلى أسلات الأقلام ، وفى ثنايا الأبيات الشعرية ، والصور الفنية ، وبذلك يتخذ الأدب والفن لونا جديداً يميزه عن العصور السابقة ، ويطبعه بطابع خاص .

وكان التعليم المدنى الذى وضع محمد على أسسه فى مصر ، ونماه إسماعيل واشتد عوده وآتى أكله بعد ثورتنا القومية فى سنة ١٩١٩ ، من أعظم العوامل التى ساعدت على اتصال الشرق بالغرب ؛ وكذلك فعلت النهضة التعليمية فى سوريا ، وفى لبنان على الأخص ، ومجهودات الإرساليات التبشيرية فى هذا المضمار لا تنكر . وصار الطالب العربى فى مدارس القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد ، حتى وهو فى مرحلة الدراسة الثانوية يلم بشىء كثير من الأدب الغربى ، ويطلع على بعض صوره : من قصة ، وشعر ، ومقالة ، وحياة أدباء ، ويستوعب كل هذا ويؤدى فيه امتحانا ، ثم يختزنه فى عقله الواعى ، أو فى عقله غير الواعى ؛ ولن يستطيع أن يتخلص من تأثيره حين يتكلم ، وحين يكتب ، وحين يقرض الشعر ، وحين يفكر وحده ، دع جانبا دراسة التخصص فى الجامعات ، وما تقوم به الهيئات والأفراد من بحوث وترجمات ، ونهضة الصحافة والتجديد فى مادتها بنقل كثير من ألوان الصحافة الغربية وأبوابها لجمهرة القراء وعامة الشعب .

وليس الغرب أمة واحدة ، ذات ثقافة واحدة ، ولكنه أمم شتى ، ولها أذواق مختلفة وآداب متباينة ولغات عديدة ، ولكل شعب أسلوبه فى التفكير ، وفلسفة خاصة فى الحياة ، ولم يكن اتصال مصر والبلاد العربية قاصراً على شعب غربى دون آخر ، بل اتصلنا بكل بلاد الغرب إن لم يكن عن طريق البعثات فمن طريق الترجمة : اتصلنا بفرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وإيطاليا وروسيا ، وأسبانيا ، والولايات المتحدة ، وغيرها ، وعرفنا صوراً وألواناً من آداب كل وفلسفة كل ، ولا سيما فى الحقبة الأخيرة ، بعد ما انتشر الطيران ، وازداد العالم اتصالا بعضه ببعض .

ومن العسير أن نحدد مدى تأثر الأدب العربى بكل ثقافة من هذه الثقافات . بيد أننا نستطيع أن نقول على وجه التقريب : إننا تأثرنا بادىء الأمر بالحضارة الفرنسية ، فنقلنا عنها كل ما يتصل بأسباب الحياة من طب وهندسة ، وعلوم تجارية ، وقانون وما شاكل هذا ؛ وإن مصر تأثرت بالثقافة الإنجليزية ، ثم بالثقافة الفرنسية ، ثم أخذت ألواناً من ثقافات أخرى دون أن يكون لها تأثير كبير . أما لبنان فبالثقافة الفرنسية ، ثم بالثقافة الأمريكية والإنجليزية ، ثم سوى ذلك من الثقافات .

هذا التيار الغربى القوى الذى يجرى فى حياة الأمة العربية العقلية والأدبية ، ينافسه تيار آخر حبيب إلى نفوس الأمة ، ويمت إلى ماضيها المجيد ، ويعرض الشخصيات المألوفة لديها الأثيرة عندها ، التى تبعث فيها العزة والكرامة ، وتقوى من شخصيتها ، وتزيد فى اعتدادها بنفسها ، وذلك هو الأدب العربى القديم ، وهو أدب قوى ضخم ، غاصٌ بكثير من آيات الفن ومعجزاته ، وهو قريب من نفسية الشعب العربى ، ويستطيع أن يتمثله بيسر ومسرة ، قريب من فكره وعاداته ، وعقيدته ، ومزاجه وشعوره ، فلا بدع إذا عظم هذا التيار واشتد وزاحم تيار الثقافة الغربية مزاحمة عنيفة .

والأدباء فى العالم العربى — فى خلال قرن من الزمن — قد تباينوا فى تأثرهم بهذين التيارين : فمنهم من اقتصر على القديم بحكم ثقافته وبيئته ، والعوامل الاجتماعية الخاصة المحيطة به ، وإن لم ينج من التأثر بالأفكار الشائعة ، والألوان الأدبية المترجمة فى الصحف والمجلات ، ودور العلم ، ولكن غلب القديم عليه فى خياله وموضوعه وأسلوبه وطريقة عرضه ؛ ومنهم من كانت ألوان الثقافة الغربية غالبة على أدبه ، فتقرأ له وكأنما تقرأ لأديب فرنسى أو إنجليزى يكتب بالعربية ؛ ومنهم من حاول الجمع بين القديم والجديد ، فحذق من القديم متانة الأسلوب ، وطلاوة العبارة ، ووضوح الغرض ، وأخذ من الجديد حسن العرض ، وطرافة الموضوع ، أما الفكرة فتارة يأخذها من هنا ، وتارة يأخذها من هناك .

هذا ، وقد حاول بعض أدباء العربية فى السنوات الأخيرة محاكاة المدارس الأدبية الأوربية ، التى نشأت بتطور تلك الأمم فى الحياة والمدنية ، والتى كانت أثراً لعوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية مختلفة .

حاولوا محاكاتها دون أن تحفزهم إلى هذه المحاكاة أو تدفعهم إلى لون خاص من الأدب دوافع قهرية كما كان فى الغرب ، ولكنه حب التجديد ، والتقليد للأدب الغربى فحسب .

ولذلك رأينا من يقلد المدرسة الإبداعية (Romantisme) ، ومن يدعى أنه من المدرسة الواقعية (Realisme) ، ومن يحاول أن يكون من المدرسة الرمزية (Symbolisme) إلى آخر ما هنالك من مدارس .

وأدب هؤلاء المغرقين فى التجديد ، المغرمين بالتقاليد ، هو أدب غربى صرف ، جاء فى ثوب عربى ضعيف النسيج ، ملون بألوان صارخة يمجها الذوق العربى .

هذه الأنماط المختلفة من الأدباء ، وهذه الألوان المتباينة من الأدب ، فى عصر ازدحم بالعلوم والثقافات ، يجعل مهمة مؤرخ الأدب عسيرة فى تعرف طريقه : فى درسها وتقسيمها وحصرها ، وإصدار أحكام عامة عليها ، وتبيان كل مدرسة ، والفريق الذى ينتمى إليها فى كل بلاد العروبة ، ولا سيما والنهضة اليوم عامة ، وهناك عشرات من الأدباء اللامعين يستحقون الدراسة . ولا بد لمؤرخ الأدب كذلك من التعرض للعوامل السياسية والاجتماعية التى أثرت فى الأدب العربى الحديث ، وتتبع نمو هذا الأدب منذ عصر محمد على ، حين كان يحاول التخلص من القيود التى كبل بها فى عصور الانحطاط ، إلى أن قوى ، ووقف على قدميه حراً طليقاً ، ثم إلى أن صار مارداً عملاقاً فى جيلنا الحاضر .

وأشهد أن هذا العمل الضخم يحتاج إلى دراسات واسعة قبل أن يتم ويصير عملا تاريخياً علميا له قيمته : فمن دراسة لتأثر الشعر العربى الحديث بالثقافة الغربية من حيث الفكرة والخيال ، والغرض والصورة ، ومن دراسة للكلمات الدخيلة والمعربة التى استعملها الأدباء ، ومن دراسة لتطور القصة فى الأدب العربى قديماً وحديثاً ، ومن دراسة للأساليب الأدبية المتأثرة بالأساليب الغربية ، ومن دراسة لتطور النثر العربى ، وأدب المقالة ، إلى غير ذلك من الدراسات المنظمة المسهبة التى تأخذ جزءاً خاصاً من هذا العمل الضخم ، وتبحثه وتصدر عليه أحكاماً مدعومة بالأدلة والنماذج ، لتعين مؤرخ الأدب حين يتعرض إلى المدارس الأدبية فى العصر الحديث ، ورجال كل مدرسة .

ولست أزعم أننى ضليع بهذا العبء وحدى وأننى حين أقدم هذا الكتاب للقارىء العربى قمت بهذه الدراسات المستفيضة ، وانتهيت من الأحكام العامة التى تؤدى إليها هذه الدراسات . ولكن هذا الكتاب ليس إلا محاضرات ألقيتها على طلبة كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، حاولت أن أعرض عليهم فيها نماذج من هذه التيارات المتباينة فى الأدب الحديث ، وأسرد عليهم فيها كيف نما هذا الأدب وتطور ، فى إجمال واختصار .

وقد ألحوا على إلحاحاً شديداً فى أن أقدمه للمطبعة ، حتى ينتفعوا به وينتفع غيرهم فيما يزعمون ! ولقد ترددت طويلا قبل أن أستجيب لرغبتهم ، لاعتقادى أن هذا العمل يتطلب جهداً عنيفا ووقتاً طويلا ، وأن الأولى به أن يظل دراسة حتى تستوفى عدتها ، وتكمل أهبتها ، وتوضع فى قالبها على صورة كتاب .

فأنا لا أعفى كتابى هذا من التقصير ، وإذا لم يستوعب الأدب الحديث ومدارسه ، وكل الشخصيات الأدبية الجديرة بالدرس ، فإنى أول المعترفين بذلك ، والمعتذرين عن تقصيرهم ، والذى يشفع لى عند القراء أنها محاولة لدرس الأدب الحديث ؛ علّ فيهم من يكون أقوى منى مُنَّـة ، وأطول باعاً فيستوفى الموضوع ويلم بكل أطرافه ، أو يكون فيهم

من تستهويه ناحية خاصة ، أو أديب بعينه فيتخذه مجالا لدراسته ، وتزويد المكتبة العربية بها ، فيعين على تحديد معالم أدبنا المعاصر .

وبعد فإن المعاصرة حجاب ، وقد أتعرض فى كتابى هذا بالنقد لبعض الأحياء من الأدباء ، والتعريف بآثارهم الأدبية . وقد يكون فى كلامى مالا يروقهم ، أو يثقل عليهم ولكنى سألزم نفسى قول الحق مجرداً عن الأهواء والغايات ، ثم إنى مجتهد ، فإن أصبت فلى ثوابان ، وإلا فلن أعدم ثواب الاجتهاد ، ولن تحول المعاصرة بينى وبين تقرير الحقيقة ، والله الموفق للصواب .

عمر الدسوقى

مقدمة الطبعة السابعة

لم أزل منذ صدرت الطبعة الأولى لهذا الجزء من الكتاب عام ١٩٤٨ أواصل دراسة الأدب الحديث ، وأبحث عن مصادره ، وقد تسنى لى فى هذه الحقبة الاطلاع على كثير من المراجع ، وإنى أتقدم اليوم بالطبعة السابعة إلى قراء العربية وفيها زيادات كثيرة فى كل باب من أبواب الكتاب ، وإفاضة فى تراجم الشعراء والكتاب .

على أن هذه المرحلة من الأدب الحديث لا تزال فى حاجة إلى الدراسة ، واستقصاء المصادر ، حتى تظهر واضحة مجلوة لدارس الأدب ، فلست أزعم أن الكتاب قد بلغ الكمال أو قاربه ، وإنى سأظل عاكفاً على الاستزادة من الأدب الحديث حتى أبلغ بالكتاب الغاية التى أصبو إليها إن شاء الله .

ومما يحفزنى على ذلك ما وجدته فى جمهرة القراء من تشجيع ؛ حتى نفدت الطبعات السابقة فى أمد وجيز على الرغم مما تلاقيه الكتب الأدبية من انصراف عنها ، وزهد فيها . وإنى أقابل هذا التشجيع بالشكر راجيا أن يوفقنى الله إلى إرضاء العلم وجمهور الأدباء ، وطلاب البحث . والله الموفق للصواب .

عمر الدسوقى

الفصل الأول

البعث

– ١ –

قبيل البعث :

ظلت مصر وبلاد العروبة ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك ، وهى فى ظلام دامس ، وجهل فاضح ، تعانى مرارة الظلم ، وقسوة البغى .

قلب ما شئت من أسفار التاريخ فلن ترى إلا صفحات سوداء قاتمة ، تنبعث منها روائح الاستبداد والبطش ، وستسمع صراخ المظلومين يصم الآذان ، وتلمح دماء الفلاحين فى كل صقع تسيل تحت سياط الجباة ، وتتمثل لك بلاد العروبة تخنقها يد غاشمة أصابعها : الفقر والمرض ، والجهل ، والذلة ، والانحلال .

لم يكن لولاة الأتراك هم إلا استدرار الأموال بأية وسيلة ، غير مميزين صرخات الشعوب العربية تفاتاً ، وغير مهتمين بما يقاسونه من ضنك وبؤس وفاقة وجهل ، واشتد الخلف بين أمراء المماليك ، وسلبوا الوالى سلطته ، وشنوها حرباً شعواء كل على أخيه ، ينازعه السلطة والجاه . والضحية فى هذا النزاع كله هم أبناء البلاد ، فلا غرو إذا أقفرت من أهلها ، وقد جاء القرن التاسع عشر ، وسكان مصر أقل من ثلاثة ملايين ، أكثرهم من العرب المسلمين ، ويليهم الأقباط ثم الأتراك وكان الحاكم يفد من الأستانة ويقيم بالقلعة ويدعو للخليفة ، ويضرب باسمه النقود .

ولكن السلطة الفعلية كانت فى يد المماليك ، وهم أخلاط من الأتراك والشراكسة

وجميع ثروة البلاد وإداراتها فى أيديهم ، ولم يكن لهم عصبية ؛ لأنهم لم يتوارثو الملك إلا نادراً وإنما الغلبة للقوى ، فضربة موفقة من حسام أحدهم تـكسبه الصدارة بين أبناء جلدته ، ولم يكن حظه السعيد يغير من أخلاقه ، فهو فى منصب الوالى تتقمصه روح العبد الوضيع ، وليس له من هم إلا الاستيلاء على النساء والخيل والأموال ، وكان الفلاح المسكين يغزى وتنهب أمواله ، ولم يكن التاجر المصرى أو الأوربى الغريب بأحسن منه حالا[1] ، ولا ريب فى أن الحالة الاجتماعية والأدبية تتأثر إلى حد كبير بالحالة السياسية ؛ فرعية همل ، ورعاة مستبدون ، وهيهات أن يكون للأدب نصيب فى مثل هذه البيئة الجاهلة .

وقد زار (فولنى) الرحالة الفرنسى مصر ، وبـــلاد الشرق العربى وتركيا فى أخريات القرن الثامن عشر فراعه ما بها من جهل مطبق وفساد شائع ، وهو فى هذا يقول : « الجهل عام فى هذه البلاد ، وفى كل بلد تابع لتركيا ، وقد عم كل الطبقات ويتجلى فى كل العوامل الأدبية وفى الفنون الجميلة ، حتى الصناعات اليدوية تراها فى حالة بدائية ، ويندر أن تجد فى القاهرة من يصلح الساعة وإذا وجد فهو أجنبى » .

ويقول فى موضع آخر : « ولىَّ عصر الخلفاء وليس من الأتراك أو العرب اليوم علماء فى الرياضيات أو الفلك ، أو الموسيقى أو الطب ، ويندر فيهم من يحسن الحجامة ، ويستخدمون النار فى الـكى ، وإذا عثروا بمتطبب أجنبى عدوه من آلهة الطب ؛ وصار علم الفلك والنجوم شعوذة وتنجيما ، وإذا قيل لعلمائهم ورهبانهم إن الأرض تدور عدوا ذلك كفراً ، لأنه — فى زعمهم — يخالف كتب الديانات » .

ولم تـكن تركيا أحسن حالا من البلاد الخاضعة لسلطانها ، وحسبك أنه حينما أراد بعض النابهين من الأتراك فى القرن الثامن عشر[2] إدخال المطبعة لأول مرة فى تركيا ،

---

(1) The Begining of the Egyptian question and the Rise of Mohamed Ali by Prof Shafik Gherbal. p. 2.

(٢) هو محمد جلبى سفير الدولة العثمانية بباريس .

وجد من ولاة الأمور ، وجمهور الشعب عنتاً وإرهاقاً ، واضطر إلى استصدار فتوى شرعية بعد أن بذل إبراهيم بك صهر السلطان مجهوداً كبيراً ، وقد سمحت الفتوى بطبع الكتب غير الدينية ، ثم أفتى علماء الشرع بعد ذلك — حين ظهرت فائدة المطبعة — بطبع كتب الدين اعتماداً على أن الأمور بمقاصدها » .

وقد حرم الأتراك مصر أغلى كنوزها فنقلوا أكثر الكتب التى كانت بخزائن المدارس إلى بلادهم ، ثم نقلوا كثيراً من العلماء ، والأدباء ، والأمراء والمهندسين ، والوارقين ، وأرباب الحرف ، وقد ذكر ابن إياس أسماء كثير من هؤلاء ، وقال إنهم يبلغون ألفاً وثمانمائة ، وصادفهم النحس فغرقت بهم بعض السفن التى كانت تقلهم فمات كثير منهم ، مع أن ابن إياس[1] ، أرخ لمصر حتى أوائل الاحتلال العثمانى ، ولم يشهد الاحتلال فى أوج جبروته ، وما جره على البلاد من نكبات . وكان من نتائج هذا الاحتلال كذلك أن قلت أموال الأوقاف التى كانت محبوسة على العلماء وطلبة العلم ، فتفرق الطلاب ، وانفضت سوق العلم ولم يبق منه إلا ذماء يسير بالأزهر ، ومن البديهى أن اللغة العربية لم تجد فى هذا العصر المظلم من يشد أزرها ، ويثيب الشعراء والكتاب المحتفين بها ؛ لأن اللغة التركية طغت وصارت اللغة الرسمية فى الدواوين . وفشت على ألسنة الناس ، ولأن الحكام لا يفهمون العربية ولا يقدرونها قدرها ، ولا يميزون بين الجيد والغث من الكلام حتى يلجأ إليهم الشعراء مادحين .

ولم يعد فى استطاعة كثير من الكتاب أن يسلموا من اللحن الفاحش ، أو يأتوا بالمفهوم المقبول ، بل عز عليهم اللفظ الجزل والأسلوب القوى ، فلجئوا للزخرف والمحسنات يخفون بها عوار كلامهم ، وقد أكثروا من هذه الحلى اللفظية حتى استغلق الكلام .

---

(١) هو ابن إياس الجركسى الحنفى من رجال القرن التاسع والعاشر للهجرة ، وله كتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » دون فيه تاريخ مصر حتى سنة ٩٢٨هـ ١٥٢١م ولغته ضعيفة أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى .

وأتوا بالغث السمج الذى إن حسن فيه شىء كان سرقة واغتصابا من آثار من سبقوهم من الكتاب .

وحسبنا أن نقدم بعض نماذج دليلا على ما وصلت إليه اللغة وآدابها نثراً ونظماً من الركة والضعف .

(١) قال عبد الوهاب الحلبى فى رسالة إلى الشهاب الخفاجى :

« لقد طفحت أفئدةُ العلماء بشراً ، وارتاحت أسرارُ الكاتبين سراً وجهراً ، وأفعمت من المسرة صدورُ الصدور ، وطارت الفضائل بأجنحة السرور ، بيُمن قدوم من اخضرّت رياضُ التحقيق بإقدامه ، وغرقت بحار التدقيق من سحائب أقلامه »

(٢) قال عبد الرحمن الجبرتى من النثر المرسل مبيناً نشأة مدرسة الهندسة فى عهد محمد على .

« لما رغب الباشا فى إنشاء محل لمعرفة علم الحساب والهندسة والمساحة ، تعين الترجم رئيساً ومعلماً لمن يكون متعلماً بذلك المكتب ، وذلك أنه تداخل بتحيلاته لتعليم مماليك الباشا الكتابة والحساب ونحو ذلك . ورتب له خروجاً وشهريا ، ونجب تحت يده المماليك فى معرفة الحسابيات ونحوها ، وأعجب الباشا ذلك فذاكره وحسن له بأن يفرد مكاناً للتعليم ويضم إلى مماليكه من يريد التعليم من أولاد الناس ، فأمر بإنشاء ذلك المكتب ، وأحضر له أشياء من الآت الهندسة والمساحة والهيئة الفلكية من بلاد الإنكليز وغيرهم» .

(٣) ولم يكن الشعر — إذا صح أن نسميه شعراً — أرقى حالا من النثر وإنما كان صناعة لفظية غثة .

وهاك مثلا مما قاله عبد الله الشبراوى[١] يرثى أحمد الدلنجاوى المتوفى سنة ١١٢٣ هـ :

---

(١) كان عبد الله الشبراوى من أكابر شيوخ الأزهر ، واشتهر بقوله هذا النوع من الشعر وتوفى سنة ١١٧٢ هـ .

سألتُ الشعر هل لك من صديق وقد سكن الدانجاوىُّ لحده
فصاح وخر مغشياً عليه وأصبح ساكناً فى القبر عنده
فقلت لمن أراد الشعر أقصر فقد أرختُ مات الشعر بعده
٨١ ٦٠ ٤٤١

ومن ذلك قول الشهاب الخفاجى[1] :

فَدَيتك يا من بالشجاعة يرتدى وليس لغير السُّمْر فى الحرب يَغرِسُ
فإنْ عشقَ الناس المها وعيونَها من الدَّل فى روض المحاسن تَنمِسُ
فَدِرْعُكَ قدْ ضمَّتك ضمَّة عاشق وصارت جميعاً أعيناً لك تَحرُسُ

ومن هذه النماذج المتقدمة للأدب قبيل النهضة ، ندرك كيف كان النهوض صعباً بطيئاً ، يحتاج إلى عناء طويل ، وصبر كثير ، وزمن مديد ليبلغ أشده ويؤتى أكله .

— ٢ —

البعث :

هبت مصر من سباتها العميق فزعة مذعورة حين دوَّت فى آفاقها مدافع نابليون سنة ١٧٩٨ م وأخذت تقلب الطرف دهشة فى هذه الجيوش العجيبة ، والوجوه الغريبة ، فكان ذلك أول عهدها بالفرنجة منذ عصر صلاح الدين الأيوبى . ولكن شتان بين العهدين ، ففى الأول كانت قوية عزيزة لا تزال فيها أثارة من علم وأدب ، وكانت أوربا

(١) هو أحمد بن محمد بن شهاب الدين الخفاجى المصرى ولد بسرياقوس وتلقى دروسه بالقاهرة ثم رحل مع أبيه إلى الحرمين ، ثم الأستانة ، ثم عين قاضياً لعسكر بمصر ، ثم استقال وسافر إلى دمشق فحلب فالأستانة وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ ، ومن أشهر مؤلفاته « ريحانة الألباب » يشتمل على تراجم أدباء عصره ، ثم « شفاء الغليل عما فى لغة العرب من الدخيل » .

لاتزال تتحسس طريقها نحو النور . فاقتبست من مهد العروبة وأفادت علما وحضارة ، وأخذت ترق صُعُداً فى سلم المدنية بخطوات ثابتة سريعة ، بينما أخذت مصر تهوى وتنحدر رويدا رويدا ويتراكم عليها الجهل والغفلة حتى جاءنا (نابليون) وهى فى الدرك الأسفل .

اصطحب (نابليون) معه كل عدد الاستعمار والاستغلال والإيقاظ . وكانت دهشة المصريين جِدّ عظيمة مما رأوا من مظاهر هذه المدنية الجديدة ، إذ أنشأ نابليون مسرحا للتمثيل كانوا يمثلون فيه رواية فرنسية كل عشر ليال ، ومدارس لأولاد الفرنسيين ، وجريدتين ، ومصانع ، ومعملا للورق ، وأسّس مراصد فلكية ، وأماكن للابحاث الرياضية ، والنقش والتصوير فى حارة الناصرية ، وأسس مكتبة عامة وقد جمعت بعض كتبها من المساجد والأضرحة ، وفيها كثير من الكتب الفرنسيه التى أحضرتها الحملة معها ليفد إليها كل من يريد المطالعة ، وكان القائمون بأمرها يرحبون بمن يدخلها من المصريين . وكان بها عدد كبير من الكتب العربية ، وأنشأ المجمع العلمى المصرى على نظام المجمع العلمى الفرنسى فى أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وكان من أغراضه :

١ — نشر المدنية وبعث العلوم والمعارف بمصر .

٢ — دراسة المسائل والأبحاث التاريخية والطبيعية والصناعية ، ونشر هذه الأبحاث فى مجلة المجمع التى تنشأ لهذا الغرض .

٣ — إبداء رأيه فى الأمور التى تستشيره فيها الحكومة .

وكان المجمع يتألف من أربعة أقسام : قسم الرياضيات ، وقسم الطبيعيات ، وقسم الاقتصاد السياسى ، وقسم الآداب والفنون ، ويتألف كل قسم من اثنى عشر عضوا .

وقد أفاد هذا المجمع مصر والتاريخ بآثاره وأعمال رجاله وصارت أبحاث أعضائه هى النواة الأولى لكل بحث خاص بمصر ، ولا بدع إذا ظل المجمع العلمى هو الأثر الباقى

حتى اليوم من آثار حملة نابليون ، وذلك لجليل فائدته . وهذا ما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن حملة نابليون على مصر كانت علمية أكثر منها حربية[١] .

وبذل الفرنسيون غاية جهدهم فى تقريب المصريين إليهم ، وترغيبهم فى أسباب الحضارة وفى تاريخ الجبرتى وصف مستفيض لكل هذا ، حتى موائد الفرنسيين ، وكيف يأكلون ويشربون ويلبسون ، وما شاهده من سائر أعمالهم العلمية والكيميائية ، وكتبهم المصورة وأدواتهم وهو يمثل بدهشته هذه حال كل عربى فى أيامه . ولقد ظن كثير ممن شاهدوا التجارب العلمية التى أجراها الفرنسيون فى معاملهم سحراً[٢] بيد أن كل هذا ذهب بذهابهم سنة ١٨٠١م .

كانت حملة نابليون هزة عنيفة لمصر ، أيقظتها من سباتها الطويل العميق وبينت لها أنها تعيش فى عالم آخر ، وأن الدنيا تسير وأهلها واقفون غارقون فى أحلامهم يجترون ماضيهم ، ولا يدركون مساويهم ، ويظنون أنهم الناس وأن غيرهم لا شىء .

وقد نظم نابليون شئون مصر الداخلية تنظيماً حسناً ، يشهد له بالنبوغ الإدارى ، فوق نبوغه الحربى ، على الرغم من قصر المدة التى أقامها بمصر ، فأنشأ الدواوين ، فى مصر والمدن الكبرى وانتخب لها أكفاء المصريين ، واختار من بين المصريين المسيحيين رجال المالية والإدارة ، بيد أن شراسة رجال الحملة ، واستهتارهم بالشعب المصرى ، ودينه وتقاليده ، وانتهاكهم حرمات الأهالى جهاراً ونهبهم القرى الآمنة ، وإفزاع

---

(١) تاريخ مصر السياسى لمحمد رفعت ج ١ ص ٣٩ .

(٢) وصف الجبرتى بعض ما رآه فى أحد هذه المعامل بقوله : ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، نصب منها شيئاً فى كاس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فعلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس وصار حجراً أصفر ، فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق . وبأخرى فجمد حجراً ياقوتيا » .

أهلها ، وفرض الضرائب على الأوقاف الخيرية التى كان يصرف ريعها على المساجد وطلاب العلم ، وفرضها كذلك على المنازل . جعل كل قلوب المصريين تنفر من نابليون وإصلاحاته ، وعلمه ، وتنظر إليه نظرة الغاصب المستبد ، ولقد ثار المصريون فى أكتوبر سنة ١٧٩٨ ؛ فأخمد ثورتهم فى قسوة عارمة ، وعنف وغلظة ، وانتهك حرمة المساجد الإسلامية[١] وعبثاً حاول بعد ذلك أن يتألف قلوبهم أو يستميلهم إلى المدنية الغربية . وإن كلفوا بها بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر ، واتخذوا ما وضعه لهم أساساً للاصلاح الداخلى[٢] .

وفى ذلك يقول المؤرخ الإنجليزى الجود (Elgood) .

«لقد ترك الاحتلال الفرنسى فى مصر أثراً لا يمحى ، فقد ظل المصريون يعجبون بنابليون بعد خروجه من ديارهم وظلت طرق الإدارة الفرنسية مهيمنة على حكومة مصر ، وظلت عادات التفكير الفرنسية تسيطر على الطبقة المستنيرة بمصر . وإن ما خلفته الحملة الفرنسية فى مصر خلال ثلاثة أعوام لاغير ، لمن أضخم ما يتسنى إنجازه فى هذا الأمد الوجيز[٣] » .

ثم أتيحت لمصر الفرصة لكى تنهض وتتبوأ مركزها بين أمم العالم المتمدين باستيلاء محمد على عرش مصر ، وحاول أن ينشىء دولة قوية خالصة لنفسه ولذريته من بعده فأفادت مصر من مجهوداته فى هذا السبيل وإن حكمها حكما استبداديا خالصاً .

كان محمد على طموحاً ، يريد أن يرى مصر ما بين طرفه عين وانتباهتها لا تقل فى حضارتها وقوتها عن دول أوربا فوضع أسس نهضة شاملة : فى الجيش ، والصناعة ، والزراعة ، والتعليم ، والإدارة ، حتى يكون البعث عاماً ، يدفع بعضه بعضا ، ولا يعنينا فى مقامنا هذا إلا ما يمس اللغة والأدب .

---

(1) Professor Shafık Gherbal. Ibid. pp. 73 - 5.

(٢) لمحة عامة إلى مصر لكلوت بك ج ٢ ، ص ٢٥٥ — ٢٦٨ .

(3) The Transit of Egypt, by P. G. Elgood, p. 45 Edward & Co. London 1928.

وقد وجد محمد على أن خير وسيلة تنهض بالشعب المصرى وترفعه إلى مستوى الأمم الناهضة الاهتمام بالتعليم ، وقد سلك فى سبيل تعليم الشعب كل الطرق الناجحة : فمن بعثات وطباعة ، وفتح مدارس ، ونقل آثار الأمم الغربية فى العلوم والآداب ، وتأسيس الصحافة لتنير الحياة أمام الشعب .

البعثات :

جاء محمد على إلى مصر جنديا فى الحملة التى اشتركت فى إخراج الفرنسيين منها سنة ١٨٠١ م ، ولم يمض عليه أربع سنوات حتى استولى على مصر سنة ١٨٠٥ ؛ بعد أن ثار المصريون بقيادة الزعيم العالم السيد عمر مكرم على واليهم التركى خورشيد لعسفه واستبداده فقرروا عزله ، وكان محمد على قد تقرب إليهم وأظهر حرصاً على استرضائهم والاستجابة لكل ما يأمرون به ، والخضوع لهم ، فاغتروا بمظهره وخداعه ، وبايعوه بالولاية وعلى رأسهم زعيم مصر الشعبى السيد عمر مكرم ، ولكنه ما لبث أن تنكر لهذا الزعيم الذى وضع بين يديه عرش مصر ، خوفاً من منافسته وتخلصاً من رقابته وحسداً لمكانته فنفاه . ورأى كذلك أنه لن يستقيم له الأمر حتى يقضى على المماليك لتمردهم وكثرة شغبهم ، فأبادهم[١] ؛ وأنه لابد له من جيش قوى يُقر به الأمنَ ويصون هيبةَ الحُكم فى الداخل ، ويدفع به غارة المغيرين من الخارج ، فانتدب طائفة من أساتذة الفنون العسكرية بأوربا ، وأرسلهم مع مماليكه إلى أطراف الصعيد ليدربوهم هناك .

وفى سنة ١٨١٥ أسس مدرسة حربية إعدادية ، واتخذ لها قصر ابن العينى مكاناً ، وكان كل تلامذتها فى أول الأمر من غير المصريين إلا أنهم لم ينجحوا فالتفت إلى المصريين ، ونقلها إلى أبى زعبل ، وأكثر بها من الأساتذة الفرنسيين ؛ وتعجلا للفائدة

---

(١) احتال عليهم ودعاهم الى وليمة بالقلعة (وكانت مقر الوالى حينذاك) ثم أوقع بهم بعد أن أمنوا ، فقضى عليهم وكان ذلك فى سنة ١٢٢٦ هـ ١٨١١ م .

كان قد سبق وأرسل فى سنة ١٨١٣ طائفة من شبان المماليك لدراسة الفنون العسكرية بايطاليـــا ، وفى سنة ١٨١٨ أرسل بعثة أخرى إلى إنجلترا لدراسة علم الحيل (الميكانيكا) وغيرها .

ورأى محمد على أن الجيش فى حاجة إلى أطباء يأسون جراحات الجند ، ويقاومون الأوبئة ، ويُعْنَوْن بالمرضى ، وأن الطب لا أثر له ألبته ، فخاصة المصريين كانوا يعتمدون فى هذا على المأثور من نُسخ الأدوية فى الكتب القديمة ، وعلى ما تمخضت عنه التجارب ، ومنها الكى والحجامة ، وأما الدهماء فكانوا فى عامة شأنهم يعوذون بمدعى الطب من الدجالين والمشعوذين والسحرة ، أو يقنعون من طلب الاستشفاء بزيارة الأضرحة . فأنشأ فى سنة ١٨٢٦ مدرسة للطب فى جهة أبى زعبل ، وأقام بجوارها مستشفى كبيراً لمعالجة المرضى ، ولتمرين الطلبة ، واستقدم لها أساتذة من الغرب ؛ وجعل رياستها إلى الدكتور (كلوت بك الفرنسى) . وكان الطلاب فى هذه المدرسة من المصريين وغيرهم ، واختير كثير من أولئك من بين نوابغ طلاب الأزهر ، ثم نقلت هذه المدرسة إلى قصر ابن العينى فى سنة ١٨٣٨ .

وقد كان لمدرسة الطب أثر لا ينكر فى بعث اللغة العربية والنهوض بها ، واتصالها بالعلم الحديث ؛ لأن فصيح اللغة فوق أنه قد غُمَّ على الناس وعلى المصريين بخاصة من عهد بعيد ، وأن آدابها ومظاهر بلاغتها قد دبَّ إليها الضعف والانحلال إلى حد كبير ، فإنها قد تخلَّفت عن متابعته العلم حِقَباً طويلة ؛ فلما استوى العلم وأدرك ، إذا هو فى واد ، وإذا حظ الناس من لغة العرب فى واد آخر . وحين فوجئت مصر بهذه العلوم التى حذقها الغرب منذ عدة قرون تشايعها الألفاظ هناك ، وتدارجها الصيغ ، وتطبع لها المصطلحات التى تهيئها الهيئات العلمية المنظمة تبينَ العُسر أشدَّ العسر فى تعليم هذه العلوم الحديثة لطلاب يجهلون لغات أهلها ، وخاصة من معلمين لا يعرفون العربية ، ولو عرفوها ما تهيأ لهم أن يدرسوا بها لعجزها عن أداء كثير ، والقليل مما تهيأ لهم أن تؤديه ليس فى متناول

اليد ، بل إنه يحتاج إلى كثرة مراجعة ، وشدة تنقيب ، ويحتاج إلى علماء عندهم شغف بالاطلاع ورغبة فى البحث ، وجلد على العمل ؛ لهذا دعت الضرورة أول الأمر أن يقام بين الأساتذة وتلاميذهم جماعة من المترجمين يستمعون الدرس فى اللغات الأجنبية ، ثم يؤدونه إلى هؤلاء بالعربية ، وكان هؤلاء المترجمون من المغاربة والسوريين والأرمن وغيرهم .

ولقد عانوا كثيراً فى القيام بهذه المهمة الشاقة ، ولكن كان عملهم هذا أول دعامة فى صرح النهضة الحديثة ، فلقد حفزهم ذلك إلى مراجعة معجمات اللغة ، والكتب الفنية القديمة كمفردات ابن البيطار ، وقانون ابن سينا ، وكليات ابن رشد ، وغيرها من الكتب العربية لاستخراج المصطلحات العلمية أو لصياغة ما يؤدى مطالب العلم الحديث ، إذا عجز القديم عن أدائه ، وإذا كانت قد غلبتهم الألفاظ الأجنبية فى كثير من الأحيان ، ففضلهم فى عقد الصلة بين الشرق والغرب لا يجحد .

رأى محمد على أن تشمل نهضته جميع نواحى الحياة ؛ فأكثر من إنشاء المدارس العالية والابتدائية ، وقد بدأ بالمدارس العالية ، وكان على حق فيما فعل ؛ حتى يجد بجانبه جماعة من المتخصصين فى المواد المختلفة يشرفون على مراحل التعليم الأخرى ، ويسيرون بالنهضة سريعاً ، فأسس مدرسة للصيدلة ، وأخرى للهندسة فى القلعة ثم نقلت إلى بولاق ، ومدرسة للولادة والتمريض . ورأى أن الحاجة ماسة إلى أساتذة مختصين عالمين بعلوم الغرب وثقافته ، فجلب الأساتذة من فرنسا فى كل فن من الفنون ، ولكنه أدرك أن النهضة الحقة لاتتم إلا على يد أبناء البلاد ، فأكثر من البعثات ، وفى سنة ١٨٢٦ أرسل بعثة إلى فرنسا عدتها أربعة وأربعون طالباً ، ذكر أسماءهم (المسيو جومار)[١] — وقد عهد إليه محمد على بالإشراف على بعثاته — فى المجلة الأسيوية ، Journal Asiatique[٢]

---

(١) كان مهندساً فى الجيش الفرنسى بمصر وعضواً فى المجمع العلمى أيام حملة نابليون .

(٢) عدد أغسطس سنة ١٨٢٨ ص ١٠٩ .

وقد تخصصوا فى شتى العلوم والفنون : من حقوق ، وعلوم سياسية ، وهندسة حربية ، وطب ، وزراعة ، وتاريخ طبيعى ، وميكانيكا ، وكيمياء ، وطباعة ، وحفر ، وغير ذلك مما استلزمته النهضة الحديثة ، ومن أشهرهم وأعظمهم أثراً إمام البعثة الشيخ رفاعة الطهطاوى . وسنترجم له فيما بعد لجليل قدره وعظم أياديه على الترجمة والنهضة الأدبية .

ثم توالت البعثات ، ومن أشهرها البعثة الطبية الكبرى فى سنة ١٨٣٢ ، وقد اختير طلبتها من نابهى مدرسة الطب المصرية ، ومن نوابغ رجالها محمد على البقلى . وفى سنة ١٨٤٤ أرسلت بعثة ضمت خمسة من أمراء أسرة محمد على ، ومنهم الأمير إسماعيل[١] ، ولذا سميت ببعثة الأنجال ، وهى أكبر بعثات محمد على وآخر بعثاته الكبرى ، وقد اختار تلامذتها سليمان باشا الفرنساوى من نوابغ تلاميذ المدارس المصرية ، ومن أجل هذه البعثة فتح محمد على مدرسة بباريس . ومن أشهر رجالها على مبارك باشا ، وحسن أفلاطون باشا ، ومحمد عارف باشا ، ومحمد شريف باشا .

وقد أرسل محمد على إحدى عشرة بعثة آخرها سنة ١٨٤٧ ، وكان شديد العناية بأعضاء البعثات يتقصى أنباءهم ، ويشرف على دراستهم باهتمام ، ويكتب لهم من حين لآخر رسائل يستحثهم فيها على العمل والاجتهاد ، وينبههم إلى واجباتهم ؛ وذلك لشدة حاجته فى نهضته إلى من يقف بجانبه ، وينفذ مشروعاته الضخمة ، وقد ذكر رفاعة الطهطاوى نموذجا من الرسائل التى وجهها محمد على إلى طلبة البعثات ، يوبخهم فيها على تقصيرهم ، ويحثهم على الاجتهاد ، ويتعجلهم فى قطف ثمار تحصيلهم[٢] .

كان لهذه البعثات كلها أثر بالغ فى تقدم مصر ونهضتها ، وإرسال نور العلم دافقاً قوياً فى ربوعها ، كما كان لها أعظم الفضل فى إحياء اللغة ، وجعلها مسايرة للعلم الحديث ،

---

(١) الخديوى إسماعيل فيما بعد

(٢) راجع الرسالة فى تخليص الإبريز فى تلخيص باريز لرفاعة بك ص ١٥١ ، وفى تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى ج ٣ ص ٤٥٥ .

بما ترجم أعضاؤها من كتب وماأدخلوه من مصطلحات ، وما ألفوه فى شتى نواحى العلم .

الترجمة :

اقتضت النهضة أن تنقل كنوز الغرب إلى اللغة العربية فأسست فى سنة ١٨٣٦ مدرسة الإدارة والألسن ، وعهد بالإشراف عليها لرفاعة الطهطاوى . ولما كان تاريخها مرتبطاً به ، ونهضة الترجمة فى عصر محمد على وخلفائه ثمرة جده وكده ، رأينا أن نترجم له ترجمة موجزة لحياته حياة مدرسة الإدارة والألسن ؛ لأنها وجدت بفضله ، وانتهت بخروجه منها .

رفاعة الطهطاوى

١٨٠١ - ١٨٧٣

هو أمام النهضة العلمية فى مصر الحديثة غير مدافع ، وهبه الله لمصر كى يزودها بنور العلم . فكان مشعلا ساطعاً بدّد الجهل وسُدْفته ، وأنار الطريق لآلاف العقول والقلوب ووضع اللبنات الأولى القوية فى صرح ثقافتنا الحديثة .

أوتى القلب الذكىّ ، والعقل الصافى ، والنشاط الموفور ، والبصيرة النّفاذَة ، والعزيمة المبرمة فما أضاع ساعة منذ وضع رجليه على سلّم الباخرة التى أقلته إلى فرنسا إلا وأمامه الهدف الذى رسمه لنفسه ولوطنه ، وظل هذا دأبه إلى أن انطفأ مشعل حياته .

هو مصرى صميم ، من أقصى الصعيد ، يتصل نسبه من جهة أبية بسيدنا الحسين رضى الله عنه وقد أشار إلى هذا النسب بقوله :

حسينى السلالة قاسمىّ بطهطا معشرى وبها مهادى[1]

ومن جهة أمه بالأنصار الخزرجية ، ولد فى طهطا ، وكان أجداده من ذوى اليسار. وممن تولوا مناصب القضاء بمصر ، ثم أخنى عليهم الدهر ، وحينما ولد كانت أسرته فى عسر ، فنشأ نشأة معتادة بين أبوين فقيرين ، وقرأ القرآن ، وتلقى العلوم الدينية ، كما يتلقاها عامة طلبة العلم فى عصره ، ودخل الأزهر كما دخله غيره ، وصار من علمائه كما صار كثيرون ، ولكن ذكاءه وحبه للعلم ، وإقباله على التحصيل لفت إليه نظر الشيخ حسن العطار

(١) قاسمى : نسبة إلى أحد أجداده أبى القاسم الحسينى وهو من أولياء طهطا المشهورين . راجع فى نسبه الخطط التوفيقية لعلى مبارك ج ١٣ ص ٥١ — ٥٦ .

شيخ الجامع الأزهر فى ذلك الوقت ، وكان الشيخ العطار من أفذاذ عصره فى العلم والأدب والفنون الحديثة ، فاقتدى به تلميذه الشيخ رفاعة ، فقرأ كثيراً من كتب الأدب ، ومهر فى فنونه وهو بعد فى الأزهر : ثم تولى التدريس سنتين ظهر فيهما استعداده للتعليم والتثقيف إذ أحبه تلاميذه حباً جماً وتعلقوا به وبدروسه ويقول صالح بك مجدى فى هذا[1] .

« وكان رحمه الله حسن الإلقاء بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه ، وقد اشتغل فى الجامع الأزهر بتدريس كتب شتى : فى الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض وغير ذلك ، وكان درسه غاصاً بالجم الغفير من الطلبة وما منهم إلا من استفاد منه ، وبرع فى جميع ما أخذوه عنه ، لما علمت من أنه كان حسن الأسلوب سهل التعبير ، مدققاً ، محققاً ، قادراً على الإفصاح بطرق مختلفة بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا تعب ، ولا كد ولا نصب » .

ثم عين واعظاً وإماماً لإحدى فرق الجيش فى سنة ١٨٢٤ ، فاعتاد حياة جديدة عنوانها النظام والطاعة ، ومحبة الوطن والدفاع عنه ، ومواجهة الأخطار ، وقد كان لذلك أثر كبير فى حياته ، فعاش محباً للنظام ، فى كل عمل تولاه : فى تلقى العلوم ، وفى التأليف والتعريب وفى حسن تنظيم المعاهد التى تولى إدارتها ، شغوفاً بوطنه مخلصاً له طول حياته .

وكان من حسن حظه وحظ مصر أن طلب محمد على إلى الشيخ العطار أن يختار له من علماء الأزهر إماماً للبعثة الأولى ، يرى فيه اللياقة لتلك الوظيفة[2] . فوقع الاختيار على الشيخ رفاعة .

ولم يكن مطلوباً من إمام البعثة أن يحصل شيئاً من علوم الفرنسيين ، ولكن حسبه أن يؤدى مهمته ، من وعظ الطلاب ، وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم ، ونصحهم إذا ضلت بهم

---

(١) فى رسالته (حلية الزمن بمناقب خادم الوطن) وهى ترجمة حياة رفاعة بك . كتبها صالح مجدى أحد تلاميذه

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤ .

السبل ، وإمامتهم حين الصلاة ، ولـكن الشيخ رفاعة كان ذا نفس طموح ، فما أن أقامت به وبصحبه الباخرة من مصر حتى أبتدأ يتعلم الفرنسية ، فأتقنها فى ثلاث سنوات ، واتصل بكثير من العلماء المستشرقين ، فأجلوه وأكبروه ، ومنهم المستشرق المشهور (البارون دى ساسى)[1] . و (كوسان دى برسفال)[2] .

واهتم فى دراسته بالتاريخ والجغرافية ، والفلسفة والأدب ، فقرأ (فولتير) و (روسو) و (وراسين) ، (ومونتسكيو) وغيرهم ، وقرأ بعض الـكتب فى علم المعادن وفنون الحرب والرياضيات . ومالت نفسه وهو بباريس إلى التأليف والتعريب ، فوضع رحلته وسماها : (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) ، وقد كان أستاذه العطار قد أوحى إليه بذلك ، وعرب نحو اثنتى عشرة رسالة فى مختلف الفنون والعلوم من هندسة ومعادن وطبيعة وتاريخ وتقويم وميثولوجيا وعلم الصحة والأخلاق . وترجم كذلك فى باريس كتابه (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) .

وهو أول من كتب من المصريين فى المباحث الدستورية ، مع أن هذه المباحث كانت مجهولة فى تاريخ مصر القومى ، وذلك أنه درس فى أثناء إقامته بباريس نظام الحـكم فى فرنسا ؛ وعرب فى كتابه (تخليص الأبريز) دستور فرنسا فى ذلك الحين ، وما تضمنه من نظام المجلسين واختيار أعضائهما ، وحقوق الأمة أفراداً وجماعات ، ولم يكن يكتفى بالتعريب ، بل كان يعلق بما يدل على سعة فهم وصحة حكم ، وميل فطرى للنظم الحرة[3]

---

(١) ولد بباريس سنة ١٧٥٨ وتوفى سنة ١٨٣٨ راجع آثاره وخدماته للأدب العربى فى كتاب (المستشرقون) لنجيب العقيقى ص ٣٧ (٢) ولد سنة ١٧٥٩ وتوفى سنة ١٨٥٣ راجع (المستشرقون) ص ٢٦

(٣) من ذلك تعليقه على موقف الملك شارل العاشر لما قامت الثورة فى باريس قال : (فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك وهو خارج ، أمر بجعل المدينة محاصرة حكما ، وجعل قائد العسكر أميرا من أعداء الفرنساوية ، مشهوراً عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ، مع أن هذا خلاف الـكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأى ؛ فإنه لو كان كذلك لأظهر أمارات العفو والسماح ، فإن عفو الملك أبقى للملك ، ولما ولى على عساكره إلا جماعة عقلاء ، أحباباً له وللرعية ، غير مبغوضين ولا أعداء ، مع أن استصلاح العدو أحزم من استهلاكه ، ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحلم وبالحياء ... والرفق بالمذنب والإغضاء
إن لم تقل عثرة من يقال ... يوشك أن يصيبك الجهال

وكان الشيخ رفاعة فى باريس موضع إعجاب أساتذته وإكبارهم ، لتمام رجولته ، ونضج عقله ، وحسن تصرفه ، وشدة إقباله على الدرس والتحصيل ، والعمل على نفع أمته ، وفيه يقول المستشرق الفرنسى المشهور (سلفستردى ساسى) : إن الشيخ رفاعة « أحسن صرف زمنه مدة إقامته بفرنسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة ، وتمكن منها كل التمكن ، حتى تأهل لأن يكون نافعاً بلاده ، . . . وله عندى مزية عظيمة ، ومحبة جسيمة[١] » .

وذكر السيد صالح مجدى تلميذه ومؤرخ حياته فى كتاب (حلية الزمن) : « وقال لى » من أثق به ممن كانوا معه بباريس : « إنه كان يؤدى الفرائض والسنن ، ولم يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ، وواظب على تلاوة القرآن[٢] » .

كان رفاعة قبل أن يغادر مصر يظن أن العلم كله قد جمع فى الأزهر ، وأنه سيحرم الاعتراف من هذا النبع العذب ، وفى ذلك يقول :

ألا من يغب عن أزهر العلم فلينح على بعد دار العلم والعلماء
ففيه بحور طاميات ، وغيره بحور عروض لا تجود بماء[٣]

ولكن يتبين له بعد أن ذهب إلى باريس ، واتصل بثقافة الغرب أن وطنه فى حاجة ملحة إلى معرفة هذه الثقافة الجديدة ليرقى وينهض ، وأنه لا يكفيه علم الأزهر ، ولذلك جد فى الترجمة ، حتى ليخيل للمرء أنه يريد أن ينقل كل شىء إلى اللغة العربية وإلى مصر ، ولا بدع فكل شىء أمام ناظريه جديد ، وعلى عقله غريب .

ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٣١ ، بعد ست سنوات قضاها مكباً على الدرس والتحصيل يطالع ، ويقرأ ، ويكتب ويعرب ، ويجالس العلماء ويساجلهم البحث والمناظرة ، وينعم

---

(١) تخليص الإبريز ص ١٥٤ (٢) حلية الزمن ص ١٠ (٣) المصدر السابق ص ٩٧

النظر فى أحوال الشعوب الأوربية وتاريخها ، وأسباب حضارتها وتقدمها ، واستقر عزمه وهو فى باريس على أن يخدم بلاده عن طريق نقل العلوم الغربية إلى مواطنيه ، فتتسع أفكارهم وتنمو مداركهم مقتفياً فى ذلك آثار الدولة العباسية ؛ إذ بدأت نهضة العلوم والمعارف فى عهدها بترجمة كتب اليونان إلى العربية .

ولقد بر بوعده فملأ البلاد علماً وحكمة ، وحمل نواة النهضة وخدمتها بتآليفه وتعاريبه وتلاميذه الذين تخرجوا على يديه فى مدرسة الألسن وغيرها .

أعماله بعد عودته :

لما رجع ولى منصب الترجمة ، وتدريس اللغة الفرنسية فى مدرسة الطب بأبى زعبل ، ثم انتقل إلى مدرسة المدفعية بطره ، وعهد إليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية ، ثم وقع وباء فى القاهرة اضطره إلى السفر لطهطا بلدته ، فمكث بها ستين يوما ، ترجم فى خلالها مجلداً من جغرافية (ملتبرون) Nalt Bron وعاد به إلى القاهرة ، وقدمه لمحمد على فأكرمه ورقاه .

عرف الشيخ رفاعة فى باريس مدرسة اللغات الشرقية ، التى أسست لدراسة لغات الاستشراق ، وكان يسميها فى كتابه مدرسة الألسن ، فوجب أن تؤسس فى مصر مدرسة للألسن تواجه مطالبها وتناسب أغراضها . ورأى أن أعضاء البعثات مهما كثر عددهم لن يقوموا بكل ما تتطلبه النهضة من جهود ، فلا بد من إيجاد طبقة من العلماء الأكفاء فى الآداب العربية ، واللغات الأجنبية ، ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب ، وليكونوا صلة بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية .

إننا بالبعثة ننقل بعض المصريين إلى أوربا ، وبهذه المدرسة ننقل علم أوروبا إلى مصر ؛ فاقترح الشيخ على محمد على إنشاء مدرسة الألسن ، وكان من مزايا محمد على أن يسر بالاقتراح

الجيد ، وينفذه فوراً ، فعهد إلى الشيخ رفاعة بوضع المشروع وتنفيذه ، وبذلك أنشئت مدرسة الألسن ، وكان مكانها (سراى الدفتردار) حيث كان فندق (شبرد القديم) وتقع بجوار قصر الألفى بك الذى أقام به نابليون ثم محمد على ، واختار لها الشيخ خمسين طالباً من نوابغ طلاب المكاتب المصرية . وفى هذه المدرسة التى تولى الشيخ نظارتها ظهر نبوغه عالمًا محققا ، ورئيساً قديراً ، ومعلما كفؤا ، و مربياً ممتازاً .

وكانت المدرسة كلية تدرس فيها آداب العربية ، واللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ، ثم الإيطالية والإنجليزية ، وعلوم التاريخ ، والجغرافية ، والشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية ؛ فكانت أشبه شيء بكلية للآداب والحقوق مجتمعتين . وكان نهج المدرسة فى الترجمة عملياً ومفيداً ، فلم يكن دروساً تكتب فى دفاتر وتهمل ، بل يمرن الطلبة على الترجمة فى كتب نافعة ، فإذا استغلقت عليهم جملة لجئوا إلى شيخهم يذللها لهم ، ثم عرضوا ما ترجموا على أستاذ اللغة العربية يصحح لهم لغتهم ، وخاصة الشيخ محمد قطة العدوى ، فقد كان ساعده الأيمن فى هذه المدرسة ، لما رزقه من موهبة جايلة فى التدريس بلغة سهلة ، وبعبارة فصيحة وقدرة فائقة على تصحيح عبارات الطلبة فيما يترجمون فإذا أتموا الكتاب أو الكتب روجعت ثم قدمت إلى المطبعة لتطبع ، فتكون أثراً خالداً[1] .

وأحيل على رفاعة بك مع إدارة المدرسة إدارة عدة معاهد : المدرسة التجهيزية ، ومعهد الفقه والشريعة الإسلامية ، ومعهد المحاسبة ، ومدرسة الإدارة الأفرنجية ، والتفتيش على

(١) يقول أحمد عبيد مترجم كتاب (الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر) « كنت تحت إرشاد مدير مدرسة الألسن السيد رفاعة ، فأجاد تربيتى كغيرى حق حسن حالى ، واجتهادى فى نيل المعالى بين أمثالى ، واقتضى رأيه المؤيد ، وحزمه المعضد ، أن أترجم كتاباً من كتب التاريخ فاختار ملكا من ملوك الإفرنج تعلو همته على المريخ ، وهو كتاب بطرس الأكبر ، وفضله أشهر من أن يذكر لمؤلفه الشهير المسمى (فولتير) الذى يعد بين أكابرهم أعظم حجة ، وإن كان عن الأديان بعيد المحجة فجاء التعريب بحمد الله على أحسن حال ، وأتم منوال ، وقد شرعت فى نقله من الفرنسية إلى العربية مع إعانته لى فى حل مشكلاته ، وما عسر على من غوامضه ومعضلاته ، وقد صرفت فى ترجمته على صعوبته الهمة وسهرت فى مطالعته وفهمه الليالى المدلهمة . . . الخ » .

مدارس الأقاليم ، وتحرير الوقائع المصرية ، وبعد سنوات تخرجت الدفعة الأولى فى مدرسة الألسن فتلقفتهم مصالح الدولة المختلفة . وابتدءوا يفيضون وأستاذهم على مصر من بحور الغرب وكنوز ثقافته ما كان دعامة لنهضتنا الحالية .

ظل الشيخ سبعة عشر عاما وهو دائب فى عمله لا يمل ولا يكل ، وفى كل آونة يضاف إليه عمل جديد يتقبله بصدر رحب وعزيمة قوية ، وكلما زاد اجتهاده ونتاجه زاده أولو الأمر مكافأة وتقديراً فمنحه محمد على رتبة (أميرالاى) و ١٣٠٠٠ قرشاً فى الشهر ، و ٣٥٠ فداناً فى طهطا . ولكن الدنيا لا تدوم على حال ، فما أن مات محمد على ، وتولى عباس الأول الحكم حتى أغلق المدارس جميعها إلا القليل ، وألغى مدرسة الألسن والشيخ رفاعة معها ، بحجة الاقتصاد فى النفقات ، ولأن حاشية السوء لما رأت ميل الوالى إلى محاربة التعليم والعلماء خاضوا فى الشيخ رفاعة وطريقته ، ورموه بالعقم . فنفاه عباس الأول إلى السودان تحت ستار إنشاء مدرسة ابتدائية هناك وتعيينه ناظراً لها ، ومعه طائفة من أكابر العلماء . ولم تكن الخرطوم كما هى اليوم فى نظافتها ومبانيها ، وتوفر وسائل العيش بها ، وإنما كانت مدينة صغيرة تصعب الحياة فيها على من ألف حياة باريس والقاهرة ، وعلى كل من يشرف على التعليم كله بمصر ، فإذا هو يشرف على مدرسة ابتدائية صغيرة بالخرطوم . وحز فى نفس الشيخ أن يجازى على إحسانه بالإساءة وأن يطعن الجاهلون فى صلاح طريقته وقد أينعت وآتت أكلها شهياً لذيذاً ، يزيد فى نماء البلاد العقلى ، ونهضتها نحو الكمال ، وأخذ يستغيث ويندب حظه ، والموت يتخطف أعوانه كل يوم حتى لم يبق إلا نصفهم . وكان يستغيث أولا بمن يأنس منهم روح الجد والعمل لخير مصر ، حتى إذا عجز هؤلاء عن إغاثته لجأ إلى أولياء الله الصالحين وأسيائه المطهرين ، ومن قصيدة له أرسلها إلى حسن باشا كتخدا مصر[1] .

---

(١) مباهج الألباب المصرية ص ٢٦٥ — ٢٦٨ .

مهازيلُ الفضـــائل خادعونى ... وهل فى حربهم يكبو جوادى

وزخـــرفُ قولهم إذ موَّهوه ... على تزييفـــه نادى النادى

قياسُ مدارسى — قالوا — عقيم ... بعصرَ فمـــا النتيجة من بعادى

ثم يذكر أشهر مترجماته ومؤلفاته فيقول :

على عـــدد التواتر معرباتى ... تفى بفنونـ سلم أو جهاد

وملطبرون يشهد وهو عدْلٌ ... ومنتسكو يقـــر بلا تمادى

ومفترفو قراح فرات درسى ... قد اقترحوا سقاية كل صادى

ولاح لسان باريس كشمس ... بقاهرة المعز على عمـــادى

ويزفر زفرة حارة على ما صار إليه أمره وعلى بعده عن أولاده وأهله فيقول :

رحلتُ بصفقة المغبون عنها ... وفضلى فى سواها فى المـــزاد

وما السودان قطُّ مقام مثلى ... ولا سلماى فيه ولا سُعادى

وقد فارقت أطفالا صغـــاراً ... بطهطا دون عَـوْدى واعتيادى

أفـكر فيهمو سراً وجهـــراً ... ولا سمرى يطيب ولا رقادى

أريد وصالهم والدهر يأبى ... مواصلتى ويطمع فى عنـــادى

وهذه القصيدة على وزن وقافية :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ... ولـكن لا حياة لمن تنـــادى

وحين يئس من مثل هذه الاستغاثات ، أخذ يخمس قصيدة لسيدى عبد الرحيم البرعى فى مدح النبى عليه السلام مطلعها .

خل الغرام لصب دمعه دمه　　حيرانَ توجده الذكرى وتعدمه

ويقول فيها :

« رفاعة » يشتكى من عصبة سخرت　　لما رأت أبحر العرفان قد زخرت

فارفع ظُلامه نفس عدلك ادخرت　　وهاك جوهرَ أبيات بك افتخرت

جاءت إليك بخط الذنب تَرقُمه

وظل الشيخ فى منفاه أربع سنوات ، وكان رفاعة وهو فى السودان بَرِماً بمقامه ومصيره ، ولكن رأيه فى السودان حين هدأت ثائرته ، وعاد إلى وطنه ، يدل على بصيرة وحكمة وفى ذلك يقول : « فتى زالت من السودان وسائل الوخامة والسقامة ودخلت أهاليها بحسن الإدارة فى دائرة الاستقامة ، صارت هى والديار المصرية فى العمار كالتوأمين ، وفى إيناع الأثمار صنوين ، حتى ينشد لسان حالهما .

نحن غصنان ضمنا الوجد جميعاً　　فى الحب ضمَّ النطاق

فى جبين الزمان منك ومنى　　غرةٌ كوكبية الانفلاق »(١)

ولم يعد لمصر إلا بعد أن توفى عباس وتولى سعيد أريكة مصر فعينه وكيلا للكلية الحربية ، ثم ناظراً لها ، ومديراً لمدرسة الهندسة ، ومدرسة العمارة ، مع الاحتفاظ برئاسة قلم الترجمة ؛ بيد أن هذه المدارس جميعها ألغيت فى سنة ١٨٦٠ ، كما ألغى قلم الترجمة فظل الشيخ بدون منصب حتى عهد إسماعيل ، حين هبت على العلم والتعليم نسمة من الحياة فبعثته قوياً فتياً ، وأعيد قلم الترجمة بنظارة المعارف العمومية . تولى رئاسته من جديد رفاعة بك سنة ١٨٦٣ ، وعين عضوا فى مجلس المعارف الأعلى الذى كان يعرف حينذاك بـ (قومسيون المدارس) وكان لهذا المجلس فضل كبير فى تنظيم التعليم ، على عهد اسماعيل .

---

(١) مباهج الألباب المصرية ص ٢٦٣ .

رفاعة والقانون :

حينما فكرت الحكومة فى إصلاح نظام القضاء على عهد اسماعيل رأت أن تبدأ بترجمة القوانين الفرنسية المعروفة بـ (الكود) وهو قانون نابليون ، وكانت هذه مهمة عسيرة تتطلب إلماماً واسعاً بالقوانين الفرنسية ، وأحكام الشريعة الإسلامية لاختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمثيلاتها فى القانون الفرنسى ، وهذا كله يحتاج إلى صبر طويل ومثابرة وهمة .

ولم تجد الحكومة خيراً من رفاعة وتلاميذه ، ليقوم بهذه المهمة الجليلة ، فقام بهذا العمل مع بعض من نجباء خريجى مدرسة الألسن ، وأخرجوه فى مجلدين كبيرين .

رفاعة والمرأة :

وهو أول من نادى بتعليم المرأة وتثقيفها ، ووضع كتاباً مشتركا لتثقيف البنات والبنين على السواء ، وسماه : (المرشد الأمين للبنات والبنين)وهو كتاب فى الأخلاق والتربية والآداب ، بل دعا إلى اشتراك المرأة فى أعمال الرجال على قدر طاقتها ، ويقول فى هذا : « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معاً . . . فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ؛ فإن هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن ، وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال و الأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء ، وافتعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة

مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء » وقد طبع كتابه هذا فى سنة ١٨٧٢ ، وأسست أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر سنة ١٨٧٣ ، أسستها إحدى زوجات إسماعيل على أن دعوة رفاعة إلى تعليم المرأة والنهوض بها ترجع إلى ما قبل هذا بكثير ، ولكن لم يستجب لدعوته أحد ، وكان تعليم المرأة قاصراً على الأساتذة الخصوصيين ، إلى أن وجدت دعوته من يلبيها ويعمل على تنفيذها .

وفاته :

ظل هذا العالم الجليل يدأب ويجد فى نشر الثقافة وفتح أبواب العلم والنور للأمة المصرية ، حتى توفى سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ وله من العمر ٧٥ سنة .

وقد بقى تلاميذه من بعده ، وطريقته التى استنها وكتبه التى ألفها وترجمها تهيب بالأمة أن تسير على سنته ، وأن تنقل من آثار الغرب ما يزيل صدأ السنين عن عقول طالت غفلتها .

صفاته :

كان رفاعة عربى الصفات يتمثل فيه الكرم والجرأة والحزم ، وتفرس الأمور ، أخص مزاياه الشمم والإباء ، واعتداده بنفسه وصراحته عند مجابهة أولى الأمر بما ينفع وطنه . وكانت له أفكار تخشاها الأسرة الحاكمة . وقد صرح بها فى مواطن كثيرة من كتبه ، فكان يدعو إلى العدالة الاجتماعية وألا يستبد مالك الأرض بزراعها ، فزارعها هو فى حقيقة الأمر أولى الناس للانتفاع بها ، وكان يلمح تلميحات ـ لا تخفى على ذوى الفطن ـ إلى استبداد أسرة محمد على وحاشيته ، ويدعو إلى الشورى وغير ذلك مما يرتأيه الرجل المصلح العامر القلب بالإيمان والعقل بالأفكار النيرة ، ولعل هذه الصفات تفسر لنا تأخر رفاعة فى سلم الترقى الحكومى ونيل الألقاب ، بينما قد سبقه بعض تلاميذه فى هذا المضمار . وكان يمثل أخلاق العلماء ببعده عن مظاهر الخيلاء والغرور ، بل كان زاهداً جواداً ، متواضعاً ، محباً للخير ،

وكان يتقد وطنية وغيرة على بلاده وله فى ذلك كثير من الأشعار الحماسية يشيد فيها بمصر وعظمة جيشها ، ومن هذا قوله يخاطب الجنود :

يا أيها الجنود والقادة الأسود
إن أمكم حسود يعود هامى المدمع
فكم لكم حروب بنصركم تئوب
لم تثنكم خطوب ولا اقتحام ممعع
وكم شهدتم من وغى وكم هزمتم من بغى
فمن تعدى وطغى على حماكم يصرع

وتتجلى روحه الوطنية فى ترجمة نشيد فرنسا القومى (المارسليز) ؛ لأنه أحبه ، وهاج عاطفته ، وكان يكثر من عبارات الوطنية وخدمة الوطن فى مؤلفاته . وفى الوطن يقول :

« الوطن هو عُشّ الإنسان الذى فيه درج ، ومنه خرج ، ومجمع أسرته ، ومقطع سُرّته ، وهو البلد الذى نشأته تربته ، وغذاه هواؤه ، ورباه نسيمه ، وحُلت عنه التمائم فيه[1] » .

ويقول عن مصر فى زهو وإعجاب .

« ولا يشك أحدٌ أن مصر وطن شريف ، إن لم نقل : إنها أشرف الأمكنة ، فهى أرض الشرف والمجد فى القديم والحديث ، وكم ورد فى فضلها من آيات بينات ، وآثار وحديث ، فما كأنها إلا صورة جنة الخلد ، منقوشة فى عرض الأرض ، بيد الحكمة الألهية التى جمعت محاسن الدنيا فيها ، حتى تكاد أن تكون صورتها فى أرجائها ونواحيها . بلدة معشوقة السكنى ، رحبة المثوى . . . ألخ »[2] .

---

(١) المرشد الأمين ص ٩٠ (٢) نفس المرجع ص ٣١ .

ويقول عن واجب الفرد نحو وطنه فى كتابه « المرشد الأمين » كذلك :

« فالوطنى المخلص فى حب الوطن ، يفدى وطنه بجميع منافع نفسه ، ويخدمه ببذل جميع ما يملك ، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر ، كما يدفع الوالد عن ولده الشر . فينبغى أن تكون نية أبناء الوطن دائماً متوجهة فى حق وطنهم إلى الفضيلة والشرف ، ولا يرتكبون شيئاً مما يخل بحقوق أوطانهم ، فيكون ميلهم إلى ما فيه النفع والصلاح ، كما أن الوطن نفسه يحمى ابنه من جميع ما يضر به »(١) .

وتلك لعمرى نغمة جديدة لم يألفها الشرق العربى بعامة ، ومصر بخاصة ، لأن الوطن عندهم لم يكن محدود المعالم ، فكل بلاد الإسلام بلادهم ، يدينون بالولاء للخليفة ، ولم يكن يعنيهم من أمر أوطانهم والفناء فى سبيلها شىء .

كانت هذه النغمة ، وذلك الحديث عن الوطن وواجب المواطن أول لبنة فى بناء الأدب القومى المصرى الحديث ، جعلت أنظار الأدباء فيما بعد يعنون بهذا الوطن ، ويتملون جماله ، ويعبرون عن آلام أهله وأمانيهم ، وإن لم يحدث ذلك سريعاً لانتشار الأمية وقيام معوقات سياسية واجتماعية كثيرة : وحسب رفاعة أنه سبق زمنه ، وتحدث حديثاً عن الوطن تخاله لجدته قد قيل فى أيامنا هذه

وكان بجانب هذا أديباً ، وشاعراً رقيقاً إذا قيس بأهل عصره ، ويدل على ذلك ما روى من أن السفينة التى أقلته إلى أوربا ظلت خمسة أيام بجزيرة صقلية تتزود من الماء والخضر ، ولم يسترع انتباه الشيخ ويأخذ بمجامع قلبه إلا دقُّ نواقيس الكنائس . وفى إحدى الليالى دعا صديقاً من أصدقائه من أعضاء البعثة ممن يعرف فيه الظَّرف والأدب ، واقترح عليه أن يشتركا فى إنشاء مقامة على غرار مقامات البديع أو الحريرى ، ويكون

---

(١) نفس المرجع ص ٩٣ وما بعدها .

موضوعها ثلاثة أشياء : حوار خول : « أن الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة مع العفاف » ، ثم « سكر المحب من عيني محبوبه » ، ثم « تأثر النفوس بضرب الناقوس » إذا كان من يضربه ظريفاً . وأخذ ينشيء الشعر فى مقاماته حول هذه المعانى ، فقال فى المعنى الأول :

أصبو إلى كل ذى جمال ولست من صبوتى أخاف
وليس لى فى الهوى ارتياب وإنما شيمتى العفاف

وقال فى المعنى الثانى :

قد قلت لما بدا والكأس فى يده وجوهر الخمر فيها شبه خديه
حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه ونشوتى من معانى سحر عينيه

وفى المعنى الثالث :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له : من علم الظبى ضرباً بالنواقيس
وقلت للنفس أى الضرب يؤلمك ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسى

ومما يدل على هذا المزاج الأدبى ترجمته لبعض الشعر الفرنسى ، وتأليفه كتاب « تعريب الأمثال فى تأديب الأطفال » ، وترجمته رثاء فولتير الشاعر للويس الرابع عشر ، الذى يقول فيه : « لم يتول قبله ملك من تلك العصابة ، ولا ساواه غيره فى تربية الرعية بهذه المثابة ، فالفخار شعاره ، والمجد دثاره ، وكان أحظى الملوك باكتساب الطاعة من رعاياه والانقياد ، كما كان أعظمهم فى الهيبة عند الأخدان والأضداد ، وربما كان دونهم فى ميل الرعية إليه ، ومحبتهم له بانعطاف القلوب عليه ، فطالما رأيناه تتقلب عليه صروف الزمان وتتلاعب به حوادث الحدثان ، وهو عند النصرة يظهر الفخار ، ويتجلد عند الهزيمة ، ولا يظهر بمظهر

الذل والانكسار ، فقد أرهب عنده عشرين أمة عليه تعصبت ، وعلى قتاله تحالفت وتحزبت ، وبالجملة فهو أعظم الملوك فى حياته ، كما كان عظيم العبرة عند مماته[١] » .

وترجمة رفاعة لتلماك تدل على اتجاهه الحديث فى الأدب فتلماك رواية فرنسية اسمها : **les Aventure de Télémaque** كتبها قسيس فرنسى يدعى فنلون **Fénélon** وقد سمى رفاعة الرواية « مواقع الأفلاك فى وقائع تلماك » ولعل الأدب العربى الحديث لم يعرف رواية فرنسية ترجمت قبل تلماك . ولقد أراد رفاعة أن يوجه أذهان الناشئة إلى أهمية القصة فى الأدب ، وأنها لون من ألوانه لم يعبأ به العرب من قبل ، وأنها ستكون جليلة الشأن فى التربية .

ويقول رفاعة عن كتابه تلماك الذى ترجمه وهو فى السودان : « إن تعريب تلماك » بكل من فى حماك . أو ليس إنه مشتمل على الحكايات النفائس ، وفى ممالك أوربا وغيرها عليه مدار التعليم فى المكاتب والمدارس ، فإنه دون كل كتاب ، مشحون بأركان الآداب ، ومشتمل على مابه كسب أخلاق النفوس الملكية ، وتدبير السياسات الملكية »[٢] .

ومن هذه الأمثلة وغيرها مما مر بك ترى أن رفاعة قد حمل لواء النهضة الجديدة فى الأدب ، وأنه جدد فى أغراضه ، كما جدد فى أسلوبه وإن لم يتخلص جملة من كل تلك القيود القديمة ، والزخارف اللفظية . ورفاعة لم يكن ذلك الشاعر الفحل ، ولكنه كان أديباً سلمت له بعض الأبيات التى تدل على ذوق سليم ، وتدل على أنها تباشير الشعر الجديد .

ولم يكن رفاعة يفتخر بالشعر ، ويعده من بضاعته الجيدة .

---

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٢٢٠ .
(٢) مواقع الأفلاك ص ٢٤ .

وما نظم القريض برأس مالى ولا سندى أراه ولا سِنادى(١)

وإن برع فى نظم الأناشيد الوطنية من مثل قوله .

يا حزبنـــا قم بنا نسودُ فنحن فى حربنا أســود
عند اللقا بأســنا شديد هامُ عِدانا لنـــا حصيد
حامى حمى مصرنا سعيـــد فى عصره مجـــدنا يعود
بجنده المجنَّدِ وسيفه المهنَّد
ونصره المؤيد وعزه المشيَّد
فى عصره مجدنا يعود

— ٣ —

الطباعة والصحافة :

الكتب غذاء العقول ، وإذا لم يتيسر للعقل غذاؤه أجدب ، والأمة التى تجدب عقولها لا تعرف كيف تحيا حياة الأناسىّ ، وتكون أمة من ساعة .

ولا ريب أن الكتب تُيَسَّر ويسهل على الناس اقتناؤها والانتفاع بها والاستنارة بمصابيحها ، إذا كثرت وانتشرت ، وساعد أولو الأمر على إذاعة الثقافة . وقد كان القائمون على شئون مصر فى مبدأ نهضتها من أولئك الذين أُلهموا حب الخير ، ورزقوا العقل المفكر ، والنظر الثاقب . فعملوا على نشر الطباعة فى مصر .

(١) مباهج الألباب ص ٢٦٩ .

ليست مطبعة بولاق أول مطبعة عربية فى العالم ، ولكن أوّل مطبعة عربية ظهرت كانت فى (فانو) بإيطاليا ؛ حيث أمر بها البابا (يوليوس الثانى) وأخذت تعمل فى سنة ١٥١٤ فى عهد البابا (ليون العاشر) . وأول كتاب عربى طبع فى هذه السنة هو كتاب دينى — كما هو المنتظر — ثم سفر الزبور سنة ١٥١٦ ؛ وبعد قليل طبع القرآن فى البندقية ولكن الطبعة أحرقت خشية أن يؤثر على عقائد المسيحيين ، وطبع كتاب القانون لابن سينا فى روما سنة ١٥٩٣ فى مجلد ضخم . وتعددت المطابع العربية فى أوربا ، وطبعت فيها مئات من الكتب العربية وغيرها[١] .

أما الطباعة العربية فى الشرق ، فأسبق الأمم إليها الدولة العثمانية ، وقد مر بك كيف اضطر من أراد إدخال المطبعة الأولى لأخذ فتوى من علماء الدين ، وأول كتاب طبع بالعربية فى الآستانة كان سنة ١٧٢٨ .

وكانت للسوريين محاولات سابقة لهذا التاريخ ؛ إذ طبع الأنجيل فى حلب بالعربية سنة ١٧٠٦ ، وأقدم مطبعة عربية فى الشام هى مطبعة (ماريو حنا) الصايغ فى (الشوير) للروم الملكانيين ، أنشئت سنة ١١٤٥ هـ ، ١٧٣٢ م ، . ثم مطبعة القديس (جارجيوس) للروم الأرثوذكس فى بيروت سنة ١١٦٧ هـ ، ١٧٥٣ م . ولكن مطبوعات هاتين المطبعتين لم تتعد بعض كتب الدين ، ولم يكن لهما أثر يذكر فى نشر الثقافة العربية ، ولا فى النهضة الحديثة .

وأهم مطبعة انبعث منها النور متدفقاً فياضاً يبدد الظلام الحالك المطبق على عقول الأمة العربية ، هى تلك المطبعة الضخمة التى أسست فى بولاق سنة ١٨٢٢ ، وهى إلى اليوم تعد أكبر مطبعة عربية فى العالم .

---

(١) راجع جورجى زيدان فى كتاب آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٤٤ .

نعم ! إن مصر قد عرفت الطباعة المصرية قبل محمد على ؛ لأن نابليون كان قد أحضر معه مطبعة عربية ، وحاول أن يصدر بها تلك النشرة المعروفة (بالتنبيه) التى لم تصدر فعلا[1] وإنما الذى صدر هو (سلسلة التاريخ) وكان يحررها السيد اسماعيل الخشاب ، وكانت سجلا لمحاضر جلسات الديوان والحوادث الهامة ، بيد أن أثر مطبعة نابليون زال بخروج الحملة الفرنسية من مصر ، واشترى محمد على مطبعتهم ، فكانت نواة مطبعة بولاق الشهيرة . أما مطابع تركيا فكانت أسبق إلى نشر الكتب الأدبية والعلمية من سواها ، فطبع هناك القاموس المحيط سنة ١٨١٤ ، وطبعت كافية ابن الحاجب سنة ١٨١٩ ، وجملة ما نشر من الكتب الأدبية واللغوية لايزيد على أربعين كتاباً حتى سنة ١٨٣٠[2] .

لم يكن اتجاه محمد على أدبياً ، ولكن معظم اهتمامه كان بالعلوم والجيش والإدارة ، ولذلك كان نتاج مطبعة بولاق فى أوائل أمرها علمياً بحتا ، ومن أوائل الكتب التى طبعت بها قاموس طليانى عربى ، وكتاب الآجرومية فى النحو ، ورسالة الفنون الحربية مترجمة إلى التركية ، وكتاب صباغة الحرير من الإيطالية ثم سيرة الإسكندر الأكبر .

وفى الحق لم تخرج مطبعة بولاق شيئاً ذا قيمة من الكتب الأدبية القديمة إلا فى عهد إسماعيل حينما أخذت النهضة الأدبية تشتد وتقوى ، على أن مطبوعات استامبول كانت فى نمو واطراد ، ولايزال لطباعتها فى آذاننا رنة حتى اليوم .

ومن أشهر المطابع التى كان لها أثر ملموس فى النهضة الأدبية بالشرق العربى المطبعة الأمريكية ببيروت سنة ١٨٣٤ . ومطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت كذلك سنة ١٨٤٨ .

---

(١) راجع عبد الرحمن الرافعى فى تاريخ الحركة القومية الجزء الأول ص ١٤٥ . والجزء الثانى ص ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ج ٣ ص ٥٣٨ .

(٢) راجع مجلة الشرق ٣ (١٩٠٠ م) .

وتعد الأخيرة أكبر المطابع فى سوريا ، وأعظمها إتقاناً ، وفيها حروف عربية ، وأفرنجية ، ويونانية ، وسريانية ، وعبرية ، وأرمنية .

الصحافة :

الصحافة من أسس النهضة الأدبية الحديثة ، وعامل من أهم العوامل فى مقاومة اللغة العامية ، وانتشار اللغة الفصحى ، ومجال واسع لنشر الأبحاث الأدبية ، والعلمية ، والسياسية والتاريخية ، والاجتماعية ، ولقد تدرجت فى نموها من عصر محمد على حتى اليوم .

أنشأ الفرنسيون إبان مقامهم فى عهد نابليون صحيفتين فرنسيتين . العشار المصرى « La Décade Egyptinne » وهى جريدة علمية اقتصادية تنشر فيها أبحاث المجمع العامى ومناقشات أعضائه وتصـــدر كل عشرة أيام وبريد مصر « Lecourrier de L'Egypte » وهى الصحيفة الرسمية للحملة الفرنسية ، وتصدر كل أربعة أيام . وقد ذهبتا بانقضاء الحملة الفرنسية ، كما أنهم نشروا سلسلة تاريخية حررها السيد إسماعيل الخشاب .

وقد أشرنا إليها سابقاً . وقد ذهبت كذلك بانقضاء حملتهم .

كانت هذه محاولات بدائية فى الصحافة ، فلما جاء محمد على أصدر أول صحيفة عربية سنة ١٨٢٢ ، حين أصدر (جرنال الخديو) . وكان يطبع فى مطبعة القلعة بالقاهرة ، ويصدر كل مرة فى مائة نسخة باللغتين العربية والتركية، متضمناً الأخبار الحكومية وبعض القصص من ألف ليلة وليلة ، وكان يرسل إلى رجال الدولة الذين يهم الحاكم أن يقفوا منه على أحوال البلاد ، وظلت تصدر لمحمد على وحده بعد أن ظهرت الوقائع المصرية . وكان الغرض من تزويده ببعض القصص جذب القراء إليه . ثم أنشأ فى سنة ١٨٢٨ جريدة الوقائع المصرية ، وكانت تصدر أول أمرها بالتركية والعربية معاً ، وأخيراً اقتصرت على العربية ، ولاتزال تصدر حتى اليوم . ولم يكن صدورها فى عهد محمد على منتظماً ، وكان

يشرف على تحريرها الشيخ العطار شيخ الأزهر ؛ وكان صديقاً للشيخ اسماعيل الخشاب محرر (سلسلة التاريخ) . وتـكاد الوقائع تـكون مقصورة على الأخبار الرسمية . وكان محمد على شديد الاهتمام بالوقائع ، يود أن يراها فى قوة تحريرها وحسن إخراجها ، وغزارة مادتها مثل تلك الجرائد التى كانت تأتيه من أوربا ، وتقرأ له ، وقد أرسل ذات مرة يعنف المسئولين عن تحريرها ، لأنهم نشروا خبراً تافها لا يليق بمقام الجريدة الرسمية للدولة ، وجاء فى كتابه : « لقد أخذنا العجب فى درج مثل هذه الحوادث القبيحة ، فإذا علمتم ذلك فعليكم من الآن فصاعداً أن تدرجوا الحوادث اللائقة بالنشر ، وتتجنبوا نشر ما لا يليق نشره ، وأن تلاحظوا ذلك بكل تدقيق واهتمام ؛ لأنه من مقتضى ذمة خدمتـكم ، ومطلوبى أن تـكونوا بعدئذ على انتباه وبصيرة »[1] .

وقد حرص محمد على عَلَى أن يرى مسودات الجريدة ، ويبدى فيها رأيه قبل أن تنشر[2] وبذا كان محمد على أول صحفى بمصر ، وكانت مهمته أشبه بمهمة رئيس التحرير فى الجرائد اليومية اليوم ، فـكان يشير بالمقالات ، ويحذف مالا يراه لائقاً بكرامة الصحيفة ولا يبخل عليها بمال أو رجال ، ويأمر أن يلى أمر طبعها عمال مهرة لا تشوب كفايتهم شائبة .

وقد تعاقب على تحريرها منذ ذلك الوقت نخبة من كبار الأدباء منهم : مختار بك مدير المدارس فى عهد محمد على ، وبغوص بك موضع ثقته فى المسائل العليا ، وأحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين صاحب السفينة ، والشيخ رفاعة الطهطاوى ، والشيخ محمد عبده والشيخ أحمد عبد الرحيم ، والشيخ عبد الـكريم سلمان . وغيرهم .

وقد تعطلت الوقائع بعد محمد على ما بين ١٨٤٩ — ١٨٦٣ ، ولم تصدر جريدة غيرها

---

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٥١ ف ١٤ من جادى الآخرة ١٢٤٨ هـ دفتر ٤٨ معية سنية .

(٢) راجع محفوظات عابدين وثيقة رقم ٧٩٩ ف ١٩ من جادى الآخرة ١٢٥١ هـ دفتر ٦٦ معية تركى .

وذلك راجع إلى عزوف عباس وسعيد عن النهضة ووسائلها . ولكنها استأنفت حياتها في عهد اسماعيل .

تعقيب :

كانت نهضة محمد على كما رأينا من كل ما تقدم علمية حربية ، ولم يلتفت للأدب أدنى التفاتة ؛ وذلك لأنه لم يكن بحاجة للأدب كحاجته لجيش قوى يدعم به عرشه ، ويؤسس دولته ، ويدافع به عن نفسه . وكان كل شىء فى مصر . وكل البعثات من طبية وهندسية وصناعية وغيرها ترمى إلى خدمة الجيش ، ورجال الجيش . ومع ذلك فقد كانت هذه النهضة الحربية أساساً للنهضة العلمية الأدبية التى ظهرت فى عهد اسماعيل ؛ فالمدارس التى فتحت فى عهد محمد على ، والكتب التى ترجمت ، والبعثات التى تزودت من علوم أوربا ، واطلعت على حضارتها ، أسهمت كلها فى النهضة التالية ، وساعدت على نجاحها ؛ فلم يكن كبار المفكرين فى عهد اسماعيل إلا شباناً فى عهد محمد على ، ولقد أفادوا مصر فيما بعد أكبر فائدة ، وفى طليعتهم رفاعة الطهطاوى ، ومحمد على البقلى ، واسماعيل الفلكى ، ومحمود الفلكى ، وعلى مبارك .

وتعلم هؤلاء فى عصر محمد على وقادوا الحركة الفكرية فى عهد اسماعيل . ففضل هذا العصر على النهضة الأدبية من هذه الناحية أجل من أن ينكر ؛ على الرغم من أن اللغة الرسمية للدولة كانت التركية ، ولكن اللغة العربية أخذت منذ ذلك الحين تنمو وتشتد حتى استطاعت بعد زمن وجيز أن تقضى على التركية فى الديوان ، ثم تصير لغة الأدب الحى الذى ينبض بالقوة ويعبر عن الحضارة الحديثة لكثرة ما ترجم إليها من آثار الغرب ، وكثرة ما أحيي من تراث العرب . والفضل فى ذلك لهـــذه الأسس التى بنيت عليها نهضتنا الحديثة .

وعلى الرغم من مظاهر النهضة المختلفة ، فإن محمد على لم يكن يقصـــد نفع مصر

والمصريين ، وإنما كان يريد استغلالهم على أسوأ طريق . فحكمهم بالقهر ، وأطاح بالرءوس الكبيرة فى البلاد ، وجمع كل عقود التمليك ، ووزع الأرض الزراعية توزيعاً جديداً ، كان لأقاربه وأنصاره من غير المصريين منها النصيب الأكبر ، ومن هنا جاء الإقطاع الحديث بشروره وآثامه .

كما أنه جعل مصر مزرعة كبرى يجنى وحده خيراتها ، وينفق من تلك الخيرات على الجيش الذى يعده لتمكين ملكه وتثبيت عرشه ، وتوسيع نفوذه .

وقد أخذ ما كان للمساجد من أموال ، وأخذ من أوقاف الأزهر مالو بقى له اليوم لكان ذا شأن كبير فى إصلاحه والنهوض به .

ولقد أساء محمد على إلى المصريين وأذلهم ، وصار يجبى منهم الأموال بالعسف ، ويسوقهم سوق الأنعام للجندية التى يحارب بها السلطان أو الوهابيين فى نجد ، وفضل عليهم الأجانب الذين جلبهم لمعاونته فى تدبير شئون البلاد ، وأوسع لهم فى المجاملة ، وزاد لهم فى الامتياز متعدياً حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية ، حتى صار كل صعلوك منهم ، لم يكن يملك قوت يومه ، ملكا أو كالملك فى بلادنا ، يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل « فصغرت نفوس الأهالى بين أيدى الأجانب بقوة الحاكم ، وتمتع الأجنبى بحقوق الوطنى التى حرمها ، وانقلب الوطنى غريباً فى داره غير مطمئن فى قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة ، وذل سامهم الأجنبى إياه ليصل إلى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة[1] » .

---

(١) مذكرات محمد عبده ص ٤٩ — ٥٠ .

— ٤ —

الأدب فى عهد محمد على :

لا نستطيع أن نقول إن الأدباء الذين ظهروا فى عهد محمد على هم أثر النهضة العلمية فى عصره ، ولكنهم ولا شك أفادوا منها ، مع أنهم من آثار العصر السابق . اطلعوا فى عصر محمد على أشياء كثيرة لم يروها من قبل وأحاطت بهم نهضة شاملة ، ومع ذلك فقد كانوا مكبلين بقيود الألفاظ والزخارف فى كتابتهم وشعرهم إلا القليل . ومن هؤلاء :

١ — الشيخ حسن العطار[(١)] :

من أسرة مغربية نزحت إلى القاهرة فولد بها سنة ١١٨٠ هـ ١٨٦٦ م ، وكان أبوه عطاراً ، فتبع أباه فى تجارته أول الأمر ، ولكن الله قد أودع قلبه حب الأدب والعلم ، فلم يضن عليه والده بالمساعدة على تحصيلهما ، وجد الولد ، وحصل منهما الشىء الكثير ووعى ما حصل ، وتتلمذ على أكابر علماء عصره كالشيخ الأمير والشيخ الصبان .

وفى أيامه دخل الفرنسيون . فاتصل بهم فأفاد منهم بعض الفنون الشائعة ببلادهم ؟ وعلّم بعضهم اللغة العربية ، ثم ارتحل إلى الشام ، وسكن دمشق زمنا . وتجول فى بلاد كثيرة يفيد ويستفيد ، ثم آب إلى مصر ، فأقر له علماؤها بالفضل ، وعهد إليه بتحرير الوقائع المصرية ، ثم تولى التدريس بالأزهر ، ثم صار شيخا له بعد الشيخ العروسى سنة ١٢٤٦ هـ . فأحسن إدارته . وظل فى منصبه إلى أن توفى سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٥ م وكان محمد على يجله ويكرمه لما امتاز به من التفوق فى العلوم العصرية ، والأدبية وفنونه . ويقول عنه تلميذه رفاعة الطهطاوى فى كتابه مباهج الألباب المصرية : « كان له مشاركة فى

---

(١) راجع ترجمته فى الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٤٨ . وتاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٢٢٢ وكنز الجوهر فى تاريخ الأزهر لسليمان رصد الزياتى ص ١٣٨ ، وعصر محمد على للرافعى ص ٤٧٢ .

كثير من هذه العلوم حتى فى العلوم الجغرافية ؛ فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبى الفداء سلطان حماة . . . وله هوامش أيضا وجدتها بأكثر التواريخ على طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائما على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية »[1] . وقد خلف عدة مؤلفات فى النحو والبيان والمنطق والطب . وله فى البلاغة حاشية على السمرقندية . وله كتاب فى الإنشاء والمراسلات طبع مرارا بمصر . وجمع ديوان ابن سهل الإسرائيلى وبوبه وكان على إلمام بعلم الفلك . وله رسالة فى كيفية العمل بالأسطراب ، وكان يحسن عمل المزاول الليلية والنهارية وقد اشتهر بالأدب والشعر .

وكان صديقا للسيد إسماعيل الخشاب ، واستمرت صحبتهما بعد عودة الشيخ العطار من الشام - حتى كانا يبيتان معا — إلى أن مات الخشاب . وللعطار ديوان شعر ، وروى له الجبرتى كثيراً ، وكان على صلة بكثير من أدباء عصره ، ومنهم المعلم بطرس كرامة اللبنانى وقد قال فيه كرامة لما لقيه بمصر :

قد كنت أسمع عنك كل نادرة   حتى رأيتك ياسؤلى ويا أربى
والله ماسمعت أذنى بما نظرت   لديك عيناى من فضل ومن أدب

ومن نثر الشيخ العطار :

« أما بعد فإن أحسن وشى رقمته الأقلام ، وأبهى زهر تفتحت عنه الأكمام ، عاطر سلاح يفوح بعبير المحبة نفحه ، ويشرق فى سماء الطروس صبحه .

سلاح كزهر الروض أو نفحة الصّبا   أو الراح تُجلى فى يد الرشأ الألمى

---

(١) مباهج الألباب المصرية ص ٣٢٥ .

سلام عاطر الأردان . تحمله الصبا سارية على الرند والبان . إلى مقام حضرة المخلص الوداد . الذى هو عندى بمنزلة العين والفؤاد . صاحب الأخلاق الحميدة ، حلية الزمان الذى حلى معصمه وجيده ... إلخ » .

ومن شعره قوله يتغزل :

ألزمت نفسى الصبر فيك تأسيا والصبرُ أصعبُ مايقاد نجيبه
وبليت منك بكل لاح لو تبدَّى نحو طود أثقلته كروبه
أفلا رَثيت لعاشق لعبت به أيدى المنون ونازعته خطوبه
أنت النعيمُ له ، ومن عجب تُعذبه وتمرضه ، وأنت طبيبه

وهو شعر إذا قيس بعصره دل على روح أديب ، وذوق شاعر ، كما أن النثر ، وإن كان مسجوعا ، إلا أنه غير مُثقل بالحلى اللفظية ، مما يدل على بعض التطور فى كل من النثر والشعر . نعم إن فى النثر تكلفا وتعمداً للسجع فإذا كان السلام عاطر الأردان ، فلابد أن تحمله الصبا سارية على الرند والبان ، إلى غير ذلك مما يذكرنا بسجع القاضى الفاضل وتذليل المعانى للألفاظ ، وخفاء شعور الكاتب والشاعر تحت هذه الزخارف الكثيرة على أن الشيخ العطار مع هذا من أحسن كتاب عصره وشعرائه ديباجة ، وأقلهم تكلفا .

٢ ـ الشيخ حسن قويدر :

تلميذ العطار ، ولد بمصر ١٢٠٤ هـ — ١٧٨٩ م . . هو مغربى الأصل كأستاده ، ونزح أهله إلى بلدة الخليل بالشام ، وجاء والده إلى القاهرة وأقام بها ، فولد فيها المترجم ، ونال شهرة عظيمة فى العلوم ، وكان مع ذلك يشتغل بالتجارة ، وصارت له مع أهل الشام صلات تجارية ، ومن تآليفه شرحه المطول على منظومة الشيخ العطار فى النحو ، وكان قد قرظها من قبل بقوله :

منظومة الفاضل العطار قد عبقت ... منها القلوب بريا نكهة عطره
لو لم تكن روضة فى النحويانعة ... لما جنى الفكر منها هذه الثمره

وله كتاب إنشاء ومراسلات ، وكتاب نيل الأرب فى مثلثات العرب،وهومزدوجات ضمنها الألفاظ الثلاثة الحركات ، المختلفات المعانى كمثلثات قطرب ، وقد طبع بمصر ، ونقله إلى الإيطالية المستشرق (إريك فيتو) قنصل إيطاليا ببيروت وهو أرجوزة طويلة مطلعها:

يقول من أساء واسمه حسن ... لكن له ظن بمولاه حسن
فكم لمولاه عليه من منن ... بالعد لاتدخل تحت الحصر

ويقول فى المنظومة :

جمعت فيها الكلمات اللاتى ... تكون فى الشكل مثلثات
أبدأ بالمفتوح ثم آتى ... بالضم لكن بعد ذكر الكسر

وهاك مثلا من مثلثاته :

أجمة الحلفا هى الأباء ... والامتناع من كذا إباء
والغثيان يا أخى أُباء ... وهو كراهة الطعام فادر

وهى ألفان ومائتان وعشرة أبيات ، ومن مطبوعات جمعية المعارف .

وكان مشهوراً بالتأريخ الشعرى ، وقد أرخ وفاته وهو مريض سنة ١٢٦٢ ﻫ بقوله: « رحمة الله على حسن قويدر » ومما يروى من شعره قوله :

ياطالب النصح خذ منى محبرة ... تلقى إليها على الرغم المقاليد
عروسة من بنات الفكر قد كسيت ... ملاحة ، ولها فى الخد توريد

كأنها وهى بالأمثال ناطقــة طير له فى حميم القلب تغريد
واحذر من الناس لا تركن إلى أحد فالخل فى مثل هذا العصر مفقود
بواطن الناس فى ذا الدهر قد فسدت فالشر طبع لهم والخير تقليــد

وله قصيدة تسمى المزدوجة جاء منها ، وهى طويلة :

رأيت بدراً فوق غصن مائس يخطر فى خضر من الملابس
ويسحر العقل بطرف ناعس وهو بشوش الوجه غير عابس

كأن ماء الحسن منـه يجرى

خاطرت لما أن رأيتــه خطر وحار فكرى فى بها ذاك الحَوَر
وقلت لا والله ماهــذا بشر ومن بشمسٍ قاسه أو القمر

فليس عنــدى بالقياس يدرى

فلفظه العذب لقلبى قوتُ كأنه الدر أو اليــاقوت
وسحره إلى النهى مثبوت يعجز عن أمثـــاله هاروتُ

وهو الحلال من صنوف السحر

عقرب مسكٍ فوق خده التوى وجمرةُ الخدِّ بها القلب اكتوى .
جمالُ هذا الظبي قد هدَّ القوى وليس لى غير الوصال من دوا

فاسمح به يابدر واكسب أجرى

وهو شعر كما ترى ، قريب المعانى جداً ، ليس فيه من الخيال شىء ، وهو وإن خلا من المحسنات البديعية إلا أنه غير متين النسج ، بل هو قريب من الكلام المعتاد ، وكل تشبيهاته قديمة .

وقد رثاه محمود صفوت الساعاتى بقصيدة مطلعها :

بكت عيونُ العلا وانحطت الرتبُ ومزقت شملها من حزنها الكتب

٢ — السيد على الدرويش :

توفى سنة ١٢٧٠ هـ — ١٨٥٣ م .

وهو السيد على الدرويش بن إبراهيم المصرى ، ولد بالقاهرة سنة ١٢٢١ هـ ، ونشأ بها وأغرم بالأدب ، وحفظ كثيراً من الشعر ، وأصاب شهرة كبيرة فى زمانه ، وله عدد وفير من المقطوعات الغنائية ، واتصل بأمراء أسرة محمد على ، وعرف بشاعر عباس الأول . ولم يكن يتكسب بالشعر ؛ لأن الله رزقه حظاً من الثروة ، فاكتفى بما لديه .

وله من المؤلفات « الدّرج والدرَك » ، وضعه فى مدح من اشتهر فى أيامه بحميد المزايا وكريم الصفات ، وكتاب « محاسن الميل لصور الخيل » وضعه بأمر عباس الأول ذكر فيه محاسن الخيل ومساوئها ، و « سفينة الأدب » .

وشعره يمثل لنا عصره من حيث الولوع بالمحسنات البديعية ، يحشرها حشراً ، ويتكلفها تكلفاً ، ومعانيه وأخيلته لا تدل على شاعرية ممتازة إذا قيست بشعر عصرنا ، ولكنه بالنسبة لعصره كان طليعة الشعراء . وقد اشتهر بالتواريخ الشعرية ، وله ديوان طبعه تلميذه مصطفى سلامة النجارى فى ٤٨٢ صفحة ، وقد جمع كل ما قاله السيد على الدرويش من شعر ونثر .

ومن نثره قوله فى مقامة الفضيلة والرذيلة :

« وفقك الله لما يرضاه ، وعصمك فى موجب الذم ، ومن لا يتحاشاه ، إن الفضيلة والرذيلة صفتان متضادتان ، ونوع الإنسان مجبول على الميل للأولى ، والفرار من الأخرى

على حسب آراء العباد ، وعوائد البلاد . فربما كانت الفضيلة عند قوم رذيلة عند آخرين ، وكانت الرذيلة عند أمم فضيلة عند غيرهم من المتأخرين ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، مع تفاوت فى طبائعهم ، وأشكالهم وصنائعهم ، فمنهم ذوو الطبع السليم ، ومنهم الذميم ، ولا سبيل إلى ترغيب الأول ليجتهد فى الازدياد ، وترهيب الثانى لينطبع على أن يتحاشى بالاعتياد ، لا باللسان ، الآتى بسحر البيان ، فقد جاء فى الحديث : « إن إيمان المرء ليربو إذا مُدح ، وربما يصح الجسم إذا جُرح ، فمن ذلك كان المدح على المحاسن تذكيراً ، والذم على القبائح تنفيراً ، وكلاهما مطلوب شرعاً ، ومرغوب فرعاً ، ليسقط العاقل ، ويقبل الكمال الكامل » .

ومن شعره قطعة قالها فى منفلوط (وهى من قرى الصعيد) :

سعيدٌ من نأى عنه الصعيدُ ... صعودٌ مالطالعه سعود
وردنا منفلوط فلا سقاها ... وردناها فأظمأنا الورود
فمالى قد بُعثت لقوم عاد ... كأنى صالحٌ وهم ثمود
أراهم ينظرون إلىّ شَزْراً ... كعيسى حين تنظره اليهود
فمالى منهم خِلٌ ودودٌ ... ولى من طبعهم خَلٌ ودُود

ويقول فى الهرمين :

انظر إلى الهرمين وأعلم أننى ... فيما أراه منهما مبهوتُ
رسخا على صدر الزمان وقلبه ... لم ينهضا حتى الزمان يموتُ

ومن شعره يصف الجراد الذى اجتاح مصر سنة ١٢٥٩ ﻫ :

فترى الجراد على الجريـ ... ـد مكللا مثلَ الثمر

ورُقشٌ تراها إنهـا نارٌ تَلظّى بالشجر
لواحة للأرض لا تُبقى النباتَ ولا تذر
وصغيرة فى حجمها لكنها إحدى الكبر
الأرضُ كانت جنة فالآن ترمى بالشرر
نزلَ الجرادُ بهـا كما نزل القضاء أو القـــدر

٤ — المعلم بطرس كرامة :

وهو من شعراء سوريا فى عهد محمد على ، ولد فى حمص سنة ١١٨٨ هـ ١٧٧٤م ، وجاء لبنان واتصل بالأمير بشير الشهابى ، وتوفى سنة ١٢٦٨ هـ ١٨٥١ م ، ومن شعره يصف ينبوع الصفا ، وقد مُدَّ (بيت الدين) مقرِ الأمير بشير بماء هذا الينبوع :

صاح قد وافى الصفا يروى الظما بشراب كوثرى ألمس (كذا)
وأفاض الشهدَ فى روض الحمى لجـــلا الغمِّ وبُرء الأنفس

* * *

حبذا الفوّار عنه حين راق فأرانا ماؤه ذوبَ اللجين
نزَّه القلب عن الهم ، وراق بسنا صافى صفاه كلَّ عين
نثره الدر بفيـض واندفاق وسقى الوراد أهنا الأطيبين
قد جرى عذباً فأغنى الندما بزُلال من رحيقَ الأكؤس
وعلى الأغصان أبقى النسما فزهت مثل ندامى العُرُس[1]

---

(١) قد نظم الشاعر هذه القصيدة على منوال الموشح الاندلسى للمشهور لابن سهل الأشبيلى ومطلعه :
جادك الغيث إذا الغيث همى بالزمان الوصيل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما بالكرى أو خلسة المختلس

وقال يصف باقة زهر أهداها له الأمير بشير :

وباقة زهرٍ من مليكٍ مُنحتها مبطرةَ الأرواح مثلَ ثنائه
فأبيضها يحكى جميع خصاله وأصفرُها يحكى نضار عطائه
وأزرقها عينٌ تشاهد فضله وأحمرُها يحكى دماء عدائه

وقال يهنىء إبراهيم باشا بفتح عكا :

فتحٌ به الفتحُ القريب موكد وكواكب النصر المبين توقدُ
ما المجد إلا بالحسام ولم يدم شرف الفتى ما لم يصنه مهندُ
ما يوم عكةَ لم تدع ذكراً لما غبر الزمانُ به وما يتجدد
يومٌ به الحرب العوان تضرَّمت بقنابل مثلَ الصواعق ترعد
رُجمت بشهب كراتها الأسوار من لهب فدُكَّ الشامخ المتوطد
ورمت بصدر بروجها قُلل الفضا تلك المدافع فهى طوراً تسجد
فتخالُ والهيجاء تلهب حولها نار الجحيم بجوها تتصعَّدُ
سبقت إليها الصبحَ أسْدُ عَرينة وبغير صبح حرابهم لم يهتدوا
من كلَّ أروعَ قد تعوَّدَ فى الوغى أخذَ الكماةِ وما يقول السيِّدُ
وتراه يبتسمُ للكفاح كأنما وِرْدُ الحِمام لديه نعم المورد
وثبوا على الأسوار ثم تسنموا الـ أبراجَ والسيفُ الصقيلُ مجرد
وتجلدَ القومُ العداةُ وإنما لم يُجدِهم عند العراك تجلدُ

٥ — الشيخ ناصيف اليازجي :

هو الشيخ ناصيف بن عبدالله اليازجي ، ولد بكفر شيما بلبنان سنة ١٨٠٠م واشتغل أول أمره بالعلوم والطب ، ولـكن الأدب غلب عليه واتصل بالأمير بشير الشهابي ، فاتخذه كاتم سره ، ولما دالت دولة الأمير بشير انقطع للتأليف ومراسلة الأدباء ، ونظم الشعر . وقد خلف عدّة مؤلفات ، من أشهرها .

(١) مقاماته الستون المعروفة بمجمع البحرين . عارض فيها مقامات الحريرى ، ويقول فى إحداها المعروفة بالمقامة الخزرجية :

« قال سُهيل بن عباد : دخلت بلاد العرب فى التماس بعض الأدب ، فقصـدت نادى الأوس والخزرج ، لأتفرج وأتخرج ، وآخذ من ألسنتهم بعض النهج ، فلما صرت فى بُهـرَة[1] النادى ، أخذ بمجامع فؤادى ، فجلست بين القوم ساعة ، وأنا أحدق إلى الجماعة وإذا شيخنا ميمون بن خزام ، قد تصدر فى ذلك المقام ، وهو يقول : من أراد أن يعرف جهينة[2] أو شاعرَ مُزينه[3] فليحضر ليسمع ويرى ، فإن كل الصيد فى جوف الفرا[4] فصمد إليه رجل وقال : أطرقْ كرى ، إن النعامة فى القرى[5] إلخ .

---

(١) بهرة النادى : وسطه .

(٢) جهينة : قبيلة قتل رجل منها قتيلا ، ومر بامرأته وهى تبحث عنه فقال :

تناشد كل حى عن حصين وعند جهينة الخبر اليقين

(٣) هو زهير بن أبى سلمى .

(٤) الفرا : حمار الوحش ، ومن صاده أغناه عن كل صيد سواه ويضرب بهذه الـكلمة المثل .

(٥) الـكرى : الـكروان : اخفض رأسك ولا تتـكبر فإن النعامة وهى أكبر منك قد صيدت وجهزت فى القرى .

ومن نثرة المرسل قوله :

« وكان الملوك ومن يليهم فى الأيام القديمة يعرفون كثيراً من العلوم ويتمكنون منها ، حتى كان منهم من يخطىء العلماء فى بعض المسائل ، ولذلك كانوا يعتنون بشأن العلم والعلماء ويعرفون حقهم . وكانوا يقيمون مدارس فى علوم شتى حيثما وجدوا لها موضعاً ، ويغمرون المشايخ والطلبة بالعطايا والإحسان ، فكان الناس يدخلون فيها أفواجاً ، ويعكفون على تحصيل مايستطيعون من العلوم ، حتى إذا استتم الرجل علمه خرج إلى منصب ، أو وظيفة عند السلطان ، متمتعاً ببسطة الجاه والمال ، ومستغنياً عن جميع المهمات والأشغال ، فيفرغ للتوسع فى العلوم ، وإنشاء المصنفات فيها ، وبذلك يكون مثالا لغيره فى طلب العلم والتجرد له .

(٢) وله كتاب فصل الخطاب فى الصرف والنحو ، وله شرح على ديوان المتنبي ، أتمه ابنه الشيخ إبراهيم ، واسمه العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب .

(٣) وله ديوان شعر فى ثلاثة أجزاء : أحدها نفحة الرَّيحان ، وثانيها فاكهة الندماء ، وثالثها : ثالث القمرين .

وشعره يجمع بين الرقة والمتانة ، ومن شعره فى بخيل :

قد قال قوم إن خبزك حامض والبعض أثبت بالحلاوة حكمه(١)

كذب الجميعُ بزعمهم فى طعمه من ذاقه يوماً ليعرف طعمه ؟

وقال فى الزهر :

مر النسيمُ على الرياض مسلماً سَحَراً فردَّ هزارُها مترنما

---

(١) أل لاندخل على بعض فى صحيح اللغة ، وعجيب أن يفوت ذلك على الشيخ اليازجي وهو العالم اللغوى

أحنى إليه الزهر مَفرِق رأسه أدباً ، ولو ملك الكلام تكلما
ياحبذا ماء الغدير وشمسُه تعطيه ديناراً فيقلب درهما

وقال يرثى صديقاً :

قد كنت أنتظر البشرى برؤيته فجاءنى غيرُ ما قد كنت أنتظر
إن كان قد فات شهدالوصل منه فقد رضيت بالصبر لكن كيف أصطبر
أحبُّ شىء لعينى حين أذكره دمعٌ وأطيبُ شىء عندها السهرُ
هذا الصديق الذى كانت مودته كالكوثر العذبِ لاينتالها كدر
لاغروَ أن أحزن الزوراء مصرعه نحزنه فوق لبنانٍ له قدر

وقال يمدح محمد على (باشا) ويهنئه بفتح عكا :

يافاتح القُطرين أنتَ محمدٌ هل دون فتحكَ فى البلاد مُسددُ ؟
أنت العلىُّ كما يقال ونسله منك المعالى لم تزل تتولدُ
لما بعثت من الكنانة سهمها حلفت عليه أنه لا يُصردُ
مازالتْ النار التى وقدت له برداً عليه وناره لا تَبردُ
مَن مثلُ إبراهيمَ إلا سيفُه يوم الكريهةِ والقنا التأوُّد

٥ ٥ ٥

ولقد ضربتَ حصون عكاء التى كانت لهَيبتها الفرائصُ ترعدُ
الله أكبر ليس دونك قلعةٌ تُحمى ولا حصنٌ أشم ممرد
وتحصنت منك الأسود فلا تلم قوماً بإغلاق الحصون استنجدوا

أسألت (عبد الله[1]) أين قلاعهُ ورجاله وفؤاد المتوقـــد ؟

ومما كنا نحفظه فى الصغر للشيخ ناصيف اليازجى قوله فى عروس الزهر (الوردة) :

هذى عروسُ الزّهر نقّطها الندى بالدر فابتسمت ونادت مَعبداً
لما تفتق سِترُها عن رأسها عبث الحيـاء بخدها فتوردا
فتح البنفسجُ مقلةً مكحولة غمز الهزارَ بها فقام وغرّدا
وتبرجت وُرْق الحمام بطوقها لما رأين التاج يعلو الهُدهُدا
بلغ الأزاهر أن ورد جنانهـا ملكُ الزهور فقابلته سُجّدا
فرنا الشقيق بأعين محمرّة غضباً وأبدى منه قلباً أسودا
بسط الغديرُ المـاء حتى مسه بردُ النسائم قارساً فتجمدا
ورأى النبـاتُ على جوانب أرضه مهـداً رطيباً لينا فتوسّدا
يا صاحبيّ تعجبـا قد حاكها من لم يعد لها يدا
كل الثيـاب يحول لون صباغها وصباغ هذى حين طال تجددا

وفى هذه القصيدة خيالٌ جميل ، وسهولة لفظ ، ورقة وصف تجمل مثل ناصيف اليازجى يقف وحده بين شعراء عصره . كما يقف وحده بين كتاب جيله لمتانة عبارته وحسن صياغته ولأنه ترسل فى كتابته على خلاف المعهود فى زمنه .

ومن جميل شعره الذى يدل على رقة حس ، ودماثة عاطفة قوله يرثى ولده حبيبا :

ذهب الحبيبُ فيا حُشاشة ذوبى أسفا عليه ويا دموع أجيبى

---

(١) يقصد عبد الله الجزار والى عكا حينذاك .

ربيته للبَين حتى جاءه في جُنح ليل خاطفا كالذيب
يا أيها الأم الحزينة أجملي صبراً فإن الصبر خير طبيب
لا تخلعي ثوب الحداد ولازمي نَدْباً عليه يليق بالمحبوب
إني وقفت على جوانب قبره أسقي ثراه بدمعي المصبوب
ولقد كتبت له على صفحاته يا لوعتي من ذلك المكتوب
لك يا ضريح كرامةٌ ومحبة عندي لأنك قد حويتَ حبيبي

الشهاب الألوسي :

هو أبو الثناء شهاب الدين محمود الألوسي ، ولد ببغداد سنة ١٢١٧ هـ ١٨٠٢ م وتوفي ١١٧٠ هـ ١٨٥٤ م .

وكان إماماً في التفسير والإفتاء ، وعالماً ضليعاً باللغة ، وكاتباً بليغا وخطيباً مصقعاً . وقد حظي بشهرة عظيمة في عصره ، وصار مقصد الأدباء والمتأدبين ، وطلاب التفسير والفقه .

وقد كثر حاسدوه وشانئوه ببغداد ، واضطهده الوالي التركي ، فقام برحلة إلى الأستانة يبث شكواه لأولي الأمر ، ويعرض عليهم تفسيره المشهور (روح المعاني) ، ولقي في رحلته من الإكرام ما أنساه غلظة الوالي ، وسجل رحلته بعد عودته لبغداد في ثلاثة كتب .

وكان سريع الخاطر ، منطلق الذهن في الكتابة والتحرير ، وقيل إن أقل ما كان يكتبه في الليلة من مؤلفاته ورقتان كبيرتان ، وله عدة كتب في التفسير والفقه والمنطق والأدب واللغة ، ومن أشهرها :

١ — روح المعاني في التفسير وهو تسعة أجزاء ويعد خير كتبه ومن أحسن التفاسير المتداولة ، وقد طبع مرة على نفقة ولده السيد نعمان خير الدين بمطبعة بولاق بمصر سنة ١٣٠١ هـ .

٢ — شرح السلم فى المنطق .

٣ — كشف الطرة عن الغرة ، وهو شرح على درة الغواص للحريرى

٤ — حاشية على شرح قطر الندى لابن هشام .

٥ — وله كتاب فى المقامات طبع فى كربلاء ، ومن نثره يصف القسطنطينية .

« بلدة مونقة الأرجاء رائعةُ الأنحاء ، ذات قصور تضيق عن تصورها سعة الأذهان ، وتجاذب الحسنَ هى وقصور الجنان ، وربةُ رياض أريضة ، وأهوية صحيحة مريضة ، وقد تغنت أطيارها فتمايلت طرباً أشجارها ، وبكت أمطارها فتضاحكت أزهارها ، وطاب نسيمُها ، فصح مِزاج إقليمها . وليتَكَ رأيتَ ما فيها من الرياض الأنيقة ، والأشجار المتهدلة الوريقة ، وقد ساقت إليها أرواح الجنائب ، زقاق حمر السحائب ، فسقت مروجها مدامُ الطل ، فنشأ على أزهارها حبابٌ كاللؤلؤ المنحل فلما رُويت من الصهباء أشجارها رنحها مع النسمات المسكيَّة خُمارها ، فتدانت ولا تدانى المحبين ، وتعانقت ولا تعانق العاشقين ، يلوح من حلالها شقيق ، كأنه جمراتٌ من آثار حريق ، ويتخللها بَهرٌ يَبْهَرُ ناظره .

وكأن النرجس الغضَّ بها أعينُ العين وما فيهن غَمضُ

ومن نثره قوله يحذر أولاده من الدجاجلة وأبالسة التضليل :

يا بنى ! بعض الناس ذئابٌ ، عليهم من جلود الشاة ثياب . فلا تخدعوا بعمامة تفنَّجت كالهلوك كلمته ، ولانت كالصعلوك عريكتُه ، وولع الذبول بقامته فتناطحت تُفاحة كتفه ورُمَّانةُ هامته ، وربما لزق ذقنه بصدره . وأصاخ بسمعه نحوه بسرِّه ، وحمل سبحة من ذوات الأذناب وجعلها شبكة ، وأعمل فيها سبَّابته تنقر حباتها كما تنقر الحبَّ الدَّيكة .

قريب الخطو تحسبه لهون وليس مقيدا يمشى بقيد

فوأبى ! لقد رأيت فى هؤلاء المتماوتين من هو أمرّ من أبى مُرة وأضر منه بألف مرة.

وقد جربتهم فرأيت منهم خبائث بالمهيمن تستجير(١)

ومن شعره قوله فى العراق :

أهيم بآثار العراق وذكره وتغدو عيونى من مسرتها عبرى
وألثم أخفافا وطئن ترابه وأكحل أجفانا بتربته العطرى
وأسهر أرعى فى الدياجى كواكبا تمر إذا سارت على ساكنى الزورا
وأنشق ريح الشرق عند هبوبها أداوى بها يابى مهجتى الحرا

ومنه قوله :

وإذا الفتى بلغ السماك بفضله كانت كأعداد النجوم عداه
ورموه عن حسد بكل كريهة لكنهم لا ينقصون علاه

ومن المعاصرين لأبى الثناء الألوسى الشاعر الأخرس البغدادى ، وقد اشتهر بشعره الثائر على الأوضاع الفاسدة ببغداد ، وهناك مقطوعة قصيرة قالها حوالى سنة ١٨٠٣ يصور بها العراق بأنه صار مورداً عذبا للكلاب ، بينما سداد الأسود عن نميره . ولم يعد يجد الأحرار فيه موئلا ، بل ضاق بكل حر أبى ، وتحكم فيه الأوغاد والطغام .

ودهر أعانى كل يوم خطوبه وذلك دأبى يا أميم ودابه
مسوق إلى ذى اللب فى الناس رزؤه ووقف على الحر الكريم مصابه

---

(١) تجد نماذج من نثره فى كتاب أعلام العراق لمحمد بهجة الأثرى ص ٢٤ وما بعدها .

وحسبك منى صبر أروع ماجد بمستوطن ضاقت بمثلى رحابه
تُذاد عن الماء النمير أسوده وقد تَلغ العذب الفرات كلابه
وأعظم بها دهياء وهى عظيمة إذا اكتنف الضرغام بالذل غابه
متى ينجلى هذا الظلام الذى أرى ويكشف عن وجه الصباح نقابه ؟
وتلمع بعد اليأس بارقة المنى ويصدق من وَعد الرجاء كذابه ؟
ومن لى بدهر لا يزال محاربى تفل مواضيه وتنبو حرابه
عقور على شلوى بعض بنابه وتعدو علينا بالعوادى ذئابه(١)

تعقيب :

ذكرنا آنفاً أن هذا الأدب وليد العصر السابق ، وأنه لم يتأثر أدنى تأثر بالحركة العلمية التى حمل محمد على لواءها فى مصر ، كما رفع رجال الأرساليات التبشيرية هذا اللواء فى بعض بلاد الشام ؛ لأن هذه الحركات فضلا عن أنها كانت فى بدء نشأتها ، بحيث لم يستفد بها هؤلاء الرجال الذين ترجمنا لهم ، والذين هم خير من أنجب عصرهم ، فإن هذه الحركات كانت علمية لا تُعنى بالأدب إلا القليل .

والنماذج التى أوردناها لهؤلاء الأدباء من شعر ونثر تفصح عن تعلق أكثرهم بتلك الحلى المتكلفة والزخارف اللفظية ، والمعنوية ، التى تضحى بالفكرة فى سبيل المحسن المقصود ، والفكرة فى ذاتها ضحلة ، والخيال يكاد معدوماً ، وما بها من معنى فهو مأخوذ من السابقين ، وليته ظهر واضحاً كما ظهر عند المتقدمين من الشعراء ولكنه توارى تحت ستار كثيف من المحسنات الثقيلة ، والنسج ضعيف إلا القليل .

---

(١) مجموعة الأخرس ص ٨٨ — ٩٠ والديوان ص ٥٢ — ٥٤ .

وأما الأغراض فهى تلك المقاصد التقليدية التى سار عليها الأدباء من قديم ، ولم يظهر فيما رأينا أية بادرة للروح القومية ويقظة الشعوب ، والأغراض العامة ، وإفصاح الشاعر عما يجيش فى نفسه هو من حزن وألم ، وفرح ولذة مما يلاقيه فى الحياة ، بحيث يبدو مستقلا فى شخصيته عن أمير يُمدح ، أو عظيم يُرثى . وربما كان عند بعض شعراء الشام أوالعراق فى ذلك الوقت — كما رأيت — كلف بالطبيعة ووصفها ؛ لأن الشاعر الحساس لايملك أن يغمض عينيه مهما كانت من الضعف ، أو ألا ينجذب ذوقه مهما كان عليه من المرض ، أمام هذه الطبيعة الفياضة بالفن والمحاسن فى بلاد الشام ، والطبيعة ثمة تغرى على القول :

تبدل كل آونة لبوسا خيال العبقرى به يضل

بيد أن وصف الطبيعة ، وإن دل على حس مرهف ، وتأثر بالجمال ، فإن الصياغة والمعانى تئن من الضعف والركة ولم يسلم لهم إلا القليل مما تبدو عليه آثار العافية والصحة والجمال .

— ٥ —

التأليف فى عصر محمد على :

رأينا عند الكلام على الترجمة ، أن النهضة الحديثة ابتدأت . والبلاد فى فقر عقلى شنيع ، وظلام مطبق دامس ، وليس ثمة إلا بصيص ضئيل من النور يشع من الأزهر ؛ بيد أن أهله عكفوا على كتب الأقدمين يدرسونها بطريقتهم العقيمة ، ولم يكونوا على علم بما وصلت إليه أوربا من علم وحضارة ، حتى بعد أن جاء نابليون ، ومعه العلماء الأفذاذ والباحثون العظام ، بل ظل الأزهر كما هو غارقا فى أحلامه القديمة ، وإن اعتمد عليه محمد على فى اختيار أعضاء البعثات منه أول الأمر . وأخذت النهضة تسير فى طريق مختلفة عن طريق الأزهر ، ولم يشأ محمد على أن يغير من نظم الأزهر شيئا بحيث توافق مقتضيات

العصر ، وحاجات النهوض ، بل أنشأ نظاما علميا جديداً هو ذلك النظام المدنى فى التعليم الذى نجنى ثمرته اليوم ، وذلك أن تغيير الأزهر ، وتحويله إلى النظام المدنى كان عملا شاقا ، وفيه قضاء على ماللأزهر من سمعة دينية فى نفوس المسلمين فى كافة الأقطار ، ثم فيه تحد للشعور الدينى الذى كان مسيطراً على أذهان الناس فى الشرق حينذاك .

ولم ير محمد على بدأ من الاستعانة بعلماء الأزهر وكتب الأزهر فى مدارسه الحديثة ، إذ لم يكن هنالك علماء فى غير الأزهر يصلحون لتدريس اللغة والدين ، ولم تؤلف فيهما كتب على النهج الحديث ، بل كانت الكتب الأزهرية — على مابها من غموض ، ومع أنها فى مستوى أرقى من مستوى المدارس الحديثة — هى الشيء الوحيد فى هذا الميدان ، ولذلك اضطرت حكومة محمد على أن تقدم الآجرومية و سنوسية ، والألفية ، والشيخ خالد وغيرها من الكتب إلى مطبعة بولاق ، فطبعت منها لأول مرة فى مصر آلافا من النسخ نشرتها فى مدارسها الحديثة ، وفى الأزهر نفسه .

ولم يكن فى هذه الكتب ما يشوق التلميذ أو يحبب القراءة إليه أو يعاونه على تفتق ذهنه ، واستكمال عدته للتعليم الثانوى ، لأنها ألفت فى عصور ضعف اللغة ، وفيها أمثلة بعيدة كل البعد عن بيئة التلميذ وحياته ؛ وطريقة تأليفها عقيمة ، إذ لا تتدرج مع معلومات التلميذ ، وإنما تفرض فيه العلم من أول سطر ، وتعرض أمامه مشكلات فى الإعراب والعقائد تخالها طلاسم ، ويتبرم بها ، ويكاد ييأس . كل هذا فى عصر كان الكتاب فيه هو كل شيء أمام التلميذ ؛ وليس له إلا أن يستظهره . فحفظ كتب الدين واللغة ، وأعدته الطريقة فاستظهر كتب الحساب والهندسة وغيرها من الكتب المعروفة ، استعداداً لاجتياز الامتحان .

ولم يكن المدرسون وحدهم هم الذين استعارتهم مدارس محمد على من الأزهر ، بل كان

ثمة طائفة أخرى ، اقتضتها طريقة التدريس على يد المترجمين التى ذكرناها آنفاً[1] ، هذه الطائفة هم المصححون الذين يصلحون الأخطاء النحوية والأساليب فى الكتب التى تنقل إلى اللغة العربية . ولم يكن هذا العمل سهلا هيناً ، فكثير من المترجمين ، وبخاصة فى السنين الأولى من إنشاء المدارس ، كانوا من السوريين ، أو غيرهم من المتمصرين كالأرمن والمغاربة ، ولاريب أن لغتهم كانت على شىء كثير من الضعف ، فقلما وُثق بكتابتهم وترجمتهم ولاسيما فى مواد لم يدرسوها من قبل . هذا إلى أن العلوم الحديثة كانت تنقل لأول مرة من اللغات الأوربية إلى اللغة العربية ، وقد هجر الأزهر من زمن بعيد دراسة هذه المواد ، فاضطروا إلى مراجعة الكتب القديمة فى الحساب والفلك والهندسة والطب ، وغيرها من التى ترجمت أو ألفت فى العصر العباسى ، وذلك لأن مهمتهم لم تكن قاصرة على تصحيح العبارة اللغوية ، بل تعدتها إلى اختيار الكلمات الفنية المناسبة .

وقد أفادت اللغة العربية من عملهم هذا فائدة جليلة وحين أعجزتهم الترجمة ، ولم يهتدوا إلى مقابل للكلمة الأجنبية فى العربية عمدوا إلى تعريبها ، وتركوها كما هى مع تحريف يسير يناسب اللسان العربى ، أو بدون تحريف ؛ وبذلك ازدادت ثروة اللغة العربية ، واتسع أمامها المجال لدراسة المواد الحديثة وتعريبها والتأليف فيها . وقد ألف بعضهم فى ذلك كتباً تعين المترجمين والمؤلفين مثل الشيخ محمد عمر التونسى فى كتابه (الشذور الذهبية فى الألفاظ الطبية)

كان لابد لمصر فى أول نهضتها من الاعتماد على هذا القبس الضئيل الذى يشع من الأزهر ، ولقد رأينا إلى أى حد كان هذا الاعتماد ، ولكن حين استطاع نظام محمد على أن يقف على قدميه ويؤتى ثمرته ، ويتخرج فى مدرسة الهندسة والطب وغيرها شباب جمعوا بين الثقافتين حاول محمد على أن يتخلص من تأثير الأزهر على نظامه ، ورأينا فى أخريات

---

(١) راجع ص ٢١ من هذا الكتاب .

عهده محاولة لتأليف كتب فى اللغة والدين على طريقة حديثة ، وهذه الكتب وإن لم تبلغ مستوى الكتب الأزهرية فى الجودة بحيث يمكنها التغلب عليها إلا أنها كانت نزعة إلى التحرر من الأزهر ، ورأينا أيضاً مدرسى الحساب من خريجى الهندسة ، وبعض مدرسى اللغة العربية يؤخذون من نوابغ المتخرجين فى مدرسة الألسن .

وهكذا ابتدأت الهوة تزداد اتساعا بين تعليم الأزهر والتعليم الحديث ، حتى أوشكت الصلة أن تزول فيما بينهما . بل رأينا — على العكس — أن الأزهر يقتبس من النظم الجديدة فى التعليم ، ويحاول الشيخ العروسى شيخ الأزهر فى عهد محمد على أن يدخل الطب فى الأزهر بمعاونة كلوت بك ، لولا أن عاجلته المنية .

كان التعليم الحديث فى عهد محمد على بالمجان فى كافة المدارس سواء كانت ابتدائية أو ثانوية أو عالية ، وكانت الحكومة تنفق على التلاميذ ، وتتولى أمورهم من مسكن ومأكل ، وملبس ، وتجرى على كثير منهم الأرزاق والمرتبات . بيد أن الأهالى لم يطمئنوا إلى إسلام أولادهم للمدارس والتعليم فى بادىء الأمر ؛ بل نفروا من ذلك نفوراً شديداً ، حتى لجأت الحكومة فى بعض الأحيان إلى إدخال التلاميذ فى المدارس قسراً .

ولكن مالبث الناس فى مصر أن لمسوا فائدة التعليم ، وكيف ينقل أولادهم من حال الضعف الجسمى والعقلى والخلقى ، إلى مستوى رفيع من الحياة فأقلعوا عن المارضة ، بل أقبلوا على التعليم بنفوس رضية .

وقد بلغ عدد التلاميذ فى عهد محمد على بجميع مدارس القطر المصرى على اختلاف أنواعها تسعة آلاف تلميذ ، تتولى الحكومة النفقة عليهم فى كل شىء ، وتعطى لهم بعض الرواتب (١) .

---

(١) راجع كتاب (لمحة عامة إلى مصر) تأليف كلوت بك ج ٢ ص ٥١٩ . وتاريخ الحركة القومية لعبدالرحمن الرافعى ص ٤٥١ ج ٣ .

كانت نهضة محمد على علمية حربية كما مر بنا ، لأن البلاد فى رأيه لم تكن فى حاجة للآداب حاجتها للعلوم والنهوض بالجيش ، ومسايرة الحضارة الأوربية العلمية فى الطب والهندسة والرياضيات والفنون العسكرية ، وكان محمد على نفسه يؤثر اللغة التركية على اللغة العربية فى التعليم أول الأمر ، ولكنه اضطر إلى أن يجعل اللغة العربية لغة الدراسة ، فكانت هذه الخطوة الأولى فى إحياء اللغة . ثم أنشأ مطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ كما ذكرنا ، وقد عكفت منذ عصره حتى اليوم على إحياء الكتب القديمة وإن كان اهتمامها بكتب الآداب فى عهد محمد على زهيداً ، لأنها كانت فى شغل بطبع مؤلفات رجال البعثات فى الفنون التى تخصصوا بها ، ولم تتجه إلى إحياء التراث العربى القديم إلا فى عصر إسماعيل كما سيأتى .

وأغلب الكتب التى ظهرت فى عصر محمد على كانت كتباً مترجمة فى شتى العلوم والفنون ولم تؤلف إلا كتب قليلة ليست ذات شأن ، مثل كتب الرحلات التى دون فيها أعضاء البعثات مشاهداتهم بأوربا ، ككتاب رفاعة بك (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) وما شاكله . أما الكتب العلمية البحتة فكان أغلبها ترجمة ، وقد انتشرت هذه الكتب كثيراً بتشجيع محمد على لمترجميها ومكافأتهم مكافآت سخية ، وبطبعها على نفقة الدولة فى مطبعة بولاق .

ويروى عن محمد على أنه لما عاد أعضاء البعثة الأولى إلى مصر استقبلهم بديوانه بالقلعة ، وسلم كلا منهم كتابا بالفرنسية فى المادة التى درسها بأوربا ، وطلب إليهم أن يترجموا تلك الكتب إلى العربية . وأمر بإبقائهم فى القلعة ، وألا يؤذن لهم بمغادرتها حتى يتموا ترجمة ما عهد به إليهم ، فترجموها ، وأمر بطبعها وتوزيعها على المدارس التى وضعت لها تلك الكتب (١) .

وكان للوقائع المصرية التى أنشأها محمد على فضل فى تذليل الأسلوب العربى للأخبار

---

(١) راجع تاريخ الحركة القومية للرافعى ج ٣ ص ٥٣٢ .

الصحفية ، وكانت على عهده تنشر أخبار الحكومة ومصالحها وبعض الأنباء الخارجية. وكان يحررها نوابغ العلماء فى عهده .

كل هذا ولاشك قد مهد اللغة نوعا ما للعصر الثانى فى النهضة وهو عصر إسماعيل. وهيأ جيلا من العلماء والمفكرين ، ومحبى الفنون والآداب ، قادوا مصر فى عهد إسماعيل إلى مدى واسع من الرقى والتعليم .

على أن النهضة السورية اتجهت وجهة أدبية من أول أمرها بخلاف النهضة المصرية ؛ وقد وقفنا على الدوافع التى حولت نهضة مصر إلى وجهة علمية ، أما الأسباب التى جعلت نهضة سورية أدبية ، فهى أن المبشرين كانوا حملة مشاعل تلك النهضة أول الأمر ، وكان همهم نشر التعاليم الدينية طبقا للمذاهب المسيحية الغربية ، وقد عنوا بترجمة التوراة ، وظل الجدل الدينى مسيطراً على الصحافة السورية ومجالس الأدب ثمة رَدَحا طويلا من الزمن . ولعل هذا يعلل لنا سبق السوريين فى الصحافة وإتقانهم لإخراجها وتبويبها ، وقد ظهرت ثمرة هذا الميل الأدبى عند السوريين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولنا إليه عودة .

الفصل الثانى

النهضـــة

عصر إسماعيل على الرغم من مساوئه السياسية والاجتماعية هو العصر الذى أينعت فيه النهضة الأدبية ، وأورقت ، وبشرت بثمار طيبة حلوة ، وكان عهده الباب الذى دلف منه الأدب إلى رياضه الغناء فى عصرنا الحاضر ؛ وذلك لأن إسماعيل وضع أسساً متينة لنهضة شاملة ، بعد أن مضت فترة ركود كادت تعصف بما غرسه محمد على ، وتعود بعصرالقهقرى إلى عصور الظلمات وذلك أيام الواليين عباس وسعيد ؛ إذ كانا من دعاة الرجعية ، فألغى عباس حين توليته كل المدارس العالية إلا المدرسة الحربية .

والأدب فى عصر إسماعيل مدين فى نهضته ورقيه وسيره نحو التحرر من أغلال الماضى فى صورته ومعناه إلى عدة عوامل لا نستطيع إغفالها ، أو التقليل من أثرها ، وسنلقى عليها نظرة عاجلة ، حتى يكون إدراكنا لتطور الأدب فى مصر والبلاد العربية إدراكاً صحيحاً .

— ١ —

التعليم :

استوى إسماعيل على أريكة مصر سنة ١٨٦٣ ، وما بها إلا مدرسة ابتدائية واحدة ، ومدرسة حربية ، وأخرى طبية وثالثة للصيدلة ، وأوقفت البعثات ، واستغنى عن خدمات من عاد من رجالها ؛ وكان إسماعيل ذا طموح ، ترسم فى نهضته إلى حد ما خطوات جده محمد على ، وأراد أن يرى مصر قطعة من أوربا فى ظرف وجيز ، فأعاد للبعثات سيرتها الأولى حتى بلغ عدد أعضائها فى عصره اثنين وسبعين ومائة ، فأعاد مدرسة البعثات بباريس لأنه عرف فائدتها أيام أن كان طالبا هناك .

وأخذت الحياة تدب إلى كل أنواع التعليم ، فأعيدت المدارس العالية التى كانت على عهد محمد على كالهندسة والطب ، وزيد عليها مدرسة الحقوق ، وكانت تسمى مدرسة الإدارة والألسن (بدلا من مدرسة الإدارة القديمة) .

وقد أسهمت مدرسة الحقوق فى النهضة اللغوية والأدبية ، فالمذكرات التى يعدها المحامون ، ووكلاء النيابة ، ولغة المرافعات والدفاع ، والخطابة القانونية قد تحسنت كثيراً وأدخلت فى اللغة كلمات عديدة لم تكن مستعملة من قبل . وظل رجال الحقوق والقانون يقودون مصر فى ميدان السياسة حقبة طويلة من الزمن ، ولكنهم والأسف قد أثروا بعقليتهم الجدلية ، وتربيتهم النظرية ، وإصلاحاتهم القانونية اللفظية فى حياة الأمة أثراً بليغاً ، وأبعدوها عن جادة الصواب ، وألقوا بها فى لجة الجدل والتناحر الحزبى ، والتشدق بالإصلاح ونأوابها عن الحياة العملية المنتجة ، على أن هذا الموضوع ليس مما يعنينا فى كتابنا هذا ، وإنما الذى يلفت أنظارنا هو نهضة الخطابة واللغة على يد من تخرج فى هذه المدرسة ، ولا سيما فى عصرنا الحاضر .

ومن المدارس التى أنشئت فى عهد إسماعيل ، وكان لها أكبر الفضل فى نهضة اللغة والأدب مدرسة دار العلوم التى أشار بها على مبارك . وافتتحها فى سنة ١٨٧١ . وقد رأينا ما كانت تعانيه مدارس محمد على الحديثة من فقر فى الكتب المدرسية المنظمة، والمدرسين الأكفاء ، الذين جمعوا بين العلم القديم والحديث ، وعرفوا النظام ، ونالوا حظاً من طرق التربية ، وأن ذلك الفقر التربوى كان معوقاً لنهضة الآداب . بيد أن دار العلوم سدت هذا الفراغ ، فقد كان طلبتها يختارون من متقدمى طلبة الأزهر ونوابغهم ، وينشئون تنشئة لغوية ، وأدبية ، وشرعية مع قسط وفير من العلوم الحديثة ، وطرق التربية . ولقد أدت دار العلوم رسالتها للأمة واللغة وللدين على الوجه الأكمل ؛ فحفظت اللغة وصانتها ، وقوتها وأيدت دعائمها ، وأحيت مواتها وجددت فى أساليبها ، ونفضت عن تراثها الجيد غبار القرون ، وقدمته للناس رائعا جذابا وعكف أبناؤها على تعليم النشء ، وتقويم ألسنتهم ،

وتدريب أقلامهم ، وتزويدهم بذخائر نفيسة من مختارات الشعر والنثر ، وتقديم الكتب التي تنهج نهجاً علمياً نفسياً يتمشى مع الطفل وملكاته وغرائزه ؛ فكانت بحق خير ما أسدى على مبارك من خدمات للغة العربية ، ولا تزال دار العلوم تقوم بنصيبها الوفير في نهضة التعليم واللغة ، وتعتمد عليها جامعتا القاهرة والاسكندرية وعين شمس في دراسة الآداب والنصوص وقواعد اللغة ، ولا زال بنوها في الطليعة من الكتاب والمؤلفين يجارون بتأليفهم تيار النهضة الحديثة ، ويمشون مع الزمن خطوة خطوة ، وقد تخرج على أيديهم زعماء النهضة في كل ميادين الحياة .

وفي عهد اسماعيل أنشئت أول مدرسة للبنات ، وذلك في سنة ١٨٧٣ حيث أسست السيدة (جشم آفت هانم) ثالثة زوجات إسماعيل مدرسة السيوفية ، وكان بها حين افتتاحها مائتا تلميذة . وبلغ عددهن في السنة الثالثة أربعمائة تلميذة يتعلمن بالمجان فضلا عن القيام عأ كلهن وملبسهن ، وكن يتعلمن القراءة والكتابة ويحفظن القرآن الكريم ، ويدرسن الحساب والجغرافيا والتاريخ والتطريز والنسيج .

وقبل مدرسة السيوفية كانت البلاد خلوا من مدرسة للبنات إلا مدرسة للولادة ، لم يغشها إلا البنات الحبشيات ، واستنكفت المصريات من دخولها ، ومدرسة إنجليزية أسستها مس (وتلي) سنة ١٨٦٠ وقد نجحت بعد عشر سنوات من الجهاد في جذب كثير من الفتيات المصريات إليها ؛ وكذلك كان الجهل متخذا من رءوس فتيات مصر ونسائها أعشاشاً ، إلا من حرص أهلها على تعليمها في البيت ، وقليل ما هن .

وقد خطا تعليم البنت منذ مدرسة السيوفية خطوات واسعة في مصر ، وتعددت ألوانه ومدارسه ، وزاحمت الفتاة الفتى في الجامعة ، واقتحمت الكليات المستعصية ، ولست هنا في مقام النقد ، ومناقشة طريق تعليم الفتيات ذلك التعليم النظرى ، ومنافسة البنين في كل شيء ، ولكن مما لا شك فيه أن تعليم المرأة ونهوضها دعامة متينة في النهضة الاجتماعية

والأدبية ، والأم المتعلمة تربأ بابنها أن يكون فريسة الجهل ، وتسعى جهدها أن تنيله حظا مهما كان يسيراً من نور العلم .

وقد أنشأت الحكومة بجانب هذه المدارس كثيراً من المدارس الصناعية والخصوصية ، كمدرسة المساحة والمحاسبة ، ومدرسة الزراعة ، ومدرسة العميان والبكم .

أما المدارس الابتدائية فقد زاد عددها حتى بلغ أربعين مدرسة ، وقد صار للأقباط زيادة على ذلك اثنتا عشرة مدرسة ، وافتتحوا مدرستين لتعليم البنات ، واحدة بالأزبكية والأخرى (بحارة السقايين) وقد وهبهم إسماعيل ألفاً وخمسمائة فدان ينفق ريعها على مدارسهم .

وأنشأت الحكومة كذلك عدة مدارس ثانوية منها مدرسة رأس التين فى سنة ١٨٦٢ والمدرسة الخديوية سنة ١٨٦٨ ، وأعادت ديوان المدارس ، وهو نواة وزارة التربية والتعليم بعد أن ألغاه سعيد ؛ ليشرف على التعليم ويرعاه ، ويدخل على نظمه وأساليبه التحسينات التى تساير الحياة .

ومن الوسائل التى ساعدت على النهضة الأدبية والعلمية فى عصر إسماعيل دار الكتب. وناهيك بما لها أثر فى نشر العلم ، وتحبيب الاطلاع وتسهيله ، ومعاونة المؤلفين والباحثين ومساعدة الناشرين والطابعين على استنساخ نفائس الكتب وإشاعتها بين الناس .

لقد كانت الكتب قبل ذلك مبعثرة فى المساجد يتولى أمرها خدم لا يقدرونها قدرها ففرطوا فيها ، وتسرب كثير من كنوزها الأدبية والعلمية إلى مكاتب أوربا ، وأهين كثير من الكتب القيمة باستعمالها فى دكاكين البدالين وغيرهم .

همت الحكومة بتأسيس دار الكتب فجمعت هذه الكنوز المبعثرة فى المساجد والتكايا والزوايا والأضرحة وغيرها وضمت إليها ألفى كتاب اشترتها من مكتبة المرحوم حسن (باشا)

الانسترلى ولما مات شقيق الخديو إسماعيل الأمير مصطفى فاضل ، وكان من أكبر هواة الكتب فى الشرق ، ابتاعت الحكومة من مكتبته ما يربى على ثلاثة آلاف كتاب ، وضمتها إلى دار الكتب ؛ فكان ذلك نواة لهذه المؤسسة العظيمة ، التى أخذت بعد ذلك تنمو وتزداد وتجلب لها الكتب من الشرق والغرب ، وتضم إليها المكتبات الكبيرة مثل مكتبة المرحوم العلامة أحمد تيمور وغيرها .

وقد ضم القسم الأدبى الذى كان يشرف على إحياء الكتب القديمة بمطبعة بولاق إلى دار الكتب ، وعكف منذ سنين على تصحيح وإخراج أمهات الكتب الأدبية من أمثال : الأغانى ، ونهاية الأرب ، والنجوم الزاهرة . . . وغيرها .

— ٢ —

الجمعيات العلمية :

إذا كثرت الجمعيات العلمية فى أمة ذلك دل على حيويتها ويقظتها ، ورغبتها فى السير نحو الكمال ، غير معتمدة على الحكومة فى غذائها العقلى ، فإذا اضطرب أمر الحكومات ، أو وليها من لا يحسن القيام بشئون الحكم ، لا يصاب الشعب بالشلل العقلى ، ولكن يمضى فى طريقه قدماً ، يتثقف ويستعد للنضال فى سبيل الحياة السعيدة بهمم أفراده اليقظين والجمعيات القوية المنظمة .

وقد بدأت تباشير هذه اليقظة العقلية فى عهد إسماعيل ، وبرهنت مصر على أنها آخذة بأسباب النهضة الصحيحة ، وأنها مستعدة للنضج الفكرى ، ولو توانت الحكومة فى الإصلاح ، أو قصرت فى الأخذ بأسبابه ، ومن أوائل من عنوا بنشر الكتب القديمة والمخطوطات .

١ — المرحوم رفاعة الطهطاوى متأثراً بطريقة صديقه المستشرق الفرنسى (سلفستردى ساسى) ، ومن مجهود رفاعة فى إحياء الكتب القديمة يقول العلامة على مبارك :

« ولرغبته فى نشر العلوم ، وسعة دائرتها ، وحبه عموم النفع بها ، استدعى مع بعض أفراد الحكومة المصرية من المرحوم سعيد باشا — وكان له ميل إلى المترجم رحمه الله . صدور الأمر بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة ، عم الانتفاع بها فى الأزهر وغيره منها : تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب والمقامات الحريرية ، وغير ذلك من الكتب التى كانت عديمة الوجود فى ذلك الوقت فطبعت[1] » .

٢ — المجمع العلمى : وقد أسس على عهد الفرنسيين سنة ١٧٩٨ ، وألغى عند جلائهم ولكنه أعيد فى عصر سعيد ، وظل يعمل مدة حكم إسماعيل ، مؤدياً رسالته فى نشر المباحث العلمية . ولا يزال حتى اليوم قائماً ، وإن تغير اسمه إلى (مجلس المعارف المصرى) ومقره وزارة الأشغال ، وله مجلة تنشر أبحاثه وقد تكلمنا عنه آنفاً[2] .

٣ — جمعية المعارف سنة ١٨٦٨ ، وهى أول جمعية علمية مصرية صميمة ظهرت لنشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر ، أسسها محمد باشا عارف وأسهم فى تأسيسها عدد كبير من أعيان البلاد ، وقد اقتنت مطبعة ، وقامت بطبع طائفة من أمهات الكتب فى التاريخ والفقه والأدب[3] .

ولقيت الجمعية تشجيعاً عظيما حتى بلغ عدد أعضائها ستين وستمائة عضو من الطبقة الممتازة فى الأمة[4] .

---

(١) الخطط التوفيقية — ترجمة رفاعة ج ١٣ (ص ٥٥ — ٥٦) .
(٢) راجع ص ١٦ من هذا الكتاب .
(٣) من هذه الكتب : أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير فى خمسة مجلدات ، وتاج العروس من شرح جواهر القاموس ، وتاريخ ابن الوردى ، وشرح التنوير على سقط الزند ، وديوان ابن خفاجه وديوان ابن المعتز ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وشرح الشيخ خالد على البردة . ورسائل بديع الزمان الهمذانى وغير ذلك من الكتب .
(٤) كان من أعضائها . إبراهيم المويلحى ، وأحمد فارس الشدياق ، والشيخ حسونة النواوى ، =

وظلت الجمعية تعمل ، وتؤدى رسالتها الثقافية إلى أن اشتد النزاع السياسى بين الخديو إسماعيل ، والأمير عبد الحليم لتنافسهما على أريكة مصر ، وكان عارف باشا من أنصار حليم باشا ، ففر إلى الآستانة خوفاً من إسماعيل ، وبذهابه انحلت الجمعية . وكان عارف أديباً ، ويروى له قوله :

ألم تعلم بأن سماء فكرى تلوح بأفقها شمس المعارف
تفرس والدى فى المزايا فيوم ولدت لقبنى بعارف

٣ — الجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥ ، وتعد من أهم المنشآت العلمية بمصر ، وتعنى بالأبحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ، ونشرها ، ولها مجلة دورية تنشر أبحاثها ، وما تقوم به من اكتشافات ، ولا تزال قائمة إلى اليوم .

٤ — الجمعية الخيرية الإسلامية . أنشئت أول الأمر بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ ، حين دفعت الحماسة جماعة من المتعلمين بالثغر — رأوا طغيان الأجانب ، واشتداد نفوذهم واستئثارهم بمرافق البلاد — إلى تأسيسها ، وكانت تعقد الاجتماعات ليلا ويتبادل أعضاؤها الخطب ، وقبيل افتتاحها انضم إليهم السيد عبدالله نديم ، فكلفته الجمعية العمل على تأسيس مدرسة حرة يتعلم فيها أبناء المسلمين ، وينشئون تنشئة صالحة ، وظلت الجمعية والمدرسة تتقدمان حتى قامت الثورة العرابية فتفرق القائمون بأمرها .

وقد أنشىء على غرار هذه الجمعية التعليمية جمعية باسمها فى القاهرة ، وأخرى بدمياط أما الجمعية الحالية فقد أسست سنة ١٨٩٢ على غرار الجمعية الأولى حين اشتدت الحاجة إليها وكان الداعى إلى تأسيسها الإمام الشيخ محمد عبده ، وسنعود إلى الكلام عنها فى ترجمته إن شاء الله .

= والدكتور محمد دارى بك ، ومصطفى رياض . والشيخ بدراوى عاشور . وتجد ثبتاً بأسماء أعضاء الجمعية فى آخر (الفتح الوهبى) وراجع كتاب عصر إسماعيل لعبد الرحمن الرافعى ج ١ ص ٢٥٦ ، وجورجى زيدان فى كتاب آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٧٨ .

— ٣ —

الصحافة :

وتعد الصحافة من أقوى عوامل النهوض بالشعب فى عقليته ، ولغته ، وعلمه ، والإصلاح الاجتماعى الذى يأخذ بيده صوب الكمال . وقد تحررت اللغة من آفاتها القديمة التى ورثتها عن عصور الانحطاط ، ولاسيما السجع والمحسنات والزخرف اللفظى والركاكة ، على يد الصحافة .

انقضى عصر محمد على كما رأينا ، وليس بمصر سوى صحيفة واحدة هى الوقائع المصرية ، وكانت موضوعاتها قاصرة على الأخبار الحكومية ، ولغتها لاتكاد تستقيم من الركة ، ولكننا نشاهد فى عصر إسماعيل نهضة جديدة ، واسعة عظيمة الأثر فى الصحافة .

سبق السوريون فى بلادهم بإصدار صحف سياسية ، وصدرت مرآة الأحوال بحلب سنة ١٨٥٥ ، وإن لم تعمر أكثر من عام واحد ، ثم صدرت حديقة الأخبار ببيروت سنة ١٨٥٨ وظلت تصدر حتى سنة ١٩٠٩ ، وكانت يوماً لسان الحكومة الرسمى . ثم خطت الصحافة خطوة أوسع فى سبيل الرقى بصدور الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق بالآستانة سنة ١٨٦٠ وقد طلعت على الناس بأسلوب جديد فى الكتابة العربية ، وافتن صاحبها فى تحريرها ، وتخير موضوعاتها .

فجمعت بين السياسة والأدب بشتى ضروبه وأبوابه بما فى ذلك القصائد البليغة لكبار شعراء العربية ، فذاعت ، وأقبل الناس على قراءتها بشغف بالغ ، ولم تدع بلداً عربياً بل إسلامياً إلا دخلته وقد سافرت كذلك إلى كثير من بلدان الغرب ، واقتبسوا منها ، وحكوا عنها ، وظلت تعمل حتى سنة ١٨٨٤ ، أما صاحبها :

أحمد فارس الشدياق :

فهو من رواد النهضة الحديثة فى الأدب ، وممن سبق بفكره ، وقلمه ، وعلمه أبناء زمانه لكثرة ما قرأ ، وجرب ورأى بعينيه ، وسمع بأذنيه ؛ لأنه جاب بلاداً عديدة وعرف لغات شتى ، وأفاد مما رأى ، ومما قرأ وعرف ، فكان نادرة من نوادر عصره .

ولد بقرية عشقوت فى لبنان سنة ١٢١٩هـ ١٨٠٤م من أسرة مارونية مشهورة ، ثم انتقل والده إلى قرية (الحدث) بالقرب من بيروت ، وتيتم فارس بن منصور (وعرف فيما بعد باسم أحمد فارس الشدياق) وهو صغير ، وكانت تتراءى عليه علامات النجابة فأتقن صناعة الخط ، وجعل ينسخ الكتب بنفسه ، ولغيره طلباً للرزق . وكان له أخ يسمى (أسعد) على حظ وفير من العلم والذكاء ، وعليه تلقى فارس دروسه الأولى ، وأفاد منه فائدة جليلة ووجهه وجهة صالحة ، وغرس فى نفسه محبة العلم . ثم اضطهد (أسعد) من بطريرك الموارنة ، وسيم ألوانا من العذاب ، لتغيير مذهبه المارونى إلى المذهب الإنجيلى ، حتى مات بأحد الأديرة وهو فى عنفوان شبابه فأثر موته على فارس ، وحزفى نفسه ، فكره الإقامة ببلاد الشام ، وأعلن سخطه على المارون ، فجدوا فى أثره لينكلوا به ، بيد أنه لجأ إلى المبشرين الأمريكيين ببيروت ، فأحسنوا مقدمه ، وبعثوا به إلى مصر ليعلم أعضاء بعثتهم فيها اللغة العربية .

وفى مصر تعرف على الشيخ محمد شهاب محرر الوقائع المصرية ، فلازمه وقرأ عليه طائفة من كتب اللغة والأدب ، وقرأ على غيره كتباً فى المنطق والنحو حتى تمكن من سائر علوم العربية ، وتقرب من كبار علماء مصر ، ومن معية الخديوى ، ثم أفسح له مجال الكتابة فى الوقائع ، فأخذ يدبج فيها المقالات الممتازة بأسلوب جديد لم يألفه المصريون من قبل ، وهو الأسلوب المرسل الرصين ، ثم أسند إليه تحرير الوقائع مدة .

وبعد ذلك سافر إلى (مالطة) سنة ١٨٣٤ بدعوة من الأمريكان ؛ ليعلم فى مدارسهم هنالك ، فمكث بها أربعة عشر عاماً ، عكف فى أثنائها على التدريس ، والتأليف ، ونشر الكتب وتصحيحها ، إلى أن طلبته جمعية ترجمة (التوراة) بلندن ليساعد فى التعريب والضبط والتنقيح ، فسافر إليها سنة ١٨٤٨ ، وأقام بها مدة مكنته من تعلم اللغة الإنجليزية وتعرف أحوال الإنجليز وبلادهم معرفة دقيقة ، ثم سافر إلى باريس بعد أن نال الحماية البريطانية ، وتجنس بالجنسية الإنجليزية .

وقد سجل رحلته إلى أوربا فى كتابه (كشف المخبا عن أحوال أوربا) . وقد ألف فى أثناء مقامه بأوربا كتابه (الساق على الساق فيما هو الفارياق) والفارياق لفظ مقتطع من (فارس الشدياق) .

ولما زار باى تونس باريس ، ووزع فى فرنسا كثيراً من الأموال على الفقراء مدحه الشدياق بقصيدة طويلة حببته إليه فاستدعاه للاقامة معه بتونس . وكان قد مدح السلطان عبد المجيد كذلك بقصيدة طويلة حسنت لديه ، فاستدعاه للآستانة ، ولكنه فضل الذهاب إلى تونس أولا ، فأرسل إليه (الباى) باخرة حربية لحضوره عليها . وقد وقعت بينه وبين شيخ الإسلام فى تونس مجادلات فى العقائد الدينية أدت إلى اعتناقه الإسلام وسمى نفسه (أحمد فارس) ، وتكنى (بأبى العباس) ، وكان يقول فى هذا . « لعمرى ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها ، ولكن إذا أراد الله بعبد خيراً لم يعقه عنه الشعر ولا غيره » .

وتولى عند الباى أرفع المناصب ، واشتهر اسمه ، فطلبته الآستانة مرة أخرى ، فلبى الدعوة ، وهناك ألحق بديوان الترجمة ، وتولى الإشراف على التصحيح بدار الطباعة .

ويقال إن الخديوى إسماعيل هو الذى أشار عليه فى أثناء زيارته للآستانة بإنشاء (الجوائب) وكان معجباً به ، فقام بإنشائها سنة ١٨٦١ ، واشتركت فيها الحكومة

المصرية بألفى نسخة . ثم قدم مصر سنة ١٨٦٦ ، وهو شيخ هرم ، فى عهد الخديوى توفيق ، فقوبل بكل إجلال وترحاب ، واجتمع به كثيرون من الأدباء ورجال الصحافة ، فبهرهم على الرغم من شيخوخته بتوقد قريحته ، وسرعة بديهته ، وحلاوة سمره وطلاوته ، ورقة حاشيته ورشيق عبارته ، ثم عاد إلى الآستانة فتوفى بها سنة ١٨٨٧ ، ونقلت جثته إلى سوريا ودفن بقرية الحازمية على مقربة من بيروت .

والشدياق من أوائل الذين اهتموا بالأبحاث اللغوية فى العصر الحديث ، وله كتاب (الجاسوس على القاموس) ، وهو كذلك من أوائل الكتاب المترسلين ، الذين خاضوا فى كل موضوع ، وأفادوا الأدب واللغة بأبحاثهم ومقالاتهم ، وله عدة كتب كان لها فى زمانه وبعد زمانه شأن يذكر ، منها :

١ — (الواسطة فى أحوال مالطة) وقد وصف فيه هذه الجزيرة وصفاً دقيقاً ، وأبان فيه من أصل اللغة التى ينطق بها أهلها ، وبين أنها اللغة العربية شيبت بلهجات الغزاة الفاتحين وألحانهم .

٢ — (كشف المخبا عن أحوال أوربا) فصل فيه سياحته فى بلاد الإنجليز وغيرها من الأقطار الأوربية ، ووصف عادات الإنجليز وآدابهم ، وأخلاقهم ، وتاريخ تمدينهم وسر تقدمهم بأسلوب شائق طلى .

٣ — (الساق على الساق فيما هو الفارياق) وهو كتاب ممتع ، سيق فى أسلوب قصصى وذكر فيه تاريخ حياته ، وأحواله الخاصة ، وما عاناه فى دهره ، وفى معركته مع الحياة والأيام . خلط فيه الجد بالهزل ، والسجع بالترسل ، والعلم بالأدب ، وأغرب فيه وأطرب ، وذهب فى تدبيجه وصياغته كل مذهب ، طبع بباريس ١٨٥٥ .

٤ — سر الليال فى القلب والإبدال .

٥ — (الجاسوس على القاموس) وضعه لاستدراك ما فات الفيروز بادى فى قاموسه وما وهم فيه من الألفاظ ، وهو مطبوع .

٦ — (منتهى العجب فى خصائص لغة الأدب) ، فى أسرار اللغة ، وخصائص الحروف ومدلولاتها ، ولكنه ذهب فريسة النار ، وهو بعد مخطوط لم يطبع .

٧ — (الجوائب) وقد اشتركت فيها مصر بألفى نسخة ، وكان باى تونس يمدها بخمسمائة جنيه سنوياً ، وتلقت مثل هذه الإعانة من السلطان عبد العزيز ، وكانت تصدر أسبوعياً ، وقد نالت شهرة عظيمة كما ذكرنا آنفاً ، وهى الجريدة الوحيدة التى جاهرت بالدفاع عن الخديوى إسماعيل فى دار الخلافة حينما خلع سنة ١٨٧٩ ، ورثته يوم وفاته ، ولم تخش سطوة الحكومة العثمانية ويقال إن السفارة الإنجليزية بالآستانة دفعت لصاحبها ألف جنيه ، نظير إذاعة المنشور الذى أصدره الباب العالى يعلن فيه عصيان عرابى باشا سنة ١٨٨٢ ، وأن ذلك كان من أسباب إخفاق عرابى .

وقد جمع سليم بن أحمد فارس منتخبات من الجوائب ونشرها فى سبعة أجزاء .

٨ — لأحمد فارس كتب مدرسية كثيرة منها : الباكورة الشهية فى نحو اللغة الإنجليزية ، والسند الراوى فى الصرف الفرنساوى ، واللفيف فى كل معنى طريف .

٩ — وله ديوان شعر لم يطبع .

وقد عنى الفرياق كما رأينا من مؤلفاته بالأبحاث اللغوية ومن ذلك كتابه الجاسوس على القاموس الذى حاول فيه أن يستدرك على صاحب القاموس ما جاء فى معجمه من قصور وإبهام وإيجاز وإيهام وعسر فى مراجعة الأفعال ومشتقاتها ، وذلك بأن يؤلف فى اللغة كتاباً سهل الترتيب واضح التعاريف ، شاملا للألفاظ التى استعملها الأدباء والكتاب وكل من اشتهر بالتأليف .

وقد دعاه إلى ذلك أمران :

أولها مزاحمة اللغات الأجنبية للغة العربية واللسان العربى « فكادت تجلى عنه أهله وتحجب عنهم ظله وتحبس وابله وطله ؛ لأن ترتيب كتب لغاتهم أسهل والوصول إليها أعجل ، ولا سيما أنها قليلة المشتقات ، وليس فى تعريف ألفاظها كبير اختلاف فى الروايات أما من يتعاطون منا التجارة ، ويحملون عبء الإمارة ، فإنهم يزعمون أن اللغة العربية لا تصلح فى هذا الزمن لهاتين الخطتين فلابد بكلام الأجانب وإن أدى إلى الخطتين ، فمن ثم مست الحاجة إلى زيادة تفصيل لمفردات لغتنا ومركباتها ، وتبيين لأصولها من متفرعاتها . . . الخ » .

وثانيهما رغبة « فى حث أهل العربية على حب لغتهم الشريفة ، وحث أهل العلم على تحرير كتاب فيها خال من الإخلال ، مقرب كما يطلبه الطالب منها دون كلال ، فإنى رأيت جميع كتب اللغة مشوشة الترتيب ، كثر ذلك أو قل وخصوصاً كتاب « القاموس » الذى عليه اليوم المعول » .

وقد أثار فى هذا الكتاب موضوعات لا تزال موضع بحث حتى يومنا هذا ، وقد حاول فى غير هذا الكتاب أن يدافع عن اللغة العربية وأن يعمـل على تزويدها بالمصطلحات الفنية فهو فى الوقت الذى يمتدح فيه اللغة العربية لسهولة ألفاظها ووضوحها نراه يعترف بأن مفردات العربية غير تامة فيما يتعلق بما استحدث بعد العرب الذين وضعوا اللغة من فنون وصناعات ، مما لم يكن يخطر ببالهم ، ولكن ذلك فى رأيه مما يشين اللغة ؛ إذ لا يحتمل أن واضع اللغة يضع أسماء لمسميات غير موجودة ، « وإنما الشين علينا الآن فى أن نستعير هذه الأسماء الأجنبية مع قدرتنا على صوغها من لغتنا ، على أن أكثر هذه الأسماء هو من قبيل اسم المكان أو الآلة ، وصوغ اسم المكان والآلة فى العربية مطرد من كل ثلاثى » .

وقد حث على استخدام « النحت » والإكثار منه لإثراء اللغة كما فعلت اللغات الأجنبية الأخرى ، وذلك حتى نستغنى عن استعمال الدخيل .

ومن روائع أدبه قوله يصف مصر فى كتابه للساق على الساق .

« ومن خواصها أن أسواقها لا تشبه رجالها ألبتة ؛ فإن لأهلها لطافة وظرافة ، وأدباً وكياسة وشمائل مرضية وأخلاقا زكية وأسواقها عارية عن ذلك رأساً .

ومنها : أن العالم عالم ، والأديب أديب ، والفقيه فقيه ، والشاعر شاعر ، والفاسق فاسق ، والفاجر فاجر . ومن ذلك أن البنات اللائى يستخدمن فى (الميرى) لحمل الآجر والجبس والتراب ، والطين والحجر والخشب ، وغير ذلك ، يحملنه على رءوسهن ، وهن فرحاتٌ ، جاهجاتٌ ، سابحاتٌ ، صادحاتٌ ، مادحاتٌ ، غير ترحات ، ولا دالحات[1] ، ولا رازحات . ولا كالحات ، ولا نائحات ، ومن كان نصيبها من الآجر نظمت عليه (موالا) آجرياً ، أو من الجبس غنت له أغنية جبسية ، كأنما هن سائرات فى زفاف عروس .

ومن ذلك أن (البرنيطة) فيها تنمِى وتعظم ، وتغلظ وتضخم ، وتتسع وتطول وتعرض وتعمق ، فإذا رأيتها على رأس لابسها حسبتها (شَـوْنَةً)[2] ، قال (الفارياق) : وكثيراً ما كنتُ أتعجبُ من ذلك وأقول : كيف صح فى الإمكان ، وبدا للعيان أن مثل هذه الرءوس الدميمة ، الضئيلة القميمة ، الخسيسة اللئيمة ، المستنكَرة المشئومة ، المستقذرة المهوعة[3] المستقيمة المستفظعة ، المستسمجة المستشنعة ، والمسترزلة المستبشعة ،

---

(١) من دلح كمنع : مشى بحمله منقبض الخطو لثقله ، وسحابة دلوح : كثيرة الماء .

(٢) الشونة . كما جاء فى القاموس مخزن الغلال — مصرية .

(٣) المهوعة : من هوعته ما أكل إذا قيأته إياه .

تقل هذه (البرانيط) المكرّمة ، وكيف أنماها هواء مصر ، وكبرها إلى هذا المقدار ، وقد طالما ، كانت فى بلادها لا تساوى قارورة الفرّاش ، ولا توازن ناقورة الفَراش ، وكيف كانت هناك كالترب ، فأصبحت هنا كالتبر ؟ يا هواء مصر ، يا نارها ، يا ماءها ، يا ترابها[1] صيِّرى طربوشى هذا (برنيطة) ، وإن يكن أحسن منها عند الله والناس وأفضل ، وأجمل وأمثل ، وللعين أبهى وأكمل وعلى الرأس أطبق وبالجسم أليق ... قال : فلم يُغن عنى النداء شيئاً ، وبقى رأسى مطربشاً ، وطرفُ دهرى مُطْرفِشاً[2] .

ومن خصائصها أيضاً أن البُغاث بها يستنسر ، والذباب يستصقر ، والناقة تستبعر ، والجحش يستمهر ، والهر يستنمر ، بشرط أن تكون هذه الحيوانات مجلوبة إليها من بلاد بعيدة .

ومن ذلك أن كثيراً من أهلها يرون أن كثرة الأفكار فى الرأس يكثر عنها الهموم والأكدار أو بالعكس ، وأن العقل الطويل يتناول البعيد من الأمور كما أن الرجل الطويل يتناول البعيد من الثمر وغيره وأن تلك الكثرة سبب فى الإقلال ؛ فما دام النور مُوقَداً ، فلابد وأن تُنقَد الفتيلة ، ولا يمكن إبقاؤها إلا بإطفاء النور ، أو كالماء فى الوادى فإذا دام الماء جاريا فلابد وأن ينصب فى البحر ، شتى حقن بقى ، أو كالفلوس فى الكيس ، فما دام المفلس أى صاحب الفلوس يمد يده إلى كيسه ، وينفق منه فَنِىَ ما عنده : إلا أن تُرْبطَ يدُه عن الكيس ، أو يُرْبطَ الكيسُ عن يده ؛ فمن ثَمّ اصطلحوا على طرْيقة لتوقيف جريان العقل فى ميدان الدماغ حيناً من الأحيان ، ليتوفر لهم فى غيره ، وذلك بشرب شىء من الحشيش ، أو بمضغه ، أو بالنظر إليه ، أو بذكر اسمه ، فحين يتعاطونه تغيب عنهم الهموم ، ويحضر السرور ، وتولى الأحزان ، ويرقص المكان » .

---

(١) يشير بالهواء والنار والتراب والماء إلى العناصر الأربعة التى كان يعتقد الفلاسفة القدماء أنها أصل المواد .

(٢) الطرف : العين ، وطرفشت العين : أظلمت وضعفت ، وفلان نظر وكسر عينيه .

وفى الحق لم يدع أحمد فارس شيئاً فى أهل مصر وعادتهم إلا وصفه وصفاً دقيقاً بذلك الأسلوب المرح ، وهذا التهكم المحبوب ، وله نظرات نافذات حين يتكلم على الأجانب وكيف صار لهم الحول والسلطان ، مع أنهم كانوا فى بلادهم أفاقين مفلسين ، وحين يعبر عن فلسفة الحشاشين ، وكيف يعملون جادين مخاصين على تغييب العقل ، وهو الذى يهدى الإنسان سواء السبيل .

وأنت ترى فى أسلوبه السجع ، والترسل ، والسهولة ؛ والتوعر ، والكلمات العامية ، والكلمات الغريبة التى لا تستعمل إلا فى المعاجم ، وكأنه قصد إلى إحيائها ، كما كان يفعل أصحاب المقامات ، لولا طرافة الموضوع ، وصدق الوصف ومما يلفت الأنظار فى أدب أحمد فارس أنه كان قوى الملاحظة ، مَعْنِياً بأحوال الشعوب وطرق حياتهم ، والموازنة بين الشعوب التى زارها والشعوب العربية ، وله فصول ممتعة فى كتابه (الساق على الساق) عن الإنجليز وبلادهم ، والفرنسيين وأحوالهم . ومما قاله فى الموازنة بين الأدب الغربى والعربى قوله :

« فإنهم أول ما يبتدئون المدح يوجهونه إلى المخاطب ، ويجعلونه ضرباً من التاريخ ، فيذكرون فيه مساعى الممدوح ومقاصده وفضله على من تقدمه من الملوك بتعديد أسمائهم ولما ترجم (مسيو دوكان) قصيدتى التى مدحت بها المرحوم أحمد باشا والى تونس وطبعها مع الترجمة ، كان بعضهم يسألنى : هل اسم الباشا (سعاد) ؟ وذلك لقولى : « زارته سعاد وثوب الليل مسدول » فكنت أقول : لا ، بل هو اسم إمرأة فيقول السائل . «وما مدخل المرأة بينك وبين الباشا ؟» وهو فى الحقيقة أسلوب غريب للعرب ، قال العلامة الدس ت : « اعلم أنه قد جرت عادة الشعراء أنهم إذا أرادو مدح إنسان أن يذكروا قبله الغزل لأجل تهييج القريحة وتحريك النفس للشعر ، والمبالغة فى الوصف ، وترويح النفس ورياضتها » قلت : كما أن الإفرنج ينكرون علينا هذه العادة ، كذلك ينكرون المبالغة فى وصف الممدوح . وأما تشبيهه بالبحر والسحاب والأسد ، والطود ، والبدر ، والسيف ،

فذلك عندهم من التشبيه المبتذل ، ولا يعرضون له بالكرم . وبأن عطاياه تصل إلى البعيد ، فضلا عن القريب ، فهم إذا مدحوا ملوكهم ، فإنما يمدحونهم للناس ، لا لأن يصل مدحُهم إليهم » .

ومن فكاهاته التهكمية ، ونقداته اللاذعة ما قاله عن علم النحو وتمله ، قال : أحد التلميذين . ألا قبحاً لذوى الخواطر البليدة ، والفطن البعيدة ! . كيف لا يتعلم الناس كلهم فن النحو ، وهو أسهل من حك ما تحت الحِقْو ؛ أما والله لو كانت العلوم كلها مثله ، لما غادرت منها كبيراً وصغيراً إلا استوعبته كله ، ولكنى سمعت أن النحو إنما هو مفتاح العلوم ، ولا يُعَدُّ منها فلابد أن يكون غيره أصعب منه .

فقال له معلمه : لا تقل هكذا ، بل النحو أساس العلوم ، وكل العلوم مفتقرةٌ إليه افتقار البناء إلى الأساس ، ألا ترى أن أهل بلادنا لا يعلمون سواه ، ولا يعرجون على غيره ؟ وعندهم أن من تمكن منه فقد تمكن من معرفة خصائص الموجودات كلها ، ولذلك لا يؤلفون إلا فيه . وإنما يحصل فيه خلاف بينهم فى تقديم بعض الأبواب على بعض ، وفى توضيح ما كان مبهَماً منه بأدلة وشواهد ، واختلفوا أيضاً فى الشواهد ، فمن قائل إنها مفتعلة ، ومن قائل إنها ضرورة أو شاذة ، بيد أن المآل واحد ، وهو أن العالم لا يسمى عالما إلا إذا كان متمكناً من النحو مستقصياً لجميع وقائمه ، ولا يكاد يستتب أمر إلا به . ولو قلتَ مثلاً : ضرب « زيد عمرو » من غير رفع زيد ونصب عمرو ، فما يكون ضربه حقاً ، ولا يصح الاعتماد على هذا الإخبار ؛ فإن حقيقة فعل الضرب متوقفة على عِلْم كون زيد مرفوعا ، وجميع اللغات التى ليس فيها علامات الرفع فهى خالية عن الإفادة التامة ، وإنما يفهم الناس بعضهم بعضاً من دون هذه العلامة عن دُربةٍ واتفاق ، فلا معوَّل على كتبهم وإن كثرتْ ، ولا على علومهم وإن جاتْ » .

وأخذ المعلم يثنى على النحو ثناء عظيما ، ويبين أنه هداه إلى مسألة حار فيها حيرة

عجيبة ، فسأله تلميذه : وما هذه الفائدة يا أستاذى ؟ قال : قد طالما كان يخامرنى الريب في قضية خلود النفس ، فكنت أميل إلى ماقالته الفلاسفة ، من أنه كلُّ ما كان له ابتداء فهو متناه ، فلما رأيت النحو له ابتداء ، وليس له انتهاء قست النفس عليه فزال عنى والحمد لله ، ذلك الإبهام » وفى هذا الكلام لذعات حادة للنحاة لا تخفى على اللبيب .

وهكذا نجد أحمد فارس فى كل ما كتبه يخلط الجد بالهزل ، ويتهكم تهكما مريراً على الأوضاع التى لا تروقه ، وقد قال عن كتابه (الساق على الساق فيما هو الفارياق) :

هذا كتابى للظريف ظريفاً طلقَ اللسان وللسخيف سخيفاً
أودعته كلَاً وألفاظاً حلت وحشوتهُ نقطا زهت وحروفاً
وبداهةً وفكاهةً ونزاهة وخلاعةً ، وقناعة وعزوفاً
كالجسم فيه كل عضو تعشق اا مستور منه وتحمد المكشوفا
فصَّلته لكن على عقلى فما مقياس عقلك كان لى معروفاً

وقد وضع أحمد فارس كل تجاربه وعلمه وفنه ، وقلمه الظريف القوى المتمكن من مختلف أساليب اللغة فى إخراج (الجوائب) فكانت من الصحف الأولى فى العالم . وله يرجع فضل السبق فى تعبيد العربية وتذليلها بأسلوبه المرسل الطليق ، كما أنه من أوائل الذين ملئت قلوبهم بغضاً للأجانب ، فهم عن حق أغراضهم الدنيئة ، وسلقهم بلسان حاد ، وحرَّض على إخراجهم من ديار العرب والشرق . وقد خَصَّ مصر بحب وفير ، وكان مثلا فى الصحافة انتهجه المصريون ، وحذوا حذوه فلا بدع أن كان من رواد النهضة الحديثة .

كل ذلك حفز المصريين إلى الاهتمام بالصحافة ، ووجدوا من إسماعيل صدراً رحباً للنقد السياسى اللهم إلا ما يمس شخصه ، فلصاحبه الويل والثبور كما حدث لمدير الأهرام.

سنة ١٨٨٩ ، حين أشار إلى مال صرف من الخزينة ، ولم يعلم مصيره ، وكاد إسماعيل يبطش به ، وبجريدته لولا أن ارتمى فى حضن فرنسا لحمته ؛ كما وجدوا من إسماعيل تشجيعاً للحركة الأدبية وميلا للأدب والفن والعلم . ومن الصحف المصرية التى ظهرت فى عهد إسماعيل :

١ — مجلة اليعسوب :

وهى أول هذه الصحف المصرية ، وهى مجلة طبية أصدرها الدكتوران محمد على البقلى ، وإبراهيم الدسوقى ، وكانت شهرية عربية اللغة ، وهذا يدلنا على عظم المحاولة التى كان يبذلها أطباء البعثات العلمية فى تذليل اللغة العربية للمصطلحات العلمية ، والاستعانة بالكتب القديمة ، وبوضع كلمات من عندهم — على سبيل الاشتقاق — ولقد كانت هذه المجلة الأولى من نوعها فى الشرق ، ولكنها للأسف لم تعمّر طويلا ، ومنها نماذج بدار الكتب ، وكان ظهورها سنة ١٨٦٥ .

٢ — مجلة روضة المدارس :

أنشأها العلامة على مبارك سنة ١٨٧٠ حين كان وزيراً للمعارف المصرية ، وهى من أجل أعماله خدمة للغة والأدب ، وكانت الوزارة تتولى إصدارها والإنفاق عليها ، وقد أسست لإحياء الآداب العربية ، ونشر المعارف الحديثة وأسندت رئاسة تحريرها للعالم الأديب رفاعة الطهطاوى ، فقد رأى على مبارك أن رفاعة أجدر الناس أن يتولى الإشراف على روضة المدارس ، وفى ذلك يقول : « لما كان حضرة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس ، وهو المشار إليه بين أرباب المعارف بالبنان ، والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل إنسان ، ناسب أن يجعل هذه الصحيفة تحت نظارته ، لتتحلى من معلوماته بالدُّر الثمين ، وينشر علمها ، فيتلقاه محب المعارف باليمين » .

وقد صدَّر رفاعة بك أول عدد منها بمقال بيَّن فيه الهدف الذى تسعى إليه المجلة :

والخطة التى تسير عليها لبلوغ هذا الهدف ، ومما جاء فى هذا المقال قوله : بحيث تكون فيها الفوائد المتنوعة ، والمسائل المتأصلة والمتفرعة ، أقرب تناولا للمطّلع المستفيد ، وأسهل مأخذاً لمن يعانيها من قريب الفهم والبعيد ، بقلم سهل العبارة ، واضح الإشارة ، وألفاظ فصيحة غير حوشية ، ولا متجشمة لصعب التراكيب ، ومعان رجيحة تنفرط فى سالك مُستَحسَن الأساليب » .

وقال : « وقد تنزهت صحيفتنا هذه مما سوى مايخص بشر فائدة علمية ، ومحمدة أثرية مما يقع عليه الاختيار ولا ضرر فيها ولاضرار ، فليس من وظائفها تقييد الأحوال السياسية الوقتية ، والأفعال الرئاسية والإدارية » .

ومن الذين أسهموا فى تحرير المجلة عبدالله فكرى الذى أحيلت عليه العلوم العربية والفنون الأدبية ، و « بروكش » ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم وخُص بالتاريخ ، وإسماعيل الفلكى وعُهد إليه بالفلك ، ومحمد قدرى وخُص بالجغرافية والأخلاق والعقائد ، وأحمد ندا وعُهد إليه ببيان المواد النباتية ، والشيخ عثمان مدوخ ، وطلب منه إمداد المجلة بغرائب النوادر والمضحكات والألغاز والأحاجى والنكات ، وأحيل على مباشر تحريرها الكلام على محروسة مصر القاهرة ، وذكر أخطاطها وشوارعها ، وأحيلت كافة العلوم الرياضية على مدرسى المدارس ، ومايرد منهم فى القابل ، يذكر اسم صاحبه حتى لايضيع عملُ عامل(١) .

وقد ضم إلى هيئة التحرير بعدَ إنشائها السيد صالح مجدى وكيل ديوان المدارس ، والشيخ حسونه النواوى مدرس الفقه وعلم الكلام بمدرسة الألسن وصار فيما بعد شيخاً للأزهر . وأسندت مباشرة تحريرها وترتيب مقالاتها إلى على فهمى ولد رفاعة (بك) ، وكان مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن ، واتخذت المجلة شعارها :

---

(١) العدد الأول من مجلة روضة المدارس .

تعلم العـــلم واقرأ تَحُز فخار النبـــوة
فالله قال ليحيى (خذ الكتاب بقوة)

فكانت هذه المجلة ميداناً يتبارى فيه فطاحل الكتاب فى ذلك العصر ، وقد عنيت كما رأيت بالمباحث الطريفة فى العلم والأدب والاجتماع والفلك والتاريخ والرياضيات ، وكانت تصدر مرتين فى الشهر ، وظلت تصدر ثمانى سنوات ، فمهدت السبيل للصحافة الحديثة ، وكانت توزع بالمجان على جميع التلاميذ ، وقد أفسحت أعمدتها للطلبة ينشرون أبحاثهم الجيدة فيها فعودتهم بذلك الاطلاع والكتابة والبحث ، وبذل الجهد المستقل عن أساتذتهم .

ومن الأمثلة على تشجيع المجلة للتلاميذ ما نشرته « للشاب النجيب ، إسماعيل أفندى صبرى أحد تلاميذ مدرسة الإدارة وقتئذ » . وقد صار فيما بعد الشاعر المشهور إسماعيل (باشا) صبرى .

فمن ذلك قصيدته فى مدح الخديو إسماعيل بالعدد العشرين من السنة الأولى مطلعها :

سفرتْ فلاح لنا هلال سعود ونما الغرام بقلبى المعمود

وقصيدة أخرى بالعدد الخامس من السنة الثانية قال فيها :

أغرتك الغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر
وشعرك أم ليل تراخى سدوله وثغرك أم عقد تنظم من درٍّ

وقصيدة أخرى بالعدد الثالث والعشرين من السنة الثانية استهلها بقوله :

لا والهوى العذرى والوجد عَذْلُ عذولى فيك لا يجدى
إنى مع الصد وطول الجفا باق على الميثاق والعهـــد

وغير ذلك مما يعد تقدمة وباكورة للشعر الحديث[١] .

(٣) أما الصحف السياسية بمصر فأقدمها ظهوراً جريدة (وادى النيل) أنشأها الكاتب الأديب الشاعر عبد الله أبو السعود[٢] ، وكانت تصدر مرتين فى الأسبوع على شكل المجلات ثم ألغتها الحكومة فى سنة ١٨٨٣ ؛ بيد أنها استأنفت جهادها وحياتها باسم جديد هو « روضة الأخبار » التى أصدرها محمد أنسى نجل عبد الله أبى السعود ، وكان والده يحرر القسم السياسى بها إلى آخر حياته .

(٤) وتليها فى الظهور جريدة (نزهة الأفكار) سنة ١٨٦٩ لمنشئها إبراهيم المويلحى، ومحمد عثمان جلال ، وناهيك بهما فى ذلك العصر فحولة قلم ، وجزالة أسلوب وطرافة موضوع وحلاوة نكتة ، وكانت هذه الجريدة أسبوعية ، ولكن لسوء الحظ لم يصدر إلا عددان ، وضاق بها إسماعيل ذرعاً ، فعطلها حين نصحه بذلك أحد وزرائه خشية أن تثير لهجتها الخواطر ضده .

(٥) وأنشأ بعض الأقباط بمصر فى سنة ١٨٧٧ ، جريدة الوطن ، وكانت سياسية وطنية تميل إلى التحرر .

ثم نزح عقب حوادث سنة ١٨٦٠ فى سوريا[٣] جماعة من الأدباء الذين فروا بحريتهم من الاضطهاد ؛ جاءوا وقلوبهن تغص بالحقد والإحن على تركيا ، وفى نفوسهم ميل إلى

---

(١) راجع تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى ج٣ ص ٤٩٨ ترجمة رفاعة الطهطاوى وعصر إسماعيل له كذلك ج ٢ ص ٢٦٢ وديوان إسماعيل صبرى ص ٢ — ١٠ وأعداد مجلة روضة المدارس .

(٢) توفى سنة ١٨٧٨ وهو من أوائل تلاميذ رفاعة الطهطاوى ؛ واشتغل بالتدريس بدار العلوم واشتهر بالترجمة والكتابة فى التاريخ . وصار عضوا بمجلس الاستئناف .

(٣) فى هذه السنة زاد اضطهاد الأتراك لمسيحيى سوريا ، وقامت مذابح فى جبل لبنان ذهب ضحيتها عدد كبير من المسيحيين : واضطر كثير من سكان القرى بجبل لبنان إلى الهجرة . وذلك لأن نصارى الشام قد أظهروا ولاءهم لإبراهيم باشا وكرههم الحكم التركى أيام وجوده بينهم . فلما سحبت الجيوش المصرية ظلوا على ولائهم لمصر . فانتقم الأتراك منهم شر انتقام .

الحرية والتنفيس عن الآراء المكبوتة . وقد شجعهم إسماعيل على الإقامة بمصر ، والإسهام في نهضتها ؟ ولا نستطيع أن ننكر ما أسدوه للصحافة ولنشر الثقافة من خدمات .

ومن أوائل الذين وفدوا على مصر عقب هذه الحوادث الدامية .

أديب إسحق :

وهو فلتة من فلتات الزمن . استطاع مع حداثة سنه أن يتوهج في سماء الأدب والسياسة والخطابة نجماً ساطعاً ، وأن يكوّن مدرسة إنشائية يحتذيها الأدباء والخطباء . وكان من الذين امتلأت قلوبهم بحب مصر والشرق ، ورأى الأجانب الطامعين ، والمرتزقة والأفاقين ، فأضرمها عليهم ناراً مشبوبة ، لا تخمد لها جذوة في كل مكان حل به ، وما ارتحل وشرد في سبيل مبدئه وفيض وطنيته وحرارة أسلوبه حتى احترق صغيراً ومات ولما ينته العقد الثالث من عمره .

ولد أديب إسحق سنة ١٨٥٦ من أبوين سوريين : ونشأ بلبنان ، وتعلم العربية والفرنسية في مدرسة الآباء العازاريين ، واضطر إلى الكدح في سبيل العيش وهو صغير ، ودرس التركية في أوقات فراغه ، ثم انضم إلى والده في خدمة بريد بيروت . وقد ظهرت ميوله الأدبية في حداثته فعهد إليه وهو في السابعة عشرة بتحرير جريدة (التقدم) .

وكان إلى عمله الصحفي يترجم عن الفرنسية ويؤلف ، وانتمى إلى جمعية (زهرة الآداب) ثم صار رئيساً لها فيما بعد . وقد ترجم (أندروماك) لراسين ؛ وساعد صديقه (سليم نقاش) في تأليف المسرحيات ، وتمثيلها ، ولحق به في الأسكندرية . وكانت فرقتهما التمثيلية من أوائل الفرق العربية ، وعرب أديب رواية (شارلمان) وأعجب بها المصريون إعجابا عظيما[1] وألف رواية غرائب (الاتفاق) .

---

(1) M. Sapey : La Genése de L, Esprit National Egyptian p. 128.

وحن إلى الصحافة فذهب إلى القاهرة ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى . وأنشأ هو وصديقه سليم نقاش جريدة (مصر) سنة ١٨٧٧ وكانت أسبوعية ، وقد تأثرا فيها بتعاليم جمال الدين الأفغانى وأسلوبه الملتهب ، أنشآها وهما مفلسان لا يملكان غير عشرين (فرنكا) بيد أن أسلوبها وقوة بيانها ، وجدة أفكارها ، ودعوتها الجريئة للحرية ، قد ضمنت لها الإقبال ، والرواج ، ورحب بها الذين يحبون القلم القوى ، والأسلوب الجزل والأفكار الجريئة ؛ واندفع كاتبها كالبركان يرسل ناراً ، ونوراً ، وينفس عن نفسه ما طالما كبت فيها وهو ببيروت ، وما ذاقه وقومه من اضطهاد وظلم على أيدى الأتراك ؛ فحركت الهمم وأعادت للأسلوب الرفيع عزته .

وقد وجد أديب إسحق وسليم نقاش فى رواج (مصر) ما شجعهما على إصدار جريدة يومية سمياها (التجارة) ، وكانت لا تقل عن أختها حماسة وقوة ، ونشر فيها جمال الدين الأفغانى بعض المقالات ، تارة ممهورة بتوقيعه ، وتارة بتوقيع مستعار ، وقد ألغاها رياض باشا سنة ١٨٨٠ .

ولكن ذلك لم يثن من عزيمة (أديب إسحق) فهاجر إلى باريس . واستأنف جهاده وأصدر ثمة جريدة (القاهرة) بالعربية وقال فى مقالها الأول : « ما تغيرت الحقيقة بتغير الاسم ، بل هى مصر خادمة مصر »

وقد حرص فى أثناء مقامه بباريس على معرفة عدد كبير من ساسة فرنسا وعلمائها حتى روى فيكتور هوجو أنه قال لمن كانوا فى حضرته ، على أثر انصراف أديب : « هذا نابغة الشرق » . ولكن برد باريس ، وإسرافه على نفسه فى كل شىء قد جنى على صدره ، فرجع إلى لبنان ملتمسا الشفاء ، وعاد إلى تحرير جريدة التقدم مرة أخرى .

وحين تغيرت الأحوال فى مصر دعى إليها ، وعين مديرا لقلم الإنشاء والترجمة بوزارة المعارف ، وسمح لجريدة مصر بالظهور ، وشغل وظيفة أخرى بجانب وظيفته الأولى حيث عين كاتب سر مجلس شورى القوانين ، وحين قامت الثورة العرابية واشتد لظاها عاد إلى

بيروت ثم رجع إلى الإسكندرية ، ثم اشتد به مرض الصدر ، فعاد إلى لبنان حيث مات بقرية الحدث بالقرب من بيروت وهو فى التاسعة والعشرين من عمره سنة ١٨٨٥ . وهى قريبة من القرية التى دفن فيها أحمد فارس الشدياق ، وهكذا جمع الموت بين علمين من أعلام النهضة الحديثة ورواد الفكر والأدب الجديد .

وكان أديب إسحق ناراً مسلطة على الاستعمار ، والذل والعبودية ، وقد التقى بجمال الدين فزادت حماسته واضطرمت النار فى فؤاده ، فأخرجها شواظاً ملتهباً فى كلمات تصب الحُممَ على الأعداء ، وتثير الهمم الفاترة ؛ لقد نادى بوجوب اتحاد الأمم العربية ، فسبق زمنه قرناً أو ما يقرب من قرن ، وفى ذلك يقول : « ما ضر زعماء هذه الأمة لو سارت بينهم الرسائل بتمبين الوسائل ، ثم حُشدوا إلى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد كأنها من فم واحد . قد جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، وهبت الحاصبة ، تليها العاصفة ، فذرَّت حقوقنا فصارت هباء منثورا ، ولمت بنا القارعة ووقعت الواقعة ، فصرنا كأن لم نغن بالأمس ، ولم نكن شيئاً مذكورا ، فهلم ننشد الضالة ، ونطلب المنهوب ، لا تقوم بأمر ذلك فئة بدون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب ، فنحن فى الوطن إخوان ، تجمعنا جامعة اللسان ، وكلنا وإن تعدد الأفراد إنسان .

أيحسبون أن ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يخافون أن يذهب ذلك الاجتهادى سُدى ، أم لايعلمون أن مثل هـذا الاجتماع ، منزهاً عن المقاصد الدينية ، منحصرا فى العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من أكثر النحل العربية — يزلزل الدنيا اضطراباً ، ويستميل الدول جذباً وإرهاباً ، فتعود للعرب الضالة التى ينشدون ، والحقوق التى يطلبون ، ولاخوف على زعمائهم ولاهم يحزنون » :

إن هذا ولاريب تفكير مشرق ، وقلب عظيم يتجه الاتجاه السليم الذى يجب أن تسير فيه الأمة العربية منذ أن رأت الغرب الجشعُ يطمع ، ويحد برائنه لينهشها الواحدة تلو الأخرى ، ولو فعلت ذلك من أواسط القرن التاسع عشر ما أصابها اليوم ما أصابها .

وكان أديب ممن يعشق حرية الرأى وينادى بالدستور ، وقد كتب مقالا يرد فيه على الشيخ حمزه فتح الله محرر جريدة (البرهان) فى سنة ١٨٨١ حين دعا الشيخ إلى حكم الفرد يوم افتتاح مجلس النواب ، فقال له أديب :

صفحا لصرف الدهر عن هفواته ‏ ‏ إن كان هذا اليوم من حسناته

وكيف لا ؟ وهو حاجة النفس ، وأمنية القلب ، منذ توجه الخاطر إلى السياسة الوطنية ، وانصرف العزم إلى إحياء الهمم ، وانعقدت النية على حفظ الحقوق ، واتحدت الوجهة فى القيام بالواجبات ، وهو النشأة التى كست الوطن رداء الفتوة قشيباً ، وهو البغية التى غرست للأمة غصن الأمل رطيباً ، وهو مارجوناه زماناً ، ودافعنا الزمن فيه ، وتمنيناه أعواما وغالبنا الحدثان عليه فيا حسنه من يوم رد فائت البهاء ، وأحيا مائت الرجاء ، وأعاد شباب الأمة ، وسدل ستور النعمة ، وأظهر مقاصد الأمير ، وأيَّد مساعى الوزير ، وقضى لُبانات النبهاء ، وحقق أمانى النزهاء[١] » .

وكان أديب مغرماً بمصر ، مُحباً لها حباً ملك شغاف قلبه ، مثله فى ذلك مثل الشدياق ، ولا بِدْع فقد آوته فى غربته ، وأعطته الحرية التى حُرِمها فى وطنه ، وأفسحت له مجال العمل ، وقدرت جهده ، حتى منحه الخديو الرتبة الثالثة بيده ، وأنزلت كفاءته منزلتها فعينته فى الوظائف الكبيرة ؛ ثم إنها ملجأ الأحرار ، وزعيمة الشرق العربى ، ونهوضها — كما كان ذلك رأى أستاذه جمال الدين — نهوض للعرب أجمعين ، وفى مصر يقول أديب : « ومصر ، ولاحياء فى الحب ، بلد تركت فيه زهرة أيام الشباب ، وخلفت غرس الآداب ، وهززت غصن الأمانى رطيباً ، ولبست ثوب الآمال قشيباً ، فما عدلت بى عن حبها النكبة ، ولاأنستنى عهدَها الغُربة ، ولست أول محب زاده البعد وجداً ، ولم ينكث على العهد عهدا ، فحذار أهل مصر إن العدو لكم بالمرصاد ، وإنكم لمحفوفون بالعيون والأرصاد » .

---

(١) جريدة فى مصر ٢٩ من يناير ١٨٨٢ .

واستمع إليه يقول فى الحزب الوطنى وأمانيه وأنه « يريد أن يكون المصرى فى مقام الإنسان ، مستقلا بوجوده متمتعاً باستقلاله ، فائزا بحقوقه ، ناهضاً بواجباته ، وتريدونه بمنزلة الحيوان ، يساق للموت ، فإن عجز فللسلخ ، ويطلب أن يكون الوطنى آمناً فى داره ، مساوياً لجاره ، يستغل زرعه ، ويستدر ضرعه ، وتلتمسون أن يكون غريباً فى آله ، مصادراً بماله ، يطعم من يحرمه ، ويؤمن من يروعه ، ويحفظ من يضيمه[1] » .

وكان أديب من ألد أعداء الأجانب ، وإليك بعض نفثاته الحارة ضد صحيفة موالية للأجانب وقد كانت تشيد بإلغائهم بعض الضرائب لتمكن أقدامهم فى احتلال مصر : « فهل خفى عن تلك الصحف أنه ليس من شفقة الصياد على الطير إلقاؤه الحب بين يديها ؟ أو لم تعلم أن القائل بهمجية المصريين ، المعتقد بانحطاط مداركهم ، لا يطعمهم هذا الفتات ، إلا ليسهل على الإنجليز هضم قوتهم والتهام ثروتهم !

كلا ! إن الجرائد المصرية لاتجهل حقيقة الأمر ، ولكنها لا تستطيع التصريح ؛ علماً بأن اللص العازم على سرقة الحقوق الوطنية يكره النور ، فإذا حاولت إظهاره سارع إلى إطفائه بتعطيلها وإلغائها .

يا أهل مصر :

إنى محدثكم حديثاً غريباً : إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم أسخياءكم، وأموركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها » .

كان أديب جنديا من جنود الحرية ، ومصر ، والعروبة ، ولما عطلت جريدة التجارة

---

(١) جريدة مصر فى ٢٩ من يناير ١٨٨٢ .

أسبوعين أول الأمر دبّج مقالا جاء فيه : « ولئن ساءنا أن جاءنا ذلك الإخطار بلوم وعقاب أليم ، لقد سرّنا أن تكون الجرائد موضعا للنظر ،ومجالا للنقد ، ولم نر في القصاص شيئاً يستهين به اللائم ، أو مصابا يمتعض به الشامت ، فإن « التجارة » تحسب حب الوطن ديناً والمدافعة عنه جهاداً ، فإن عاشت فيه سعيدة ، وإن ماتت فهى شهيدة ، ولقد آتاها الله النعمتين ، وأتاح لها الحسنيين ، فعاشت به ، وماتت عليه ، وستبعث بعد أسبوعين ، رافلة فى ثوب الشهادة ، مزينة بحلى السعادة ، على الرغم من أنوف حاسديها ، الذين أولوا كلامنا إلى ما لم نقصد ، وسعوا بها بما لم يخطر على قلوبنا ، وحاولوا إطفاء نور الحق ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون(١) » .

ولم يثنه تعطل جريدتيه ونزوحه إلى باريس عن غايته المثلى ، وهى العمل على إيقاظ الشرق العربى ، والدعوة للحرية ، وطرد الأجانب من البلاد ، وقد أعلن خطة جريدته « القاهرة » التى أصدرها بباريس بقوله : « إنى لا أقصد إلى الانتقام ، وإنما أروم مقاومة الباطل ونصرة الحق ، والمدافعة عن الشرق وآله ، وعن الفضل ورجاله ، تسلكى أن أكشف حقائق الأمور ، ملتزما جانب التصريح ، متجافياً عن التعريض والتلميح ، وأن أجلوا مبادىء الحرية ، وآراء ذوى النقد ، ومقصدى أن أثير بقية الحمية الشرقية ، وأهيج فُضالة الدم العربى ، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، وأحيى الغيرة فى قلوب العارفين ، ليعلم قومى أن لهم حقاً مسلوباً فيلتمسوه ، ومالا منهوبا فيطلبوه ، وليخرجوا من خطة الخسف ، وينبذوا عنهم كل مُدَلِّس يشترى بحقوقهم ثمنا قليلا ، ويذيقوا الخائنين عذاباً وبيلا ، وليستصغروا الأنفس والنفائس فى جنب حقوقهم ، وليستميتوا فى مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلهم » .

وأسلوب أديب أسلوب قوى متين ، افتن فى تدبيجه وانتقاء ألفاظه ، وحلاه بالسجع

---

(١) التجارة العدد ١٨٧ فى ١٣ من فبراير ١٨٧٩ .

على عادة كتاب ذلك الوقت ، ولكنه ليس بالسجع السخيف المتعمد ، ولكنه سجع قريب من سجع ابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والصابى ، لا من سجع الحريرى والقاضى الفاضل . إنه حقاً حفِلَ بالأسلوب كما حفل بالمعنى ، وأحيا الكتابة العربية المنمقة القوية أيام كانت فى القرن الرابع الهجرى ، ونقول مع (مارون عبود)(١) : « أما الذى يتراءى لى من آثاره الكتابية ومن أسلوبه ، فهو أنه نارى الشعور ، متقد الخاطر ، ثورى من الطراز الأول ، كأنه كان فى رفقة الحجاج يوم دخل الكوفة وقد انتشر النهار ، يرسل عباراته فتئز أزيز السهم ، وقد فارق الوتر . جمل كأنها مقطوعة على نمط واحد ، لا هى بالطويلة ولا هى بالقصيرة ، يشد بعضها بعضاً فتؤلف مقالته كتيبة جامحة ، إذا راعيتها منفردة لا تحس لها مفعولا عظيما ، ولكنها تؤلف كلاً تخرج منه النفس ، وقد ملأها هذا الكلام اندفاعاً واستبسالاً » .

ويقول : « نثر كأنه الشعر يرصعه بأبيات إما من الشعر القديم ، وإما من نظمه هو فيأتى مقاله عجّاجا زاخراً حين يحتد ويشتد كقوله : هو الظلم حتى تمطر السماء بلاء ، فتنبت الأرض عناء ، فلا تجد على سطحها إلا جسوماً ضاوية ، فى ديار خاوية ، وقلوبا تحترق فى بلاد تحت رق » .

وهو يراعى الموسيقى فى نثره أكثر من شعره فيتعمد ما كانت تتعمده مدرسة ابن العميد من أفعال مختلفة تتحرك لها الجملة فتحرك قارئها توًا ، وإن ذهب أثرها من عقله بعد حين كقوله :

« هو الجهل حتى تضيع الأخطار ، وتفنى الأقدار ، وتبطل الهمم ، ويعفو القلم ، ويدرُسَ الفهم ، ويستعلى الخامل ، ويستولى الجاهل ، وتنخفض الرءوس ، وتنقض النفوس وحتى ترى :

---

(١) مجلة الكتاب فبراير ١٩٤٨ .

بكل أرض وطئتها أمم ... تُرعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلبسه ... وكان يبرى بظفره القلم

ومن شعره الذى جرى مجرى الأمثال ، وإن لم يكن من الشعراء المجلين ، وإن اشتهر بنثره أكثر مما اشتهر بشعره قوله :

قَتلُ امرىء فى غابة ... جريمةٌ لا تغتفر
وقتلُ شعب آمن ... مسألة فيها نظر
والحق للقوة لا ... يُعطاه إلا من ظفر

ومن ذلك قوله :

حَسِبَ المرأةَ قومٌ آفةً ... مَنْ يدانيها من الناس هَلكْ
ورآها غيرهم أمنيَّةً ... مَلكَ النعمة فيها من مَلك
فتمنى مَعْشَرٌ لو نُبِذَتْ ... وظلام الليل مُشْتَدٌ الحلك
وتمنى غيرهم لو جُعلت ... فى جبين الليث أو قلب الفلك
وصواب القول لا يجهله ... حاكمٌ فى مسلك الحق سلك
إنما المرأة مرآة بها ... كلُّ ما تنظره منك ولك
فهى شيطان إذا أفسدتها ... وإذا أصلحتها فهى مَلَك

إذا كان الشدياق قد وضع أسس المقالة الحديثة فى صحيفة الجوائب ، وهجر الأسلوب المرصع المسجوع فى الكتابة الصحفية ، واقتفى أثره كثيرون شُغِلوا بالصحافة ، ورأوا ذلك أدنى لأن يفهموا من جمهرة القراء ، وأسرع فى الإبانة عن المعانى الكثيرة التى يريدون الإفضاء بها واستقصائها ، فإن فضل أديب إسحق على الأسلوب الأدبى

لا ينكر ، وقد قلده كثيرون ممن كتبوا المقالة ، وكانوا من أنصار الشدياق بادىء الأمر ، وعلى نهجه جرى جُبران ، ونجيب حداد وغيرهما من أفاضل السوريين ، ولكن الصحافة لم تحتمل هذا الأسلوب ، ورجعت إلى البساطة فى التعبير ، وإن ظل أسلوب أديب الذى أحيا به كتابة القرن الرابع نموذجاً للأدباء فى أواخر القرن الماضى ، وأوائل القرن الحاضر .

ومن السوريين الصحفيين سليم الحموى صاحب جريدة (الكوكب الشرق) سنة ١٨٧٣ ، ولكنها كانت قصيرة العمر . ومنهم سليم وبشارة تقلا ، وقد أصدرا (الأهرام) بالأسكندرية سنة ١٨٧٥ ، وقد لاقت أول أمرها عقبات جمة ، ثم نالت حظاً كبيراً من الرواج ، وكانت تصدر أسبوعية فى بدء ظهورها ، ثم صدرت بجانبها جريدة يومية تسمى (صدى الأهرام) فلما عطلت الجريدة اليومية انفردت الأهرام بالظهور ، ودأبت تصدر حتى اليوم ، فهى أقدم الصحف المصرية السياسية ، وإليها يرجع الفضل فى تقدم الصحافة المصرية وأخذها بكل جديد من صحافة الغرب . ولقد كانت المقالة أهم شىء فى الصحيفة ، حتى خرجت الأهرام على ذلك فى سنة ١٩١٢ ، وقدمت الأخبار على المقالة ، والأهرام أول من عُنى بالحوادث المصورة ؛ ولقد ازداد حجمها أحيانا فى عهد جبرائيل تقلا حتى بلغ عشرين صفحة ، وقد عنيت عناية فائقة بالأخبار الخارجية ، وصارت نموذجا لصحف الشرق العربى كله .

ومنهم سليم عنحورى ، وقد أصدر جريدة سياسية سماها (مرآة الشرق) ولكنه تنحى عنها فى سنة ١٨٧٩ وتولاها إبراهيم اللقانى بإيعاز من السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد أنشأ الشيخ يعقوب صنُّوع اليهودى صحيفتين سياسيتين وهما (مرآة الأحوال) صدرت فى لندن سنة ١٨٧٦ ، و (أبو نضارة) صدرت فى القاهرة سنة ١٨٧٧ . ويعقوب صنوع إسرائيلى مصرى ولد سنة ١٨٣٩ ، وكان يتقن التوراة ، وقرأ الإنجيل ، والقرآن ، وتعلم فى إيطاليا على نفقة أحمد باشا يكن ، وهو أول من أنشأ مسرحاً عربياً

فى القاهرة سنة ١٨٧٠ وأعجب به الخديو اسماعيل وكان يسميه (موليير مصر) منحه المنح ، وأمده بالعون ، وحضر بعض تمثيلياته تشجيعاً له ، وقد ألف نحو اثنتين وثلاثين مسرحية فى موضوعات جدية وهزلية . وسافر إلى أوربا سنة ١٨٨٤ وبقى فيها فترة ، ولما عاد إلى مصر اتصل بالسيد جمال الدين والشيخ محمد عبده ، وكان يعلمهما الفرنسية .

وكانت « أبو نضارة » من الصحف المعارضة لإسماعيل ، وكان صاحبها ميالا للفكاهة والدعابة ، وقيل إن السيد جمال الدين هو الذى أوحى إليه بإصدار جريدته لانتقاد سياسة اسماعيل . وكانت (أبو نضارة) أول جريدة هزلية سياسية صدرت بمصر ، وقد نفاه اسماعيل فرحل إلى (باريس) ، واستأنف إصدار جريدته بأسماء مختلفة معارضاً الخديوى ومنتقداً أعماله ؛ ولم يخل عدد منها من صور تعرض تعريضاً شديداً بالخديوى اسماعيل ، فلقيت رواجاً ، واستمر الشيخ صنوع يصدر جريدته إلى ما بعد الاحتلال ، وكان معادياً للانجليز وتوفى سنة ١٩١٢ .

وعلى العموم فقد بلغ عدد الصحف التى ظهرت فى عهد اسماعيل ما يقرب من عشرين صحيفة ، ومعظمها ظهر فى أواخر أيامه ، وقد أطلق لها الحرية فى الكتابة ، وكان يميل إلى هذه الحرية فى أخريات عهده حين اصطدم بالمطامع الأوربية ، وكانت هذه الصحف تندد بسياسة الأوربيين وجشعهم ، ونواياهم ، وتشعر الناس بتدخلهم السياسى ، وتحمل عليهم حملات شديدة اللهجة ، فكان ذلك يروق إسماعيل . ولكن لم يكن يرضى أن يتعرض كاتب ما لسياسته الخاصة أو لشخصه .

تعقيب :

هذه النهضة الصحفية خلصت اللغة من أسرها القديم ، وأوضارها التى ورثتها من عصور الضعف ، وخاضت فى موضوعات شتى كما ذكرنا ، وسلس الأسلوب ،

واحتذى الصحفيون أسلوب ابن خلدون فى مقدمته ، ذلك الأسلوب المرسل السهل ، وإذا وازنا بين أسلوب النثر الصحفى فى هذا العهد الذى نتحدث عنه ، وأسلوب الكتابة فى العصر السابق وجدنا البون شاسعاً ، وقد مرت بك نماذج من هذه الكتابة الصحفية يتجلى فيها أثر التحرر اللغوى والفكرى ، وقوة البيان ، وطرافة الموضوع ، وإليك ما قال بعض قادة النهضة الصحفية فى الحث على العلم والاهتمام بالبيان ، وطريقة الكتابة ، راسمين للشادين فى الصحافة الطريقة القويمة .

١ — يقول أحمد فارس الشدياق :

« من الناس من يتعلم ، وهو مجبول على صفات حميدة فيزداد هدى ورشداً وورعاً ودماثة أخلاق ، وحسن تصرف ، واستقامة طبع ، ونزاهة نفس ، وصفاء عقيدة ، وإخلاص مودة وسلامة نية ، وعفة قلب ولسان ، وانبساط يد ، فمثله كمثل الجوهر الشفاف إذا قابله شعاع الشمس ، أو كمثل إناء من زجاج نظيف صاف إذا وضع فيه الماء لم يغير من طبعه شيئاً ، فتراه دائماً مقبلا على نفع الناس ساعياً فى إصلاح شئونهم ، وتسنية أحوالهم ، باذلا أقصى جهده فى تسكين خواطرهم ، ولم شعثهم ، وتأليف متفرقهم ، وتسلية حزينهم ، وإرشاد غاويهم ، وتأييد ضعيفهم ، وليس من همه التردد على أبواب الأمراء والخضوع لحجابهم . . . الخ[1] » .

٢ — ويقول أديب إسحق :

« الكتابة صناعة يراد بها التعبير عن الخواطر والمحسوسات بوضع صحيح ، وأسلوب صريح فهى ذات ثلاثة أركان : الخاطر المراد إيضاحه وهو الإنشاء ، والوضع الذى يبدو به ذلك الإيضاح وهو البيان ، والكيفية التى تحصل بها ذلك وهو الأسلوب » .

---

(١) مجانى الدرر ج ٢ ص ١٢٢ .

ويقول أديب إسحق كذلك :

رأيت أن أصرف العناية إلى تهذيب العبارة وتقريب الإشارة ؛ لتقريب المعنى فى الأفهام ، من أقرب وأعذب وجوه الكلام ، وانتقاء اللفظ الرشيق للمعنى الرقيق ، متجنباً من الكلام ما كان غريباً وحشياً ومُبتَذلاً سوقياً ، فإن التهافت على الغريب عجز ، وفساد التركيب بالخروج عن دائرة الإنشاء داء إذا سرى فى القراء والمطالعين أدى إلى فساد عام ، وأغلق على الطلبة معانى كتب العلم ، والتنازل إلى ألفاظ العامة يقضى بإماتة اللغة ، وإضاعة محاسنها وإن فى لغة القوم لدليلا على حالهم » .

وقد عدل أديب إسحق عن أسلوبه المنمّق فى أخريات حياته ، ولا سيما فى بعض مقالاته الصحفية وفى ذلك يقول : « قد التزمت لهذا المطلب أسلوب التقرير . وعدلت فيه عن منهج الخطابة الشعرية ، لاعتقادى بأن الأسلوب الخطابى ، وإن كان أسرع تأثيراً فى القلوب وأحسن وقعاً فى الأذهان ، إلا أنه قد يميل بالكاتب إلى جانب التخيل الوهمى فى مكان التقرير العلمى ، فيرتفع بيانه عن المدارك التى سيقت إليها الملكات الحسية ، فلم يبق بها من محل لملكة الخيال المسماة شعراً ، فيفوت الغرض المقصود من البيان والبلاغة ، وهو تقرير المعانى فى الأفهام ، من أقرب وجوه الكلام ، ولهذا سأرسل فيه الكلام إرسال مقرر مبين ، ولا أتكلفه تكلف منمق مُزيِّن ، فإن أحكام التقرير منافية لهذا التمويه الذى يسمونه بديعاً » .

ويقول : « النثر هو الكلام المطلق المرسل عفو القريحة بلا كلفة ولا صنعة إلا ما يكون من وضع الكلام فى مواضعه ، وإيثار ما يألفه السمع والطبع منه ، فهو من هذا الوجه مقدم على سائر أنواع الكلام ، بل هو الأصل فى الإنشاء ، وما سواه فرع منه ، فإنه طبيعى أصيل ، وما دونه صناعى حادث ، والأصل فى الطبيعة لا محالة ؛

يدل على ذلك أن هذا الكلام المقفى الذى يسمونه سجماً لا يكاد يوجد فى غير اللسان العربى ، فلو كان طبيعيًّا لوجب أن يكون فى جميع اللغات ، أو فى المعدودة منها أصولا على الأقل[١] » .

٣ — ويقول السيد عبد الله النديم فى العدد الأول من جريدة (التنكيت والتبكيت)[٢] .

« إليكم يراعى فاستخدموه فى مقترحات أفكاركم العالية . وصحيفتى فاملئوها بآدابكم المألوفة ، وبدائعكم الرائقة ، فاليراع وطنىٌ يخاطب القوم بلغتهم ويطيعهم فيما يأمرون به ، والصحيفة عربية ، لا تبخل بالعطاء ، ولا ترد الهدية ، وأنتم كرامُ اللغةِ وإخوانُ الوطنية ، فشدوا عَضُد أخيكم بالقبول والإغضاء عن العيوب ، وساعدوه بأفكار توسِّع دائرة التهذيب ، وتفتح أبواب الكمال ، وكونوا معى فى المشرب الذى التزمته : والمذهب الذى انتحلته : أفكار تحليلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال أدبية ، وتبكيت ينادى بقبح الجهالة ، وذم الخرافات ؛ لنتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مُثْلةً فى الوجود من ركوب متن الغواية ، واتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل » .

وترى من هذه النماذج كيف كان القوم يجاهدون فى سبيل العلم وتفتيح الأذهان المغلقة ، وتحبيب الناس فى الثقافة ، والإشادة بفضل المتعلمين فى زمن كانت فيه الأمة لا تزال تحبو فى طريق النور ، وكيف وضعوا أسس تحرر اللغة من أسر السجع والتكلف ، ورسموا قواعد الإنشاء الصحيح لمن يريد أن يتخذ الكتابة حرفة ؛ وكيف سخروا القلم القوى الجرىء فى خدمة الوطن ، وجعلوا الصحف ميداناً للأفكار الطيبة والأدب الرفيع

---

(١) مجانى الغرر ج ٢ ص ٦ .

(٢) صدرت سنة ١٨٨١ راجع سلافة النديم ص ٧٧ .

والدعوات الإصلاحية الحرة ؛ وبذلك كانت الصحافة منارة من منارات النهضة العربية الأدبية . ارتفعت هذه المنارة فى عهد إسماعيل ، وظلت ترسل النور قوياً يبدد سدفة الجهل ويهدى الضالين إلى اليوم .

— ٤ —

الطباعة :

نهضت الطباعة نهضة عظيمة فى عهد إسماعيل ؛ إذ وجهت الحكومة عنايتها إلى مطبعة بولاق ، ومازالت بها حتى صارت أرقى مطبعة فى الشرق ، وأسست مصنعاً للورق يمد مصالحها المختلفة بالورق فى سنة ١٨٧١ ، ويزود المشتغلين بالعلم والطباعة والتجار بكل ما يحتاجون إليه . ولقد سهل هذا الأمر على المشتغلين بالعلوم ، وشجعهم على النتاج المتصل ، وكاد نتاج الورق بمصر يعطل ما يرد من أوربا حينذاك .

وأنشئت بجوار مطبعة بولاق عدة مطابع أهلية أهمها مطبعة جمعية المعارف التى تكلمنا عنها آنفا ، ثم المطبعة الأهلية القبطية التى جلبها من أوربا الأنبا كرلس الرابع سنة ١٨٦٠ فى عهد سعيد باشا . ومطبعة (وادى النيل) لمحمد أبو السعود أفندى ، ومطبعة (مجلة روضة المدارس) والمطبعة الوطنية بالأسكندرية . . . وغير ذلك من المطابع التى كان لها الفضل الأكبر فى نشر الكتب الحديثة ، وتيسير الاطلاع ، والنهوض باللغة والأدب وشئون التعليم .

ومن أشهر الكتب القديمة التى طبعت فى تلك الحقبة : المثل السائر ، والأغانى ، وتاريخ ابن خلدون ومقدمته ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وفقه اللغة للثعالبي ، ووفيات الأعيان ، وإحياء علوم الدين للغزالى ، وتفسير الرازى ، والبخارى (شرح القسطلانى) ، وحياة الحيوان ، ونفح الطيب ، وقانون ابن سينا فى الطب ، وتذكرة داود ، وغير ذلك

من نفائس الكتب التى عملت على تغذية العقول بنتاج السلف ، وتهذيب اللغة وتقويمهـــا .

— ٥ —

الترجمة والتأليف :

كانت التركية لا تزال ذات سطوة فى مصر حتى عصر اسماعيل ولكنه عمد إلى تعصير الحكومة ولغتها ؛ حتى يسهل انفصاله عن الدولة العثمانية ، وأصدر أمراً بجمل صور الأوامر واللوائح وكل ما سبق صدوره من الإجراءات منذ عهد محمد على عربية ، كما أمر بطبعها ، فما كان منها عربياً يطبع كما هو ، وما كان تركياً تطبع معه ترجمته العربية[1] ، ولقد كان الأمر باستعمال اللغة العربية أداة التعبير الحكومية سابقاً لأوانه ؛ لافتقار البلاد لعدد كبير ممن يحذقون اللغة العربية ، ولا سيما بعد ذلك الركود الذى أصاب التعليم على يد عباس وسعيد ، ثم إن ترجمة هذه القوانين الكثيرة التى صدرت منذ عهد محمد على تحتاج إلى وقت طويل ، ولذلك ظلت للتركية بعض السطوة ، وإن أخذت تدريجياً تفسح مكانها للعربية حتى أوشكت أن تحل محلها نهائياً فى أخريات عصر إسماعيل .

ومما ساعد على الاهتمام بالترجمة فى عهد اسماعيل ازدياد النفوذ الأجنبى ، وكثرة من وفدوا إلى مصر من هؤلاء الأجانب تجاراً ومغامرين ، ولا سيما بعد فتح قناة السويس ، فأنشئوا المصارف والدور التجارية الكبرى ، ودخلوا فى خدمة الحكومة مديرين وفنيين وعلى الأخص حين اضطربت مالية البلاد .

واهتم اسماعيل باللغة الفرنسية اهتماما زائداً ، لأنها كانت منذ عهد محمد على هى اللغة التعليمية الأولى لرجال البعثات .

---

(١) حركة الترجمة بمصر لجاك ص٦٢ .

وظل الأمر فى تدريس المواد العلمية كما كان فى عهد محمد على محتاجا إلى وساطة بين التلاميذ والمدرس الأجنبي : ولـكن حينما أعيدت مدرسة الألسن سنة ١٨٦٨ ، وأخذ تلاميذ رفاعة الطهطاوى يشرفون عليها ، نهضت الترجمة نوعا ما ، وتولى رفاعة بك رئاسة قلم الترجمة ، واشترك فى تعريب القانون الفرنسى مع عبد الله أبى السعود وغيره .

واستمرت حركة الترجمة فى أوائل عهد إسماعيل مصبوغة بالصبغة العلمية ، ومعظم ما ترجم حينذاك كان فى العلوم كالهندسة والطب والصناعات العسكرية وغيرها ، وذلك لشدة حاجة البلاد إلى هذا النوع من التعليم . وإن كان بعض تلاميذ رفاعة قد اهتموا بالنواحى الأدبية من قانون وتاريخ وأدب .

فنجد عبد الله أبا السعود الصحفى والسياسى يترجم (نظم اللآلىء فى السلوك فى مَنْ حَكَمَ فرنسا من الملوك) . وقناصة أهل العصر فى خلاصة تاريخ مصر ، تأليف (أوغست مارييت بك) ، وباشر ترجمة تاريخ عام مطول واسمه « الدرس التام فى التاريخ العام » ، وتاريخ الديار المصرية فى عهد الدولة المحمدية العلوية تأليف (برنار الفرنسى) .

وممن كان لهم أثر فى الترجمة والأدب العربى ، وكان صاحب مدرسة لها نهجها الخاص ، واحتذى حذوها الأدباء من بعده .

محمد عثمان جلال :

وهو مصرى من صميم الريف ، ولد فى (ونا القس) بمديرية بنى سويف سنة ١٨٢٨ ، وتلقى العلم فى مدرسة قصر العينى ، ثم فى مدرسة الألسن ، وكان من نبهاء تلامذة رفاعة الطهطاوى وشغل عدة مناصب حكومية ، وكان آخر ما تولاه منها منصب القضاء فى المحاكم المختلطة سنة ١٨٨١ ، وتوفى فى سنة ١٨٩٨ عن سبعين سنة .

امتاز محمد عثمان جلال بأنه يمثل الروح المصرية أتم تمثيل فى خفتها ، وحبها للنكتة .

ومرحها الجم ، وقد اختلط كثيراً بالعامة ، وعرف أمثالهم ونوادرهم ، ومواعظهم وعرف كذلك ميولهم الفطرية ، وحبهم للقصص العربية وامتاز أيضا بأنه كان أديبا مطبوعا ، ثائراً ، على المدرسة التقليدية التي تحاكى الأدب القديم فى محسناته وفخامته ، وموضوعاته ، فكان يعتمد أولا على تجربته الشخصية يستوحيها ويستلهمها . ويعبر عما يحسه وعما يهديه إليه فكره ، فهو فى أدبه يمثل القاهرة والريف المصرى ، لا بغداد وقرطبة ولا البلاد العربية وصحراءها . وهذا لعمرى هو الأدب الصادق ، ولولا ما شاب أدبه من إسفاف فى اللفظ وجنوح إلى العامية ، إفراطاً منه فى مصريته ، لكان من أفذاذ الأدباء المصريين أصحاب المبادىء فى الأدب ، وقد نقد فى كتابه (العيون اليواقظ) هؤلاء الذين يدعون إلى الأدب التقليدى ولا يستلهمون مشاعرهم الخاصة ، وأساليبهم المبتكرة :

يقولون ما هذا الكتاب وما به ... أكاذيب أقوال البهائم فى قبح
وقد زعموا أن البلاغة لم تكن ... بأحسن مما قيل فى القد والرمح
وتشبيه لون الخد بالورد واللظى ... وتمثيل نور الوجه إن لاح بالصبح[١]

وقد غالى فى مصريته وثورته على الأدب التقليدى ، فأكثر من استعمال العامية ، سواء فى كتبه الموضوعة أو فى ترجمته للروايات المسرحية .

ومن أشهر كتبه التى تمثل هذه الروح المصرية المرحة ، وتدل على شدة تأثره بعامة الشعب فى أمثالهم كتابه الذى أشرنا إليه سابقا وهو العيون اليوافظ فى الأمثال والمواعظ . الذى ترجم به أمثال (لافونتين) La Fontaine شعراً[٢] ، وقد شحنه محمد عثمان جلال بكثير من الأمثال العامية ، من مثل قوله :

---

(١) العيون اليواقظ فى الامثال والمواعظ ص ١٠٢ .

(٢) لافونتين شاعر فرنسى مشهور ولد فى سنة ١٦٢١ ، وتوفى بباريس سنة ١٦٩٥ ، وقد اشتهر بكتابيه (القصص ، والأمثال) أما (القصص) فقد أهمل فيه الأخلاق ، ولكنه ممتلىء بالحيوية ، وكتاب الأمثال هو أشهر الكتابين ، ولا يزال حتى اليوم ذا منزلة عظيمة فى عالم الأدب ، وقد نظم فيه كثيراً من القصص الرمزية ، وقصصاً على ألسنة الحيوان من أمثال تلك التى فى كليلة ودمنة ، بل إن كثيراً منها مأخوذة من كليلة ودمنة الذى ترجم الى كل اللغات الأوربية منذ القرن الرابع عشر .
راجع (Nouveau Petit La rouse Illustré P. 1479.).

فإءنما تأخذ من سماطى … ما تأخذ الريح من البلاط[١]

وقوله : واحذر مدى الأيام كل ساهى … فإن تحت رأسه الدواهى[٢]

وقوله : إن كان بالتوت غضبان … هذبت يرضيه شرابه[٣]

وقوله : صدقنى حاجة ما تهمك … وصى عليها جوز أمك[٤]

ولغته فى هذا الكتاب إما عامية دارجة ، أو عربية قريبة من العامية ، ومن أمثلة هذه القصص قوله :

كان البخيل عنده دجاجة … تكفيه طولَ الدهر شرَّ الحاجة

فى كلِّ يومٍ مرَّ تعطيه العجب … وهى تبيض بيضةً من الذهبْ

فظنَّ يوماً أن فيها كنزا … وأنه يزداد منه عزا

فقبضَ الدجاجةَ المسكينُ … وكان فى يمينه سكينُ

وشقَّها نصفين من غفلته … إذ هى كالدجاج فى حضرته

ولم يجد كنزا ولا لقيَّه … بل رِمَّةً فى حجره مرميَّه

فقال لا شكَّ بأن الطمعا … ضيَّع للانسان ما قد جمعا

وقد كان لهذا الكتاب تأثير كبير فى أدب الأطفال فى عصرنا الحاضر ، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الأطفال من قصة مأخوذة منه بنصها ، أو محرفة بعض التحريف أو منثورة ، بل أن بعض المشتغلين بكتب الأطفال لم يتحرجوا فى أن ينسبوا بعض قصصه إلى أنفسهم . وعلى منواله نسج شوقى كثيراً من القصص الرمزية أو قصص الحيوان ،

---

(١) العيون اليواقظ ص ١٤٩ .
(٢) ص ١٦٤ .
(٣) ص ٩٩
(٤) ص ١٧٦ .

ويقال إن قصص (لافونتين) هذه التى ترجمها محمد عثمان جلال مأخوذة من قصص (إيسوب[١]) .

هذا وقد ترجم عثمان جلال بعض روايات (موليير[٢]) الهزلية : الأربع روايات من نخب التياترات) منها رواية (ترتوف) ، وسماها (الشيخ متلوف) ومثلت مراراً على المسرح المصرى . ومنها (النساء العالمات) وقد مصّر أشخاص هذه الروايات وكتبها باللغة العامية .

وترجم كذلك بعض روايات (راسين[٣]) وسماها (الروايات المفيدة فى علم التراجيدة) وقد قال فى مقدمتها : « وجعلت نظمها يفهمه العموم فإن اللغة الدارجة أنسب لهذا المقام ، وأوقع فى النفس عند الخواص والعوام[٤] » .

وألف محمد عثمان جلال رواية بالعامية عن الخدم والمخدومين ، ويقول الأستاذ العقاد عن ملكة عثمان القصصية عند الحديث عن هذه الرواية : « قد كان له ملكة قيمة فى فن القصة والرواية المسرحية ، فكانت هذه الملكة تنزع به إلى نظم الزجل غالباً والشعر أحيانا فى وصف مايقع له من النوادر والفكاهات والرياضيات ، ومن ذلك زجله فى الأزهار

---

(١) (إيسوب) صاحب هذه الخرافات يونانى ولد بعد تأسيس روما بمائتى سنة ، وكان عبداً رقيقاً وإليه تنسب هذه القصص التى قيلت على ألسنة الحيوان ، وكثير منها شرقى : هندى وصينى ، وفارسى وعربى ، وقد ترجم قسيس إغريقى فى القرن الرابع عشر كثيراً من القصص الشرقية ونسبها الى إيسوب (Masterpiece Library of Short Stories Vol. I. P. 15)

(٢) موليير Molière شاعر فرنسى ولد بباريس سنة ١٦٢٢ ، واشتهر برواياته التمثيلية الهزلية ، ومن أشهرها : النساء المتحذلقات ، والطبيب رغم أنفه ، وترتوف ، ومدرسة النساء ، وتوفى سنة ١٦٧٣ (Petit Larousse Illustré) . وراجع كتابنا (المسرحية : نشأتها وتاريخها وأصولها ـ فصل الملهاة) .

(٣) راسين Racine شاعر فرنسى اشتهر بمآسيه ولد سنة ١٦٣٩ ، وكان صديقاً لموليير ، وللافونتين ، وقد بلغ المثل الأعلى فى كتابة المأساة المسرحية على الطريقة (الكلاسيكية) الاتباعية ومن أشهر مآسيه : أندروماك ، وقد ترجمها أديب اسحق كما مر بنا ، و (باجازيت أو بايازيد) وآتيل ، وتوفى فى سنة ١٦٩٩ (راجع كتابنا للمسرحية) .

(٤) مقدمة الروايات المفيدة فى علم التراجيدة .

وزجله فى المأكولات ، وأقوم منهما كليهما روايته المسرحية عن المخدومين والخدم ، وهى باكورة فى وضع الروايات المصرية ، وتمثيل البيت المصرى ، والمجتمع الوطنى يندر ما يقاربها فى بابها بين روايات هذا الجيل ، ويحق يسمى محمد عثمان جلال أبا المسرحيات الوطنية فى العصر الحديث[١] » .

وقد يحار المرء فى تعليل هذا الاتجاه الذى انحرف إليه عثمان جلال ، وإيثاره اللغة العامية مع تمكنه من اللغة الفصحى أما الدكتور طه حسين فيرى أن ذلك لضعفه فى اللغة العربية . وذلك حين يقول : « فأخذ الذوق يتغير ، وكان تغيره قوياً ، ظهر فى مظهرين مختلفين ، أحدهما إيثار اللغة العامية على لغة الأدب العصرى ، والآخر إيثار اللغة القديمة ، والأساليب القديمة على لغة العصر وأساليبه ، ورأينا رجلا كعثمان جلال قد أعجبه الأدب الفرنسى ، وأراد أن ينقل إلى قومه صوراً منه ، ولم يكن من الأدب القديم على حظ قوى ، ورأى أن الأدب المصرى أدنى إلى الموت من أن يحتمل هذا الأدب الفرنسى ، فيترجم لقومه ، أو قل ينقل إلى قومه تمثيل موليير فى الزجل العامى لا فى الشعر العربى[٢] » .

على أن هذا الكلام على ما به من وجاهة لا يؤخذ على إطلاقه ؛ فمحمد عثمان جلال قد ترجم (بول وفرجينى) كما سنذكر فيما بعد بأسلوب عربى فصيح ، كما قال كثيراً من الشعر باللغة الفصحى ، فهو لم يكن بهذه المنزلة من الضعف اللغوى حتى يعجز عن ترجمة أمثال لا فونتين ، وهزليات موليير ، ومآسى راسين ويضع رواية باللغة العامية .

ولعل من الأسباب غير ماذكره الدكتور طه حسين ، عظم تأثره بالروح المصرية فى كل شىء ، وتعصبه للهجة العامية التى هى لغة جمهرة الشعب ، وقد يكون ذلك لغرض تجارى بحت ؛ إذ لم يجد للأدب الرفيع سوقاً رائجة فأقبل على التحدث إلى جمهرة الشعب

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى للعقاد ص ١١٧ .
(٢) حافظ وشوقى ص ٤ .

باللغة التى يفهمونها لعلهم يقبلون على كتبه ، وليس أدل على رواج هذه الكتب التى تكتب بالعامية من قول الشيخ محمد عبده : « ومنها الكتب المضرة بالأدب والأخلاق ، كتب الأكاذيب الصرفة ، وهى ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع ، وتارة تكون بعبارة سخيفة مخلة بقوانين اللغة ، ومن هذا القبيل كتب أبو زيد وعنترة العبسى ، وإبراهيم بن حسن ، والظاهر بيبرس ، والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الكثير ، وقد طبعت كتبه مئات المرات ونفق سوقها ، ولم يكن بين الطبعة والثانية إلا زمن قليل[١] » . ويقول عثمان جلال مؤيداً هذا الرأى حين حاول نشر (العيون اليواقظ) : « واشتغلت بإتمام العيون اليواقظ ، وعرضتها على الوالى بواسطة المرحوم مصطفى فاضل ، وكان أوصلنى إليه محمد على الحكيم ، فما أثمر غرسها ، فاتفقت مع فرنساوى له مطبعة من الحجر يسمى يوسف بير ، وعهدته بطبعها فتعهد ، ثم أخلف ما وعد ؛ فكلفت مطبعة أكبر من مطبعته ، وصرفت عليها ما جمعت ، ونشرتها ، ثم بعت الحمار وبعتها ، وقلت فى ذلك :

راجى المحال عبيط　　　وآخر الزمر طيط
والناس فاتنان بخت　　　مسروج وقليط
والعلم من غير حظ　　　لا شك جهل بسيط[٢]

وقد يكون من الأسباب التى دعته إلى ترجمة المسرحيات وكتابتها باللغة الدارجة إقبال الفرق التمثيلية على هذا النوع دون سواه ولا سيما بعد أن أغلقت أبواب (الأوبرا) التى كان يشجعها اسماعيل ، ويهب الممثلين فيها والمؤلفين لها بعض المال ، ويحضر الروايات بنفسه وكان التأليف حينذاك باللغة الفصحى ، فلما أغلقت الأوبرا أبوابها ؛ إذ عد التمثيل

---

(١) تاريخ الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده لمحمد رشيد رضا ج س ٤١٦ .
(٢) الخطط التوفيقية ج ١٢ س ٦٤ .

ترفاً وإسرافاً ، وأنشئت الفرق الخاصة واعتمدت على الجمهور ، اضطرت إلى مجاراته في لغته ، وإلى التأليف له بالعامية حتى يقبل على مسارحها .

وإذا أحسنا الظن بعثمان جلال قلنا : إنه جارى المصلحين في نزولهم إلى مستوى الشعب حتى يكون لكلامهم أثره ، ولم ينظروا للأدب إلا بمقدار ما يؤثر في النفوس ، وقد رأى عثمان جلال انتشار الأدب الرخيص وإقبال الجمهور على سماعه في المقاهي من أمثال قصة أبي زيد ، وعنترة والظاهر بيبرس وغيرها ، فآن الأوان أن يوجد لهم أدباً أسمى موضوعاً ، ولكن لا بدَّ من كتابته باللغة التي يفهمونها ، ولا سيما حين منعت الحكومة طبع كتب الأدب الرخيص ؛ إذ وجدت فيها ضرراً عظيماً ، ولبت نداء المصلحين بمنع تداولها(١) .

وربما كان من حسن الظن بعثمان جلال أنه قلد أدباء الغرب في إنطاقهم أشخاص رواياتهم بلهجاتهم المألوفة ، ورأى أنه ليس من المعقول أن ينطق الخادم مثلاً باللغة العربية الفصحى ، ولما كان جمهرة أبطاله من عامة الشعب لجأ إلى اللغة العامية لتكون شخصياتهم مطابقة لواقع الحياة ، خالية من التكلف والصنعة .

ومهما يكن من أمر فإن هذا النوع من الأدب لم يكتب له الخلود ؛ لأن اللغة العامية ، وإن كانت قريبة من الشعب ؛ تنبض بالحياة وتجدَّد كل يوم ، فهي لغة لا أصل لها ، ولا نظام ، ولا قاعدة ، ولذلك أهمل كلُّ ما كتب بها ، وإن كنت لا أبرىء محمد عثمان جلال من ممالئته للانجليز في حملتهم على اللغة العربية ، وترويجهم للغة الدارجة ، لأنه كان إبان عصر القوة — عصر اسماعيل — يكتب بالفصحى ، فلما انقضى هذا العهد ، ورأى المحتلين يشجعون اللغة العامية ويعاضدهم المبشرون والمستشرقون

---

(١) الوقائع المصرية العدد ١١٠٩ - ١١ مايو ١٨٨١ .

أمثال مارتمان Martman ، ويشجعونه على الكتابة والتأليف باللغة العامية ، وهم أصحاب الحول والطول ، وعلى طريقته تلك[1] .

وقد كان لمحمد عثمان جلال ومسرحياته ، وكتابته باللغة العامية أثر فى الجيل الذى أتى بعده ، إذ حذا حذوه « هيكل » فى رواية « زينب » التى نشرها أول الأمر سنة ١٩١٤ باللغة العامية ، ومحمد تيمور ومحمود تيمور فيما أخرجا من قصص . ولكن زينب أهملت كذلك ، لأنها كتبت بالعامية ، ويقول الأستاذ المازنى فى شأنها . « وأعتقد أن الدكتور هيكل يوافقنى الآن على ذلك — أنه لو كتبها باللغة الفصحى — فإن فيها عاميا غير قليل — لكان أثرها أسرع فى إزخار هذا التيار الجديد »[2] .

ولم يجرؤ هيكل ، كما لم يجرؤ من قبله محمد عثمان جلال ، وقد كتبا باللغه العامية ، على الجهر بأنهما ألّفا هذه الروايات العامية ، وإلا انحطت منزلتهما الأدبية ، ولذلك نرى عثمان جلال يرمز إلى اسمه بالحروف الأولى (م . غ . ج) على الروايات (المفيدة فى علم التراجيدة) و (الأربع روايات من نخب التياترات) . كما يكنى هيكل عن نفسه حين نشر (زينب) لأول مرة بقوله : (زينب — مناظر وأخلاق ريفية — بقلم مصرى فلاح) ؛ وذلك لعلمهما بأن اللغة العامية ليست لها مكانة ، وأنهما يحاولان بعثها وخلقها ، ولكن هيهات .

ومن الكتب التى ترجمها محمد عثمان جلال عن الفرنسية رواية (بول وفرجينى) للكاتب الفرنسى (برناردين دى سان بيير)[3] . وقد صبغها عثمان جلال بالصبغة المصرية كعادته ، وسماها (الأمانى والمِنة فى حديث قبول ووَرْدِ جَنَّة) ، وتصرف فيها بالزيادة والنقصان ، ولكنه حرص فى كثير من الأحيان على روح الرواية وأصلها ، وقد قال

---

(1) The Encyclopedia of Islam, Vol, II P. 985.

(٢) الأهرام ١٩ مارس سنة ١٩٣٨ كلمة المازنى فى تكريم هيكل .

(٣) برناردين دى سان بيير Bernardin de Saint Pierr كاتب فرنسى من دعاة الرجوع إلى الطبيعة ولد فى سنة ١٧٣٧ ، وتوفى سنة ١٨١٤ ومن أشهر كتبه : بول وفرجينى . ودراسة الطبيعة .

فى تصدير الكتاب : « أخرجته من الطباع الأفرنجية ، وجملته على عوائد الأمة العربية ، فمن تصفحه بعين النقد ، رأى القد على القد ، و مَنْ قاسَه بمقياس المقابلة ، وطبق آخره وأوله رأى قَذاً قُرن بتوأم . وعلم أن من ترجم فقد ترجم ، ثم كتبته على ورق الجنة ، وسميته قبُول وورْدَ جنَّةَ ، لمقارنة مخرج الاسمين ، ومطابقته فى لفظة اللغتين » .

ولقد ترجمت هذه الرواية بعد ذلك عدة تراجم أشهرها ترجمة المنفلوطى التى سماها « الفضيلة » ، وقد خلع عليها ثوباً قشيباً من أدبه وأسلوبه ، وترجمته يغلب عليها الروح الأجنبى وينقصها الروح المصرى الذى اشتهر به عثمان جلال[1] .

وكان لعثمان جلال الفضل فى تنبيه الأدباء إلى هذه الرواية وحاول كثير منهم ترجمتها كما ذكرنا . وقد التزم عثمان جلال الأسلوب المسجوع ، القصير الفقرات ، السهل العبارة ، استمع إليه يصف حال ورد جَنَّة قبل فراقها لقبول ، وسفرها إلى خالتها .

« ولما جاء العشاء ، وجلس الكل على المائدة ، وكان جلوسهم بغير فائدة ، إذ كان لكل شأن يُغْنيه ، وشاغلٌ يَشْغله ويُلهيه ، يأكلون قليلا ، ولا يقولون قيلا ، ثم ما أسرع ما قامت ورد جَنَّة أولا ، وجلست فى مكان غير بعيد فى الخلاء ، فتبعها قبول ، وجلس بجانبها ومكثت تراقبه ومكث يراقبها ، وانقضت عليهما ساعة ، وهما ساكنان ، ولبعضهما ملتفتان .

وكانت ليلة نيرة ، ذات سماء مُقْمِرة ، زائدة الإتحاف والألطاف ، لا يرسمها رسّام ، ولا يصفها وصاف ، قد نزل البدر منها منزلة القلب ، ونشر أشعته على الشرق والغرب ، فما يستره إلا أثر الضباب ، وبعض سحاب كأنه حين تجلى على بساط الخضرة بَذْر عليه من الفضَّة بِذْرة ، وكان الريح ممسكا نَفَسه ، والليل مطلقاً همْسه ، فلا يسمع فى الغابات

---

(1) H. R. Gibb. B. S. O. S. Vol. VII Part. I P. 2—3.

ولا فى الوديان ، لا صوت إنسان ولا صوت حيوان إلا مناغاة الطيور فى أوكارها ، ومداعبتها مع صغارها ، مسرورين بضيائه ، وسكون الجو فى جميع أرجائه » .

وكان عثمان جلال كثيراً ما ينطق قبول وورد جنة بالشعر العربى الفصيح مع اعترافه بأنهما « لم يتعلما الكتابة ولا القراءة ، بل نشآ على السذاجة والبراءة ، فلا يفكران فى أزمان مضت ، ولا ليال انقضت ، بل قام بعقولهما الصغيرة أن الدنيا قد انحصرت فى هذه الجزيرة ، وأن لا لذة لهما فوق لذتهما ، ولا شغل إلا حب أمهاتهما »[١] .

ومن ذلك الشعر قول ورد جنة ، تذكر لهف الأمهات على أولادهن ، وذلك قبل أن تسافر إلى خالتها لتبتدىء تعلمها لديها :

ياويح قلبى على نساء	قد لقبوهن بالأمهات
يحملن طول الزمان همّاً	على البنينَ أو البناتِ
وكل خير لهن ماض	وكل ضَيْرٍ لهن آت
ما ثم حظ لهن إلا	بدَّله الله بالممـات

فقال لها قبول وقد أحسن أن يقول :

وحقّ حبى لك يا أختاه	وما اعترى قلبى وما أتاه
لترينَ اليومَ أمهاتنا	ولنبيتن معا فى بيتنا[٢]

وأسلوب عثمان جلال فى (بول وفرجينى) كما ترى من الأساليب الخالية من التعقيد ، والتى تنطلق فى يُسْر ورشاقة ويدل على تمكنه من اللغتين الفرنسية والعربية فقد حرص

---

(١) الأمانى والمنة ص ١٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٩ .

على الأصل كل الحرص ، وأداه بخير أداء ، ولولا تمصيره لأشخاص الرواية ، وجعله الكنيسة مسجداً ، وبرج ناقوسها مئذنة ، وصبغها بالصبغة المصرية الخالصة لجاءت ترجمته مثلاً فى الترجمة ؛ إذ أضفى عليها من الأمانة ، وخفة الظل ، و سهولة اللفظ شيئاً كثيراً .

ومن الذين اشتهروا بالترجمة خليفة محمود (وقد ترجم إتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوربا) ، وكتاب (إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شرلكان) وترجم محمد أحمد عبد الرازق كتاب « غاية الأدب فى خلاصة تاريخ العرب » تأليف المؤرخ الفرنسى (سيديللو) . وترجم بشارة شديد رواية « الكونت دى مونت كريستو » تأليف (إسكندر دوماس) وجاءت بعبارة « بسيطة ليكون ذلك سهلا على عامة الناس » كما يقول المترجم .

وترجم حسن عاصم خطبة (رينان) الفرنسى ، وموضوعها « الدين الإسلامى والأمة العربية » . وترجم مراد مختار من التركية « قصة أبى على بن سينا وشقيقه أبى الحارث ، وما حصل منهما من نوادر العجائب ، وشوارد الغرائب » .

وهذه أهم الكتب الأدبية التى ترجمت فى عصر اسماعيل ، ويقول قدرى باشا : إن مستوى الترجمة قد هبط بمصر بعد أن أغلقت مدرسة الألسن ، ولم يخلفها معهد آخر لتخريج العلماء الأكفاء فى التعريب ، ولذلك استعانت الحكومة بالأجانب .

نعم إن مدرسة الألسن قد أعيدت فى عهد اسماعيل كما ذكرنا بيد أن تخريج المترجمين لم يكن موضع عناية ولا سيما بعد أن تحولت إلى مدرسة للحقوق سنة ١٨٨٦ .

أما التأليف فقد خطا خطوات لا بأس بها ولا سيما فى القانون والتاريخ والعلوم ؛ فقد ألف قدرى باشا ثلاثة كتب رتب فيها أحكام الشريعة الإسلامية فى المعاملات الدنية والأحوال الشخصية والوقف ، على مذهب أبى حنيفة ، وصاغها فى شكل مواد قانونية ،

وهى كتاب (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) فى المعاملات الشرعية ، وكتاب (الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية) وكتاب (قانون العدل والإنصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف) .

أما التأليف فى العلوم فهناك عشرات الكتب من تأليف على البقلى . والشافعى ، ومحمد بيومى ، وصالح مجدى ، ومحمد سليمان ، وهو أول من برع فى الترجمة من الإنجليزية .

وقد ذكر قدرى باشا[1] أن تلاميذ رفاعة بك عربوا نحو ألف كتاب أو رسالة فى مختلف العلوم والفنون ، وأن جميع الذين نبغوا فى الترجمة كانت لهم مؤلفات قيمة .

هذا وقد توسعت حكومة اسماعيل فى فتح المدارس والمعاهد على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، واقتضى ذلك تنسيق العلوم والمواد المختلفة لصغار التلاميذ ؛ فألفت الكتب العربية شاملة كل نواحى العلم من : حساب وجغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وحيوان وحياة ولغة . إلى غير ذلك مما مهد السبيل لبلوغ النهضة ذروتها فى عصرنا الحالى .

النهضة فى بلاد الشام :

— ٦ —

لا نستطيع أن نغفل أثر السوريين فى الأدب إبان القرن التاسع عشر وفى عصرنا الحاضر ، ولقد ساعدهم على النهوض ، ومكنهم من خدمة اللغة حرصهم على التعليم ، ووجود الإرساليات التبشيرية .

والباحث فى نهضة سوريا التعليمية يعجب أشد العجب ؛ لأن الأتراك تركوا البلاد تتخبط فى ديجور مطبق من الجهالة ردحاً طويلا من الزمن ، ولم ينشئوا من المدارس

---

(١) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى ص ٥١١ .

إلا القليل الذى لا يكاد يذكر ، وهى مدارس لا يجاوز ما تلقنه لتلاميذها مبادىء العلوم كان أكثر الذين بنوا مدارس دمشق غرباء عنها ، وقد ظلت المدارس التى أسست فى عهد ملوك الطوائف مفتوحة للطلاب قبل زمن الأتراك ، بيد أن الناس قد فسدوا فى القرون الأخيرة وتوفروا على التهام تلك المدارس وأوقافها .

وكان معظم هذه المدارس دينية فمدرسة للفقه الحنفى ، وأخرى للشافعى ، وثالثة للمالكى ورابعة للحنبلى . ومنها مدارس لدراسة القرآن وتجويده ، ومنها دور الحديث ؛ وكان هناك مدرسة للطب وأخرى للصيدلة ، غير أن كل هذه المدارس قد أغلقت بعد دخول الأتراك بلاد الشام[1] .

ولما رأى الأتراك أن مصر ولبنان قد سارتا خطوات واسعة فى درج النهضة العلمية لم يستطيعوا أن يغمضوا أعينهم عن التأخر والفساد والجهل الذى كان فاشياً فى سوريا ، وقد وكل إليهم أمرها ، فأسسوا فى أخريات أيامهم مدرسة للحقوق هى اليوم إحدى كليات الجامعة السورية ، وأنشئوا مدرسة التجهيز والمعلمين سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٢م[2] .

وفى سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٠م صدرت إرادة السلطان عبد الحميد بإنشاء مدرسة طبية بدمشق ، وأن يخصص لبنائها عشرة آلاف ليرة ، ومثلها لنفقتها ولوازمها ، وذلك لأن بيروت أخذت تخرج أبناء البلاد فى مدرستيها الأجنبيتين الأمريكية واليسوعية[3] .

أما غير دمشق من مدن الشام فكانت مقفرة من المدارس تقريباً إلا حلب ، وهى أكبر مدن سوريا . وقد عمرت قديماً بكثير من المدارس ، ولكنها خربت على يد العثمانيين وجاء فى تقويم ١٣٣٢ هـ ١٩١٢ أن بحلب الشهباء اثنتين وثلاثين مدرسة ، وما نظن العامر منها يتجاوز العشر[4] .

---

(١) خطط الشام لكرد على ص ٦٩ ج ٦ .
(٢) راجع خطط الشام لكرد على ص ١٠٢ ج ٦ .
(٣) نفس المرجع ص ١٠٤ .
(٤) خطط الشام لكرد على ص ١١ ج ٦ .

وإذا كانت دمشق وحلب لم يسعدهما الحظ بالنهوض السريع ، فإن نصارى لبنان كانوا أسبق إلى اليقظة من إخوانهم المسلمين فى دمشق وغيرها ؛ بفضل الإرساليات التبشرية ، ولصلة النصارى الدائمة بأوربا المسيحية يستمدون منها القوة ضد الدولة العثمانية المتعصبة .

وكان التعليم فى لبنان — كما كان فى غيره — دينيًّا ، ومن أوائل المدارس التى أسست فيه (مدرسة عين ورقة) سنة ١٧٨٩ ، وكانت ديراً ثم حولت إلى مدرسة ، وكانت تدرس فيها اللغة السريانية ، والعربية ، والفصاحة ، والمنطق واللاهوت .

ولكن المدارس لم تنتشر ، والنهضة لم تعم البلاد إلا فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر حين أسست مدرسة (عينطورا) سنة ١٨٣٤ م ولا تزال مفتوحة الأبواب حتى اليوم وقد تعلم فيها عدد من زعماء النهضة اللبنانية الحالية . ولما وفد على لبنان الدكتور (فانديك) الأمريكى مبشراً بالدين المسيحى والمذهب البروتستانتى ، ورأى البلاد فى حاجة للمدارس العلمية أنشأ مدرسة (عبية) سنة ١٨٤٧ .

كانت كل هذه المدارس فى الجبل ، لأنه موئل المسيحية ، فلما وقعت مذابح سنة ١٨٦٠ ونزح كثير من أهل الجبال إلى بيروت ، ابتدأت الإرساليات تفتح المدارس فيها ، ومن ذلك الوقت تبتدىء النهضة الحقيقية بلبنان .

وأقدم مدرسة أنشئت ببيروت كانت للبنات اليتامى اللاتى فقدن آباءهن فى مذابح سنة ١٨٦٠ وأسستها (مسز طمسن) فى تلك السنة ، ثم المدرسة الكلية الإنجليزية الأمريكية للبنات سنة ١٨٦١ ، وقد كان لهاتين المدرستين أثر عظيم فى النهضة لأن تعليم الأم أول خطوة فى تعليم الشعب ، وقد كثرت مدارس البنات فى لبنان خاصة بعد ذلك كثرة ملحوظة ، ولا ريب فى أن الأم المتعلمة لن ترضى لأولادها الجهل .

ومن أوائل مدارس البنين : المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستانى فى سنة ١٨٦٣ ، وكانت ممتازة بصبغتها الوطنية ، وحرية الدين ، ولكنها تعطلت سنة ١٨٧٦ . وأنشئت

المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك سنة ١٨٦٥ . ومدرسة الحكمة فى السنة نفسها وهى للطائفة المارونية . وأقدم المدارس الإسلامية هى كلية المقاصد الخيرية الإسلامية سنة ١٨٨٠ .

أما التعليم العالى فيتمثل فى الكلية الأمريكية والكلية اليسوعية ؛ وقد أنشئت الأولى ببيروت سنة ١٨٦٦ ، وبها الآن فروع للطب ، والفلك ، وطب الأسنان ، والتجارة ، والآثار ، والآداب ، ولها قسم إعدادى ثانوى ، وبها مرصد فلكى : ولما قوى نفوذ الإنجليز فى الشرق بعد الحرب العالمية الأولى وصار تعلم الإنجليزية ضرورياً اتسعت الجامعة الأمريكية ، وزاد إقبال الطلاب عليها ، وقصدوها من كل البلاد العربية ، وبها ما يقرب من خمسة آلاف طالب ، وقد اتسعت مبانيها ، وألحق بها مستشفى عظيم ، ولها عناية بالمؤلفات العربية [١] .

أما الكلية اليسوعية فقد نقلت إلى بيروت سنة ١٨٧٤ ، وتعلم اللغات ، والآداب والطبيعيات والرياضيات ، وبها ثلاث شعب رئيسية : الحقوق والطب والهندسة ، ولها مستشفى كبير ، والتعليم فيها باللغة الفرنسية ، وبها مكتبة من أنفس المكتبات العربية ، ومطبوعات اليسوعيين ذات شهرة عظيمة .

كان لهذه النهضة التعليمية فى لبنان أثر بالغ فى ثقافة الشعب ، والإقبال على القراءة والتنافس فى أسباب الرقى بين الطوائف المختلفة ، كل طائفة تسمى لأن تبز الأخرى وتحتل دونها مركزاً أدبياً ممتازا فى القطر الصغير .

ولكن كثيراً من أدباء لبنان فى القرن التاسع عشر قد آثروا الهجرة إلى مصر ؛ لاضطهاد تركيا المسلمة لهم ، ولضيق المجال أمام تفوقهم فى بلادهم ، ومن أشهر من وفد على مصر من هؤلاء الأدباء غير من ذكرنا سابقا من الصحفيين : جورجى زيدان ، وطانيوس

---

(١) من أشهر أساتذتها الذين عرفناهم الرئيس (دودج) والأستاذ بولس الخولى أستاذ التربية ، والأستاذ أنيس المقدسى أستاذ الأدب العربى ، والدكتور قسطنطين زريق (وكان مديراً للجامعة السورية) ، والدكتور شارل مالك وقد صار وزيراً مفوضاً بالولايات المتحدة ، والدكتور أسد رستم ناشر مخطوطات الشام فى عهد محمد على ، والدكتور مصطفى الخالدى .

عبده ، وأديب إسحاق ، وسركيس ، ويعقوب صروف ، وفارس نمر[١] . وقد نشر زيدان فى مجلة الهلال كثيراً من البحوث المترجمة ، واختصت المقتطف بالأبحاث العلمية . ومن أشهر آثار اللبنانيين فى الترجمة تعريب الإلياذة شعراً ، وقام بهذا العمل الضخم سليمان البستانى[٢] .

ولكن للأسف قد طغت الفرنسية على أهالى لبنان بعد الحرب العالمية الأولى حينما خضعت بلادهم لحكم فرنسا ، ففرضت الفرنسية فى جميع المدارس ، تُعلَّم بها كل المواد ما عدا اللغة العربية فاستعجمت ألسنة شبابهم وأدبائهم ، وركت أساليبهم ، وضعفت الترجمة إلى حد كبير ، ولا سيما عند المسيحيين . أما المسلمون فقد انصرفوا للتجارة ، وإن كانوا أصح لغة من إخوانهم ، ولولا شعراء الجيل الماضى وأدباؤه لتأخرت منزلة لبنان فى الأدب ، على أن هذا الوضع قد تغير نوعاً ما بعد ثورة ١٩٤٥ ، واستقلال لبنان . وأخذت النهضة الأدبية فيه تشتد وتقوى ، وأسست فيه دور نشر قوية ، وظهرت ثمة بعض الصحف الأدبية الراقية وإن كان أثر الثقافات الأجنبية فى نتاج أدبائه واضحاً كل الوضوح . وأخذ كثير منهم يقلد المذاهب الأدبية الأوربية بحماسة ظاهرة .

---

(١) وسنترجم لهم فى الأجزاء التالية من كتاب الأدب الحديث إن شاء الله .

(٢) ولد سنة ١٨٥٦ وتوفى سنة ١٩٢٥ ، وابتدأ فى ترجمة الإلياذة سنة ١٨٨٧ بالقاهرة ، وتعلم اليونانية ليترجم الإلياذة . ونظمها فى أحد عشر ألف بيت غير متقيد بوزن واحد ولا قافية واحدة بل استعمل كل ضروب الشعر وبحوره . وانتهى من نظمها سنة ١٨٩٥ ، وشرحها وعلق عليها بألف بيت من الشعر وبكثير من القصص العربية ، وانتهى من شرحها سنة ١٩٠٢ . ونشرت لأول مرة كاملة بشرحها ومقدمتها سنة ١٩٠٤ .

الفصل الثالث

الأدب فى عصر إسماعيل

لم يكن لهذه النهضة الشاملة ، وهذا الإحياء القوى الذى ظهر فى عصر إسماعيل وزجاله البعثات أثر كبير فى الأدباء الذين نشأوا فى عصر محمد على وعاصروا إسماعيل بعد أن تجمدت طباعهم ، ورسخت عادتهم ، وصار عسيراً عليهم أن يتقبلوا الأفكار الجديدة ويغيروا أسلوبهم فى التعبير والتفكير ، ولم يكن من المنتظر أن تؤثر النهضة فى مثل هؤلاء الأدباء ، ولم يتشربوا مبادئها ، ويسيروا على هداها ، ويتمتعوا بنورها ردحاً طويلا من الزمن ، ولم يكن من السهل التخلص من أوضار الماضى وتقاليده ، ولا سيما ذلك الماضى القريب الذى يمت إلى عصور الضعف اللغوى والفكرى والخلقى ؛ إذ لم ير الأدباء أمامهم أمثلة تحتذى إلا ما قيل فى الماضى إن قريباً وإن بعيداً . أما الأدب الأوربى القوى فلم يترجم فى عصر إسماعيل منه إلا شىء يسير وبلغة ضعيفة ولا سيما الروايات المسرحية ، ولو عرفه الأدباء ما استساغوه ؛ لأن ثقافتهم كانت محدودة ، وكان عصرهم مثقلا بتلك التقاليد القديمة ، والمدارس قليلة العدد ، والمتعلمون فى الأمة يعدون عداً .

هذا ، وقد كان اهتمام مصر فى عهد محمد على وإسماعيل بالعلوم أعظم من اهتمامها بالأدب ، ولولا ما أخرجته المطبعة العربية حينذاك من الكتب القديمة ، واطلاع المحبين فى الأدب والراغبين فى التزود من ينابيعه على آثار السلف ، ودواوين كبار الشعراء الذين ظهروا فى عصور القوة لما كان للأدب فى مصر والشرق العربى نصيب .

ولما كان الأدب الموروث هو أول ما عرفوا من الآداب كان طبيعياً أن يحتذوه ، ويحاكوه فى موضوعاته وأسلوبه ، ومعانيه وأخيلته ، وقد تفاوت الأدباء فى هذا التقليد تبعاً لمواهبهم وشخصياتهم ، كما تفاوتوا فى اختيار من قلدوهم ، فنهم :

١ — أدباء لم تكن لهم شخصيةٌ ألبتة ، بل ساروا فى الطريق المعبَّد الذى سلكه مِنْ قبلهم أدباءُ عصور الانحطاط والضعف ، ذلك هو طريق الشعراء النظّامين أو العروضيين لا يعرفون الشعر والأدب إلا أنه مهارة لفظية وقدرة على التفوه بعبارات شعرية ونثرية لا حياةَ فيها ولا عاطفة ولا قوة ، وإنما غرضها إظهار البراعة فى اقتناص ألوان البديع ؛ حتى إنهم ليُخِلون بالإعراب فى الكلمات والتصريف ، إذا تعارض الإعراب أو التصريف مع ما يريدونه من جناس أو طباق ، ويفسدون بِنْيَة الكلمة ، عساها تصادف ما يجْرون وراءه من هذه الحلى التى يسترون بها عوار لغتهم الركيكة وأفكارهم السقيمة ، وخيالاتهم المريضة ، ومثال هذه المدرسة العروضية فى عصر إسماعيل : السيد على أبو النصر والشيخ على الليثى ، ولولا ما بهما من ظَرْف طبيعى ، ورقة قاهرية ، ولولا أنهما أُلِفا منادمة الأمراء والعظماء . وتطلبت المنادمةُ منهما أدباً وحلاوة نُكْتة ، وسرعةَ بديهة لما خرجا عن نطاق أدباء مصر والشام إبان الدولة العثمانية ، ولما امتازا بشىء عن عبد الله الشبراوى وحسن قويدر وأضرابهما .

٢ — أدباء كانت لهم — مع تقليدهم للسلف والأدب الموروث — شخصيةٌ ، بيد أن هذه الشخصية كانت ترى من بعيد ، ومن خلف هذه الُحجب الكثيفة من التقاليد فى العبارات والأساليب والأخيلة ، حائلة غير واضحة ولا مميزة ، ولكنها تدل على أن هذا الأديب قد جاهد فى أن ينفذ بشاعريته وأدبه من خلال هذه الحوائل الغايظة ، وإن لم تمكنه شخصيته القوية ، ولا أدبه المتين من التغلب عليها ، وخير مثل لهذا النوع من الأدباء هو : محمود صفوت الساعاتى ، وإبراهيم مرزوق ، وصالح مجدى .

٣ — أدباء قويت شخصيتهم بعضَ الشىء ، وحاولوا أن يجددوا ، وأن يلونوا أدبهم بما يُظهر نفسيَّتهم ويطبَعه بطابَعهم ، وقد نجحوا فى ذلك أحياناً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا سيطرة الأدب الموروث ، ولا إغراء المحسنات والزخارف ، فضعفت هذه الشخصية ، وتضاءلت أمام هذا الإغراء ، فجاء أدبهم إبان هذا الضعف من نمط المدرسة الثانية ، ومن

هذه المدرسة عبد الله فكرى ؛ تراه آنا ينطلق على سجيته ولا يتقيد بهذه الصناعة السمجة المتكلفة فى نثره ، وبهذه الزخرفة اللفظية المجوجة فتتضح شخصيته وتنجلى فكرته ، ويترسل فى كتابته فيفهم الناس منه ما يقول دون عناء ، وهذا قليل فى كتابته ، وآنا يجذبه ذلك الزخرف فيستعد ويهتم ويحتفى بموضوعه ويبذل جهداً شديداً فى صوغ العبارات ، ويكاد هذا يطغى على شخصيته ، وأكثر شعره ونثره من هذا الطرز

٤ — وأدباء رزقوا الشخصية الفلابة ، والأدب المتين ، وحاكوا النماذج الرفيعة من أدب السلف ، فاستحصدت مِرَّتهم ، وعظمت ذخيرتهم من الأدب الرصين فزقوا هذه الحجب الكثيفة ، وطرحوها جانباً ، وارتفعوا بالشعر وبالأدب إلى حيث الشمس الساطعة القوية فتراءت معانيه . وتجلت أخيلته ، واهتزت لديباجته المشرقة النفوسُ ، قلدوا القدماء بل عارضوهم ، وجروا وإياهم فى ميدان واحد . ولكنهم لم يقلدوا الغث من الآداب بل عمدوا إلى فحول الشعراء ينسجون على منوالهم ويبارونهم فى قصائدهم المشهورة الخالدة ، فحلقوا معهم فى سماواتهم ، وأضفوا على الشعر لوناً جديداً جذاباً لم يستمتع به منذ أمد طويل :

أجل ! لم يكونوا دائماً فى قوة فحول الأدباء والشعراء السابقين ، بل قصروا عنهم فى كثير من الأوقات ، ولكن حسبهم أن سَلِمَ شعرُهم من هذه العلل والأوصاب التى أزمنت لدى الشعر العربى قروناً ، ووصلت به إلى دَرْك الغثاثة والرِّكَّة والعُجْمة ، وخير مثل لهذا النوع من الأدباء - أستغفر الله — بل باعث الشعر العربى فى العصر الحديث ، وصاحب هذه اليد الطولى على الأدب هو البارودى .

هذا وقد ظهر فى أخريات عصر إسماعيل فجر نهضة جديدة فى الأدب ، لم تكن مدارس إسماعيل ، ولا حركة الإحياء فى عهده هى الباعث عليها ، ولكن رغبة إسماعيل فى أن يرى مصر بين عشية وضحاها قطعة من أوربا فى مدنيتها وحضارتها ، جعلته يسرف فى مال مصر ويبدده فى هذه السبيل غير ناظر إلى الشعب ومصيره . واتخذ الأجانب من حب إسماعيل للحضارة الأوربية وسيلة لاستيطان مصر فجاءوا زَرافات ووُحداناً ، يرتادون هذه

الأرضَ البكر وينشئون البيوتَ التجارية والمصارف المالية ، ويتقدمون لخدمة الحكومة في جميع مصالحها . ولما استدان إسماعيل ، وأثقلته ومصرَ الديون عَظُمَ نفوذ هؤلاء الأجانب وشجعتهم حكوماتهم وحمتهم امتيازاتهم ، فكان هذا النفوذ المتزايد سبباً في تنبه المصريين إلى الخطر الداهم الذي ينتظر بلادهم . وتصادف أن كان بمصر الزعيم المصلح السيد جمال الدين الأفغاني — وكان من الملهمين في العصر الحديث — فبث تعاليمه الإصلاحية ، وشجع حركة الاستياء من طغيان النفوذ الأجنبي ، وأخذ يقتحم هذا الحمى الذي ظل قروناً لا يقرب ، وهو حق الحاكم في التصرف برعاياه وأموالهم ونفوسهم ، فوجه الانتقاد لإسماعيل وحاسبه في الصحف المختلفة التي يكتب فيها أتباعه ومريدوه من أمثال : أديب إسحاق ، وإبراهيم المويلحي ، وسليم نقاش ، وعبد الله نديم ، ويوسف أبو السعود ، وهو من ورائهم يغذيهم بروحه وتشجيعه وآرائه ، ويكتب هو أحياناً مستتراً .

هذه الحركة أنتجت أدباً قومياً حيث وجهت الأدب — ولا سيما النثر — إلى النظر في شئون الشعوب العربية ، والدفاع عن حقوقها ، ووصف أمراضها وأدوائها ، وما تتطلبه هذه الأوصاب من علاج ، ولنا عودة إلى هذا الأدب ومظاهره فيما بعد .

وحَرِى بنا ، وقد ألقينا هذه النظرة العاجلة على ألوان الأدب في عصر إسماعيل أن نعود إلى هذه الألوان والنماذج فندرسها بشيء من التفصيل .

١ — السيد على أبو النصر :

مصرى شريف النسب من منفلوط ، لا نعرف على التحقيق متى ولد ، وأغلب الظن أنه كان رجلا ناضجاً في عصر محمد على حيث أرسله في مهمة إلى الآستانة في خلافة السلطان عبد المجيد ، ومبعوث محمد على إلى (الحضرة الخليفية) لن يكون حدثاً غراً أو شاباً غير مجرب ، بل رجلا مكتمل العقل والشهرة ؛ ولذلك نرجح أنه ولد في أوائل القرن التاسع عشر وجاء إلى مصر من منفلوط وهو صغيرُ السن ، ثم دخل الأزهر وتلقى به العلومَ العربية الشرعية ، إلا أنه لم يسر في مرحلة التعليم هذه حتى غايتها ؛ بل ترك العلم واشتغل بالأدب

وقد ظهر ميلهُ إليه منذُ الصغر . وكان عصرُ شبابه مُقفراً من الأدباء اللامعين ، وكان صفوت الساعاتى فى شُغُل بمدح أمراء الحجاز كما سيأتى ، فنال أبو النصر شهرة ، واتصل بالأسرة الحاكمة ، وبعثه محمد على كما ذكرنا إلى الآستانة ، وصحب إسماعيل من بعده ، وكان له نديماً وجليساً ، وقد سافر إلى الآستانة معه مرة ثانية .

لم يكن أبو النصر شاعراً فحسب ، ولكنه كان نديماً أكثر منه شاعراً ؛ والمنادمة صفات كثيرة ، وهى صنعة شاقة . أما هذه الصفات فمنها : الإحاطة بالأدب القديم ورواية شعره ونثره ونوادره وأمثاله ، ثم الذكاء الحاد . وسرعة البديهة ، ومعرفة دخائل النفوس ودراسة أحوالها المتباينة ، وأهم من هذا طبيعة مرحة ، قادرة على استلال سخائم النفوس ، وبعث الضحك مع الاحتفاظ بالوقار والمنزلة ، حتى لا يُمتَهَنَ النديم ويهان . وليس الإضحاك أمرا هينا ولاسيما فى مجلس أمير عظيم تشغله أعباء الحكم ، وتحزبه أزمات نفسية كثيرة ؛ والنفسُ الإنسانية يعتورها الحزن والسرور والانقباض والانشراح ، والغضب والرضا ، والمفروض فى النديم أن يستطيع بعثَ الضحك فى كل حالة ، ولاسيما فى حالات الانقباض والحزن ، وأن يُذهب بمرحه وأدبه وَضر القلوب ، وتجهم الوجوه ، مع أنه إنسان كسائر الناس له نفس تحزن وتنقبض ، وعقل يفتر ، ويخبو ، وقريحة تخمد وتتبلد أحياناً .

ولهذا كانت مهمة النديم شاقة ، وعليه أن يخلق الجو المناسب لنكاته ، وأن يروض الناس على الضحك حين يطلق النكتة ولو لم تكن مستساغة ، وهذا فن يتقنه الموهوبون من الندماء .

ثم إن النديم صدى للحوادث التى تحدث فى مجلس الأمير أو العظيم ، يسجلها فى أدبه فيقول الشعرَ فى كل المناسبات الممكنة : حين يرحل الأمير ، وحين يعود ، وحين يرتقى أحدُ أفراد الحاشية أو يُنعم عليه بلقب ، وحين يولد مولود جديد ، وفى الأعياد والأفراح والمآتم ، بل فى غير ذلك من المناسبات المفاجئة والعارضة .

وإذا تصفحنا ديوان السيد أبى النصر لم نجده شيئا غير هذا ، وقلما يلتفت القديم لنفسه فيظهر لواعج حبها ، أو اهتزاز مشاعرها وعواطفها ، أو يلتفت إلى غير الأمير وحاشيته .

وشعر أبى النصر يمثل كذلك هذه المدرسة التى أثقل أدبها بأوضار القديم وآفاته ، فهو مولعٌ بالمحسنات البديعية ، وبالتاريخ الشعرى ، وبالألغاز ، وبالتشطير والتلاعب بالألفاظ . والشعر فى هذه المدرسة كما ذكرنا صناعةٌ تظهر البراعة والقدرة على صياغة معينة تحقق غرضاً من هذه الأغراض وليس ترجمانا عن همسات القلوب ، وأشجان النفوس وأحاديثها ومطيّةً للخيال يحلق فى سماواته الواسعة ، أو مفصحاً عن فكرة اختمرت فى عقل الشاعر وأبت إلا أن تظهر جلية واضحة ، كما يجب أن يكون الشعر .

ولم يكن مع هذا شعر السيد على أبو النصر متين النسج ، قوىّ العبارة بل هو وسط بين القوة والضعف . وبذلك يكون خير مثال للنظاميين أو العروضيين . ومن شعره وقد أهدى إليه قدح :

أهدى الحبيبُ لمن أحبْ ... قدحاً تحلى بالذهب
لو أفرغت فيه الطِّلا ... لأطلَّ ينظره الَحبب
قد راق منظر حُسْنه ... ودعا له داعى الطرب
لما نظرتُ اشكله ... فى رسم تيجان العرب
قبَّلته وقبلته ... ووعدته بنْتَ العنب
ولأجله لولا التُّقى ... لخلعت أثوابَ الأدب
وملأته راحاً بها ... ينفى عن الصَّب الوَصبْ
لكنى أودعتُه ... بخزانة تحوى الأدب
ومدحتُ من أهداه لى ... ومدحته شكراً وجب

وجعلتُه بُشرى المنى والدهرُ يأتى بالعجب

وقال ملغزاً :

ما اسم الحبيب أفيدوا أيها الأدبا فإن بقراط عنه ساء منقلبا ؟
فقال لى بعضهم : حرفٌ أضيف له حرفان دلا على شىء حوى ذَنَبا
فقلت : هذا جوابٌ رائق فعلى مثلى لمثلك شكرُ الفضل قد وجبا

ومن قوله يتغزل :

نَوْرُ زاهى الروض أم نور الصباح وابتسامُ الثغر أم زهر الأقاح
ونجومٌ تزدهى فى أفقهـا بوميض البرق أم كاساتُ راح
لا ، ولا ، بدرُ تمٍ ينجلى للنَّدامى فى اغتباق واصطباح
بمحيا يزدرى شمس الضحى فى معانى حسنه تعيا الفصاح

وقال مهنئاً مصطفى نعمانى برتبة الباشوية مؤرخاً فى كل شطر من أبيات القصيدة بتاريخ هذه الرتبة وهو سنة ١٢٩٥ .

بشير الهنا لاحت بيمن قدومه بدورٌ بها نورُ البشائر قد صفا
وبدرُ التهانى فاق بالأنس نورُه فأهدى لنا أسنى السرور وأتحفا

وهكذا حتى أتم خمسة عشر بيتاً كل شطر منها يؤرخ سنة ١٢٩٥ مُظهراً بذلك مهارته وقدرته على الصياغة والنظم .

ومن أحسن ما قاله من الشعر هذه القطعة التى يتأسف فيها لفراق أحبابه .

لقد ذهب النَّوى بجميل صبرى وأودع فى حُشاشتىَ الوُلوعا
وألبسنى الأسى خِلَع التمنى وألزمنى التذلّلَ والخضوعا
ونارُ الشوق أغراها غرامى على كبدى فقومت الضلوعا

ولى قلب تُقَلِّبُهُ شجونى   وتمنعه السكينـة والهجوعا
يبيت مع الأحبة حيث كانوا   ويصبح راجياً منهم رُجوعا
يرى أضغاثَ أحلامِ الأمانى   حقائق لا يزالُ بها وَلوُعا
تطوف به الحوادثُ وهو لاه   كأنّ الوهم ألبسـه دروعا
وقائلةٍ : إلامَ تَحِن شوقاً   إلى حَىٍّ أحَلَّ بك الهلوعا
فقلتُ لها : وُقيت اليأسَ إنى   أوَدُّ بحبهم أُدعى هَلوعا
أبعـد فِراقهم ترتاح روحى   وترجو ساعة أن لا تَلُوعا[1]
فهم روحى وريحانى وراحى   فكيفَ أرى إلى السلوى نزوعا[2]

وفى هذه النماذج التى سقناها من شعره يتبين مدى ما ذكرناه عن أدباء هذه المدرسة وتقليدهم وعدم ظهور شخصيتهم ، مع افتتانهم بالبديع والجرى وراءه ، وضعف أسلوبهم ، وقد مات سنة ١٨٨٠ ، وله ديوان مطبوع .

الشيخ على الليثى :

ولد سنة ١٨٣٠ ببولاق ، وتيتم صغيراً فتحولت به أمه إلى جهة الإمام الليث وإليه ينسب ، وطلب العلم بالأزهر مدة ولكنه لم يتم تعليمه ثم رحل إلى طرابلس الغرب وأخذ عن الشيخ السنوسى الكبير ، والشيخ القوصى الكبير الطريقة والعلم ، ولما عاد اتصل بالأسرة الحاكمة وكان مقرباً لدى الخديو إسماعيل ؛ لأنه كان مثالا للنديم المحبوب الذى لا يُمل حديثه ، ولا يُطاق فراقه . وتروى له فى باب المنادمة نوادر لا تزال تتردد حتى اليوم على ألسنة السمار فى مجالس الأنس ، ولعل كثيرين منا يعرفون قصته مع (المهردار) بقصر الخديو إسماعيل حين كتب على باب حجرة الشيخ الآية الكريمة : « إنما نطعمكم لوجه الله »

---

(١) تلوع : تجزع .   (٢) الراح : الخمر ، والنزوع : الميل .

إذ لم يجد لقباً سواها يُعطى لهذه الحجرة كما أعطيت الحجرات الأخرى بالقصر ألقابا، من مثل حجرة أمين الخازن ، ورئيس الحرس ، وغير ذلك ، وقد كانت هذه مداعبة من (المهردار) ، أثارت فى نفس الشيخ الليثى الرغبة فى الانتقام منه ، وجعله سخرية أمام رجال الحاشية ، فانتهز فرصة وجوده معه بحضرة إسماعيل ، والمجلس عامر بعلية القوم يخوضون فى أحاديث شتى ، ولما سنحت الفرصة قال الشيخ على الليثى للخديو : عندى قصة صغيرة يامولاى ؛ فقال : ما هى ؟ قال :

لنا طحونة فى البلد   لكن ثقيلة ع الحمار
علقت فيها الطور عصى   علقت فيها المهردار

فكانت أضحوكة سارت على الألسنة ، وطرب لها الخديو وأفراد حاشيته . ونال الشيخ الليثى لدى إسماعيل حظوة ومنزلة ، وعرف رجال الدولة مكانته فكان مقصد طلاب الحاجات ، ولا يرد له رجاء عند أولى الأمر . ولما مات إسماعيل أبقى عليه توفيق ، وقربه وأكرمه ، وبقى مخلصاً له فى أحلك أوقات الثورة حين تنكر له كثيرون ممن أكرمهم توفيق فأسبغ عليه من نعمه وكافأه على إخلاصه له .

وللشيخ على الليثى ديوان لم يطبع ، بل يقال : إنه لمن من يطبعه . ولسنا ندرى سبباً واضحاً لعزوف الشيخ عن تخليد أثره الأدبى إلا أنه نال ثراءً واسعاً فى أخريات حياته ، وصار من سراة مصر ، وليس من اللائق بسرى وجيه مثله أن يكون له ديوان شعر يروى وبه ما به من عبث ومجون ، وتزلف لكثيرين ممن يتسامى فى حالته الأخيرة لمنزلتهم . ومن المستبعد أن يكون الشيخ قد أدرك أن شعره لا يستحق الخلود ، وأنه ركيك ضعيف ، فكل إنسان مهما كان شأنه يُعجب بما يقول ، ولا يَفطن إلى ما به من عيوب ، ثم إن الذوق الأدبى والنقد لم يكونا قد وصلا إلى منزلة تمكِّن الشيخ من الاطلاع على مساوىء شعره بل على العكس كان الشيخ محسود المكانة الأدبية ، ويتهافت أدباء عصره على مكاتبته

ومطارحته الشعر[١] وقد طال عمر الشيخ وتوفى سنة ١٣١٣ هـ ١٨٩٦ م .

وإذا نظرنا إلى ما روى لنا من شعره ، لم نجده يتميز عن زميله السيد على أبى النصر فى شىء ، ونجده يقول فى المناسبات المختلفة شأن الندماء ، وقلما يطلق نفسه على سجيتها ، وينظم الشعر لأنه يشعر بدافع نفسانى يلهمه القول . ومن شعره على البديهة قوله ، وقد كان أحد رجال الحاشية يفرغ تفاحة بمدية ليشرب فيها ، فانكسرت المدية ، فنظر إلى الشيخ نظرة من يسأله وصف هذه الحال ، وخليق بنديم الخديو اسماعيل أن يسجل مثل هذه الحادثة ، فقال الشيخ مرتجلا :

عزت على الندمان حتى إنهم ... تخذوا لها كأساً من التفاح
ولدى اتخاذ الكأس منه بمدية ... لانَ الحديد كرامةً للراح

ومن شعره فى رثاء عبد الله باشا فكرى :

نذم المنايا وهى فى النقد أعدلُ ... غداة انتقت مولى به الفضل يكمل
كأن المنايا فى انتقاها خبيرةٌ ... بكسب النفوس العاليات تعجل
فتمٌ لها من منتقى الدر حليةٌ ... بها العالم العلوى أنساً يهلل

ويقول فى وصف الفقيد :

لقد كان ذا بِر ، عطوفا ، مهذبا ... سجاياه صفوُ القطر بل هى أمثل
رقيقُ حواشى الطبع سهلٌ محببٌ ... إلى كل قلب حيث كان مبجَّل

وله فى مدح السلطان عبد العزيز فى عيد جلوسه سنة ١٢٩٠ :

مولى الملوك الذى من يُمن دولته ... ظِل العدالة فى الآفاق ممدودُ
عبد العزيز الذى آثاره حمدت ... أبو الألى جَدُّهم فى المجد محمود

---

(١) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو .

أجاد نظمَ أمور الملك فى نَسَق لايعتريه مدى الأزمان تبديد
فلا تقسه بأسلاف له كرمت والشبل من هؤلاء الأسد مولود
ففخرهم عِقدُ در وهو واسطة فى جيد آل بنى عثمان معقود

وهذا نظم ليس فيه شىء من الخيال أو المعانى السامية ، وعبارته تميل إلى الضعف . وهكذا كان شعر الشيخ ، بل له شعر ملىء بالمحسنات والزخارف اللفظية التى زادته ضعفاً على ضعف ، من مثل قوله يرثى محمود باشا الفلكى وقد تصادف أن تهاوت نيازك ليلة وفاته :

أرى النيازكَ عن سامٍ من الفلك مذعورةً أصبحت تصبو إلى الدرك
كالطير فاجأها البازى وأذهلها فحاكت البرق ، وانقضت عن الحبك

إلى أن يقول :

أليس نَسر سماء العلم قد عَلِقَت كف المَنون به فانحاز فى الشَّرك
الصبرَ يانفس ، واستبقى منابحه أو فالتصبرَ إن تبغى الهدى فلك
حل القضاء وناعى المجد أرخنا قد مات محمود باشا المسند الفلكى

(فقد أرخ وفاته سنة ١٣٠٢ فى هذا البيت) .

وهو شعر ليس فيه من أثر الحزن شىء ، بل هو مصنوع ليظهر قدرة الناظم على تلفيق مثل هذا الكلام ، وقد حاول مرة أن يَفْتَنَّ ويصف السَّفينة التى أقلته إلى مصر وهو عائد من برلين ، فلم تمكنه اللغة القوية ، ولم يسعفه الخيال ، وأتى الشعرُ ضعيفاً ، وأغلب الظن أنه لم يقله بدافع نفسى ، وإنما طلب إليه أن يسجل هذه الرحلة فصنع الأبيات التى منها :

أصبح الوقت باسماً بالسرور كابتسام الربيع وقت الزهور
أين ألقى ظريفَ طبعٍ لطيفاً كى نديرَ الحديث مثل الخمور

فوق ظهر السفين نحسن وصفا ... حيث يجرى على صفاء البحور

* * *

وتراه يختـــال وهو مُمنَىً ... ويحه كم يجر ذيل الفخُور

ذيله يرسم المجـــرة عُجباً ... بين موج يضىء مثل البدور

وهو وصف غنى عن التحليل ، وإظهار مابه من ركاكة ، فنى كل بيت عوار لا يغفر ودليل قاطع على أن الشيخ ينتمى إلى مدرسة النظّامين والعروضيين . ولعل خير ماروى له قصيدته التى قالها مستعطفاً الخديو توفيق عقب الثورة العرابية ، وطالباً الصفح عمن أجرم — فى رأيه :

كل حال لضـــده يتحولْ ... فالزم الصبر إذ عليه المعوّل

يافؤادى استرحْ فمـــا الشأن إلا ... مابه مظهر القضاء تنزّل

ربَّ ساع لحتفه وهو ممن ... ظن بالسعى للعلا يتوصّل

قدرٌ غالبٌ وسرُّ الخفـــايا ... فوقَ عقل الأريب مهما تكمل

غايةُ العقل حسرةٌ وعِقال ... واللبيبُ الذكى من قد تأمل

كيف ننسى ، وحادثات الليالى ... فاجأتنا بكارثٍ ليس يُحْمل

أذهبت أنفساً وغالت نفيساً ... وذَوَى مرْبعُ الحظوظ وأمحل

وإذا المـــرء كان بالوهم يبنى ... فخيال الظنون ماقد تمثل

ويحَ قومٍ سَعَوْا لإدراك أمرٍ ... دون إدراكه الجبالُ تزلزل

ما أصروا عليه إلا أضروا ... بأناسٍ من نابه أو مغفل

ذلك يسعى على التَّقيَّة خوفاً ... وسواه سعى لكيما يُجمِّل

لو أصابوا الرشاد عند ابتـــداء ... كانت الغايةُ الجميلة أجمل

وهذه القصيدة على ما بها من سهولة ، فمعانيها مطروقة ليس فيها جديد وحكمها مألوفة ،

وبها كثير من أثر الصنعة والتكلف . أما الخيال وهو روح الشعر وجناحه الذى يحلق به فلا أثر له . ونعود فنقرر أن هذه المدرسة التى ينتمى إليها على أبو النصر وعلى الليثى هى مدرسة التقليد للشعر الذى كان سائداً فى عصور ضعف اللغة ، وليس لهذين الشاعرين وأضرابهما شخصية قوية تهتك ستار هذه الحجب الكثيفة من الزخارف السمجة ، وليس لهما قوة عارضة ، وفحولة نسج لتستر مساوىء هذا الذى يسمى شعراً . وهما نظامان أكثر منهما شاعران ، ويقولان فى المناسبات نظماً غير صادر عن شعور إلا القليل النادر .

٣ - محمود صفوت الساعاتى [١] :

وهاك مثلا لشاعر استطاع بمواهبه أن يفصح عن شخصيته ، وإن تراءت من بعيد حائلة اللون ، غير واضحة المعالم تحاول جهدها أن تظهر من خلال هذه السُّدُف الغليظة من التقاليد الموروثة فى الشعر العربى ، ولا سيما عصور الركة والانحلال وقد أوتى حظاً من اللسن والفصاحة فاستطاع أن يجيد فى غير ما موضع من شعره ، حتى ليعده بعضهم طليعة للنهضة الحديثة ، وممهداً للطريق الذى سلكه البارودى من بعد .

ولد الساعاتى بالقاهرة سنة ١٢٤١ هـ ١٨٢٥م وظل بها إلى أن بلغ الثانية عشرة ، ثم ارتحل إلى الاسكندرية فأقام بها ثمانية أعوام . ولم يدخل الساعاتى الأزهر كما دخله على أبو النصر ، وعلى الليثى ، ومحمد شهاب ، وعبد الله فكرى وغيرهم ، بل يقال : إنه لم يتعلم النحو ، وإنما استظهر ديوان المتنبى وكثيراً من أشعار القدماء فاستقام لسانه ، وعظم مخزونه من الأدب . وقد ظهر تأثير المتنبى فى شعره واضحاً ، وكان بينه وبين النحاة مناقشات طويلة كما سنرى .

وكان تلميذا للشيخ حسن قويدر يغشى مجلسه ويأخذ عنه الأدب ، وكان الشيخ قويدر

---

(١) هو محمود صفوت بن مصطفى أغا الزيلع الشهير بالساعاتى ؛ والساعاتى لقب غلب عليه ؛ لأنه مهر فى إصلاح الساعات ، ولا ندرى على التحقيق أكان إصلاح الساعات حرفة له أم هواية كما يقول بعضهم .

غنياً كريماً ، ومات سنة ١٨٤٥ ، وكانت سن الساعاتى حينئذ عشرين سنة . وهذا كل ما نعلمه عن ثقافة هذا الشاعر وحياته حتى هذه السن ، وقد رثى الشيخ قويدر بقصيدة مطلعها :

بكت عيون العلا وانحطت الرُّتَبُ ... ومزقت شملَها من حزنها الكتب

وفيها يقول ، وقد حشاها بالمبالغات السخيفة ، وهى ليست قوية النسج مما يدل على أنها من أوائل مانظم :

ياشمسَ فضل فدتك الشهبُ قاطبة ... إذ عنكَ لا أنجمُ تغنى ولا شهب
لما أصابكَ لا قوسٌ ولا وتر ... سهمُ المنية كادَ الكونُ ينقلب
ما حيلةُ العبد والأقدار جارية ... العمر يوهب والأيام تُنتهب
لو افتدتك المنايا عندما فتكت ... بخيرنا لفدتك العُجْم والعرب
أمست لفقدك عينُ العلم سائلةً ... ترجو الشفاء وأنَّى ينجح الطلب

إلى آخر هذا النظم الذى ينبئنا بأن ذوق الشاعر لم يكن قد تهذب بعد ، وأنه يحاكى الشعراء المتأخرين فى نسجهم الضعيف واستعاراتهم السمجة ، مثل (عين العلم سائلة) وغير ذلك .

وفى سن العشرين بدا له أن يحج إلى بيت الله الحرام ، وهناك اتصل بأشراف مكه (آل عون) ، فأكرموه ، واصطحبوه معهم فى غزواتهم وحروبهم مع آل سعود وأمراء اليمن ، وظل بجوارهم خمس سنوات يسجل انتصاراتهم ، ويسبغ عليهم مديحه . ولما عُزل الأمير محمد بن عون عن إمارة مكة ، ورحل إلى الآستانة صحبه الشاعر ثَمَّةَ ، ومكث معه قليلا ، ثم تركه ، ورجع إلى مصر ، ولسنا ندرى سبباً لتركه : أيئس من عودة الأمير إلى أريكته فأراد أن يبحث عن شخص آخر يستظل بظله ؟ . أم أن الأمير رأى نفسه معزولا قليل المال فبرم بصحبة شاعر يعوله وينفق عليه فى غربته ؟ ولما عاد الأمير إلى إمارته

لم يستدع شاعره الصداح ، وفى شعر الساعاتى ما يدل على أن القطيعة كانت من الأمير من مثل قوله يخاطبه :

أوليتنى الآلاء ثم تركتنى مثل الذى حلَّت به اللأْواء
ما كان ذا أملى الذى أمَّلتُه فيكم وأنتم سادةٌ كرماء

ويقول :

وحبوتمونى بعدها بقطيعة أكذا يكون تكرم وحِباء

وقال مرة يعاتبه ، ويظهر يأسه منه ، وكأنه يودعه إلى غير رجعة :

قضى العبد بعضَ الواجبات بقصده إليكم وقد جُوزى بما هو أعظم
ونالَ الذى قد كان يرجوه وانقضت أمانيه منكم ، والسلام عليكم

وعلى الرغم من هذه القطيعة فقد ظل الشاعر يتحسر على أيامه الخاليات ، وعلى المودة المفقودة ، ويتعذر عن جُرم لا ندرى كنهه للشريف محمد ، ولأولاده من بعده عبد الله ، وحسين ، وعلى ، فيقول للشريف عبد الله :

شددت بكم بعد الإله عزائمى فكنت عليهم بالعذاب شديدا
وإنى أعيذ النفس بعدُ لعفوكم وإن جَلَّ ذنبى أو مكثتُ بعيدا

ويقول مرة أخرى للشريف عبد الله :

فإنى لم أبرح على العهد مخلصاً وإن طال عهد البعد واشتقت مَعْهدا

ويبدو أن الشريف عبد الله كان يصله على البعد ، ولكنَّ الشاعر كان يأمل أن يستدعيه لديه :

يقلدنى فضلا على البعد بيننا وأطمع حِرصاً فى شُنوف المسامر

ويتذلل للشريف حسين ويطلب العفو :

أقلني وبادرْ بالجميـل فإنني أرى العفو دوماً من صفات الأماجد

ولما يئس الشاعر من صلاتهم ، والعودة إليهم بعد كل ماقدمـه من زلفى ومن قصائد يرسلها إليهم فى كل المناسبات قال للشريف حسين :

علّلت نفسى غروراً بالمواعيـد فكان تعليلُها عنوانَ تفنيد
إلى متى وإلى كم لا أرى زمنى إلا كذا بين تقريب وتبعيد ؟ !
قالوا ذكاؤك محسوبٌ عليك كما يُروى ، فقلت حديث غير مردود

وما كان أغنى الشاعر عن هذه الضراعة والذّلة ،وهذا الإلحاح المشين فى الطلب ،وأغلب الظن أنه لم يكن يراه بهذا المنظار ، وإنما يقتفى آثار الألى عـبّدوا له طريق المدح والإلحاف فى المسألة من لدن النابغة الذبيانى حتى عصر إسماعل ، ولم يجد فى قوله هذا مايخل بالكرامة أو يَشين المروءة ؛ ونحن إنما نحكم عليه وعلى أمثاله من الذين طبعوا الشعر العربى بهذا الطابع لأننا فى عصر تغيرت فيه قيم الأشياء،وصرنا نعتد بالأدب الشعبى القوى، وبالشعور الخاص ، والعواطف الكامنة فى نفس الأديب ، ونجوى خياله وروحه ، أكثر من التفاتنا إلى شعر المناسبات ، والسير فى ركاب العظماء ، والتمدح بمناقب الأغنياء ولكننا نتساءل : ألم يكن بعصر أمراء يكفون الشاعر لو تقرب منهم مؤنة هذا التسول ؟؟ ولماذا قصّر فى مدح إسماعيل إذا لم يثبه سعيدٌ على مديحه إياه ثواباً يرضيه ؟ وهل ثلاث قصائد تكفى فى إسماعيل وهو من هو حدَباً على الأدب والأدباء ، وهو الذى أظل بعطفه العَليّين أبى نصر والليثىْ، وهما دون الساعاتى قدرة على النظم ومتانة شعر ؟ وسمو خيال ؟ . أيهما المقصر : إسماعيل إذ لم يضم إلى حاشيته وندمائه هذا الشاعر : أو الساعاتى إذ انصرف إلى مديح آل عون بمكة. واشتهر بإخلاصه لهم ، وجعل شعره حبساً عليهم إلا القليل، ورأى أن باب اسماعيل قدسبقه إليه شاعران آخران واحتلالدنه مكانة ومقاماً ؟ فلم يشأ أن يدع طريقاً عرفه ،ونوالا جرّبه وذاق حلاوته ، وينافس آخرين فى أمر لايعرف مصيره ، فظل على ولائه لآل عون يمدحهم

فى كل مناسبة : إذا غزوا ، وإذا أبلوا من مرض ، وإذا ولد لهم مولود ، ويقول فيهم :

أحبهم مادمتُ حيـاً ديانة ... وأرغب لـكن عن سواهم ترفعا
وقد سار شعرى بين شرق ومغرب ... فما اختار غير البيت والآل موضعا
وما طار فى الآفاق بدعا مديحُهم ... ولـكنه نَشْرٌ ذَكِىٌّ تضوعا

وكان يرى أنهم هم الذين أطلقوا لسانه بمطاياهم ، وعلموه الشعر ، ولولاهم ما نظم قصيداً :

نظمت حالى ولولا سِلْك فضلـكم ... ما كان قولى ولا فعلى بمنتظم
علمتنى الحمدَ والشكر الجزيل على ... فعل الجميل بما توليه من نعم
ما كنت لولا كم أبغى الفوائد من ... نظم الفرائد فى إسم ولا علم

وعلى الرغم من هذا الولاء ، ومن دءوب الشاعر على مدحهم فى كل مناسبة وهو عنهم بعيد فإنهم لم يستجيبوا لرجائه بدعوته إليهم ، ولعل للمنافسات التى كانت بين الشاعر، وبين بعض الحجازيين[1] أثرا فى هذه الجفوة ، فقلما خلت حاشية أمير عظيم سمح النفس سخى اليد من أمثال هؤلاء الحساد لـكل من نال لديه حظوة أو نبغ وقصروا . وما أمر

(١) من المنافسين للشاعر فى الحجاز الشيخ زين العابدين للـكى ، وكان نحويا ، اعترض مرة على قول الساعاتى :

وأبصرت فى كف ابن عون مهنداً ... يرويه قـرم بالضراب خبير

بأن الضراب فى اللغة : النـكاح ، وليس فيها ضراب بمعنى الضرب ، واحتج الشاعر مؤيدا رأيه بقول الحارث بن ظالم المرى :

وقوى إن سألت بنى لؤى ... بمكة علموا الناس الضرابا
أقاموا للـكتائب كل يوم ... سيوف المشرفية والحرابا

يستشهد بقول المتنى وكان من الحفاظ لشعره :

وكل السيوف إذا طال الضراب بها ... يمسها غير سيف الدولة السأم

وقوله : إنما بدر رزايا وعطايا ... ومنايا وطعان وضراب
وقوله : بغيرك راعيا عبث الذئاب ... وغيرك صارماً ثلم الضراب

فأفحمه بهذا الاستشهاد وفات المـكى أن الضراب مصدر قياسى لضارب كقاتل وناضل . ولـكنها حزازات النفوس تزل الحصا .

المتنبي وسيف الدولة بمجهول ، ولقد بُلى الساعاتى بمثل ما بلى به المتنبي من هؤلاء النحاة الذين يحاولون الوقيعة بينه[1] وبين ممدوحه كما فعلوا مع أبى الطيب من قبل ، ولكنه انتصر عليهم فى كل مرة تعرضوا فيها لأدبه ، وأغلب الظن أنهم لم يتركوه يهنأ بهذه المنزلة . وحاولوا جهدهم أن يزحزحوه عن مكانته ، وفى ذلك يقول معرضاً بهم :

لا تَعْدلوا بالشعر كلَّ مُمَسَّم ... كالثور ذى القرنين بالأسكندر
ما كلُّ من يملى القصيدة ناظم ... قد ينتمى للشعر من لم يشعر
لو كان فيهم شاعر لوقفت فى ... ديوانه أدباً ، ولم أتكبر
يا آل محسن لم يزل إحسانكم ... يدع الدنىء على حماكم يجترى

بل يحاول أن يوقع بهم كما حاولوا الوقيعة به ، وأن يفسر بغضهم له لإخلاصه لآل عون :

فما أبغضوا مثلى سُدى غير أنهم ... يَعدُّون مدحى فيكم كالمآثم
ألم تر حساناً ولى أسوةٌ به ... وما كان يلقى من عدا آل هاشم
إذا زعموا أنى مع الفضل جاهل ... فقل لهم : هاتوا فصاحة عالم
فدعنى من قول النحاة فإنهم ... تعدَّوْا لصرف النطق فى غير لازم
وما أنا إلا شاعرٌ ذو طبيعة ... ولست بسراق كبعض الأعاجم

---

(١) من ذلك أنهم خطئوه فى قوله يمدح الشريف ويصف أعداءه بالجبن .

كأنهم فوق السوابق خرد ... لهن متون الصافنات جياد

بأن فى ذلك انحطاطاً لمقدار من يقاومه حيث شبههم بنسوة ، فكأنه انتصر على نساء لا على أبطال ، ومكنته ذاكرة واعية لما استظهر من شعر المتنبى فى الصغر من إفحامهم بقوله يمدح سيف الدولة :

فصبحهم وبسطهم حرير ... ومساهم وبسطهم تراب
ومن فى كفه منهم قناة ... كمن فى كفه منهم خضاب

شعره :

قدمنا عند الكلام على الساعاتى ، والمدرسة التى ينتمى إليها بأن له شخصية فى شعره ، وأن هذه الشخصية استطاعت البروز والوضوح على الرغم من كثافة التقاليد الشعرية والموروثة .

أجل ! استطاع أن يتخلص فى بعض قصائده من المحسنات البديعية ، وأن يرتفع بديباجته عن درك الغثاثة والركة ، وأن يعبر عن شعره تعبيراً واضحاً وأن يشعرك على الرغم من معانيه المطروقة بأنه أحسن التقليد وأضفى عليه شيئاً من نفسه وروحه . ومع كل هذا فمعظم شعره من ذلك النوع الذى ساد أيام المماليك وبنى عثمان ، وقلما خلت قصيدة من تاريخ وتعمد للصناعة والزخرف .

١ — ترى الشاعر يجيد فى الحماسة ، ويقوى شعره وتشرق ديباجته ، اسمعه يقول مادحاً سميداً ، وقد عزم على زيارة المصطفى عليه السلام :

ملأتَ قلوبَ العُرب رعباً فما درَوْا بعثت لهم بالكُتب أم بالكتائب
تركتهم فى أمرهم بين صادقٍ وآخر فى تيهٍ من الظن كاذب
تسير لهم فى بحر جيش عرمرم يفيض بموج الحتف من كل جانب
إذا هتفوا باسم العزيز تزلزلت جبالٌ عليها الذلُّ ضربةَ لازب
فكيف إذا عمت بالشهب أرضهم وزاحمت ما فى أفقهم بالنجائب
وجُرْدٍ عليها الأسدُ فى قصب القَنَا ترى الأسد فى الآجام مثل الثعالب

وخيرٌ من هذا قوله يمدح الشريف ابن عون ويصف غزوته لبنى سليم :

وأضرمتمُ النيران فيهم وأضرموا لهم نار حرب مثل نار الحُباحب[1]
كررتمْ على أهل الجبال بمثلها جبالُ رجال سُيِّرَتْ بالركائب

---

(١) الحباحب : فراشة صغيرة تضىء بالليل .

وما ثبتوا إلا قليـــلا وزلزلوا ... وأبطالُكم ما بين ضار وضارب
رأوا باترات البيض تُغمد فيهم ... وتَخْرجُ من أصلابهم والترائب
فولّوا ومالوا للهزيمة بعدها ... ومِلتم على أرواحهم مَيْلَ ناهب

فهذه الديباجة القوية ، وهذه الفحولة قد طال انتظار الشعر العربى لها ولعل فى حفظ الشاعر للمتنبي ماجعله يجيد فى الحماسة ووصف المعارك ، كما كان المتنبى يجيدها وهو يمدح سيف الدولة ، وقد شهد الساعاتى معارك آل عون مع أعدائهم كما شهد المتنبى معارك سيف الدولة مع الروم وغيرهم .

٢ — ومن الأغراض التى وُفّق الشاعر للقول فيها العتاب ، وقد سلمت له أبيات جيدة فى هذا الباب مثل قوله يعاتب آل عون :

إنى على العهد القديم وإنمـــا ... حَظُّ الأديب عدواةُ الأرزاق
عاملتمونى بالجفـــاء ، رويدَكم ... الوردُ ذو أرَجٍ بلا إحراق
مالى أراكم تنكرون مكانتى ... الشمس لا تخفى مع الإشراق
قلدتمُ غيرى الجميلَ وقلتمُ ... حسْبُ المفرَّد زينةُ الأطواق
أسديتم الجدوى له وسددتم ... طُرْق الرجاء علىَّ بالإطـــراق
إن لم يكن مثلى يسىء ومثلكم ... يُغضى ، فأينَ مكارم الأخلاق ؟

ويقول معاتباً صهراً له :

هلا اتخذتمْ سوى أعراضنا غَرَضاً ... يُرمى وصيرتمُ الإكثار تقليـــلا
إنا لنضرب صفحاً عن بوادركم ... ولو أردنا أســأنا الرد تنكيلا
لـكن نصون عن الفحشاء ألسنة ... هى الأسنةُ تجريحاً وتعـديلا
فليتكم تحسنون الظن إذ حسُنَتْ ... منا الظنون ، وكان الود مأمولا

رأيت وصلكم قطعاً وحبكم ... بغضا ونصركم للصهر تخذيلا

ومن عتابه الرقيق قوله :

كنا وكنتم فأكثرنا زيارتكم ... ونحن مثلان فى فقر وإفلاس

كانت مناسبةُ الحالين تجمعنا ... ومن يدوم على حال من الناس

والعتاب ، كما نعلم ، ليس باباً جديداً فى الشعر العربى ، بل طرقه قبلَ الساعاتى كثيرون وأتت معانيه فيه مما وردت عند غيره من شعراء العتاب ، وكان الساعاتى أحيانا يستعمل الكلام المألوف العادى فى العتاب حتى يفهم المعاتب ما يقول .

٣ — وقد ظهرت شخصيته فى نصائحه التى قدمها لممدوحيه ، والتفاته للشعب ، وطلب الرأفة به ، وحسن معاملته . كقوله للشريف ابن عون :

فما استقام عمادُ الملك منتصباً ... إلا إلى قائم بالعلم والعمل

ودولة المجد ما انقادت ولا خضعت ... إلا إلى عادلٍ للشرع ممتثل

ماراقب الله مولىً فى رعيته ... إلا وأدركَ منها غاية الأمل

ويطلب العفو لأعداء ممدوحه محاكيا المتنبى فى توسطه لدى سيف الدولة لبنى كلاب ، فمن ذلك قوله :

للسلم قد جنحوا فمُنّوا واصفحوا ... ما قلَّ نصفهُمُ من الإنصاف

وإذا أساءوا أحسِنُوا لمسيئهم ... وارعَوْا مقام بقية الأحلاف

وإذا هُم اقتتلوا وشدوا أصلحوا ... ما بينهم خيرٌ من الإجحاف

٤ — وكانت له دعابات طريفة تدل على روح مرحة ، وبديهة طيعة ، ونكتة رائقة وهذا طابع المصريين غالبا لا يستطيعون عنه حِوَلا ، فمن ذلك قوله يعزى منافسه وحاسده الشيخ زين العابدين المكى ، وقد نفقتْ فرسه فى طريق جدة :

قضت وهى تدعو فالقَ الحبِّ والنوى … بقلب كئيب دقه الحب والنوى
فكيف تعزى الشيخ فى الفرس التى … به طوت الأسفار صبراً على الطوى
وكانت به تجرى مع الريح خفَّة … وأشبعها جرياً فعاشت على الهوى
وإن حملت ما لا تطيق لضعفها … تعوَّج منها الظهرُ والذنبُ استوى
قضت ، وهى ماذاقت شعيراً لزهدها … فما شعرت إلا وعُرقوبها التوى
ألا أيها الخِلُّ الذى طال حزنه … عليها وفى أحشائه التهب الجوى
فعش أنت واسلم والحميرُ كثيرةٌ … ومثلك معدوم النظير لما حوى

ألا تذكرنا هذه القصيدة بالبهاء زهير حين يقول :

لك يا صديق بغلة … ليست تساوى خردلة
تمشى فتحسب أنها … فوق الطريق مشكلة

هى روح الدعابة المصرية تتجلى دائما حين ينطلق شعراء مصر على سجيتهم لا يتكلفون القول ، ولا يتزمتون .

ومن دعاباته الظريفة قوله مُعَرِّضا ببعض النحاة وواصفا لهم ولحركاتهم ولخلطهم :

إذا ارتفعت بالنحو أعلامُ علمنا … جعلنا جواب الشرط حذفَ العمائم
ليعلَم من بالنَّصب يرفعُ نفسَه … بأن حروف الخفض غيرُ الجوازم
ويعلم من أعياه تصريفُ اسمه … بأنا صرفناه كصرف الدراهم
نصبنا على حال من العلم والعلى … وكنا على التمييز أهلَ المكارم
لأنا رأينا كلَّ ثور معمم … يكلِّف قرنيه بنطح النعائم
يجر من الإذلال فضل كسائه … كأن الكِسائى عنده غير عالم
إذا نظر الكُرَّاس حرك رأسه … وصاح : أزيد قام أم غير قائم ؟

وقال : المنادى اسمُ شرطٍ مضارع وظرفُ زمان نحو جاء ابن آدم
وجمعكَ للتكسير اسم إشارة كقولك نام الشيخ فوق السلالم

٥ — وقد تغنى الشاعر فى بعض قصائده بمصر وأمجادها ، وإن لم يُظهر من الروح الوطنية مثل الذى أظهره رفاعة الطهطاوى ، فمن ذلك قوله مادحاً اسماعيل :

على أنها من جنة الخلد غيضةٌ رياضٌ بها عين وأنت ضياء
فأبصرتَ فردوساً تدانت قطوفها وللنيل فيها كوثر وشفاء
ومصر هى الدنيا جميعاً وربُّها عزيزٌ وأهلوها هم النجباء

وكان الساعاتى يدرك أنه مطبوع على قول الشعر ، وأنه استطاع أن ينجو ببعض شعره من آفات القول ، وأوضار الشعر التى انتشرت فى زمانه ، وقبل زمانه ، ويقول فى هذا :

فلا تحسبَنى بالوضيع مكانةً فى القائلين وما أقول هُذاء

ويقول :

رويت جليلا فى جليل من الثنا فكان عقوداً لا كلاما معقدا

ويقول :

وما أنا إلا ناظم دُرّ فكرتى ولم انتحل فيما أقول وأسرق

ويقول :

وما أنا إلا شاعر ذو طبيعة ولست بسرّاق كبعض الأعاجم

على أن هذا كله لا يعفى الشاعر من أنه أراق ماء وجهه فى الطلب حيث يقول مادحا توفيق باشا :

أريد وروداً من نداكم لأرتوى كما يطلبُ الصادى على البعد موردا
فسيرت آمالى دليل قصائدى لنيل الأمانى علّ أبلغ مقصدا

وأنه كان يرى الشعر نماً للمال ، وأن المسألة بيع وشراء ، وأخذ وعطاء :

مني المـــدائحُ والمنائح منكم لا غَبْـنَ إن كليهما آلاء
تمتاض من بذل النضار جواهراً هذا بذاك وفى البقاء نماء

وأنه أسرف فى الصناعات اللفظية ، واستعمال المحسنات البديعية كما يدل على ذلك معظم شعره . وقد نظم قصيدة كاملة فى مدح الرسول عليه السلام معارضاً بها ابن حجة الحموى ، والبوصيرى ، وكل بيت منها يشتمل على محسن بديعى ، وفيها يقول ، وقد بلغ عدد أبياتها مائة وخمسين بيتاً :

براعـــة استهلال

سفحُ الدموع لذكر السفح والعلم أبدى البراعةَ فى استهلاله بدم

التـــورية

وكم بكيت عقيقاً والبكاء على بَدْر ، وتوريتى كانت لبدرهم

الجناس التـــام

أقمار تِمٍ تعـــالَوْا فى منازلهم فالصَّـبُّ مدمعه صَبٌّ لبعدهم

وأن الشعر عنده — كما كان عند معاصريه — مهارةٌ لفظية ، وصناعة خالية من الروح والشعور ، ومقدرة على صياغة منظومة فمن ذلك قوله موريا :

قالوا : اتخذ لك خادماً ، فأجبتهم : أنى يكون لناظم الشعر الرقيق ؟
قالوا : التمس لك طيب عيش ، قلت : لا يُرْجى لرب اللفظ والمعنى الدقيق

وقوله فى الجناس ، وكل القصيدة على هذا المنوال .

أيا من به صـار الزمان سعيداً ومن كل من وافاه آنس عيدا

أما التأريخ الشعرى ، والألغاز فكثيرة .

هذا ، وقد شغل الساعاتى عدة مناصب فى الدولة ، فمن موظف بالمعية ، إلى موظف فى مجلس الأحكام المصرية (وكان بمثابة هيئة الاستئناف العليا فى عهدنا) ، وكان يرأسه الأمير اسماعيل فى عهد سعيد . ومدح من حكام مصر فى العهد السابق سعيداً ، وإسماعيل ، وتوفيقاً ، ومات فى سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨٠ م قبل أن تندلع الثورة العرابية .

٤ — عبد الله فكرى :

وهو يمثل المدرسة الثالثة من المقلدين ، تلك المدرسة التى قلد أربابها بلغاء القرن الرابع كالصاحب بن عباد ، وابن العميد ، وقلدوا كذلك فى حياتهم وأسلوبهم وتنميق رسائلهم القاضى الفاضل ، وابن مطروح ، واستطاعوا بما أوتوا من تضلع فى اللغة ، وتمكن من الأدب ، وذوق مرهف حساس ألا يكونوا صدى لهؤلاء الكتاب القدامى ، بل أضفوا على ما كتبوا طابعهم وشخصيتهم ، ومثلوا عصرهم بعض التمثيل ، فتشعر حين تقرؤهم أنك تقرأ كتابا فى القرن التاسع عشر ؛ وذلك لخوضهم فى الموضوعات الحيوية للبلاد ، ولتخلصهم فى بعض الأحيان من قيود الماضى جملة ، فلا سجع ولا تنميق ولا تزويق ولا محسنات . وإنما يتبعون طريقة ابن خلدون فى الترسل مع متانة نسج وحسن عرض . وإن كانوا فى كثير من الأحيان ، ولا سيما حين يحتفلون بكتاباتهم ، أو يراسلون عظيماً أو أديباً ، أو يتحدثون عن لسان السلطان أو الأمير ، يعمدون إلى الأسلوب الشعرى المنثور ، بما فيه من خيال وسجع ، وفقرات تختلف طولاً أوقصراً ، ويزخرفون كتاباتهم ويرصعونها بشتى الحلى اللفظية والمعنوية ، وهنا تتضاءل شخصية بعضهم وتحافظ شخصية آخرين على وجودها فى وسط هذه الزينات والتقاليد تبعاً لتمكن الكاتب من موضوعه ، وحذقه للغة ، ومتانة شخصيته وتميز خصائصها .

كان لديوان الإنشاء فى الدول العربية منزلة سامية ، يتوصل به الكاتب والشاعر إلى أرقى مناصب الدولة ، منذ سهل بن هارون ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، وابن العميد ، والقاضى الفاضل ، وابن مطروح ، وقد مضى على مصر حين من الدهر استعجمت فيها لغة الدواوين ،

وسادت التركية ، وصدرت بها قوانينها ورسائلها ، ووصلت العربية إلى الحضيض ولم يبق فيها إلا ذماء يسير . وحاول اسماعيل — كما ذكرنا — بعث اللغة العربية ، وترجمة القوانين التي صدرت من عهد محمد على حتى أيامه من التركية إلى العربية ، كى يسهل عليه الانفصال عن الدولة العثمانية حينما تلوح الفرصة ، وقد كان لعبد الله فكري يد كريمة فى هذا العمل الجليل ، فبعثَ اللغة الديوانية ، لا ركيكة ولا سخيفة ، بل ممتلئة رونقاً وقوة ، فصار نموذجاً يحتذى ، وأستاذاً يأخذ الناس عنه طريقة الكتابة الديوانية وتدبيج الرسائل الأدبية .

ولد بالحجاز سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م من أب مصرى[١] وأم من بلاد المورة وعاد به والده إلى مصر بعد عودة جيوش محمد على من الحجاز ، ولكنه توفى ولما يبلغ عبدالله الحادية عشرة من عمره ، فكفله بعض أقاربه ، ودخل الأزهر وتلقى العلوم المتداولة على كبار مشايخه ، وكان فى نفس الوقت يدرس اللغة التركية فلما حذقها عين فى القلم التركى فى الديوان الكتخدائى ، وظل مع اشتغاله بالوظيفة يتردد على الأزهر ، والتحق بعدة وظائف ديوانية ، ثم عين بمعية سعيد ، وتولى فيها تحرير الرسائل الديوانية بالتركية والعربية ، وظل فى منصبه حتى تولى إسماعيل عرش مصر فأبقاه ، وقربه وسافر معه مرات إلى الآستانة ، ثم عهد إليه بتثقيف أولاده وغيرهم من أمراء الأسرة ، فكان يباشر تعليمهم أحياناً ، أو يشرف على المدرسين أحياناً أخرى . ولما نقل إلى وزارة المالية كان له الفضل فى جمع الكتب الموجودة بها ، وضمها إلى دار الكتب حين أنشأها على مبارك . وبعد ذلك عهد إليه بترجمة اللوائح والقوانين وتنقيحها فأدى هذه المهمة الجليلة على أكمل وجه ، ثم عين وكيلا لديوان المكاتب الأهلية ، فرفع مستواها وجعلها صالحة لتغذية المدارس الأميرية ، فوكيلا لنظارة المعارف مع

---

(١) أبوه محمد بليغ بن الشيخ عبد الله وكان الشيخ عبد الله من العلماء المدرسين بالأزهر ، أما محمد والد عبد الله فكرى فكان مهندساً بالجيش ، ووصل فيه إلى رتبة صاغ ، وحضر عدة مواقع حربية منها حرب المورة ، وفيها تزوج أم عبد الله فكرى ، وولدته بالحجاز حين ذهبت مع زوجها فى الحرب السعودية .

شغله منصب الكاتب الأول فى مجلس النواب ؛ وقد ارتقت طريقة تعليم العربية على يده وهجرت طريقة الأزهر ، ثم عين وزيراً للمعارف فى وزارة محمود سامى البارودى ، ولما استقالت الوزارة بسبب الثورة العرابية ، اتهم بمالأته للثوار بعد انتهاء الثورة ، وقبض عليه ولكنه برىء ، فأطلق سراحه وعاقبوه بقطع راتبه ، فراح يستعطف الخديو توفيق ، وقال فى ذلك قصيدته المشهورة :

كتابى توجه وجهة الساحة الكبرى　　وكبر إذا وافيت واجتنب الكبرا

فعفا عنه توفيق ، وأعاد إليه راتبه ؛ وقام بعد ذلك بعدة رحلات إلى الحجاز ولبنان ، ولقى فيهما كل ترحاب وإجلال لمكانته الأدبية ، ولما رأى فيه أهلها من سعة علم وعظيم فضل وحسن حديث .

وفى سنة ١٨٨٨ مثل مصر فى مؤتمر المستشرقين باستكهلم عاصمة السويد وصحبه نجله أمين باشا فكرى . وقام بسياحة عظيمة شهد فيها معظم عواصم أوربا ؛ ولما عاد عكف على تدوين رحلته ، ووصف ما شاهد من المناظر فى أوربا ، وما رأى من آثار الغرب ، وكيف استطاع العقل البشرى أن يسخر الطبيعة ومواردها لخدمة الإنسان ، غير أن المنية لم تمهله فقضى بعد عودته بزمن وجيز ، وأتم نجله أمين كتابة الرحلة وسجلها فى كتاب أسماه (إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا) فى سنة ١٨٩٢ . هذا وقد توفى عبد الله فكرى سنة ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م .

ونرى من حياته التى سردنا تاريخها موجزاً ، أنه ديوانى بالنشأة والمربى والعمل ، فلا بدع إذا تجلى أثر عبد الله فكرى فى الكتابة الديوانية ، ولما كنا فى صدد ذكر الشعراء الذين ظهروا فى عصر اسماعيل والمدارس التى ينتمون إليها ، وقدمنا أن عبد الله فكرى يمثل إحدى هذه المدارس التقليدية ، كان حرياً بنا أن نذكر نماذج من شعره ؛ على أنه يمثل بكتابته تلك المدرسة التى تظهر فيها شخصية الكاتب والأديب واضحة بعض الوضوح أكثر مما يمثلها بشعره ، بل إن شعره ينتمى إلى مدرسة على أبى النصر أو الساعاتى ؛ وذلك لأن

عبد الله فكرى تفوق فى نثره تفوقاً باهراً وكان كاتباً أكثر منه شاعرا .

كان يمثل فى شعره مدرسة الصنعة لا مدرسة الطبيعة ، يؤرخ لكل مناسبة ، ويشطر ويقول الألغاز والأحاجى ، ويقول كما يقول الندماء فى وصف الآنية ومجالس الأنس والأزهار وغير ذلك ، ويكثر من المحسنات ينتزعها انتزاعاً ، ويحشرها حشراً شأن هذه المدارس التقليدية ، وقلما انطلق على سجيته ، وترك نفسه لطبيعتها .

اسمعه يؤرخ زواج الأمير حسين كامل بالأميرة عين الحياة :

بَشَّر بأحسن فألِ	يقول والقولُ يصفو
أرّخ لنحو حُسينٍ	عَيْنُ الحياة تُزَف

ويقول فى هذه المناسبة :

بشرى بطالع سَعْدٍ	بالبشر واليمن آتِ
تزف للبــدر شمس	تسمو على النيرات
بخير فأل سعيــد	يُومى لطول حيــاة
يقول والفــأل حَقّ	عن سيد الكائنات
أرخْ لنحــو حسين	تزف عين الحيــاة
٩٤ ١٢٨	٤٨٧ ١٣٠ ٤٥٠ المجموع ١٢٨٩

ويؤرخ لانتصار الأتراك على الروس ، وأخذهم ميناء سباستبول بعد تخريب قلاعها سنة ١٢٧٢ هـ وكل مصراع من المطلع يساوى هذا التاريخ .

لقــد جاء نصر الله وانشرح القلب	لأن بفتح القِرْم هان لنا الصعب
وقد ذَلت الأعداءُ من كل جانبٍ	وضاق عليهم من فسيح الفضا رَحْبَ
بحرب تُشيب الطفلَ من فَرْط هولها	يكاد يذوب الصخر والصارم العضب

إذا رَعدَتْ فيها المدافع أمطرت كئوسَ مَنُونٍ قصَّرت دونها السُّحْب
تجــرع آل الأصفر الموت أحمراً وللبيضِ فى مُسْوَدٍّ هاماتهم نهْب
تراهم سكارى ، للظُبَا فى رءوسهم غِناءٌ ، ومن صرف المنايا لهم شرْب

وقد سقنا مع البيت الأول الذى فيه التأريخ بعض أبيات من هذه القصيدة لنرى مدى قوته فى وصف الحرب ، وقد مر بنا شاعر معاصر له ، أو قريب منه ، أجادفى هذا الغرض ، ألا وهو الساعاتى . إن أثر الصنعة ، وضعف النسج ، وضحالة الخيال ، وتفاهة المعانى ، واقتناص المحسنات ، كلها محشودة فى هذه الأبيات .

وهاك مثلاً آخر يقلد فيه القدماء فى معانيهم وأخيلتهم بما لا يناسب قاهريته وحضارته فتشبيهات قديمة ، وخيال سخيف ، وديباجة ضعيفة ، وجرى وراء المحسنات ، وموضوع هذه القصيدة المديح ، وقد ابتدأها بالنسيب كما كان يفعل القدماء قال :

أزاحت ظلامَ الليل عن مطلع الفجر وقامت تُدير الشمسَ فى كوكب دُرِّى
وهزت على دِعْص النَّقا غُصُنَ بانة ترنَّح فى أوراق سندسه الخضر
ومالت بها خمر الصِّبا مثلما انثنت نسيم الصَّبا بالأملد الناعم النَّضْر
من الترك لم تترك لصبٍّ مَحَجَّةً إلى الصبر أو نهجاً لعذل إلى العذر
وبيضاء ســوداء اللحاظ غريرةٍ من الغيد ريَّا الرِّدْف ظامئة الخصر
مُمَنَّعَةٍ لا تجتنى وَرْدَ خــدِّها يدُ اللحظ إلا بين شوك القَنا السمر
من الروم مثلَ الرِّيم جيداً ولفتةً ولحظاً ومثلَ الغصن والشمْس والبَدْر

فهى لم تترك نصب محجة إلا لأنها من الترك ، وهى مثل الريم جيدا ولفتة لأنها من الروم ومالت بها خمر الصِّبا مثلما انثنت نسيم الصَّبا بالأملد النضر ، وهزت على دِعْص النَّقا غصن بانة . . وغير ذلك من هذه العبارات المحفوظة والقوالب المعدة ، وذلك الوصف المادى الرخيص الذى لا يمثل المرأة إلا سلعة .

وقد قال فى الأغراض التى نظم فيها كتاب الدولة الأيوبية ورؤساء دواوين الإنشاء ، فكان يصف الآنية والأزهار ، ويشبه بالنفائس على طريقة الظرفاء المقتدى بهم فى عصر الأيوبيين وما بعده ، خلال المنادمات والمطارحات ، فمن ذلك قوله يصف ناراً موقدة فى فحم حوله رماد :

كأنما الفحمُ ما بين الرّماد وقد ... أذكت به الريح وَهْناً ساطع اللهب
أرضٌ من المسك كافورٌ جوانبُها ... يموج من فوقها بحر من الذهب

وقال فى الورد :

كأن ورداً لاح فى كُمّه ... يزهو بثوبَىْ خضرة واحمرار
ياقوتةٌ فى سندس أخضر ... أو وجنة خُطّ عليها العذار

وكان يقول الشعر فى أغراض التظرف مثلما قالوا ، وله فى هذا بعض المقطوعات الصغيرة ، فمن ذلك قوله مجيباً مليحاً قال له كيف أصبحت ؟ .

أصبحتُ من فَرْط وجدى فيكَ ذا شجن ... وكانت الروحُ كادت أن تفارقنى
فمذ لقيتك كلُّ الهم فارقنى ... وألف الله بين الروح والبدن

وقال فى مليح رآه أول الشهر مستعملا الجناس التام :

وبدر تبدى شاهراً سيف جفنه ... فروّع أهل الحب من ذلك الشهر
وليلةَ أبصرنا هلال جبينه ... علمنا يقيناً أنها غرة الشهر

وقال يتغزل :

كتبت ولولا دمعُ عينى سائلٌ ... تلظى جوابى من تلهب أنفاسى
وعندى من الأشواق ما لم يَبُح به ... لسانُ يراعٍ فى مسامع قرطاس
ولى من تباريح الهوى وشجونه ... أحاديثُ تُلهى الشرْب عن لذة الكاس
ولو كنتُ من دهرى أنال مآربى ... لسِرْتُ لكم سعياً على العين والراس

وكتب يعتذر للشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى عن دعوة وصلته منه متأخرة(١) .

يا من بديعُ حُلاه تزرى البديع وتنسى
وافت عقيلةُ نظم تتلو فصاحة قُسٍّ
كالبدر لاح سناه من بعد مغرب شمس
فغادرتني صريعاً نشوانَ من غير كأس
فمُنَّ بالعفو إنى منه على غير بأس
وإن عتبت فحقٌّ وما أبرىء نفسى

وكتبَ إلى أحمد فارس الشدياق رَدّاً على قصيدة له :

تَفْدِيك نفسُ شجٍ عليلٍ آسى عَزَّ الدواءُ له وحارَ الآسى
أضناهُ طولُ أساه حتى إنّه يحكى لفَرْط ضَناه ذاوي الآس
هزَّتْه سارية النسيم ، وقد جَرَتْ بشَذَا فَرُوقَ أريجةَ الأنفاس(٢)
فكأن فى طيِّ الشمال ، إذا انثنى من نَشْرِها طَرَباً ، شمولَ الكاس(٣)
وكأنها حملت إلىَّ رسالةً غرّاءَ جاءَتْ مِنْ أغرّ مُواسى
كمليحةٍ عذراءَ وافتْ صَبّها من بعد طُولِ تَعَذُّرٍ وشماسِ
يَفترُّ مَبْسِمِها بحسن حديثها عَنْ سحر فاتن جفْنِها النَّعّاسِ
تدنو فيُطمعُ عاشقيها أنسُها ويُشير عِزُّ دلالها بإياس

---

(١) وصلت رقعة الشيخ الإبيارى بعد غروب الشمس وفيها يقول :

يا نور فكرى وسرى وروح روحى ونفسى
لدى شامة شام لطيف معنى وحس
يود كل أديب لقياه رغبة أنس
فبات عن تشرف من قبل مغرب شمس

(٢) فروق من أسماء استامبول .

(٣) الشمول : الخمر .

أو روضةٍ فيحاءَ حيّاها الحيا ... من صَوْبِ محلول العُرى رَجّاسِ[١]

وكل هذا الذى رويناه له شعر مصنوع لا يفصح عن طبع وسليقة ، أو شعور دفعه إلى القول عما يختلج فى نفسه . ومن هذا النمط قوله فى الحكمة والمواعظ :

إذا رمت المروءةَ والمعالى ... وأن تلقى إلــه العرش بَرّا

فلا تقربْ لدى الخلوات سرا ... من الأفعال ما تخشاه جهراً

وقوله ينصح ولده أمين وهو صغير :

إذا نام غِرٌّ فى دُجى الليل فاسهرِ ... وقم للمعالى والعــوالى وشَمِّر

وخَلِّ أحاديث الأمانى فإنها ... عُـلالَة نفس العاجزِ المتحير

وسارع إلى ما رُمْتَ ما دمتَ قادراً ... عليه ، فإن لم تُبْصر النُجْح فاصبر

ولا تأتِ أمراً لا تُرجَّى تمامه ... ولا مَوْرداً ما لم تجد حُسْنَ مصدر

وعَوِّد مقال الصِّدْق نفسك وارْضَه ... تُصَدَّق ، ولا تركن إلى قول مفترى

ودع عنك إسراف العطاء ولا يكن ... لكفيك فى الإنفاق إمساكُ مُقْتِرِ

ولا تقفُ زلاتِ العباد تَعدُّها ... فلستَ على هذا الورى بمسيطر

وهذا من الشعر التعليمى الذى لا ينبىء عن خيال عميق ، لأن الحكمة نظم للحقائق المجردة ، والحقيقة المجردة منتزعة من صميم الوجود ، وقائل الحكمة السائرة عالم بطباع الناس يضع العالمَ أمام ناظريه ويشرف عليه من عَل ، وكأنه ينظر فى كفه فيستقرى الحوادث والطباع ، ثم ينطق بالحكمة تصلح لكل زمان ومكان ، من أمثال ما نظم المتنبى وغيره من فحول الشعراء ، وأين منهم عبد الله فكرى فى مواعظه المدرسية هذه ؟ على أنها تعدُّ من خير شعره وأسلسه وأوضحه .

---

(١) محلول العرى : المطر الغزير الذى لا يحجبه شىء ، والرجاس : الشديد الصوت .

ومن شعره ، وربما كان فيه شيء من الشاعرية ، لصراحته وتصويره نفسية إمرأة فرنجية تتجر بعرضها وتتهافت على المال ، وما حدث له معها :

وهيفاء من آل الفرنج حجابُها — على طالبي معروفها فى الهوى سهلُ
تعلقتها ، لا فى هواها مُراقِبٌ — يُخاف ولا فيها على عاشق بخل
إذا أبصرتْ من ضرب باريز قطعةً — من الأصفر الإبريز زَلَّ بها النعل
فلما تعارضنا الحـديثَ تعرّضت — لوَصل ، ومن أمثالها يُطلب الوصل
فرُحتُ بها فى حيثُ لا عينُ عائن — ترانا ، ولا بَعْلٌ هناك ولا أهْل
وبتُ ولى سُكران من خمر لحظها — وراح ثناياها ، ومن خدّها نُقل
وقمت ولم أعلم بمـا تحت ثوبها — وإن كان شيطانى له بيننا دخل

ومن خير شعره قوله :

أنسيت ليلتنا وقد خلص الهوى — منا ، وحبل الوصل وهو متين
بتنا على فرش العفاف وبيننا — نجوى ترق لها الصفا وتلين

ومن أحسن شعره قصيدته التى يعتذر فيها للخديو توفيق ، ويتنصل من اشتراكه فى الثورة ، ويطالب إرجاع راتبه المقطوع ؛ وإن كانت معانيها مما يخطر لكل شاعر وليس فيها جديد ، وهى تنبىء عن تلك الروح الذليلة التى تمثلت فى كبار رجال الدولة إبان عصور الظلم :

كتابى توجه وجهةَ الساحة الكبرى — وكَبِّر إذا وافيتَ واجتنب الكِبرا
وقف خاضعاً واستوهب الأذن والتمسْ — قَبولاً وقبِّل سُدَّةَ الباب لى عشرا

وفيها يقول :

مليكى ومولاىَ العزيز وسيدى — ومن أرتجى آلاءَ معروفه العُمْرا
لئن كان أقوامٌ علىَّ تقولوا — بأمر فقد جاءوا بما زوروا نُكرا
حلفتُ بما بين الحطيم وزمزم — وبالباب والميزاب والكعبة الغَرّا
لَمَا كان لى فى الشّرِّ باعٌ ولا يد — ولا كنتُ من يبغى مَدى عُمْره الشرا
ولكنَّ محتومَ المقادير قد جرى — بما الله فى أم الكتاب له أجرى

أتذكر يامولاى حين تقول لى ... وإنى لأرجو أن ستنفعنى الذكرى
أراك تروم النفع للناس فطرةً ... لديكَ ، ولا ترجو لذى نسمة ضُرًّا
فعفواً أبا العباس لازلتَ قادراً ... على الأمر ، إن العفوَ من قادرٍ أحرى
أيجمل فى دين المروءة أننى ... أكابد فى أيامك البؤس والعُسرا

ولعلنا بعد كل هذا الذى رويناه له قد أخذنا فكرة واضحة عن منزلته بين الشعراء ، وقد ذكرنا آنفاً أنه اشتهر بالكتابة ، وأنه كاتب أديب أكثر منه شاعر ؛ وشعره فى الواقع قليل إذا قيس بما ترك من مقالات ورسائل ، وكُتُب وشروح وغير ذلك .

نثره :

استطاع عبد الله فكرى أن يرتقىَ بالكتابة الديوانية ، وأسلوبِ الرسائل والمكاتبات إلى منزلة سامية ،وأعاد إلى الأذهان عصر رؤساء ديوان الإنشاء فى العصور القديمة ، واتخذ له خاتماً : « إنى عبدُ الله آتانىَ الكتاب » ؛ لأن هذه الآية وافقت سنة ميلاده ١٢٥٠ هـ كما كان لهؤلاء الرؤساء خواتم .

وكان له أسلوبان فى نثره : أحدهما وهو الغالب وبه كَتَبَ أكثر رسائله ، هو ذلك الأسلوب الذى يحتفى بعبارته ، وموسيقاه ويختار ألفاظه ، وبه خيال شعرى ، ومعان دقيقة معارضاً فيه أسلوب القاضى الفاضل ، أوبديع الزمان ، أو الخوارزمىّ ، أو ابن العميد .

وثانيهما أسلوب مرسل سهل يجرى مجرى الكلام العادى وهو أسلوب الصحافة فى عهده ولكنه قليل فيما ترك من آثار .

ومن الأسلوب الأوّل قوله من رسالة لصديق ، بين فيها أحوالَ أهل العلم فى عصره منتقداً هذه الأحوال ، متهكماً بهم فى لهجة ساخرة لاذعة ، قال : « كتبتُ والذهن فاتر من وهن الدفاتر والتبييض والتسويد ، والتقييد ، والتّسديد ، والترجمة وكثرتها ، والهمة وفترتها ،والماهية وقلتها ، والنفس وذلتها ، وراتبى لايكفى أجرةَ البيت، ولايفى ثمنَ الماء

والزيت . وبالأمس وَعدَ الوكيلُ بالزيادة ، واعتذرَ اليوم بالأصيل على العادة ؛ على أنه لو حصلت زيادة ، فلزيد ولعمرو ، إلى آخر الزَّمْر ولله الأمر . أحوالٌ متبدِّدة ، ونفوس متبلِّدة ، وأشغال متعددة ، وإخوان خُوَّان ، وخلان غيلان، ورِفاق وما أجملَ الفراق .

وقلت :

إلام أعانى الصبرَ والدهرُ غادرٌ وحتى متى أشكو ومالىَ عاذر
ولو أننى أشكو عظائم شِدتى لميتٍ لرقت لى العظامُ النواخر

وسألتَ عن فلان وفلان ، وهيَّان بن بَيّان ، ممن ينتسب للعلم وأهله ، ويتظاهرُ بشعار فضله ، ولو كان العلم بلحية تعظمُ وتُطوّل ، وشواربَ تُحَفُّ وتستأصل ، وعيونٍ على ما بها من غَمض ورَمَضٍ تكحل ، وعمامة تعظم حتى تزدُل ، وطيلسان يُلَفُّ ويسدل ، وكُمٍ يُوسّع ويُسْبَل ، وأحاديثَ خرافةٍ تُقَصُّ وتنقل ، ومحفظة تُفْعمُ وتَثْقُل ، وسِواكٍ يظهر من العمامة نصفُه ، وكتابٍ يخرجُ من الجيب طَرفُه ، ثم يتشدق فى الكلام وَيتباله فى المرام ، وتعسف فى الأفهام ، وحِرْص على الحطام ، ثم يقول الإنسان : حضرتُ درس فلان ، وسمعتُ من لفظه باللسان ، وقضيت فى العلم كذا سنةً من الزمان ، فهم أعلم مَن أقلته الغبراء وأفقه من أظلته الخضراء ، وإن كان للعلم غيرُ هذه الآلات ، فمالهم سوى هذه الحالات . غايةُ الأمر أنهم قَضَوا أرذلَ العُمُر فى كتب معدودة ، وشروح موجودة ، وهم يكررونها ولا يدرونها ، ويقررونها ولا يُحررونها ، ويتداولونها ولا يعقلونها ، ولو صرف حمارى هذا العمرَ فيها لأصبحَ فقيها ، وأضحى نبيها ؛ والذى يظهر مينهم وشينهم وعلامةَ ما بيننا وبينهم أن يؤمر أحدهم برقعة تكتب لحاجة معهودة ، ويمتحن بكتاب غير هذه الكتب المعدودة ، فيه بعض كلام العرب وأشعارها ، وشىء من وقائعها وأخبارها ، فإن كتب فصيحاً وقرأ صحيحاً وفهم مليحاً ، عرفنا أنه شم عَرف العلم وذاق طعم الفهم ، وسلمنا إليهم ما يَدّعون ، وتركنا لهم ما يأتون وما يَدْعون ، وإن ارتبك للرقبة ، ووقف حمار الشيخ فى العقبة ، عرفنا حاله وقلنا له :

أيها المـــدعى سُلَيْمى سفاها   لست منها ولا قُـلاَمة ظُفر
إنمـا أنت من سُليم كواو   أُلحقت فى الهجاء ظلماً بعمر

وقد مررتُ بالأمس على أحدهم فى الدّرس ، يقرأ القَطْر لابن هشام ، ويلحن لحن العَوَام ومررتُ بالأمس بآخَرَ يدرس الكافى فى عِلْمىَ العروض والقوافى يقرر قوله :

قف على دارهم وابكَينْ   بين أطـــلاها والدمن

فلا وربِّك ما أقام له وزناً ، ولا عرف له معنى ، مع سهولة مبناه وظهور معناه .. الخ

ومن هذا النثر المسجوع قوله يصف حديقة .

ثم خَرَجتُ إلى حجرة حالية ، أعدَّت فيها فُرُشٌ عالية ، وأدوات غالية ، وسطعت بها روائحَ الطيب والغالية ، وقد أكملت وجوه تحسينها ، وأتمت أسبابُ تزيينها ، وهى على حديقة ذات أفنان ، وأنواع من الزهور وألوان ، وثمرات حِسان ، وقد فاح الطيبُ من محاجر أزهارها ، وصاحَ الخطيب العندليب على منابر أشجارها :

رياضٌ كديباجِ الخدودِ نواضرٌ   وماءٌ كسلسال الرُّضاب بَرَود

فجلست أجيل فيها النظر ، وأتأمل محاسن الروض غب المطر ، وأطالع مارَقَّمه الطَّل فى صحائف الغُدْران ، وأرى خواتم الزهر حين تَسْقُط من أنامِل الأغصان :

من قبل أن تَرْشِف شمس الضحى   ريقَ الغوادى من ثُغور الأقاح

ومن ذلك الضرب من النثر الذى يذكرنا بكتاب الإنشاء فى الدولة الأيوبية وما قبلها . وفيه بعض القوة والعافية فى سجمات قصيرة الفقرات نوعاً قوله من رسالة :

« سلامٌ يعبرً عن الوداد طيبُ عَبيره ، ويُخبر عن إخلاص الفؤاد لُطف تعبيره ، وثناء على محاسن تلك الشمائل ، أرق من نسمات الشمائل(١) ، وتحيةٌ بهيَّة تُباهى الخمائل

(١) الشمائل الأولى : الطباع ، والشمائل الثانية : جمع شمال .

بنفحات أورادها ، وأدعيةٌ مَرْضيةٌ جعلتها الألسنةُ خيرَ أورادها ، وسؤالٌ عن المزاج الزاهر وصحة الخاطر الباهر ، لا زلتم مَحَلّ نعمة يتصل على مدى الأيام بقاؤها ، ويزيد على مَرِّ الشهور والأعوام بهاؤها ؛ ولا برحت ثُغورُ الإقبال إليكم بواسم ، ورياحُ الآمال لديكم مواسم .

وبعد فإنى من الأشواق ، ما تضعُف عن حمله إلى حماكم الأوراق ، من التأسف على ما حُرمته من لُقْياكم ، والتلهف إلى مطالعة مُحيّاكم ما يقصُر عن وصفه لسانُ البراعة ، ويَقْصُر دون وصفه بيانُ اليراعة ، ويضيقُ عنه نِطاق العبارة ، ولا ينفسح له ميدان الإشارة .

ومن رسائله التى تذكرنا بأسلوب العصر العباسى الثانى عصر الصاحب بن عباد والخوارزمى ، وابن العميد قوله معزياً :

« يعِزُ علىّ أن أكاتبَ سيدى مُعَزِّياً أو ألم به فى مُلمة مسلياً ، ولكنه أمر الله الذى لا يُقابل بغير التسليم : وقضاؤه الذى ليس له عدّةٌ سوى الصبر الكريم . وقد علم مولاى (أجمل الله صبره ولا أراه من بعد إلا ما سَرّه وشرح صدره) أن الله — جل ثناؤه وتباركت آلاؤه — إذا امتحن عبده فصبرَ آجرَه وعوّضَه بكرمه ، كما أنّه إذا أنعم عليه فشكره زاده ، وضاعفَ له نعمه وقد عُرِف من حال سيدى فى الشكر على السّراء ما يستوجب المزيد منها ، والظّن بحزمه وعلمه أن يكونَ حالهُ فى الصبر على الضراء ما يستجلب الأجر عليها والتعويض عنها .

وقد استعمل عبد الله باشا فكرى الأسلوب المسجوع فى كل باب وغرض ، حتى فى التقارير الفنية ، والمنشورات العامة و (الفرمانات) فمن ذلك صورة (الفرمان) الآتى بتنصيب محافظ :

« صدر هذا الفرمان المُطاع ، الواجب له القبولُ والاتّباع ، خطاباً إلى الحكام والعلماء ، والقضاة والأعيان ، والوجوه ، والعمد ومشايخ البلدان ، وعموم الأهالى المتوطنين

محافظة كذا بجهات السودان . ليكون معلوماً لديكم بوصول هذا المنشور إليكم ، أنه قد نضت إرادتنا تنصيبَ فلان محافظا عليكم ، لما توسمناه فيه من الدراية والاستعداد والسلوك في طرق الرشاد ، وبذل الهمة فى أمور المصلحة ومزيد الاجتهاد الخ » .

ومن هذه النماذج المتقدمة نرى أن هذا الأسلوب على ما به من سجع ، فإنه سهل متين العبارة تقل فيه المحسنات المتعمدة ، ويطرق أغراضاً متعددة منها : الديوانى البحت ، ومنها ما يستعمل فيه الشعر . وقد أفاد هذا الأسلوب الكتاب من بعده ، وصار لهم قدوة ولكنه أخر تخلص النثر من طريقة هذه المدرسة الديوانية حتى أوائل عصرنا الحاضر : لأن أرباب هذا الأسلوب شغلوا المناصب الرفيعة فظن الشادون فى الأدب أنهم لو قلدوهم لوصلوا إلى ماوصلوا إليه ، فتمسكوا بأسلوبهم أمداً غير يسير . والحق أن الغرض الأدبى المهم يحتاج إلى عبارة خاصة يحتفى بها الكاتب بعض الاحتفاء ، ويضعها فى قالب جميل تناسب الغرض الذى قيلت فيه حتى لا تذهب بنفاسة الموضوع تفاهة العبارة . وتجويد العبارة محبوب مرغوب فيه على شريطة ألا يضحى بالمعنى من أجل لفظة أو سجعة أو محسن خاص . ولقد استطاع عبد الله فكرى أن يسترد بأسلوبه هذا للغة العربية مكانتها التى فقدتها عدة قرون ، وأن يزيح التركية من أمامها ، ويثبت قدميها فى الدواوين وفى لغة الرسائل ، واضحةً ، أدبية ، جذابة .

أجل ! لم يكن عبد الله فكرى من هؤلاء الذين طرقوا موضـــوعات جديدة فى كتاباتهم ، بل استخدموا مقدرتهم البلاغية فى الأغراض القديمة من تعزية وتهنئة ، ووصف ومدح واعتذار وعتاب ، ومنشورات على لسان الأمير ، وتقارير عن مهمات وكلت إليهم وغير ذلك من الأغراض المطروقة . ولم يكن للأفكار الجديدة ، ولا للأغراض القومية أى تأثير عليه ؛ وقد زاد نفوذ الأجانب ، وقامت الثورة العرابية ، ونكبت مصر بالاحتلال ، ولم يسمع له كلمة تعبر عن هذه الأحداث ، ولم يتألم لألم وطنه وذلته كما تألم الشدياق ، وأديب إسحاق ، وعبد الله نديم ، وجمال الأفغانى وغيرهم ، وما ذلك إلا لأنه كان مثال الموظف الديوانى المخلص ، البعيد عن الاشتغال بالمسائل العامة ، والأمور الهامة .

ومن الأسلوب المرسل الذى تأثر فيه رجال الصحافة لعهده ، ولا سيما أسلوب الجوائب قوله من رسالة بعث بها المرحوم عبد الله أبى السعود صاحب جريدة « وادى النيل » :

« قد كنت وعدت فيما حررته سابقاً أنى أكاتب حضرتكم بعد بما تيسر على حسب الإمكان ، ومساعدة الزمان ، والآن أريد أن أخبركم بمحاورة جرت بينى وبين بعض المتورعين من الناس فيما يتعلق بصحيفة «وادى النيل» وكتاب الجغرافية المطبوع فى وريقاتها وذلك أنى رأيته ينكر على حضرتكم بعض المباحث المندرجة فى ذلك الكتاب ككون الأرض كرة ، والقبة السماوية متخيلة ، وما قيل فى كيفية الكسوف والخسوف ونحو ذلك ، بعد اعتراف منه بأن الكتاب المذكور كتاب مناسب فى موضوع مهم تدعو إليه الحاجة لمعرفة مواقع البلاد ومحالها ، وأقسام الأرض وأحوالها ، فإن هذا لا تنكر مزيته وفائدته فى السياحة والتجارة وأمور التمدن والحضارة ، فقلت له : قد علمت أن منشىء «وادى النيل» ليس مؤلف الكتاب المذكور وإنما هو مترجم له ، والمترجم ناقل ليس عليه عُهدة ما ينقله ، وإنما يلزمه صحة النقل ، وتوفية حق الأداء على صحته ، ولا يلزمه ما يترتب على الأصل المنقول عنه من نقد ومؤاخذة بعد عزوه لأصله ، ونسبته إلى قائله ، فلو سُلّم أن جميع تلك المباحث مما ينكر فما عليه شىء من ذلك ، فقد قالوا : إن ناقل الكفر ليس بكافر . . . الخ »[1] وهى رسالة طويلة تقع فيما يقرب من عشرين صفحة .

ومن نثره المرسل كذلك قوله فى تقرير عن رحلته إلى استوكهلم حيث حضر مؤتمر المستشرقين :

« ثم أشير إلى فقمت ، وأنشدت قصيدة كنت أعددتها لذلك بعد ارتحالنا من باريس فأتممتها فى الطريق ، وبيضتها فى استوكهلم ، فابتدأت أقول :

اليوم أسفر للعلوم نهـــار ... وبدت لشمس نهارها أنوار

(١) راجع الآثار الفكرية ٢٢١ — ٢٢٢ .

ومضيت فيها إلى آخرها ، وصفق الناس لكل من خطب ، وبالجملة لى لما أتممت الإنشاد ، وخاطبنى أناس منهم باستحسانها فى اليوم ، وحضر كاتب المؤتمر على أثر الفراغ منها وساورنى يطلب نسختها ، فأخذها فى الحفلة ، وخطب بعد ذلك أناس منهم (المسيوشفر) وافد فرنسا ، وكانت هذه الحفلة خاصة بذلك ليس فيها تقديم موضوعات علمية . الخ » .

على أن عبد الله فكرى لم يكثر من هذا الأسلوب المرسل ، وإنما كان من غواة النثر المسجوع ؛ وهو بأسلوبيه يمثل دوراً هاماً مر فيه النثر العربى من مرحلة الغثاثة والركاكة إلى مرحلة القوة وتوخى الفصاحة وقواعد اللغة ، بل والتأنق فى الأسلوب ، ولم يذهب تقاليده لرؤساء ديوان الإنشاء فى القديم بشخصيته وطابعه ، بل لا يزال يعطينا صورة عن عصره ، ولم يأسره حب البديع ومحسناته فيذهب بمعانيه بإغراقه فيه .

آثاره :

وتوفى سنة ١٨٩٠ ، وله عدة مؤلفات منها : المقامة الفكرية فى المملكة الباطنية المطبوعة سنة ١٢٨٩ هـ ، ومنها الفوائد الفكرية ، وشرح بديعية محمود صفوت الساعاتى ، ومنها جزء من شرح ديوان حسان بن ثابت ، وكتاب « نظم اللآل فى الحكم والأمثال » وكتاب آثار الأفكار ومنثور الأزهار (طبع منه تسع ملازم بروضة المدارس) . ومنها الفصول الفكرية للمكاتب المصرية ، ورسالته التى كتبها فى المقارنة بين الوارد فى نصوص الشرع والمقرر فى علم الهيئة الفلكية ، وغير ذلك من المراسلات والمقالات . وله أيضاً « إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا » وقد أتمه ولده أمين بعد وفاته . وقد جمعت معظم آثاره فى كتاب الآثار الفكرية ، وترجم له فى أوله المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده .

هذا وقد كان لعبد الله فكرى عناية برواية الحديث وله فيها طرق عديدة وأسانيد سديدة[1] .

---

(١) راجع الآثار الفكرية ٩ — ١١ .

٥ — السيد عبد الله الألوسي [1] :

ولد فى بغداد من أسرة مشهورة بالعلم سنة ١٢٤٨ هـ ١٨٣٢ م ، وتلقى العلم على والده ، فعرف شيئاً من النحو وروى الشعر ، وقرأ القرآن ، والتفسير والحديث وغير ذلك من العلوم التى كانت تدرس فى المساجد ، والتى لاتزال تدرس فى الأزهر حتى اليوم فى الكتب الموروثة[2] .

ولم نترجم للسيد عبد الله الألوسى ، لأنه أديب نابغة ، أو شاعر ملهم ، وإنما لنعطى صورة عن الأدب فى البلاد العربية إبان هذه الفترة التى نتحدث عنها ؛ حتى نصدر حكما صائباً عن الأدب العربى وتطوره ، وأنه لم يكن فى بلد أحسن منه فى أخرى ، وأن النهضة أخذت تدب فيه شيئاً فشيئاً .

لم يعمر السيد عبدالله طويلا ، فقد مات سنة ١٢٩١ هـ — ١٨٧٤ م عن ثلاثة وأربعين عاماً ، وقد قضى هذه السنين القصيرة عليلا سقيما ، واشتغل بالتدريس حقبة فى بغداد ، واشتهر بحسن إلقائه ، وتوضيحه لعويص المشكلات العلمية . ولكن الحياة لم تكن ميسرة له ، فمن أسرة كبيرة العدد ، وصحة سقيمة ، إلى فقر وعدم تقدير ، فعزم على الرحلة ، وباع كل مايملك ويمم صوب الآستانة ، ولكنه لم يصل ، لأن قطاع الطرق سلبوه كل عتاده ، وتركوه عاريا فى الصحراء ، ولولا أن من الله عليه بمن التقطه وأرجعه إلى بغداد لقضى جوعاً وعرياً . رجع صفر الكف من زاد الدنيا ، ولم يكن ممن يجيدون الزلف والملق فساءت حاله وطالما عرض عليه القضاء قبل هذا فكان يرفضه ورعاً وزهداً بيد أن الضائقة أحرجته فاضطر إلى قبوله وتولى قضاء البصرة سنتين ثم مات . وقد ترك عدة مؤلفات فى علوم اللغة ، وله شعر لطيف ومقالات أدبية جمعها ابنه السيد محمود شكرى الألوسى

---

(١) هو ابن السيد محمود الألوسى (أبو الثناء) الذى ترجمنا له سابقاً .
(٢) راجع أعلام العراق لبهجت الأثرى ص ٨٩ .

تزوقت فى مائة صفحة ؛ ومن نثره يصف مطراً شديداً متوالياً ، وفيضان نهر دجلة . وهذا النثر يمثل مدرسة الصنعة والسجع والتكلف أو انتزاع الاستعارات وحشدها ركاماً عجيباً ، وهو دون عبدالله فكرى منزلة ولاريب من حيث الأسلوب ، والفكرة ، وتنوع الموضوعات . قال من رسالة بعث بها لأخويه يصف هذا المطر :

« . . . إنه (المطر) عند غروب شمس الأربعاء ، تنفس بفم الشوق الصعداء ، ورمى بوجه الأرض حصىً من كف السماء فناداه الليل – وقد تحقق أن الدائرة على الأرض – ومارميتَ إذا رميت ولكن الله رمى ، وحاك الدوى بمكوك الريح من سدى البخار ولُحمته شُقُقاً سوداً ، وصبغها الليل فكانت ظلمات بعضها فوق بعض ، وطنبها خيمةً خيمة على أكتاف العراق فى الطول والعرض ، واشتد الريح والظلام ، وشرع جِنّىُّ الليل يخوِّف صبيَّ النهار كلما أحس منه بقيام ؛ حتى سل الفجر قِرْضابَه الأبيض من غمده الأسود ، وأغمد الليلُ قامة الجوزاء بعد أن كان بها على النهار يتهدد »[1] .

٦ – حسين بيهم[2] :

ولد حسين ببيروت سنة ١٢٤٩ هـ ١٨١٣ م ، وأخذ من العلم المعروف فى عصره قسطاً غير قليل ، ثم انقطع للتجارة ، ولكن حنينه إلى العلم جذبه إليه ثانية فنال شهرة . وتولى عدة مناصب كبيرة كنظارة الخارجية ورئاسة الأحكام العدلية ، ومثل بلاده فى مجلس النواب التركى مدة ، ولما عاد ترك الوظائف وتفرغ للأدب . ومن آثاره رواية أدبية وطنية مثلت مراراً ، وقرظها الأدباء . وشعره لايتميز عن مدرسة أبى النصر والليثى ، وقد وفيناه نعتاً عند الكلام عليهما ومن ذلك قوله يؤرخ إنشاء (التلغراف) فى بيروت :

---

(١) راجع أعلام العراق تجد فيه الرسالة كاملة ص ٤٨ — ٥٠ .

(٢) أبوه السيد عمر بيهم وكان من أعيان بيروت وأدبائهم . ولاتزال أسرة بيهم حتى اليوم ذات مكانة فى بيروت .

لله در السلك قـــد أدهشت ... عقولنا لما على الجـــو ساق
فأعجب الكون بتأريخه ... شبيه برق أوشبيه البُراق (١٢٧٧)

وقال مشطراً :

وإذا العناية لاحظتك عيونهـــا ... وحباكها من فضله الرحمن
ناداك طائرُ يمنها وسعودها ... نم فالمخـــاوف كلهن أمان
واصطد بها العنقاء فهى حبالةٌ ... واملك بهـــا الغبراء فهى سنان
واصعد بها العلياء فهى معارج ... واقتد بها الجوزاء فهى عنان

وقال يعزى صديقاً بفقد ماله .

لقد غمّنا والله والصحبَ كلهم ... مصابٌ دها كم بالقضا حكم قادر
كأن شراراً منـــه طـار لأرضنا ... فأحرق أحشاء الورى بالتطاير
ولكننا قلنا مقـالة عاقل ... يسلم للبارى بـكل المظاهـــر
إذا سلِمَت هام الرجال من الردى ... فما المـالُ إلا مثلُ قص الأظـافر
فـكن مثل ظن الناس فيك مقابلا ... لذا الخطب بالصبر الجميل المصادر
ولا تأسفن إذ ضاع مالٌ ومقتنى ... فربُك ياذا الحزم أعظمُ جابر
وإن حياة المرء رأسٌ لماله ... سلامَتُه تعلو جميع الخسائر

وهو شعر بادى الضعف ، كثير العوار لايحتاج منا وقفة أو نقداً .

الفصل الرابع

بعث الشعر العربى

مر الشعر العربى منذ عهد امرىء القيس إلى عصر البارودى فى أطوار مختلفة : كان فى الجاهلية وصدر الإسلام شعرَ الفِطْرة والسليقة المنبعثة عن الشعور والإلهام، تَعْرِض الحادثة أو المنظر للشاعر فينفعل ويتأثر ، ويلهج لسانه بما يختلج فى فؤاده ، وقد ينبعثُ من طيات ضميره لا بوحى خارجى ، وهو فى كلتا الحالتين لا يعمد إلى تنميق أو تزويق ، أو يعتمد لفظاً بعينه ، وإنما اللغة مِلْكُ يمينه وطوعُ لسانه ، وكأنها بمفرداتها الزاخرة ، ومعانيها المتباينة موضوعةٌ فى كفه يختار منها ما يكفى لأداء المعانى التى تتجاوب فى خاطره . وكثيراً ما يعمد إلى هذا الأداء بأوجز لفظ وأمتنه دون إسهاب أو حشو ، ولا سيما إذا كان شاعراً فحلا طويل الباع فى فن الشعر ، وله دراية بوجوه تصريف الكلام . ولذلك جاء الشعر العربى القديم صورة صادقة لمن قالوه ، ولأمر ما قال نقاده منذ القرن الثانى : « الشعر ديوان العرب » . لم يكن العربى الأول يعمد إلى الخيال المجنح الذى يخلق الصور ويغوص وراء المعانى فى أعماق الفكر ، وإنما يصور إحساسه وشعوره دون تزيد أو نقصان ، ودون فلسفة أو منطق ، وقد كان دستورهم فى ذلك قولَ أحدهم :

وإنَّ أحسنَ بيت أنت قائلُهُ ... بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وكأن الشعر العربى حين ذاك بيت مشيد بالحجارة المتينة العارية عن الزخرف والطلاء ، يروعك بسذاجته وشموخه ومتانته . وفى السذاجة جمال الفطرة .

ثم أخذ العرب بنصيب غير قليل من حضارة الأمم التى فتحوا بلادها ، وألِفوا أنواعا من العيش ، وألواناً من الحياة ونظام الحكم ، لم يعرفوها من قبل ، وشاهدوا مناظر جديدة

اختمرت فى عقولهم زمناً ، واطلعوا على ثقافات متباينة من يونانية وفارسية وهندية ونبطية وما شاكل هذا ، وكان من الطبيعى أن يتأثروا بكل ذلك وكنا ننتظر أن يتطور الشعر العربى تطوراً جديداً خليقاً بهذا الانقلاب الكبير فى حياة الأمة العربية وأن يحتذى العرب حذو الإغريق مثلا فى ملاحمهم وقصصهم ومسرحياتهم ، ولكن ما طرأ على الشعر العربى لم يَعْدُ الشكل الظاهرى ، وظل البناء القديم ، والقالب الموروث تصب فيه المعانى فى العصر العباسى كما كانت تصب فى العصر الجاهلى والإسلامى الأول . أجل ! لقد رق الخيال ولطف ، وتولدت المعانى وابتكرت ، وتناول الشعر أنواناً جديدة لم يقل فيها السابقون ولكن ظل البيت الذى شاده الجاهليون ، والطريق الذى سلكوه فى التعبير عن شعورهم هو المثل الأعلى لشعر العصر العباسى ، بيد أن مقتضيات الحضارة دعت الشعراء أن يؤثثوا هذا البيت الذى ورثوه عن أسلافهم ، فحشدوا فيه أنماطاً شتى من المعانى العميقة والأخيلة البعيدة والفلسفات والحكم ، وكثيراً من صور الحياة فى عصرهم ، وابتدءوا مع هذا يدخلون شيئاً من الزخرفة بقدر ، وكانت زخرفة منسجمة مع الرياش والأثاث وبدأ الشعر العربى فى عنفوان قوته وازدهاره وغنائه.

ثم خلف من بعدهم خَلْف أضافو إلى هذا القصر الفاخر كثيراً من الحلى والزخارف وكان الضعف ابتدأ يتسرب إلى البناء ، ويدب فيه الوهن ، وعجز الشعراء عن مجاراة الأقدمين فى متانة عباراتهم ، وتملكهم زمام اللغة ، وعجزوا عن مجاراة المولدين فى معانيهم العميقة ، وأخيلتهم الجميلة . فأكثروا من الزخرف والزينة ليستروا بهما الضعف الشائن. وكانوا على شىء من الإلمام باللغة وبالأساليب الصحيحة فلم يستعجم قولهم ، وظل فى الشعر ذماء يحفظ عليه حياته ، وبقى البناء فى مجموعه سليما .

ثم أخذ البناء يتداعى بضعف الأمة العربية ، وخضوعها للأعاجم الذين لا يقدرون هذا التراث الجميل ، ولا يعرفون لسانَ أهله ولاَ همّ لهم إلا ابتزاز الأموال من الشعوب المظلومة دون مقابل من علم أو صحة أو غنى ، فتفشى الجهل ، وساد الظلم ، واستعجم الشعراء ولحنوا لحناً فاحشاً ، وكانوا أبعد الناس عن الأساليب الصحيحة ، والمعانى الواضحة ، والشعور

السليم ، وخانتهم الأداة المعبرة ، وأصبح همهم النظم الذى لا زوح فيه ولا معنى له والذى يساق فى عبارة ركيكة غثة ، وفى حشد زاخر من الزينات والمحسنات لتستر عواره . وقد كان الشعر يلفظ أنفاسه الأخيرة عيا ومرضا حين ابتدأ العصر الحديث .

ابتدأت النهضة الشاملة منذ عصر محمد على ، وقد رأيت شيئا من معالمها ، ورأيت كيف كان الشعر يتردد بين المرض والعافية ، فيصح أحيانا وينتكس أحيانا كثيرة . والنهضة سائرة فى طريقها فى عهد اسماعيل ، واللغة يدب فيها شىء من القوة ، والمطابع تدفع بالكتب الأدبية القديمة ، والمدارس تبدد سُدَف الجهل والظلام ، والصحافةُ تكشف الطريق ، وتزيل ما به من أوضار وعوائق ، ولكنَّ الشعرَ ظلّ على حاله من الضعف لم يقف على قدميه بعد ، وكان مكبلا بقيود ثقيلة ، تحت أنقاض هذا البناء الشمخر الذى تداعى أيام الانحلال .

وشاء الله أن يَبْعث من يُنْهضه من كبوته ، ويقيله من عثرته ، ويلقى بهذه الآفات والأوضار بعيداً ، ويعيد للبناء قوته ومجده ، وزخرفته الطبيعية الجذابة دَفْعةً واحدة ، كأنما هى عصا ساحرٍ قلبت الميت حيا والضعيف قويا ، والمعدم ثريا . كان هذا على يد إمام النهضة الشعرية الحديثة فى العالم العربى :

محمود البارودى

١٢٥٥ — ﻫ — ١٣٢٢ ﻫ ، ١٨٣٨ م — ١٩٠٤ م

حياته :

محمود سامى البارودى من أسرة جركسية ذات جاه ، ونسب قديم(١) ، تنتمى إلى حكام

---

(١) أبوه حسن حسنى البارودى من أمراء المدفعية ، ثم صار مديراً لبربر ودنقلة فى عهد محمد على وجده لأبيه عبد الله الجركسى ، والبارودى نسبة الى (إيتاى البارود) بمديرية البحيرة وكان أحد أجداده ملتزماً لها . وينتهى نسبه إلى الملك الأشرف (سبرباى) الأتابكى من المماليك الذين حكموا مصر فيما مضى . (مذكرات عرابى ج ١ ص ١٠٠) .

مصر المماليك ، وكان البارودى يعرف هذا النسب ويعتز به .

أنا من معشرٍ كرامٍ على الدهـ ـر أفادوه عِزَّة وصلاحا
عَمَرُوا الأرض مدة ثم زالوا مثلما زالت القرون اجتياحا

ويقول :

نمانى إلى العلياء فرعٌ تأثلتْ أرومَـتُه فى المجد ، وافترّ سعدُه
وحسب الفتى مجداً إذا طلب العلا بما كان أوصاه أبوه وجده

وتيتم محمود البارودى صغيراً ، وهو فى السابعة من عمره ، فحرم بذلك حنان الأب ورعايته ، وتلقى دروسه الأولى فى البيت حتى بلغ الثانية عشرة ، ثم التحق بالمدرسة الحربية مع أمثاله من الجراكسة ، والترك ، وأبناء الطبقة الحاكمة . وتخرج فى المدرسة الحربية سنة ١٨٥٤ وهو فى السادسة عشرة من عمره فى عهد عباس الأول ، وكان من الموقين للنهضة كما مر بنا ، وقد خمدت فى عهده روح الحماسة التى شبّها محمد على فى الجيش ، بل سرح معظمه ، واقفرت ميادين القتال من ألوية مصر ، ولم يكن عهد سعيد أحسن حالا من عهد عباس ، فلم يجد البارودى — كما لم يجد زملاؤه — عملا يعملونه . أما هم فقد طاب لهم عيش الرخاء والدّعة وسرهم البعد عن ميادين القتال ، ولـكنه أحس دونهم بألم ممض ، إذ لم يشترك فى حرب كما اشترك آباؤه ، وكم كان يود أن يحقق عن طريق الجندية والجيش آمالا ضخمة ، وأمانىّ عريضة . ودفعه هذا الألم إلى العوض عن المعارك الحقيقية بمعارك موصوفة مدونة فى صفحات التاريخ فعكف على كتب الأقدمين يلتهمها التهاماً . وكانت ملـكة الشعر كامنة فى حنايا فؤاده فراقه من التراث الأدبى شعرُ الحماسة والفخر ، ووصفُ ميادين القتال ، وأعمال الأبطال ، ورأى فى هذا الأدب تصويراً للحياة كلها حلوها ومرها من غزل وفكاهة وحكمة ورثاء ، وكل ما يخطر ببال الناس ، فازداد شغفه به وحرصه على حفظه وتدوينه ، وتحركت نفسه لقول الشعر فقلد فحول الشعراء فى أروع قصائدهم . وهل

على مثله من بأس أو عار إذا هو قال الشعر ؟ إذا توهم هذا معاصروه من أبناء طبقته لجهلهم وخمود قريحتهم ولتقاليدهم الموروثة ، ولهوان شعراء زمانهم وضعة شأنهم فإن البارودى كان على أذكر من أن أمراء كثيرين قبله ، أعرق نسباً ، قد برزوا فى الشعر العربى وسطروا تاريخهم فى سجل الخلود ، كامرىء القيس ، وابن المعتز ، والشريف الرضى ، وأبى فراس وأضرابهم . فلم لا يكون مثل هؤلاء ؟ ولم لا يرتفع بالشعر إلى منزلتهم ؟ لن يكون مداحاً متملقاً ، أو نديماً منافقاً ، ولكنه سيقول فى أغراض شريفة تليق به وبمكانته .

الشعر زين المرء ما لم يكن ... وسيلةً للمدح والذام
قد طالما عز به معشرٌ ... وربما أزرى بأقوام
فاجعله ما شئت من حكمة ... أو عظة أو حسب نام
واهتف به من قبل تسريحه ... فالسهم منسوبٌ إلى الرامى

وقد عرف فيما عرف من أدب العرب منزلة الشعر وعبر عنها بعد بقوله :

صحائفٌ لم تزل تُتلى بالسنة ... للدهر فى كل ناد منه معمور
يزهى بها كل سام فى أورمته ... ويتقى البأس منها كلُّ مغمور
فكم بها رسخت أركان مملكة ... وكم بها خمدت أنفاس مغرور
والشعر ديوان أخلاق يلوح به ... ما خطه الفكر من بحث وتنقير
كم شاد مجداً ، وكم أودى بمنقبة ... رفعاً وخفضا بمرجو ومحذور

هكذا رأى البارودى الشعر ، وما كان له أن يعرض عنه ، ولو حاول ما استطاع وفيه طبع شاعر ، وقد ملك أداته اللغوية المعبرة .

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت ... به عادة الإنسان أن يتكلما
فلا يعتمدنى بالإساءة غافل ... فلا بد لابن الأيك أن يترنما

فهو مطبوع على قول الشعر مَثَلُهُ فى ذلك مثل الهزاز أو البلبل ، ينطق كلاهما بالغناء فطرة وَجِبِلَّة ، ولكن مصر ضاقت به أو ضاق بها حيث لم يجد غنية لدى الدولة تحقق آماله ، فسافر إلى الآستانة مقر الخلافة ، والتحق بوزارة الخارجية ، وهناك تعلم التركية والفارسية وتعلم آدابهما وحفظ كثيراً من أشعارها ، ودعته سليقته الشاعرة فقال بالتركية وبالفارسية كما قال بالعربية ومع ذلك لم يهجر لسانه الأول . ولما سافر إسماعيل إلى الآستانة بعد أن تولى أريكة مصر سنة ١٨٦٣ ليقدم آى الشكر على توليته ألحق البارودى بحاشيته ورأى فيه ما لم يره فى غيره فرجع به إلى مصر .

وابتدأ اسماعيل نهضته بعد عودته ، مترسما خطا جده ، وأعاد للجيش مكانته ووجد البارودى المجال أمامه فسيحا ، فظل يرقى فى مناصب الجيش ، وفى فرسان الحرس الخاص حتى وصل إلى رتبة (قائمقام) وتحقق له مناه بالاشتراك فى معارك جزيرة (كريت) حين ثارت على الدولة فأسهم إسماعيل بجيشه فى إخماد الثورة . وقد فتنت البارودى مناظرُ الجزيرة ومناظر المعارك ، فسجل ذلك كله فى شعره ، وسمع الناس نغما جديداً فى الشعر لم يألفوه منذ عهد طويل ، وأخذوا يتطلعون فى لهفة وشوق إلى المزيد من هذا النفس العالى ، ومن هذا الطراز الجديد فى الشعر(١) .

وتقلب البارودى فى مناصب الدولة ، وكان ذا حظوة لدى إسماعيل ، فاتخذه كاتم سره وسافر فى رحلتين سياسيتين إلى الآستانة فى مهمة خاصة ، ومكث اثنتى عشرة سنة بجوار إسماعيل ، يرى نشاطه الجم فى إحياء مصر وإنهاضها ويشاركه فى عمله المجيد ، وفى سنة ١٨٧٨ أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وأرسل إسماعيل جيشاً يعاون الخليفة فى حربه مع عدوه ، وسافر البارودى مع الجيش ، وأبلى فى المعارك بلاء حسناً ، فأنعم عليه برتبة (اللواء) وبأوسمة عدة . وكان فى ميدان القتال ، والمناظر الخلابة ، والعالم الذى رآه ما ألهب شاعريته فوصف المعارك والناس والمناظر بشعر أخاذ بلغ الذروة فى الوصف . وأخذ يهتف باسم

---

(١) سنتكلم عن شعر البارودى فيما بعد بالتفصيل إن شاء الله .

مصر ، ويحن إلى الأهل والوطن ، فانبعث منه الشعر قوياً مليئاً بالحياة .

مولاى قد طـال مرير النوى   فكل يوم مر بى ألفُ عام(١)
يقتبل الصبح ويمضى الدُّجى   وينقضى النور ويأتى الظلام
ولا كتابٌ من حبيب أتى   . ولا أخو صدق يرد السلام
من خلفنـا البحر وتلقاءنا   سواد جيش مكفهر لهـام

ويقول فى قصيدة أخرى :

هو البينُ حتى لا سلامٌ ولاردُّ   ولا نظرة يقضى بها حقَّه الوجدُ

ومنها يقول :

ولـكن إخواناً بمصرَ ورفقة   نسوا عهدنا حتى كأن لم يكن عهدُ
أحِنُّ لهم شوقاً على أن دوننا   مهامهَ تعيا دون أقربها الرُّبْـد
فياساكنى الفسطاط ما بالُ كتبنا   ثوَت عندكم شهراً وليس لها ردُّ
أفى الحق أنا ذاكرون لعهدكم   وأنتم علينا ليس يعطفـكم ود
فلا تحسبونى غافلاً عن ودادكم   رويداً فما فى مهجتى حجر صلد
هو الحب لا يَثنيه نأىٌ وربما   تأجج من مَس الضرام له النـد

وعاد من حرب البلقان وهو فى الأربعين من عمره فعين مديراً للشرقية ، فمحافظاً للعاصمة — ثم ساءت أمور مصر فى أخريات عصر إسماعيل ، واضطربت اضطرابا كبيراً ، وناء الفلاحون بالضرائب الفادحة المديدة . ولنستمع إلى شاهد عيان يصف لنا الهوة التى تردى فيها الفلاحون فى تلك الحقبة سنة ١٨٧٥ حيث يقول : كان من الأمور النادرة

---

(١) الخطاب للأديب العالم الشيخ حسين المرصفى واليه أرسل هذه القصيدة ، والتى تليها .

فى تلك الأيام أن يرى الإنسان شخصاً فى الحقول وعلى رأسه عمامة ، أو على ظهره شىء أكثر من قميص . . . وغصت مدن الأرياف فى أيام الأسواق بالنساء اللاتى أتين لبيع ملابسهن وحليهن الفضية للمرابين (الأروام) ؛ لأن جامعى الضرائب كانوا فى قراهن والسوط مشهر فى أيديهم ، فابتعنا مصوغاتهن الزهيدة وأصغينا إلى قصصهن ، واشتركنا معهن فى استنزال اللعنات على الحكومة التى جعلتهن عرايا . ولم نكن فهمنا وقتئذ — أكثر مما فهمه القرويون أنفسهم — ذلك الضغط المالى الآتى من أوربا والذى كان السبب الحقيقى فى هذا الضيق وعلى ذلك جاريناهم فى إلقاء اللوم كله على إسماعيل باشا واسماعيل صديق دون أن يخامرنا شك فى أن الإنجليز أيضاً يقع عليهم جانب من اللوم(١) » .

وكان للامتيازات الأجنبية نصيب كبير فى تدهور الحالة بمصر فى تلك الآونة حيث قد « أصبحت أداة ينتفع بها شر الطغاة من الأوربيين وأشباه الأوربيين من متخرجى الشرق الأدنى ، وتجسمت فى أخريات عهد إسماعيل حتى بلغت مداها المخيف ، وراح الأوربى قناص الغنيمة ، وسمسار القروض المرهقة ، والإغريقى صاحب الخان ومرتهن الأرزاق ، واليهودى المرابى ومن إليهم ممن يسهل عليهم الاحتماء بإحدى الدول الأوربية يمتصون الخزانة العامة والفلاح والفقير ويقترفون فى هذه الجناية ما يستعصى على التصديق(٢) » .

أما الضرائب التى فرضها إسماعيل على الأرض فقد كانت فوق ما يتصور حتى لقد بلغت الضريبة على الفدان ما يقرب من ثمنه ، فكان من الطبيعى أن يترك هؤلاء الفلاحون أرضهم وديارهم وينسحبون هاربين عجزاً عن أداء الضرائب وخوفا من السياط(٣) .

عدا ثلاثين نوعاً من الضرائب الصغيرة ، أضرت ضرراً بليغاً بالصناعات والأعمال التجارية والزراعية(٤) .

---

(١) التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر تأليف ألفريد بلنت ص ١٢ .

(٢) Milner : England in Egypt P. 15.

(٣) Cromar : Modern Egypt. P. 38.

(٤) تاريخ محمد عبده لرشيد رضا ج ١ ص ١٧٢ .

ناهيك بالسخرة ، وما كان يصطحبها من إهانة وأذى وذلة طوحت بعزة المصريين ، وأرهقتهم إرهاقاً شديداً ، حتى جعلت أيام السواد منهم شقاء وبؤساً .

كانت هذه الأمور من العوامل التي ملأت قلوب المصريين حقداً وكراهية لاسماعيل وحكمه .

وزاد الأمور سوءاً أن انجلترا وفرنسا كانتا تدفعان الحوادث دفعاً نحو التأزم حتى تتاح لهما الفرصة للتدخل المباشر ، وافتراس مصر ، ففرضتا على مصر وزارة فيها وزيران أوربيان برياسة نوبار باشا ، « وكانت طبقة الموظفين المسلمين تعده أفاقاً أرمنياً جمع ثروة كبيرة من سمسرته لأصحاب الأموال المستمدين لإعطاء القروض على حساب الجمهور ؛ أما الفلاحون فكانوا يعرفون فيه الرجل الذى أنشأ المحاكم المختلطة التي يمقتونها أشد المقت لاعتقادهم أنها وضعتهم فى قبضة المرابين »[1] .

واشتطت هذه الوزارة فى الضرائب وجبايتها ، وتأخرت رواتب الموظفين ، وعزل الكثيرون منهم ، وانتقصت سلطة الباقين ، وتقرر فصل عدد كبير من ضباط الجيش مع أنهم لم يتقاضوا مرتباتهم منذ زمن طويل ، فزاد السخط وقامت مظاهرة من الضباط وطلبة المدرسة الحربية وبعض النواب فى ١٨ من فبراير ١٨٧٩ أمام وزارة المالية احتجاجاً على هذا الظلم واعتدوا على نوبار وعلى الوزير الإنجليزى وعلى رياض باشا وزير الداخلية ، ولم يتفرقوا إلا بعد أن أطلقت النار ، ثم سقطت الوزارة ، واتهم عرابى بتدبير تلك الثورة ، وأبعد عن فرقته[2] .

وتولى توفيق ولى العهد الوزارة واشتد الخلاف بينه وبين مجلس النواب الذى رأى تخفيض الضرائب فأبى ، وفى هذه الآونة ألف الحزب الوطنى ، وأصدر لائحة تتضمن مشروعاً مالياً لسداد الديون بكفالة الشعب ، وطالب فيها بتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس

(١) بلنت ص ٣٧ .

(٢) بلنت ص ١٧١ .

النواب ؛ ووقع على هذا البلاغ النواب والعلماء ورؤساء الأديان ، وكثير من التجار والموظفين والضباط ، ورفعوها إلى اسماعيل فقبلها على الرغم من احتجاج الوزيرين الأوربيين ، ودعا شريف باشا فى ٧ من أبريل لتأليف الوزارة على مبادىء اللائحة الوطنية فكانت فرحة الشعب بهذا النصر عظيمة . بيد أن انجلترا وفرنسا قابلتا هذه الوثبة الوطنية بالسخط الشديد فعملتا على خلع إسماعيل ، فأقلعت به « المحروسة » إلى نابلى غير مأسوف عليه من المصريين الذين لم ينسوا ما فعله بهم حتى لقد هموا من قبل بقتله والتخلص منه فيقول عرابى : « خلع اسماعيل فزال عنا عبء ثقيل ، ولكنا لو كنا نحن فعلنا ذلك بأنفسنا لكنا تخلصنا من عائلة محمد على بأجمعها ، إذ لم يكن فيها أحد جدير بالحكم سوى سعيد ، وقد اقترح جمال الدين على محمد عبده أن يقتل اسماعيل على جسر قصر النيل[1] » ، ويقول محمد عبده : « وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل اسماعيل ، ولكن كان ينقصنا من يقودنا فى هذه الحركة ، ولو أننا عرفنا عرابى فى ذلك الوقت فربما كان فى إمكاننا أن ننظم الحركة معه[2] » .

وتولى توفيق العرش بدل أبيه ، وكان المصريون يعلقون عليه آمالاً كباراً ؛ لأنه كان من المعجبين بالسيد جمال الدين الأفغانى وآرائه الاصلاحية ، ولكنه ما لبث أن تنكر لهذه المبادىء بعد توليه العرش ، وأرجع المراقبة الثنائية ، وخاصم الحكم النيابى وحكم البلاد حكماً مطلقاً ، وكان فى هذا منفذاً لمشورة الأجانب ، مستجيباً لتدخلهم ، فمزّ ذلك على كثير من رجال مصر ، ورأوا لزاماً عليهم أن يضعوا حداً لهذا التيار .

كان البارودى من المقربين لتوفيق وولاه وزارة الأوقاف ، فأصلح فيها ما وسعه جهده ، وكان فى الوقت نفسه وطنياً متشبعاً بروح الإصلاح فحار فى أمره بين ولائه للعرش ، وبين نزعاته الإصلاحية .

---

(١) التاريخ السرى . بلنت ص ٣٤٧ .
(٢) المرجع نفسه ٣٠٤ .

ثم كانت حركة الجيش ، والمطالبة بتولية المصريين المناصب العليا ، وقد كانت قبل وقفاً على الجراكسة والأتراك ، وكانوا فى منتهى الغلظة والقسوة ، فثار الجيش فى أوائل سنة ١٨٨١ ، حين أصدر عثمان رفقى الجركسى وزير الحربية أمراً بعدم ترقية المصريين وبفصل بعض الضباط المتزعمين فيهم . وانتهى الأمر بعزل عثمان رفقى هذا وإجابة الجيش إلى ماطلب من إصلاح وتولية البارودى وزارة الحربية مع الأوقاف ، وهدأت الأمور فى الظاهر ، ولكنّ الجراكسة كانوا يدبرون مكيده للضباط المصريين ، وتأزمت الأمور فكانت مظاهرة عابدين فى ٩ من سبتمبر ١٨٨١ يتقدمها (عرابى) وكبار الضباط المصريين وأطل عليهم توفيق ، ومعه وزراؤه وحاشيته وقناصل الدول الأجنبية ، وتقدم عرابى إليه بطلبات الجيش والأمة ، وهى إسقاط وزاره رياض وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش ، وبعد مناقشات طويلة حادة تقرر إجابة هذه الطلبات .

كان البارودى وزيراً للحربية فى وزارة رياض ، ولما رأى هذا نزعاته الشعبية وصلته بالوطنين دس عليه لدى توفيق فعزله ، ودفعه ذلك إلى اعتزال السياسة فترة من الوقت ، فترك القاهرة وجوّها القلق وآثر العزلة فى الريف وفى هذا يقول :

صُبحٌ مطير ، ونَسْمة عَطِره ... وأنفس للصبوح منتظره
قدِّر بعينيك حيث شئت تجد ... ملكاً كبيرا وجنةً خَضِره
وخلّنا من سياسة دَرَجتْ ... بَين أناسٍ قلوبهم وَغِره
يقضون أيامهم على خطر ... فبئس عقبى السياسة الخطره
خديعة لا يزال صاحبها ... بين هموم وعيشة كدره

فلما سقطت وزارة رياض تحت ضغط الوطنيين عقب مظاهرة عابدين عاد البارودى وزيراً للحربية بعد أن ألح عليه توفيق إلحاحاً شديداً ، وانتخب مجلس النواب وافتتح فى ديسمبر ١٨٨١ وهدأت الأمور ، وسارت وزارة شريف فى طريق الإصلاح . ولكن انجلترا وفرنسا كانتا كارهتين للهدوء والاستقرار ، فما أن أخذ مجلس النواب يناقش المادة

التي تخول له الحق في تقرير الميزانية حتى قدمتا مذكرة تحتجان فيها على ذلك ، وقبل شريف هذا الاحتجاج ، ورفضه مجلس النواب فاستقالت وزارة شريف ، وتولى البارودى رئاسة الوزارة في ٤ من فبراير ١٨٨٢ ، وكان عرابي وزيراً للحربية في وزارة البارودى . كان البارودى محبوبا من الشعب ومن الجيش على السواء ، وفرح المصريون بوزارته فرحا عظيما ، وأخذ مجلس النواب ، فوق إصداره الدستور الذى كان صدوره عيداً للأدب والتاريخ ، يبحث في عدة مشروعات لمعالجة غلاء الأسعار وتعميم التعليم الابتدائي ، وإصلاح القضاء ، وإنشاء خزان أسوان ، ثم انتهت دورته وتابعت الوزارة حركة الإصلاح في خطاً واسعة . ولكن أنى لها الجو الهادىء وتوفيق واقع تحت سيطرة فرنسا وانجلترة ، وهما متربصتان بمصر والمصريين الشر ، فانتهزتا فرصة الخلاف بينه وبين الوزارة بسبب مؤامرة الضباط الجراكسة على قتل عرابي وأصحابه . وبالرغم من أن هذا الخلاف قد سوى ، فقد بدأت سفن الأسطولين الإنجليزى والفرنسى تصل إلى مياه الاسكندرية ، وقدمت الدولتان في ٢٥ من مايو مذكرة جديدة بضرورة استقالة الوزارة ، ونفى عرابي ، وتحديد إقامة بعض أصحابه بناء على اقتراح سلطان (باشا) الذى بدأ منذ ذلك اليوم يناصر الإنجليز ويخون قضية بلاده ، تلك القضية التي طالما ناصرها ، وهكذا وقع في الشرك الذى وقع فيه شريف (باشا) من قبل[١] .

واجتمع الوزراء ، وقرروا رفض المذكرة ، ولما قبلها توفيق اضطروا إلى الاستقالة .

وهاج الشعب على أثر ذلك واشتد سخطه وقدموا احتجاجات قوية لتوفيق يطلبون فيها رفض طلبات انجلترا وفرنسا والإبقاء على عرابي في الوزارة ، وإذا أبى توفيق عزل عزلا . واضطر توفيق بعد استشارة (قناصل) الدول الأجنبية إلى الإبقاء على عرابي وزيراً للحربية حفظاً للأمن ، وبقيت الوزارات الأخرى شاغرة إلى حين .

لما طالب الجيش بعزل توفيق راودت البارودى نفسه ونازعته يومئذ إلى المجد المؤمل ،

---

(١) بلنت — التاريخ السرى ٢٢٤ .

وإلى مكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر ، فخاض الثورة مع الخائضين ولكنه رأى بعين فراسته أن التيار شديد ، وأن انجلترا وفرنسا تتربصان بمصر الدوائر ، وأحس بالخطر وعلم أن لا قبل له بمواجهته فنصح لعرابى وإخوانه وصارحهم برأيه ، وحاول الاعتزال فى مزرعه ، ولكن هيهات ، وقد جرى مع الضباط شوطاً بعيداً ، وربط حظه بحظهم ، وإن لم تعد له الصدارة كما كان .

وفى هذا يقول :

نصحت قومى وقلت الحرب مفجعة ... وربما تاح أمرٌ غير مظنون
فخالفونى وشبّوها مكابرة ... وكان أولى بقومى لو أطاعونى
تأتى الأمور على ماليس فى خلد ... ويخطىء الظن فى بعض الأحايين
حتى إذا لم يعد فى الأمر منزعةٌ ... وأصبح الشرُّ أمراً غير مكنون
أجبت إذا هتفوا باسمى ومن شيمى ... صدق الولاء وتحقيق الأظانين

وأخفقت الثورة ، ونفى مع زملائه إلى (سرنديب) فأقام بها سبعة عشر عاماً وبعض عام ، وظل وزملاؤه سبعة أعوام فى (كولومبو) ولما دبت بينهم البغضاء ، وألقى كلٌّ منهم التبعة على زميله ، فارقهم البارودى . وأمضى عشرة أعوام فى (كندى) ، وفيها تعلم الإنجليزية . وفى المنفى قال القصائد الخالدة ، يبثها شكواه ، ويحن للوطن ، ويصف كل ماحوله ، ويراسل الأدباء ، ويتلهف على ذكر الوطن ويتتبع أخباره ، فيرثى من مات من أهله وأحبابه وأصدقائه ، ويتذكر أيام شبابه وأويقات أنسه وما آل إليه حاله . ووجد فى الشعر عزاء أى عزاء وصار إمامه فى العالم العربى دون منازع ، ولكن طول النفى أورثه السقام والعلل ، فكُف بصره وضعف سمعه ، ووهن جسمه ، ولست أجد أروع ولا أوفى من قوله يصف ما أصابه :

كيف لا أندبُ الشبابَ ؟ وقد أصـ ... ـبحت كهلا فى محنة واغتراب

أخلق الشيب جِدّتى وكسانى خِلْعَةً منه رثّةَ الجلباب
ولوى شَمْرَ حاجبىَّ على عيـ نىَّ حتى أطل كالهـداب
لا أرى الشىء حين يسنح إلا كخيال كأننى فى ضبـاب
وإذا مادُعيت حِرْت كأنى أسمع الصوت من وراء الحجاب
كلما رُمْت نهضة أقعدتنى وَنْيَةٌ لا تُقِلُّها أعصابى
لم تدع صولة الحوادث منى غيرَ أشلاء همة فى ثيـاب

وزاد أمره بؤساً أن الموت تخطف ابنته وزوجه الأولى وأصحابه ، فابتدأ الفناء يدب إليه ؛ هنالك رأى أولو الأمر أن يعود المنفيون إلى أوطانهم ، وعاد البارودى مبهم (أشلاء همة فى ثياب) كما يقولُ ، ولكن جاء وفى عينيه سفرُ الخلود ، وهو ذلك الشمر العلوى ، وكان ذلك فى سنة ١٩٠٠ واستقبل مصر بقصيدته :

أبابل مرأى العين أم هذه مصر ؟ فإنى أرى فيها عيوناً هى السحر

واستقبلته مصر بكل حفاوة وترحاب ، وكانت عودته عيداً للأدب الرفيع ، وصارت داره ندوة يؤمها الأدباء والشعراء القدامى والشادون فيه ، يأنسون إليه ويأنس إليهم وعكف على تنقيح ديوانه ، وحذف ما لا يروق له منه ، وتدوين مختاراته وترتيبها ؛ وأخيراً فاضت روحه إلى بارئها ، وأسلم هذه الشعلة المتوهجة فى ديسمبر ١٩٠٤م شوال ١٣٢٢هـ إلى الأجيال من بعده يتلقفها كابر عن كابر وكلهم يذكر فضله ، ويمجد ذكره ، لأنه أورثهم شعلة خالدة .

أخلاقه :

شب معتداً بحسبه ونسبه ، فى عصر ساد فيه جنسه ، وتبوأ أبناء جلدته من الجراكسة والأتراك أسمى مناصب الدولة ؛ ثم تزود من فنون الجندية ، ونشىء تنشئة عسكرية فكان

لهذه النشأة وهذا الحسب تأثير عميق فى أخلاق البارودى ، ولكن الزمن قد حور فى هذه الأخلاق ؛ ومن يدرس شعره دراسة فاحص مدقق يستطيع أن يتبين هذا التغيير أو التحوير فى أخلاق البارودى مجاراةً لزمنه وعادات الناس الذين يخالطهم إن طوعاً وإن كرهاً : بيد أن كثيراً من صفات الشباب التى اعتد بها لازمته حتى مماته ، لم تتبدل ولم تتأثر بعوامل الزمن ، ومحن الناس .

كان البارودى فى صباه متوثب العزيمة ، واسع الآمال : عزوفاً عن الملاهى يود أن يعتلى ذروة المجد قفزاً :

لَهِجٌ بالحروب لا يألف الخفـ ض ولا يصحب الفتاة الرَّدَاحا
مِسْعَرٌ للوغى أخو غـدوات تجعل الأرض مأتماً وصُياحا
لا يُرى عابثاً على شيم الدهـ ر ، ولا عابثـاً ولا مزاحا
يفعل الفعلة التى تبهر النـا س ، وترنو لها العيون طماحا

وظلت نغمة المجد تتردد على أَسَلَةِ لسانه أنشودة حلوة ، وكان فى نفسه شىء يود تحقيقه ويرجو نيله ، ويسعى له سعياً حثيثاً ، ولكنه لم يصرح به .

وبى ظمأ لم يبلغ الماء ريه وفى النفس أمر ليس يدركه الجُهْد
أود ، وما وُدُّ أمرىء نافعاً له وإن كان ذا عقل إذا لم يكن جَد
وما بىَ من فقر لدنيا وإنمـا طلاب العلا مجد ، وإن كان لى مجد

وما أن عضته الحوادث عضة دامية ، ونكأه الزمان نَكْأَةً قاسية ، حتى تطامن فى مطلبه وقال :

وكن وسطاً ، لا مشرئباً إلى السُّها ولا قانعاً يبغى التزلف بالصُّغر

وقال :

يود الفتى مالا يكون طاعة … ولم يدر أن الدهر بالناس قلب
ولو علم الإنسان ما فيه نفعُه … لأبصر ما يأتى وما يتجنب
ولـكنها الأقدار تجرى بحكمها … علينا ، وأمر الغيب سر مُحَجَّب
نظن بأنا قادرون ، وإنمـــا … نقاد كما قيد الجنيب ونُصحَب

وإذا كان فى صباه قد عزف عن النساء جداً منه وتزمتاً ، وأبى اللهو والمجانة حتى لا ينصرف عن طلب العلا ، فإن الشباب والجاه والمال قد غير نظرته إلى الحياة ، وبات ذلك الفارس الذى يُدلُّ بشبابه وجاهه على الحسان ، ويجرى وراء اللهو ، ويعُبُّ الخمر عبًّا ، ويتصيد مجالس الأنس والسمر ، ويقول :

ودعنى من ذكر الوقار فإننى … على سَرَف من بغضة الحلماء
فما العيش إلا ساعة سوف تنقضى … وذا الدهر فينا مولع برماء

ويقول :

لو حَذِرَ المرء كلَّ لائمة … لضاع منه الصواب والرُّشد
ولو أصخنا لـكل منتقـــد … فـكل شىء فى الدهر منتقد
واله بمـــا شئت قبل مندمة … يـكثر فيها العناء والـكمد
فليس بعد الشباب مُقْتَرَح … ولا وراء المشيب مفتقـد

ومن أى شىء يخشى ؟ وعلام ينتقده الناس ؟ ينتقدونه على أنه ممتلىء بالحياة ، مستهين بالتقاليد والعادات .

فرحنا نجرُّ الذيل تيهاً لمنزل … به لأخى اللذات واللهو ملعب
مسارح سكير ، ومربض فاتك … ومخدع أكواب به الخمر تُسْكَب

أما الدين فله فى النفس حرمته ولـكن :

إذا ما قضينا واجب الدين حقه … فليس علينا فى الخلاعة من عذر

أجل ! لقد صار فارساً مرحاً ينهل من اللذات ويعل .

فطوراً لفرسان الصباح مطارد … وطوراً لإخوان الصفاء سمير
ويارب حي قد صبحت بغارة … تكاد لها شم الجبال تمور
وليل جمعت اللهو فيه بغادة … لها نظرة تسدى الهوى وتنير
عقلنا به ماند عن كل صبوة … وطرنا مع اللذات حيث تطير

أما أخلاقه الطبيعية فكان كثير الافتخار بها ، يرددها مراراً فى شعره ، فهو مخلص فى صداقته :

واختبرنى تجد صديقاً حميماً … لم تغير وداده الأهواء
صادقاً فى الذى يقول وإن ضا … قت عليه برحبها الدهناء

أما الوداد فهو يرعاه ، ويعد ذلك من كرم الأصل :

ليس يرعى حق الوداد ولا يذ … كر عهداً إلا كريم النصاب

ولا بد أن يتجلى أثر الوداد القلبى فى أعمال الإنسان ، وإلا كان وداداً كاذباً :

وإن وداد القلب ما لم يكن له … دليل على إخلاصه لمريب

وكان عالى الهمة يمثل لك فى شعره الفروسية والنجدة ، والإباء والأنفة فيقول :

إذا لم يكن إلا المعيشة مطلب … فكل زهيد يمسك النفس جابر
من العار أن يرضى الدنية ماجد … ويقبل مكذوب المنى وهو صاغر
إذا كنت تخشى كل شىء من الردى … فكل الذى فى الكون للنفس ضائر

ويقول :

ومن تكن العلياء همة نفسه … فكل الذى يلقاه فيها محبب
إذا أنا لم أعط المكارم حقها … فلا عزنى خال ، ولا ضمنى أب
خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرة … على يداً أغضى لها حين يغضب

أما جوده فطالما تغنى به فى شعره ، وحث الناس على الجود ، ووضع من شأن المال والتباهى به فيقول :

فلا تحسبن المال ينفع ربه ... إذا هو لم تحمد قراه العشائر
فقد يستجم المال والمجد غائب ... وقد لا يكون المال والمجد حاضر
ولو أن أسباب السيادة بالغنى ... لكاثر رب الفضل بالمال تاجر

ويقول :

وجد بما ملكت كفاك من نشب ... فالجود كالبأس يحمى العرض والنسبا
لا يقعد البطل الصنديد عن كرم ... من جاد بالنفس لم يبخل بما كسبا

وكان يتمدح بصراحته وشجاعته ، فهو لا يسكت عن القبيح وإلا عد منافقاً ، وإذا كان الإنسان على ثقة من أمره ونفسه حرة وهو شجاع فعلام يغضى على القذى أولا يصارح الناس بعيوبهم علهم يصلحونها ؟ .

أنا لا أقر على القبيح مهابة ... إن القرار على القبيح نفاق
قلبى على ثقة ونفسى حرة ... تأبى الدنى ، وصارمى ذلاق
فعلام يخشى المرء فرقة روحه ... أو ليس عاقبة الحياة فراق ؟
لا خير فى عيش الجبان يحوطه ... من جانبيه الذل والإملاق
عابوا على حميتى ونكايتى ... والنار ليس يعيبها الإحراق

ولكننا نرى البارودى كثيراً ما ينصح بمداراة الناس ، ودفع القسر باللين ، والاعتصام بالحلم وقد صور جملة من صفاته ومداراته الناس ، ومودته لأصدقائه ووفائه لهم فى قوله :

ملكت يدى عن كل سوء ومنطق ... فعشت برىء النفس من دنس المكر
وأحسنت ظنى بالصديق وربما ... لقيت عدوى بالطلاقة والبشر
فأصبحت مأثور الخلال محبباً ... إلى الناس مرضى السريرة والجهر
إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن ... لدوداً ، ولا تدفع يد اللين بالقسر
ولا تحتقر ذا فاقة فلربما ... لقيت به شهما يمد على الثرى

ولا تعترف بالذل فى طلب الغنى ... فإن الغنى فى الذل شر من الفقر
ودارِ الذى ترجو وتخشى وداده ... وكن من مودات القلوب على حذر

ويقول فى غير هذا الموضع :

مداراة الرجال أخف وطئاً ... على الإنسان من حرب الفساد
يعيش المـــرء محبوباً إذا ما ... نحا فى سيره قصد السداد

ولعل لتجاربه الكثيرة أثرا فى إملائه هذا النصح ، وتحوله من الصراحة إلى المداراة وإذا كانت الحياة قد علمته كيف يدارى الناس ، ويكون منهم على حذر ، فإنها قد علمته كذلك أن المرح والحياة الصاخبة باللذات تورث الأسقام والعلل :

ولقد جريت مع الغَواية والصِّبا ... جرى الكُـمَيْت وللغرام سباق
ولبست هذا الدهر من أطرافه ... ونزعته وقميصُه أخــلاق
فإذا الشباب وديعة وإذا الفتى ... هَدْىٌ لفاغرة المَنون يساق

* * *

هذا هو البارودى كما صور نفسه فى شعره ، وإذا كان صادقا فى تصويره ، ولا نحسبه إلا كذلك ، فالأخلاق التى تغنى بها تبعث فى النفس الإكبار والإعجاب .

ثقافته :

أعد البارودى ليكون جندياً ، ولم يعد ليكون أديبا بيد أنه حين وجد نفسه بعد أن تخرج فى المدرسة الحربية متعطلا أبت عليه نفسه الطموح أن يستمرىء اللهو والدعة ، وعكف على كتب الأولين يقرؤها بشغف ونهم ، ولم يقرأ كتاباً من كتب اللغة ، ولكنه قرأ كتب الأدب ، ويقول الشيخ حسين المرصفى صديقه ومرشده[1] « لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلاً إلى قراءة الشعر وعمله . فكان يستمع إلى بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات

---

(١) الوسيلة الأدبية ص ٤٧٤ .

حسبما تقتضيه المعانى والتعليقات المختلفة ، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ، سمعته مرة يسكن ياء المنقوص والفعل المعتل بها المنصوبين ، فقلت له فى ذلك فقال : هو كذا فى قول فلان وأنشد شعراً لبعض العرب ؛ فقلت تلك ضرورة ، وقال علماء العربية إنها غير شاذة ، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ، ناقداً شريفها من خسيسها واقفاً على صوابها وخطئها » .

والحق أن أثر القراءة والحفظ ظاهر فى شعر البارودى . ومن يطلع على (مختارات البارودى) يشهد بحسن ذوقه ، ودقة اختياره ، وتأنقه فى غذاء عقله ، كما يشهد بكثرة محفوظه ، ولا نعجب بعد هذا حين نرى البارودى متملكا ناصية اللغة يتصرف فيها تصرف الخبير العليم بأسرارها ، المطبوع على التكلم بها ؛ وأغلب الظن أن مختاراته لم تحو كل ما حفظ من جيد الشعر العربى ، لأننا نلمح أثراً للشعر الجاهلى فى شعره : من كلمات ، وعبارات ومعارضات وتشبيهات . مع أن مختاراته لم تحو إلا شعراً عباسياً .

كانت عند البارودى الملكة الكامنة ، والملكة وحدها لا تكفى ، بل لابد لها من عدة تصقلها وتنميها ، وتمدها للبروز ناضجة قادرة خالقة . ودراسة البارودى الأدبية قد غذت هذه الملكة غذاء كاملا ، لا من دواوين الشعراء وحدهم ، بل من كتب الأدب وطرائف القصص ، وأخبار العرب وقبائلهم وشجاعتهم وعدائهم وأمثالهم وحكمهم ، وغير ذلك مما لا يستغنى عنه أديب : والأدلة على هذه المعرفة متوفرة فى ديوانه[1] .

---

(١) من مثل قوله :

لك عرض أرق نسجاً من الريح وأوهى من طيلسان (ابن حرب)

وكان ابن حرب أهدى إلى الحمدونى طيلساناً خلقاً ، وكان الحمدونى يحفظ قول أبى حران السلمى فى طيلسانه .

يا طيلسان أبى حران قد برمت ... بك الحياة فما تلتذ بالعمر
فى كل يوم له رفا يجدده ... هيهات ينفع تجديد مع الكبر
إذا ارتداه لعيد أو لجمعته ... تشكب الناس لا يبلى من النظر

فاحتذى الحمدونى حذو أبى حران ، وقال فى وصف طيلسانه ما يقرب من مائتى مقطوعة من مثل قوله :

يا ابن حرب كسوتنى طيلسانا ... مل من صحبة الزمان وصدا
طال ترداده إلى الرفو حتى ... لو بعثناه وحده لتهدى —

كانت إذاً قراءة كتب الأدب والتاريخ وحفظ الشعر المنتقى الجيد هي عماد ثقافته الأدبية . على أن البارودى قد اطلع على آداب أخرى غير الآداب العربية ، فقد مر بنا أنه حينما ذهب إلى الآستانة وهو فى شبابه ، والتحق بوزارة الخارجية عكف على دراسة التركية والفارسية ، ونظم الشعر بهما كما كان ينظمه بالعربية . أضف إلى هذا ما روى من أنه تعلم الإنجليزية وهو فى منفاه ، وترجم بعض آثارها ؛ ولهذه اللغات المتعددة لها أثرها ، ولا ريب ، فى معانيه وأخيلته ، وتصويره للحوادث .

هذا ، وقد حفل زمان البارودى بأحداث عظام ، فمن نهضة شاملة ، وخلق لأمة متمدينة ، إلى ثورات وفتن وحروب ومعارك ، ونفى وتشريد ، وقد سافر البارودى إلى الآستانة مراراً ، وشهد حرب (كريت) وحرب (روسيا) ورأى عالماً لم يعرفه من قبل ، ومناظر جديدة ، فتأثر بكل ذلك وانفعلت نفسه له ، وهاجت هذه الأحداث شاعريته فانطلق لسانه يردد خواطره وأحاسيسه فكانت هذا الشعر الخالد .

وإذا أضيف إلى هذه الموهبة العظيمة ، والدراسة الواسعة ، والتجارب الحافلة وراثة فى قول الشعر سجلها البارودى بقوله .

أنا فى الشعر عريق لم أرثه عن كلاله
كان إبراهيم خالى فيه مشهور المقاله

زالت دهشتنا حين نرى البارودى قد كملت عدته ، وهيأته الأيام ليبعث الشعر من رقدته ، وينهض به هذه النهضة السامية .

• •

شعره :

يقول البارودى فى مقدمة ديوانه : « الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها فى سماوة

= ومما يدل كذلك على سعة اطلاع البارودى قوله :

إن عوق البيه أسرع عدواً من « سليك » والوصل لى بطء « فند »

وأمر سليك بن سلكة معروف ، أما فند (بكسر الفاء) فهو مولى عائشة بنت سعد بن أبى وقاص ، وكانت قد أرسلته ليأتيها بنار ، فوجد قوماً يخرجون إلى مصر فتبعهم ، وأقام بها سنة ، ثم قدم فأخذ ناراً وجاء يعدو ، فعثر وتبدد الجمر فقال : « تعست العجلة » . فقيل : (أبطأ من فند) .

الفكر ، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بلألائها نوراً يتصل خيطه بأسلة اللسان ، فينفث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ، ويهتدى بدليلها السالك . وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلقت معانيه ، وكان قريب المأخذ ، بعيد المرمى ، سليما من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف . غنياً عن مراجعة الفكرة ، فهذه صفة الشعر الجيد ، فمن آتاه الله منه حظاً ، وكان كريم الشمائل ، طاهر النفس ، فقد ملك أعنة القلوب ، ونال مودة النفوس ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق لكان قد بلغ الغاية التى ليس وراءها لذى رغبة مسرح ، وارتبأ الصهوة التى ليس دونها لذى همة مطمح » .

وتعريف البارودى للشعر غامض ؛ لأنه انه فى ثوب كثيف مزخرف بالمجازات والاستعارات ، ولم يحدده تحديد علمياً ، وهو يعنى : أنه خطرة ذهنية ينفعل لها الفؤاد ، فيتحرك اللسان معبراً عن خلجاته . والخطرة الذهنية تأتى مثلا من نظرة إلى شىء جميل ، أو شىء يبعث الرثاء والأسى ، وقد تكون خطرة ذهنية مجردة عن الأثر الخارجى ، وهذا التعريف يتمشى مع مذهب العرب فى الشعر ، وهو أنه (لمة خيالية) تومض إيماضاً ، فتأتى هذه الخطرات الخيالية غير متصلة أو مرتبط بعضها ببعض فى حلقة متماسكة ، أو قصة محبوكة الأطراف أو خيال ممتد طويل فى ملحمة من الملاحم أو مسرحية من المسرحيات تتتابع حوادثها ، وإنما هو ومضات تتألق فى أبيات وقصيدة لا تربطها وحدة فكرية .

والشعر الجيد فى رأى البارودى « ما كان قريب المأخذ سليما من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفكرة » ، وهذه صفة الشعر الغنائى ، وهى سمة الشعر العربى غالباً ، ليس فيه عمق المعنى والتوغل فى الخيالات ، أو تعقيد الفكرة ، وحشد القضايا المنطقية ، والفكر المجرد عن الشعور والإحساس ، كما ترى ذلك عند أبى تمام والمتنبى أحياناً وعند أبى العلاء كثيراً ، وكما نراه مذهباً من مذاهب بعض شعراء العصر الحاضر ، والشعر ليس فلسفة ولا منطقاً ، وقد لا يحتوى البيت كبير معنى ، وإنما تطرب له النفوس وتهتز عجباً ، وذلك لأن الشعر غذاء القلوب ، وليس مهارة العقول . وهذا ما جعل

النقاد قديماً ينعتون البحترى بأنه الشاعر ، وأن المتنبى وأبا تمام حكيمان : لأن البحترى لم يكن يتكلف فى شعره الغوص على المعانى وابتكارها ولا يستعمل المنطق والفلسفة ، بل كان يحذو حذو شعراء الجاهلية والصدر الأول فى قرب معانيه وانسجام ألفاظه بعضها مع بعض وهو القائل رداً على من عاب عليه بعده عن ثقافة عصره ، وعدم أخذه بشىء من الحكمة والمنطق وهو يمثل نظرة العرب إلى الشعر :

كلفتمونا حدود منطقكم ‏ ‏ والشعر يغنى عن صدقه كذبه
لم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ ‏ ‏ ـطق ما نوعه وما سببه[1]
والشعر لمح تكفى إشارته ‏ ‏ وليس بالهذر طولت خطبه

ويرى البارودى أن وظيفة الشعر : « تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق » . وقد ردد هذه المعانى فى شعره . بيد أن الشعر قد لا يؤدى وظيفة ما إلا التعبير عن شعور الشاعر ؛ وهذه مسألة تحتاج إلى بحث مستفيض نقرر فيه نظرة العرب إلى وظيفة الشعر بخاصة والأدب بعامة ، ونظرة الغربيين إلى الشعر ومذاهبهم فيه ، وهل للأدب وظيفة . أو هو التعبير لمجرد التعبير ، أو الفن للفن كما يقولون[2] ؟ . ومهما يكن من أمر فإن البارودى لم يفطن إلى كل أغراض الشعر وما يمكن أن يستخدم فيه ، وما قرره فى مقدمته من تعريف للشعر ووظيفته يعبر عن مذهبه .

والبارودى مطبوع على قول الشعر ، لا ينتزعه انتزاعاً ويتعسف فى نظمه بل يتدفق على لسانه تدفقاً ، وتشعر وأنت تقرؤه أنه يجرى فى رفق وهوادة ولين غير قلق أو مضطرب أو متكلف وقد كان البارودى يدرك هذه الميزة فى شعره ويقول :

أقول بطبع لست أحتاج بعده ‏ ‏ إلى المنهل المطروق والمنهج الوعر
إذا جاش طبعى فاض بالدر منطقى ‏ ‏ ولا عجب فالدر ينشأ فى البحر

وعلى الرغم من سليقته المواتية ، وحافظته الواعية التى تمده بمخزون الآداب ألفاظاً منمقة

(١) ذو القروح : امرؤ القيس ، ولقب بذلك كما يقولون لأنه أصيب بمرض جلدى فى طريق عودته من لدن ملك الروم حينما ذهب إليه يستنجد به على قتلة أبيه .

(٢) انظر دراستنا المذاهب الأدبية الغربية فى كتابنا (المسرحية) .

ومعانى سامية ، فإن البارودى كان من المؤمنين بأن الفن تهذيب وصقل ، وجهد متصل وتحسين مستمر ، وأن الطبع وحده لا يكفى ؛ ولذلك كان يتعهده بالتهذيب والرعاية ، فقد روى أنه رتب ديوانه بعد عودته من المنفى ، وأعاد النظر فيما قاله من قصائد ، وحذف الأبيات التى لم ترقه ، حتى لا يخلف للأجيال المقبلة إلا الشعر المصقول لفظاً ومعنى :

لم تبن قافيةٌ فيه على خلل ... كلا ! ولم تختلف فى وصفها الجمل
فلا سِنادٌ ولا حشو ولا قلق ... ولا سقوط ولا سهو ولا علل
لاتنكر الكاعبُ الحسناء منطقه ... ولا يعاد على قوم فيبتذل

ولا أدل على هذا التنقيح من اختلاف القصائد كما نشرت فى الديوان عن نصها المنشور أول الأمر فى الوسيلة الأدبية للمرصفى ، خذ مثلا قوله فى الوسيلة الأدبية :

أقاموا زماناً ثم بدد شملهم ... أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر

فقد صار فى الديوان :

أقاموا زماناً ثم بدد شملهم ... ملولٌ من الأيام شيمته الغدر

ومطلع قصيدته التى يعارض فيها رائية أبى نواس ، فقد كانت فى الوسيلة على الصورة الآتية :

تلاهيت إلا ما يُجنُّ ضمير ... وداريت إلا ما يَنم زفير
وهل يستطيع المرء كتمان أمره ... وفى الصدر منه بارح وسعير

ثم صار فى الديوان :

أبى الشوق إلا ما يَحِنُّ ضمير ... وكل مشوق بالحنين جدير
وهل يستطيع المرء كتمان لوعة ... ينم عليها مدمعٌ وزفير

كما كان يهتف بشعره قبل أن يخرجه للناس ، ويصغى إليه ليتبين ما فيه من عيوب فى الموسيقى وعدم انسجام الألفاظ بعضها مع بعض ، والخلل المعنوى ، والقافية القلقة المضطربة ، والحشو ، وغير ذلك من عيوب الشعر ، ويقول :

واهتف به من قبل تسريحــــه فالسهم منسوب إلى الرامى [1]

فجاء والحق يقال شعراً يأخذ بمجامع القلوب من حيث موسيقاه ، وتماسك أبياته وقوافيه وانسجام ألفاظه ، وانتقاؤها انتقاء خبير ملهم :

فألـق إليــه السمع ينبئـك أنه هو الشعر لا مايدعى الملأ الغُمر [2]

يزيد على الإنشاد حسناً كأننى نفثت به سحراً ، وليس به سحر

كان البارودى يتخير الألفاظ المناسبة للمعانى التى يريدها ، فيرق ويلطف حين يقضى المقام الرقة واللطف كأن يتغزل أو يعتب ، أو يصف منظراً جميلا أو مجلس أنس وسمر ، ويجزل شعره ويجلجل لفظه ، ويشتد أسره حين ينشد فى الحماسة ، والفخر والمديح ، وحين يصف البحر المائج ، والريح الزفوف والحرب الضروس .

إذا اشتد أورى زَندة الحرب لفظَــه وإن رَقّ أزرى بالعقود فريدُه

إذا ماتـــلاه منشد فى مقامــة كفى القومَ ترجيعَ الغناء نشيده

فجاء شعره مما يلذ للانسان حقاً أن ينشده بصوت مرتفع ، يترنم به ليطرب ويتأمل فى نغمه وموسيقاه فيلتذ ويعجب ، فلا بدع أن قال :

ولى كلّ ملساء المتون غريبة إذا أنشدت أفضت لذكر بنى سعد [3]

أخفّ على الأسماع من نغم الحدا وألطف عند النفس من زمن الورد

كان البارودى يعلم أنه سيخلد بشعره لا بحسبه ونسبه ، وإذا كان قد أخفق فى بلوغ

---

(١) يقول الشيخ حسين المرصفى فى هذا : « ونبه بقوله : واهتف به من قبل تسريحه على أنه لا ينبغى أن يكتفى بالنظرة الأولى فالنفس خداع وربما تنبهت بعد أن أغفلت ، واستقبحت ما استحسنت ولذلك يقول الأول :

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تبالغ قبل فى تهذيبها

فإذا عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وساوسا تهذى بها

(٢) الغمر : مثلثة الغين ، ومعناها الذى لم يجرب الأمور .

(٣) بنو سعد : بطن من هوازن ، ومنهم حليمة السعدية مرضعة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان بنو سعد من أفصح العرب ولذلك أرسل رسول الله إليهم كى ينشأ على الفصاحة والسن ، ويريد البارودى أن شعره يذكر الناس بأفصح العرب .

حناه وتحقيق آماله فى هذه الدنيا ، فإنه أدرك الغاية من السعى فى الحياة بالعمل الصالح والمجد المؤثل ، ألا وهى الخلود بعد الموت وترديد اسمه عطراً على كل لسان ، وفى ذلك يقول فى شعره :

سيبقى به ذكرى على الدهر خالداً ... وذكر الفتى بعد الممات خلود

ويقول :

سيذكرنى بالشعر من لم يلاقنى ... وذكر الفتى بعد الممات من العمر

هذا ، وفى شعر البارودى هنات ، وعليه مآخذ قليلة سنذكرها فى موضوعها من هذا الفصل ، بيد أنها لاتزرى به ولاتغض من شأنه ؟ وحسبه أنه سما بالشعر العربى إلى الذروة وأنه حلق فى السماء التى جاب آفاقها من قبل بشار وأبو نواس والبحترى وأبو تمام والمتنبى وأبو فراس وأضرابهم ، بعد أن وصل الشعر العربى قبيل عهده إلى الحضيض وكاد يلفظ أنفاسه الواهية .

والآن ، علينا أن نتعرف على هذا الشعر الذى مدحه وافتخر به ، وصقله وهذبه ؛ لنرى أمحق هو فى الثناء عليه ، أم هو غرور شاعر زين له خياله الباطل حقاً ، والسيء حسناً ؟ ولنرى القديم والجديد فى شعره ، ومنزلته فى موكب الأدب العربى وهل كان صدى للشعراء الذين عارضهم وجاراهم فى مضمارهم أو أنه استقل وابتكر وخرج على المألوف ، وتكونت له شخصية يذكرها التاريخ غير معتمدة على سواها ؟ وهل هى شخصية قيئة هزيلة ؟ أو شخصية قوية فارعة ذات مزايا واضحة ؟

١ — القديم فى شعره :

١ — لم يجدد البارودى فى أغراض الشعر التى عرفها شعراء العصر العباسى فهو يمدح ويصف ، ويهجو ، ويرثى ، ويعتب ، ويفتخر . . . الخ ماهناك من أغراض معروفة مألوفة ، وياليته وقف عند هذا ، فقد تكون الأغراض قديمة والمعانى جديدة . ولكنه حاكى القدماء أحياناً فى أسلوبهم كما حاكاهم فى أغراضهم وقد بلغ به التقليد حداً نسى معه أنه

فى مصر وأنه بعيد عن نجد ورباها ووديانها وآرامها وخمائلها ، فقال :

ياسعدُ قل لى فأنت أدرى   متى رِعان العقيق تبدو(١)
أشتاق نجداً وساكنيه   وأين منى الغداةَ نجد

وقال :

أين ليالينا بوادى الغضا   ذاك عهد ليته ما انقضى(٢)
كنت به من عيشتى راضياً   حتى إذا وَلَّى عدمت الرضا
أيام لهو وصباً كلما   ذكرتها ضاق علىّ الفضا

٢ — وقد وقف على الأطلال والدمن ، وأتى بشعر جاهلى الروح والمعنى ، والوجه والزى ، ولايمت إلى عصره وعصر الحضارة بصلة . وهو لم يقله لأنه مقتنع بأن ذلك هو الأسلوب الواجب اتباعه ، والنهج الذى عليه أن يسلكه ، ولكنه يريد أن يمتحن شاعريته ، وهل فى استطاعته أن يحاكى القدماء حتى فى وقوفهم على الأطلال والدمن ؟ وليس أمامه أطلال ودمن تهيج شاعريته ، وتثير عَبرَته فاذا استطاع أن يقول مثلما قالوا فهو شاعر فحل ، ولا شك أن هذا النوع من الشعر خال من العاطفة وفيه كثير من الصنعة والتكلف . استمع إليه يقول :

ألا حى من أسماء رسم المنازل   وإن هى لم ترجع بياناً لسائل
خَلاء تعفتّها الرواسس والتقت   عليها أهاضيب الغيوم الحوافل
فلأياً عرفت الدار بعد ترسم   أرانى بها ما كان بالأمس شاغلى
غدت وهى مرعىً للظباء وطالما   غَنَتْ وهى مأوى للحسان العقائل

إلى أن يقول :

فياليت أن العهد باق وأننا   دوارجَ فى ظل من العيش خامل

---

(١) العقيق : الوادى . وكل مسيل شقه ماء السيل ، ومواضع بالمدينة والطائف واليمامة ونجد والمقصود هنا عقيق نجد . ورعان : جمع رعن « بفتح فسكون » وهو أنف يتقدم الجبل .
(٢) الغضا : شجر ، وخشبه من أصلب الخشب جمع غضاة . ووادى الغضا . مكان بنجد .

تمر بنا رُعيان كل قبيلة فما يمنحونا غير نظرة غافل
صغيرين لم يذهب بنا الظن مذهباً بعيداً ولم يسمع لنا بطوائل(١)
نسير إذا ما القوم ساروا غُدَيَّةً إلى كل بَهْم راتعات وجامل(٢)

فأى أطلال ، وأى رسوم رآها البارودى فوقف عندها ؟ وأين رأى الظباء وهو يعيش فى أحضان القاهرة المتمدينة ؟ وأين مرت بهما رعيان القبائل ؟

وما هذه البَهم والجمال السائمة ؟ اللهم إنه التقليد ورياضة القول وإظهار المقدرة على النظم فى مثل هذه الأغراض ، وعلى هذا النمط كما فعل القدماء .

٣ — وتراه فى النسيب ووصف المرأة يعمد إلى التشبيهات القديمة المحفوظة ، فهى تحكى الظبى فى كناسه ، والبدر فى تمامه ، وهى مهاة ، وألحاظها سيوف باترات ، وقدها غصن يتثنى . . إلخ هذه القوالب الموروثة .

إذا نظرت أو أقبلت ، أو تمهلت فويل مهاة الرمل ، والغصن والبدر

ويقول :

أيها الساهرون حول وسادى لست منكم أو تذكروا لى هندا
لا تخوضوا فى غيره من حديث فهو حسبى ، وأى ماء كصدًا(٣)

ويتغزل :

غصن بان قد أطلع الحسنُ فيه بيد السحر جلنارا وَوردا
ما هلال السماء ؟ ما الظبى ؟ ما الور دجنياً ؟ ما الغصن إذ يتهدى ؟
هو أبهى وجهاً وأقتل ألحا ظاً وأندى خداً ، وألين قدا

ويصف المرأة بقوله :

كالورد خداً ، والبنفسج طرة والغصن قدًّا ، والغزالة ملفتا

---

(١) الطوائل : جمع طائلة وهى الوتر والذحل والمعنى : لم نقترف إثماً .
(٢) البهم : جمع بهمة وهى صغار المعز والضأن : والجامل : الإبل .
(٣) صدا بالقصر ضرورة من صداء : اسم عين يستعذ بها العرب وفى أمثالهم . (ماء ولا كصداء).

ويصفها وصفاً مادياً كما كان يفعل القدماء ، كأنها تباع وتشترى :

خفت معاطفها ، لكن روادفها   بمثل ما حملتنى فى الهوى رجحت
ويلاه من لحظها الفتاك إن نظرت   وآه من قدها العسال إن سنحت
كالبدر إن سفرت والظبى إن نظرت   والغصن إن خطرت والزهر إن نفحت

ويقول :

والوعة القلب من غزلان أخبية   تكاد تكسر من أحداقها الراح
من كل مائسة كالغصن قد جمعت   بدائعاً كلها للحسن أوضاح
فالعين نرجسة ، والشعر سوسنة   والنهد رمانة ، والخد تفاح

٤ — نرى البارودى الذى حاكى فحول الشعراء حتى الجاهليين منهم ، يقلد شعراء الصنعة ، وعصر الضعف ، فيؤرخ أحياناً فى شعره كما أرخوا — وإن كان قليلا مافعل حتى لايكاد يذكر — فمن ذلك قوله يؤرخ عودة (اسماعيل باشا) خديو مصر من دار الخلافة العلية سنة ١٢٨٩ هـ .

رجع الخديو لمصره   وأنت طلائع نصره
وتهللت بقدومه   فرحا أسرة عصره
فلتبتهج أوطانه   بحلوله فى قصره
وليشتهر تاريخه   رجع الخديو لمصره

وقال فى تهنئة الخديو عباس الثانى بعيد الفطر :

أمولاى دم للملك ربا تسوسه   بحكمة مطبوع على الحلم والباس
ولا زالت الأعياد تجرى سعودها   عليك وتحظى من علاك بإيناس
فلولاك ما فازت يد القطر بالمنى   ولا نشأت روح العدالة فى الناس
وهذا لسان الشكر يدعو مؤرخاً   حوى العيد أنواع الفخار بعباس
١٣١٤ هـ   ٢٤ ١١٥ ١٢٨ ٩١٢ ١٣٥

٥ — واستعمل البارودى المحسنات البديعية أحياناً ، ولا سيما الطباق فى مثل قوله

يموت قلبى ويحيا حيرة وهـدى ... فى عالم الوجد إن صدت وإن جنحت

وقوله :

وبنفسى حـلو الشمائل مرّ الـ ... ـهجر يحيى وصلا ، ويقتل صدا
ما على قومه وإن كنتُ حراً ... أن دعتنى له المحبة عبـدا

٦ — أما معانيه فكثير منها قديم والقليل فيه جدة . وهو مقلد فى المعانى كما هو مقلد فى الشكل ، ولا أستطيع أن أحصى المعانى القديمة لكثرتها ولكن أدل على نوعها ببعض الأمثلة كقوله فى الغزل :

طربت وعادتنى المخيلة والسكر ... وأصبحت لا يلوى بشيمتى الزجر(١)
كأنى مخمور سرت بلسانه ... معتقة مما يضن بها التّجْر
صريع هوى يلوى بى الشوق كلما ... تلألأ برق أو سرت ديمٌ غُرّ
إذا مال ميزان النهار رأيتنى ... على حسرات لا يقاومها صبر
يقول أناسٌ إنه السحر ضَلةً ... وما هى إلا نظرة دونها السحر

ويقول مفتخراً فى هذه القصيدة بقومه :

لهم عُمُدٌ مرفوعـه ومعاقـل ... وألوية حمرٌ وأفنية خضر
ونار لها فى كل شرق ومغرب ... لمـدرع الظلماء ألسنة حمر

ويقول فى القصيدة من الحكمة :

لعمرك ما حى وإن طال سيره ... يُعد طليقاً والمنون له أسر
وما هذه الأيام إلا منازل ... يحل بها سَفْرٌ ويتركها سفر

فهذه أغراض ثلاثة فى قصيدة واحدة لم يأت فيها بجديد من المعنى ؛ ففى الغزل يقول : إنه استخفه الطرب والشوق على حد قول أبى نواس .

حامل الهوى تعب ... يستخفـه الطرب
إن بكى يحق له ... ليس ما به لعب

(١) المخيلة : الظن والمراد ذكريات الماضى ، ويلوى به : يذهب به .

وحاكى الأقدمين فى ذكره البرق والسحب ، فهذه الأشياء كانت مقبولة فى الشعر القديم لأنها تصف البيئة العربية ، والغيث والبرق كان فيهما حياة العرب القاطنين بالجزيرة ، فإذا لمع البرق أو هطلت السحب هلل الناس وفرحوا ، وإذا ذكر المحب محبوبته فى ذلك الوقت فكأنه يريد أن يشاركها سرورها ، أو تشاركه سروره ، والسرور من الأشياء التى لا تتم إلا إذا اقتسمها الإنسان مع سواه . أما فى بيئة البارودى فليس لهذه الأشياء من التأثير والاهتمام ما يدعو لذكرها ، بل قد يسبب المطر من المضايقات لأهل القاهرة الذين يعتمدون على النيل ، ولأهل الريف فى ضرر زرعهم ما يذكرونه بشر ، ولكنه التقليد القديم ؛ وقوله : (على حسرات) : يعنى به أنه حين تغيب الشمس تكثر همومه ، وكأنه يتقلب على حسرات ؛ لأن الليل مصدر للذكريات لفراغ الإنسان من الشواغل والأعمال ، وقديماً قال النابغة :

وصدر أراح الليل عازب همه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ويقول النابغة كذلك :

فبت كأن العائدات فرشن لى ... هَراساً به يُعلَى فراشى ويُقشَب

وتشبيه نظرات المحبوبة بالسحر تشبيه قديم معروف .

وفى الفخر ترى البارودى يذكر العمد المرفوعة وهو فى القاهرة ، ويذكر النار على عادات البدو ، ولا سيما فى الجاهلية إذ كانوا يشبونها على يفاع من الأرض كى يهتدى بها السارى ، ويلجأ إليها الجائع ويطلب القِرى ، ورحم الله حاتماً حين قال لغلامه :

أوقد فإن الليل ليل قُرُّ ... والريح يا واقد ريح صِر(١)

عَلَّ يرى نارك من يمرُّ ... إن جلبت ضيفاً فأنت حر

وقوله فى الحكمة إن الإنسان لا يعد طليقاً فى حياته وهو أسر المنون : مأخوذ من قول طرفة بن العبد :

---

(١) قر : بارد ، وصر : شديد البرودة .

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لـكا لطِّوَل المُرْخى وثنياه باليد(١)

وبيت طرفة أحسن وأمتن حيث شبه الإنسان بدابّة ، وحبلها بيد الموت يرخى لها فيه وإذا شاء جذبها إليه فانقضى العمر . وأما أن الأيام منازل ، وأننا فيها على سفَر فمعنى قديم مطروق ، وقد تكرر فى الأحاديث النبوية ، وفى أقوال الزهاد والوعاظ .

وهكذا إذا أخذت أى قطعة للبارودى تجده يردد فيها كثيراً من المعانى القديمة المعروفة المشهورة . ولا يعنى هذا أن البارودى لم يجدد فى شعره وفى معانيه ، بل له تجديد ملحوظ فى شعره سنذكره فيما بعد .

وإذا كان البارودى قد طرق أبواب الشعر العربى الموروثة ، ولم يجدد فى أغراضه ، فإنه كان واضح الشخصية فى كثير من هذه الموضوعات المطروقة فتراه يمثل نفسه ، وزمنه ، وبيئته فى قصائد شتى . فالبارودى ذاق حلو الزمان ومره ، وارتفع فى مناصب الدولة حتى رئاسة الوزارة ثم شرد ونفى ، وقضى زمناً طويلا يتحرق فيه شوقاً إلى وطنه وأهله ، ويتحسر على أيامه الخاليات ، ويندب فيه حظه ، وينعى على الأصدقاء الكاذبين خياناتهم وغدرهم ، ويذم الحياة ويكيل لها السّباب ، وهو فى كل ذلك صادق الشعور يصف ما به على طبيعته فبرزت شخصيته واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

وإذا كان البارودى قد قلد القدماء وحاكاهم فى أغراضهم وطريقة عرضهم للموضوعات وفى أسلوبهم ، وفى معانيهم ، فإن له مع ذلك تجديداً ملموساً فى شعره من حيث التعبير عن شعوره وعن مشاهداته ؛ وله معان جديدة ، وصور لم يسبق إليها ، وإذا أردنا أن ننصفه فعلينا دراسة الجديد فى شعره حتى يكون حكمنا عليه عادلا ، ونستطيع أن نضعه فى منزلته الجديرة به فى موكب التاريخ والأدب والنهضة .

---

(١) الطول : الحبل .

(ب) الجديد فى شعره :

١ — الوصف :

ولا تعجب إذا عددنا الوصف جديداً عند البارودى ، وإن كان قديماً منذ أن كان الشعر العربى وما من شاعر إلا له فى الوصف أبيات وقصائد . ولكن الجديد فى وصف البارودى أنه أفرد له قصائد بعينها ، ولم يأت به عرضاً فى ثنايا القصائد . كان يصف لمجرد الوصف ؛ ولأن شاعريته ، وحواسه المرهفة ، وتذوقه الحاد للجمال كانت تدفعه إلى قول الشعر ، وإلى وصف مشاهداته لا كما هى فى الطبيعة ، ولكن يخرجها ملونة بشخصيته وشعوره وأفكاره .

كان البارودى مفتوناً بالطبيعة ، يرى شعرها لا ينضب منه معين الإلهام ، ويرى فى كل سطر من هذا الشعر آية من آيات الجمال عليه أن يترنم بها ، ويظهر محاسنها للأجيال من بعده ، ويترجمها للناس حتى يعجبوا بها كما أعجب . وديوان البارودى غاص بالموصوفات وبقصائد الوصف ، وما دام الشاعر قد انصرف عن المديح وعن أن يكون شعره مظهراً للنفاق والخداع والاستجداء ، والوقوف بأبواب الملوك والأمراء ، فقد أصبح شعره طوع يده يسجل به مشاعره الخاصة . وشعراء العربية الوصافون — أى الذين أكثروا من الوصف — قليلون ، لأن المديح وللأسف قد ألهاهم عن قراءة محاسن الكون ، ويعد البارودى من أكثر شعراء العربية وصفاً ، بل يعد فى الطليعة وشعره الوصفى يفخر به الشعر العربى ويستطيع أن يباهى به خير ما عند الغرب من شعر وصفى ، وموصوفات البارودى كما ذكرنا عديدة ومنوعة ، فمنها :

١ — مظاهر الطبيعة فيصف الليلة العاصفة المطيرة ويجعلك تحس معه هزيم الرعد ، وعزف الريح ، وتواصل المطر وشدته ، وترى سوادها ووحشتها ، ويصف الليلة الحالية بالنجوم فتلمس جمالها ، ويصف السحاب الممطر والبرق والرعد وأثرها فى الإنسان والأرض

ويصف البحر الهائج الغاضب ، والريح الزفوف تعلو بالموج فتحيله جبالا سامقة الذرى وتنخفض به إلى وهاد عميقة الأغوار ، ويصف الجبل والغابة وغير ذلك .

وهو فى وصف الطبيعة مصور ماهر ، بل هو دقيق بارع فى كل ما يتناول من وصف وهو فى وصف الطبيعة قد يغرب فى لفظه ، ويأتى بتشبيهات جديدة منتزعة من بيئته أحيانا وأحيانا يردد معانى القدماء وأخيلتهم ، استمع إليه يصف ليلة مطيرة حتى مطلع الفجر .

وليـلةٍ ذات تَهْتَانٍ وأندية   كأنما البرق فيها صارمٌ سَلِط(١)

لَفَّ الغمام أقاصيهـــا بِبُرْدته   وانهل فى حِجْرتيها وابل سَبِط(٢)

بَهْمَاءُ لا يهتدى السارى بكوكبها   من الغمام ولا يبدو بها نَمَط(٣)

يكاد يجهل فيها القوم أمرهم   لولا صهيل جياد الخيل واللَّغَط

يَطْغَى بها البرق أحيانا فيزجُرُه   مخرنطم زَجِلٌ من رعدها خَمِط(٤)

كأنما البرق سَوْط والحيا نُجبٌ   يلوح فى جسمها من مَسِّه حَبَط(٥)

كأنه صارمٌ يرفضُّ من عَلَقٍ   بالأفق يُغْمَدُ أحياناً ويُخْتَرط(٦)

مزقت جلبابها بالخيل طالعة   مثل الحمائم فى أجيادها العُلُط(٧)

وقد تخلل خيط النور ظلمتها   كما تخلل شعرَ اللِّمة الوخَط

كأنها وصديع الفجر يصدعها   من جانب أدهم قد مسه نبط(٨)

ومَرْبَع لنسيم الفجر هَيْنَمَةٌ   فيه وللطير فى أرجائه لَغَطَ

---

(١) أندية : ج ندى وهو البلل ، وسلط : لا نتوء فى نصله .

(٢) حجرتاها . ناحيتاها ، وسبط : شديد متدارك .

(٣) النمط : الطريق .   (٤) مخرنطم : وهو اسم فاعل من اخرنطم الرجل أى رفع أنفه واستكبر وغضب ، وزجل : عالى الصوت ، ومن رعدها : بيان لزجل . وخمط . غضوب ثائر .

(٥) الحيا : المطر ، والنجب : كرائم الخيل والإبل وعتاقها وجيادها للفرد نجيب ، ومن مسه : أى بسبب مسه وأذاه ، والضمير يعود على السوط . والحبط : آثار السياط بالبدن أو الآثار الوارمة التى لم تشقق .

(٦) كأنه : أى البرق ، يرفض : يسيل ويقطر ، والعلق : الدم ، يخترط : يسل ويجرد من غمده .

(٧) العلط ، ككتب جمع علاط ككتاب وهو من الحمامة طوقها فى صفحتى عنقها بسواد .

(٨) النبط : بياض فى بطن الفرس ، وصديع الفجر : أى طلوعه لأنه يصدع الليلة أى يشقها .

كأنما القطر در فى جوانبه ... يكاد من صدف الأزهار يلتقط
وللنسيم خلال النبت غلغلة ... كما تغلغل وسط اللمة المشط
والريح تمحو سطوراً ثم تثبتها ... فى النهر لاصحة فيها ولا غلط
وللسماء خيوط غير واهية ... تكاد تجمع بالأيدى فتر تبط
كأنها وأكف الريح تضربها ... سلوك عقد تواهت فهى تنخرط

وفى هذه القطعة أبيات يسمو فيها البارودى بإحساسه وبراعة تصويره ، وإدراكه للأمور الدقيقة ، كوصفه النسيم وهو يتخلل النبت ، أو وصفه خيوط المطر وهى نازلة

وقال يصف النجوم :

أرعى الكواكب فى السماء كأن لى ... عند النجوم رهينة لم تدفع
زهر تألق بالفضاء ، كأنها ... حبب تردد فى غدير مترع
وكأنها حول المجرة حائم ... بيض عكفن على جوانب مشرع
وترى الثريا فى السماء كأنها ... حلقات قرط بالجمان مرصع
بيضاء ناصعة كبيض نعامة ... فى جوف أدحى بأرض بلقع
وكأنها أكر توقد نورها ... بالكهرباءة فى سماوة مصنع (١)
والليل مرهوب الحمية قائم ... فى مسحه كالراهب المتلفع (٢)
متوشح بالنيرات كباسل ... من نسل حام ، بالأجين مدرع
حسب النجوم تخلفت عن أمره ... فوحى لهن من الهلال بإصبع (٣)

٣ — ويصف مناظر الريف ويصورها تصويراً بديعاً ، فيصف القطن والسفن فى النيل والساقية والمزروعات والطيور وهى تحوم على صفحة النهر وحركات الطيور ،

---

(١) المصنع : القصر العظيم .
(٢) مسحه : مسوحه أى لباسه الأسود كسوح الراهب .
(٣) وحى : أشار .

والنحلة وهى تنتقل من زهرة لزهرة . كل هذا فى حساسية غريبة ، وشغف بالطبيعة وحب لها كأنه يعيش معها .

فمن قوله يصف القطن :

والقطن بين ملوَّز ومنوَّر ... كالغادة ازدانت بأنواع الحِلى
فكأن عاقدَه كراتُ زمرد ... وكأن زاهره كواكب فى الرُّوا (١)
دبت به روح الحياة فلو وَهَتْ ... عنه القيودُ من الجداول قد مشى
فأصوله الدكناء تسبح فى الثرى ... وفروعه الخضراء تلعب فى الهوا
لم يَسرِ فيه العقلُ مَذْهبَ فكرة ... محدودة إلا تراجع بالمنى

واسمعه يصف الريف المصرى إبان الربيع فى أرجوزة .

عم الحيا واستَنَّتِ الجداولُ ... وفاضت الغدرانُ والمناهلُ
وازَّينت بنورها الخمائلُ ... وغردت فى أيكها البلابل
وشمل البقاعَ خير شامل ... فصفحةُ الأرض نبات خائل (٢)
وجبهة الجوِّ غمام حافل ... وبين هذين نسيم جائل
تندَى به الأسحار والأصائل ... كأنما النباتُ بحرٌ هائل
وليس إلا الأكماتِ ساحل ... وشامخ الدَّوح سفينٌ جافل (٣)
معتدل طوراً وطورا مائل ... تهفو به الجنوبُ والشمائل
والباسقات الشُّمخُ الحواملِ ... مشمورةٌ عن ساقها الذَّلاذل (٤)
ملَوية فى جيدها العثاكلُ ... معقودةٌ فى رأسها الفلائل (٥)
للبُسر فيها قانىء وناصل ... مُخضّبٌ كأنه الأناملُ

---

(١) عاقده : ما انعقد من اللوز قبل أن يتفتح ، الروا : مقصور الرواء ، وهو الحسن والبهاء .
(٢) خائل : ذو خيلاء معجب بنفسه . (٣) جافل : مضطرب .
(٤) الباسقات : يريد النخل والذلاذل . الأطراف ويريد أن ساق النخلة عار من الجريد والسعف.
(٥) العثاكل : ج عثكول وهو فى النخل بمنزلة العنقود فى الكرم ، والفلائل ج فليلة : وهى الشعر المجتمع

كأنه من ذَهب قنــادلُ ... من المراجين لها سلاسل
للمنجَنُون بينهــا أزاملُ ... تخالهــا محزونة تسائل[1]
لهــا دموع ذُرَّفٌ هوامل ... كأنها أمُّ بنينَ ثاكل
فى جيدها من ضَفرها حبائلُ ... من القواديس لها جَلاجل
تدور كالشهب لها منازلُ ... فصاعد ودافق ونازل

ففى هذه القصيدة يصور مناظر الريف تصويراً سريعاً دون تعمق أو طويل وقوف على المشاهدات ، ومعانيه قريبة ، وتشبيهاته واضحة غير متكلَّفة ، وخياله دان لا إغراب فيه ولا شرود .

ومما يدل على دقة حسه ، وتدفق شعوره ، وأنه مصور بارع ، أن الأمور التى لا تسترعى خطرة جمهرة الناس يجد فيها ما يثير عاطفته ، ويحرك شاعريته قوله يصف طائراً تحرك فأيقظه من سِنته ، ويتبع حركاته بدقة ، فأعطى صورة واضحة عنه .

ونبأةٍ أطلقت عينىَّ من سِنَةٍ ... كانت حُبالة طيف زارنى سحرا
فقمت أسألُ عَينى رجعَ ما سمعت ... أذنى ، فقالت : لعلى أبلغُ الخبرا
ثم اشرأبَّتْ فألفت طائراً حَذِرا ... على قضيب يديرُ السمع والبصرا
مستوفزا يتنزّى فوق أيكته ... تنزّىَ القلب طال العهدُ فادكرا[2]
لا تستقر له ساقٌ على قــدم ... فكلما هدأت أنفاسه نفَرا
يهفو به الغصن أحياناً ويرفعه ... دَحوَ الصوالج فى الدَّيْمومة الأكرا[3]
ما باله وهو فى أمن وعافية ... لا يبعث الطَّرف إلا خائفاً حذِرا
إذا علا بات فى خضراء ناعمةٍ ... وإن هوى وَرَد الغُدْران أو نقرا

فأنت تراه يتتبع الطائر فى أقل حركة له ، ويحاول أن يستشف دخيلة قلبه الصغير

---

(١) المنجنون : دولاب السانية التى يسقى بها الزرع ، وأزامل : ج أزمل (كجعفر) وهو الصوت المختلط .

(٢) مستوفزاً : غير مطمئن قد تهيأ للوثوب ، ويتنزى : يثب .

(٣) دحا اللاعب الكرة : دفعها ورماها بيده ، والديمومة : الأرض المستوية .

ليعرف سر فزعه ، وترقبه ، ويتعجب لهذه الحياة القلقة المضطربة مع أن ظاهر الأمر ينبىء أنه فى نعمة وعافية . وهذه لعمرى خطرات شاعر مرهف الإحساس جياش العاطفة .

واستمع إليه يصف غيضة احتلها فى (قندية) أيام حرب كريت :

ومُرْتَبَع لُذْنا به غبَّ سُحْرَةٍ — وللصبح أنفاسٌ تزيد وتنقص (١)
وقد مال للغرب الهلالُ ، كأنه — بمنقاره عن حبّةِ النجم يفحَص (٢)
رقيق حواشي النبت ، أما غصونه — فريّا ، وأما زهرُه ، فمنصَّص (٣)
إذا لاعبت أفنانه الريحُ خِلْتها — سَلاسِل تُلْوَى ، أوغدائرُ تُعْقَصُ (٤)
كأن صِحاف الزهر والطَّلُّ ذائب — عيونٌ يسيلُ الدمع منها وتَشخَص (٥)
يكادُ نسيم الفجر إن مرَّ سُحْرَةً — بساحته الشجراء لا يتخلَّصُ
كأن شعاع الشمس والريح رَهْوَةٌ — إذا رُدَّ فيه سارق يتربَّصُ (٦)
يمُدُّ يداً دون الثمار ، كأنما — يحاول منها غاية ثم ينكُصُ

٣ — وإذا أردت أن تعرف متى يحلق البارودى فى الوصف ، فاقرأ أوصافه فى الأشخاص إنه لا يقل عن أمهر مصور ، بل أين منه المصور ؟ وهو لا يستطيع أن يبرز على (لوحته) دخائل النفوس ، وأسرار القلوب والحركات والإشارات ، وكذلك أوصافه للمعارك وميادين القتال وأدواته ، وإذا كان وصف الحروب من الموضوعات القديمة التى تناولها قبله الشعراء ، فإن تصوير الأشخاص من الموضوعات النادرة التى مهر فيها قِلّةٌ من فحول الشعر العربى كابن الرومى ، اسمعه يصف البلغار فى بلادهم حين ذهب مع الحملة المصرية لحرب الروس .

---

(١) المرتبع : المكان الذى يرتبع فيه القوم ، أى يقيمون زمن الربيع .
(٢) فى هذا البيت إشارة إلى أن الليلة التى يصفها كانت فى آخر الشهر العربى وحبة النجم : أى النجم الشبيه بالحبة .
(٣) رقيق : صفة لمرتبع ، منصص : ظاهر مرتفع بعضه فوق بعض .
(٤) الغدائر جـ غديرة . وهى الذؤابة من الشعر إذا كانت مرسلة ، غير ملوية ولا معقوصة ، وتعقص : تضفر .
(٥) تشخص : تنفتح ولا تطرف . (٦) الرهو : الرقيق ، وردفيه : أى إذا تردد الشعاع فى المرتبع .

بلاد بها ما بالجحيم ، وإنما … مكانُ اللظى ثلج بها وجليد
تجمعت البلغار والروم بينها … وزاحمها التاتار ، فهي حُشود
إذا راطنوا بعضاً سمعت لصوتهم … هَديداً تكاد الأرض منه تميد
قباحُ النواصي والوجوه كأنهم … لغير أبي هذا الأنام جنود
سواسية ، ليسوا بنسل قبيلة … فتعرف آباء لهم وجدود
لهم صورٌ ليست وجوها وإنما … تناط إليها أعين وخدود
يخورون حولي كالعجول ، وبعضهم … يهجن لحن القول حين يجيد

فهو يصف رطانتهم وعجمة ألسنتهم ، وقبح وجوههم ورءوسهم حتى كأنهم ليسوا من البشر ، وأن وجوههم متشابهة لا تستطيع التفريق بينها ، بل لا يزيد أن يعترف بأن لهم وجوهاً وإنما هي صور وضعت فيها أعين وخدود ، ويخورون حوله كالعجول ، وإذا حاوله بعضهم النطق بالعربية أفسدها .

ومن قوله يصف حرب إقريطش (كريب) :

في كُلِّ مرْبأةٍ وكل ثَنِيَّةٍ … تَهْدَارُ سامرة وعزفُ قيان(١)
تَستَن عاديةٌ ، ويصهلُ أجردٌ … وتصيحُ أجراسٌ ، ويهتف عاني(٢)
قومٌ أبى الشيطان إلا خُسْرَهم … فتسللوا من طاعة السلطان
ملئوا الفضاء ، فما يبين لناظر … غيرُ التماعِ البيضِ والخُرْصان(٣)
فالبدر أكدُر والسماء مريضةٌ … والبحر أشكلُ والرماح دَوَانِ(٤)
والخيل واقفةٌ على أرسانها … لطراد يوم كريهةٍ ورهان
وضعوا السّلاح إلى الصباح ، وأقبلوا … يتكلمون بألسُنِ النيران

---

(١) المربأة : مكان المراقب ، والتهدار : التصويت وقرقرة الحمام ، والقينة : المغنيه وجمعها قيانه
(٢) استن الفرس : عدا إقبالا وإدباراً ، والأجرد : الحصان القصير الشعر وهو من أمارات العتق والأصالة ، والعاني : المتعب .
(٣) الخرصان : الدرع والرماح .
(٤) الأشكل . الذي يضرب بياضه إلى حمرة .

حتى إذا ما الصبحُ أسفر وارتمت ... عينان بين رُبىً وبَيْن مجان
فإذا الجبال أسنةٌ ، وإذا الوها ... دُ أعِنَّةٌ والمــاء أحمرُ قانى
فتوجَّسَتْ فُرُطُ الركاب ولم تكن ... لتَهابَ ، فامتنعت على الأرسان(١)
فزعت فرجَّعت الحنينَ ، وإنما ... تَحْنانُها شجن من الأشجان
ذكرت مواردَها بمصر ، وأين من ... ماء بمصرَ منــازلُ الرومان

ومن المقطوعات اللطيفة فى وصف الأشخاص قول البارودى يذم شخصا ويصفه بالنهم والجشع .

وصاحب لا كان من صاحب ... أخلاقه كالمِــدة الفاسده
أقبحُ ما فى الناس من خصلة ... أحسنُ ما فى نفسه الجامده
لو أنه صُوِّرَ من طبعه ... كان لعمرى عقرباً راصده
يَصْلُحُ للصفع لكيلا يُرى ... فى عَدَد الناس بلا فائده
يغلبـه الضعف ولكنه ... يهـدم فى قعدته المائده
يراقب الصَّحْنَ على غفلة ... من أهله كالهرة الصائده
كأنمـا أظفــوره مِنْجَل ... وبين فكيه رحىً راعده
كأنمـا البطة فى حلقه ... نمامة فى سَبْسَب شارده
تسمع للبـلع نقيقاً كما ... نقت ضفادى ليلة راكده
كأنما أنفاسُه حَرْجَفٌ ... وبين جنبيه لظىً واقده

٤ — وقد وصف البارودى كثيراً من الأشياء كالسجن ، والقطار ، والخمر وغير ذلك وربما كان وصفه للقطار أول وصف من نوعه فى اللغة العربية ؛ لأن السكة الحديدية دخلت مصر فى أخريات أيام سعيد ، ولم يفطن شعراء عصره له أو لم يهتموا بوصفه ، ويقول فيه وإن لم يصفه بدقة .

---

(١) الفرط : الفرس السريعة التى تتقدم الخيـل . وامتنعت على الأرسان : حرنت وصارت لا تقاد بالأرسان .

ولقد علوت سَراة أدهم لو جرى ... فى شأوه برق تعثر أو كبا
يطوى الفَلاَ طىَّ السِّجل ويهتدى ... فى كل مهمهة يضل بها القَطا
يجرى على عجل فلا يشكو الوَجىَ ... مَدَّ النهار ، ولا يمل من السرى
لا الوَخْدُ منه ، ولا الرَّسيم ، ولا يُرى ... يمشى العِرَضْنَة أو يسير الهيْدَبى(١)

ويقول فى وصف السجن ·

فسواد الليل ما إن ينقضى ... وبياض الصبح ما إن يُنْتظر
لا أنيسٌ يسمع الشكوى ولا ... خبرٌ يأتى ، ولا طيف يمر
بين حيطان وباب موصد ... كلما حركه السجان صَرْ
يتمشى دونه حتى إذا ... لحقته نبأةٌ منى استقر
كلما درتُ لأقضى حاجةً ... قالت الظلمةَ : مهلا ، لا تدر
أتقرَّى الشىء أبغيه فلا ... أجد الشىء ، ولا نفسى تَقَرْ
ظلمة ما إن بها من كوكب ... غيرُ أنفاس تَرَامى بالشرر

وهذه القطعة فيها أبيات من الشعر الواقعى التى تغنى بتصويرها الحقيقة العارية عن أى خيال مهما عمق وملح ·

٥ — هذا وقد وصف البارودى بعض آثار مصر القديمة ، وفتح بذلك الطريق لشوقى وغيره وهو وإن لم يتعمق فى وصفه ، ويستعرض التاريخ المجيد كما فعل شوقى من بعده إلا أنه برهن على أنه شاعر يرى الجمال أو العظة فيما حوله من مناظر ، وأن شاعريته حساسة مرهفة ؛ لأن مثل هذ الوصف لا تحفزه إليه رغبة فى صلة أو تقرب من أمير ، وإنما هو إشباع لرغبة فنية تجيش فى صدره ، وتحاول شاعريته الإفصاح عنها ولذلك عدباب الوصف من خير أبواب الشعر ؛ لأنه فضلا عن نشره ما طوى من آيات الجمال ، أو ما خفى على

---

(١) الوخد : سعة الخطو ، والرسيم : سير للابل قريب من الهرولة دون الجرى ، والعرضنة : نوع من السير يمتاز بالخفة والسرعة والنشاط . والهيدبى : مشى للخيل فيه جد .

عيون الناس منها فإنه يدل على نفسية الشاعر ، وقدرته وخياله . وهو خير محك للتمييز بين الشعراء ، ومن ذلك قوله يصف الهرمين :

سل الجيزة الفيحاء عن هَرَمَىْ مصر ... لعلَّكَ تدرى غيبَ ما لم تكن تدرى
بناءان رَدَّا صَوْلة الدَّهر عنهما ... ومن عجبٍ أن يغلبا صولةَ الدَّهر
أقاما على رَغْم الخطوب ليشهدا ... لبانيهما بين البرية بالفخر
فكم أمم فى الدهر بادت وأعصر ... خلت وهما أعجوبة العين والفكر
تلوح لآثار العقول عليهما ... أساطير لا تنفك تتلى إلى الحشر
رموزٌ لو استطلعت مكنون سرها ... لأبصرت مجموع الخلائق فى سَطْر
فما من بناء كان ، أو هو كائن ... يدانيهما عند التأمل والخُبْر
يقصِّرُ حسناً عنهما « صرح بابل » ... ويعترف « الإيوان » بالعجز والبَهر (١)
فلو أن « هاروتَ » انتحى مَرْصديهما ... لألقى مقاليد الكهانة والسِّحر
كأنهما ثديان فاضا بدِرَّة ... من النيل تُروى غُلّةَ الأرض إذ تجرى
وبينهما « بَلْهيبُ » فى زى رابض ... أكبَّ على الكفين منه إلى الصدر (٢)
يقلب نحو الشرق نظرة وامق ... كأن له شوقاً إلى مطلع الفجر

وليست هذه القصيدة الوحيدة التى أشاد فيها بالأهرام ، وبقدماء المصريين فله قصيدة أخرى فيها مطلعها :

أى شىء يبقى على الحدثان ... والمنايا خصيمة الحيوان

وله ثالثة مطلعها :

بقوة العلم تقوى شوكة الأمم ... فالحكم فى الدهر منسوب إلى القلم

---

(١) البهر : مصدره بهره من باب قطع أى غلبه وفاقه ، والإيوان : إيوان كسرى أنوشروان وقصره الأبيض وكان يعد من عجائب الدنيا ، وكذلك صرح بابل الذى بناه بختنصر .
(٢) بلهيب : أبو الهول .

وفيها يقول :

فانظر إلى الهرمين الماثلين تجد غرائباً لا تراها النفس فى الحلم
صرحان مادارت الأفلاك منذ جرت على نظيريهما فى الشكل والعظم

. . . .

ولاح بينهما بلهيب معتجباً للشرق يلحظ مجرى النيل من أمم

(ب) الشعر السياسى :

ومن الأغراض القديمة التى خلع عليها البارودى لباس الجدة ، وظهرت فيها شخصيته واضحة جلية تفصح عن نفسه الأبية المتمردة على الظلم والطغيان ، المحبة للعدالة والشورى والمساواة بين الناس ، ذلك الشعر السياسى الوطنى الذى دفعه إلى مركز الصدارة بين أبناء شعبه ، وجعل منه زعيما محبوباً ، ولذلك ألقى به فى غيابة السجن ، ورمى به بعيداً عن وطنه وياليته كف عن مثل هذا الشعر وهو يتجرع غصص النفى والتشريد والمرض ، بل زفر زفرات حار، كادت تحرق الطاغين المعتدين بشواظها الملتهب ، ولذلك طالت غيبته عن دياره وخاف أولو الأمر من عودته حتى لا يعيدها جذعاً مشبوبة الضرام ؛ ولما هدأت ثائرته ، وكسرت حدته وخفت شرته ، واشتكى ما به من ضعف وهزال ، ودب إلى جسمه دبيب الفناء ، أمنوا جانبه فأعادوه إلى وطنه .

كان البارودى طموحاً ، يعتلج فى حنايا صدره أمل كبير يود أن يجدد به مجد أسلافه ، وقد رزق العقل الذكى ، والفؤاد الأبى ، والعلم والبصيرة ، فلم لا يصل إلى ما لا يريد ؟ ولكن ما كل ما يشتهيه الإنسان ويأمله يسهل نواله ، وقد وقفت فى سبيل البارودى عقبات شتى ، وظل الأمل يساوره على الرغم من هذه الصعاب .

ويلاه من حاجة فى النفس هام بها قلبى ، وقصر عن إدراكها باعى
أسمى لها وهى منى غير دانية وكيف يبلغ شأو الكوكب الساعى ؟

ويعترف بهذه العراقيل التى تعترض طريقه ، ولولاها لنال ما تمنى .

وإنى أمرؤا لولا العوائق أذعنت   لسطوته البدو المغيرة والحضر

وهذا من أصرح الأبيات التى أشار فيها إلى ما يهيم به فؤاده ، وإن كان قد ساقه فى معرض الفخر بالشجاعة واقتحام ميادين القتال . وقد أخفق البارودى فى تحقيق آماله واعتذر عن هذا الإخفاق كما مر بنا .

ويلوح لنا أن البارودى كان بطبعه محباً للحرية متمرداً على الظلم ، شأن كل شجاع شريف . ولعل للوراثة ، وللنشأة التى نشأها أثراً فى هذا ؛ ولقد غذاهما ما حفظه من شعر الحماسة والقوة عند العرب ، وهم أبطال الحرية فى فيافيهم الواسعة وقد تغنَّوا بحروبهم وشجاعتهم وانتصاراتهم وأنفتهم ، وكان شعرهم سجلا وافياً لمكارم أخلاقهم ، وقد قرأه البارودى وهو بعدشاب غرير ، فرسخت هذه الصفات فى ذهنه . وشب مطبوعاً عليها يتمثلها نماذج يحتذيها ، ويرددها فى شعره ويود أن يحققها عملا فى الحياة ، ويقول :

لاعيب فىّ سوى حرية ملكت   أعنتى عن قبول الذل بالمال
تبعت خطة آبائى فسرت بها   على وتيرة آداب وآسال[١]

ويقول :

دع الذل فى الدنيا لمن خاف حتفه   فللموت خير من حياة على أذى

ولقد صور البارودى الفساد الذى شاع أمره فى مصر ، واضطراب أحوالها والفزع الذى ملأ قلوب الناس ، وتنبأ بالثورة الدامية قبل حدوثها ، مما يدل على أنه كان على صلة بزعمائها وأن الناس قد ضاقوا ذرعاً بهذا الفساد وبَرِموا به ولا بُدَّ من سبيل إلى الإصلاح ، وذلك حيث يقول : —

تنكرت مصرُ بعد العُرْف واضطربت   قواعدُ الملك حتى ريع طائره
فأهمل الأرض جرَّا الظلم حارثُها   واسترجع المالَ خوف العُدْم تاجرُه[٢]

---

(١) آسال : شبه وعلامات ، يقال فلان يسير على آسال من أبيه أى على شبه منه ولا واحد لها.
(٢) جرا الظلم : من جرائه وبسببه .

واستحكم الهولُ ، حتى ما يبيت فتىً في جَوْشَنِ الليل إلا وهو ساهرُهُ(١)

وَيْلُمِّه سَكَناً ، لولا الدفين به من المــآثر ما كنا نجاوره

أرضى به غير مغبوط بنعمته وفى سواه المنى لولا عشائره

يانفس لا تجزعى فالخير مُنْتَظَرٌ وصاحب الصبر لا تبلى مرائرُه

لَعَلَّ بُلْجَةَ نور يستضاء بها بعد الظلام الذى عمت دياجره

إنى أرى أنفساً ضاقت بما حملت وَسَوْفَ يَشْهرُ حداً السيف شاهرُهُ

شهران أو بعد شهر إن هى احتدمت وفى الجــديدين ما تغنى فواقره

فإن أصبتُ فمن رأى ملكت به علم الغيوب ، ورأى المرء ناظره

وقد ذكرنا فيما سبق كيف أن البارودى كان من زعماء الثورة ، وأنه كان يطمع فى الانقلاب ، ولكن لما رأى التيار عنيفاً ، وتدخلت فرنسا وانجلترا ، أحجم وتردد ونصح لقومه فلم ينتصحوا ، ولم يجد بداً من السير فى الشوط حتى الغاية . وللبارودى فى إبان الثورة وبعدها شعر ملتهب حمية وحماسة وتمرداً على الظلم . أنصت إليه وهو يحرض المصريين على الثورة ويهيب بهم ألا يستكينوا للحاكم المستبد ، ويصور لهم نفوسهم العاجزة الضعيفة بقوله :

فياقوم هبوا إنمــا العمر فرصةٌ وفى الدهر طُرْقٌ جَمَّةٌ ومنافع

أصبراً على مس الهوان وأنتم عديدُ الحصى ؟ إنى إلى الله راجع

وكيف ترون الذل دار إقامة وذلك فضل الله فى الأرض واسع

أرى أرؤساً قد أينعت لحصادها فأين ولا أين السيوف القواطع ؟

فكونوا حصيداً خامدين أو افزعوا إلى الحرب حتى يدفع الضيمَ دافع

أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة إلىّ ، ولَبَّانى الصدى ، وهو طائع

فلم أدر أن الله صــور قلبكم تماثيلَ لم يُخلق لهن مسامع

(١) جوشن الليل : وسطه أو صدره .

فلا تدعوا هذى القلوب ، فإنها قوارير تَحْنىٌ عليها الأضالع

ويقول معرضاً بالحاكم المستبد :

يأيها الظالم فى ملكه أغرك الملك الذى يَنْفَذ
اصنع بنا ما شئت من قسوة فالله عدل ، والتلاقى غد

وكان من الداعين إلى نظام الشورى ، وقد مدح توفيقاً لما تولى أريكة مصر وظن المصريون أنه سيحقق آمالهم الوطنية ويلبى دعوتهم إلى الأخذ بالشورى ؛ حتى لا يستبد الحكام ، ولا يقعوا فى أخطاء تجلب عليهم وعلى قومهم المصائب كما حدث لإسماعيل :

سنّ المشورة وهى أكرم خطة يجرى عليها كل راع مرشد
هى عصمة الدين التى أوحى بها رب العباد إلى النبى محمد
فمن استعان بها تأيد ملكه ومن استهان بأمرها لم يُرشد
أمران ما اجتمعا لقائد أمة إلا جنى بهما ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم شورى ، وجند للعدو بمرصد
هيهات يحيا الملك دون مشورة ويعز ركن المجد ما لم يُعمَد

ويقول فيها مادحاً توفيقاً :

أطلقت كل مقيد وحللت كل معقد وجمعت كل مبدد
وتمتعت بالعدل منك رعية كانت فريسة كل باغ معتد

ويحرض الأمة على اليقظة ، والقوة حتى لا يستهين السلطان بأمرها :

وكذاك السلطان إن ظن بالأمة عجزاً سطا عليها وشدا

ولما أخفقت الثورة وتخاذل الثوار ، وخان بعضهم بعضاً ، ترك هذا الإخفاق ، وذلك الخذلان فى نفسه مرارة ظل أثرها فى لسانه مدة ، فأخذ يلفظ بشعر مرير فيه أثر الموجدة والغضب من مثل قوله .

كنا نود انقلاباً نستريح به حتى إذا تم ساءتنا مصايره

ويقول ذاماً الثورة والثوار ، ويحاول أن يتنصل من تبعاتها ، وأن ما ناله كان بسبب حادث بينهم من الشحناء ، وأنهم غدروا به :

صبرتُ على ريب هذا الزمان ... ولولا المعاذير لم أصبر
فلا تحسبنِّى جهلت الصواب ... ولكن هممت فلم أقدر
ثنت عزمتى ثورة المفسدين ... وغلت يدى فترة العسكر
وكنا جميعاً فلما وقعتُ ... صبرت ، وغادرنى معشرى
ولو أننى رُمتُ إعناتهم ... لقلت مقالة مستبصر
ولكننى حين جد الخصام ... رجعت إلى كرم العنصر

وحاول البارودى أن يبرىء نفسه ويعلل هزيمته ويصف حنث الثوار فى أيمانهم ومواثيقهم وتخاذلهم ، ويتندم على زعامته :

دعونى إلى الجلى فقمت مبادراً ... وإنى إلى أمثال تلك لسابقُ
فلما استمر الجِدُّ ساقوا حمولهم ... إلى حيث لم يبلغه حاد وسائق (١)
فلا رحم الله أمرأ باع دينه ... بدنيا سواه ، وهو للحق رامق
على أننى حذرتهم غِبَّ أمرهم ... وأنذرتهم لو كان يفقه مائق (٢)
وقلت لهم كفوا عن الشر تغنموا ... فللشر يوم — لا محالة — ماحق
فظنوا بقولى غير ما فى يقينه ... على أننى فى كل ما قلت صادق
فَتبًّا لهم من معشر ليس فيهم ... رشيدٌ ولا منهم خليل يُصادق
ظننت بهم خيراً فأُبتُ بحسرة ... لها شجن بين الجوانح لاصق
فياليتنى راجعت حلمى ولم أكن ... زعيما وعاقتنى لذاك العوائق
ويا ليتنى أصبحت فى رأس شاهق ... ولم أر ما آلت إليه الوثائق

---

(١) ساقوا حمولهم : كناية عن تخاذلهم .
(٢) مائق : أحمق .

هم عرضونى للقنا ، ثم أعرضوا ... صراعاً ، ولم يطرق من الشر طارق
وقد أقسموا ألا يزولوا فما بدا ... سنا الفجر ، إلا والنساء طوالق

ثم يصف فزعهم وفرارهم من المعركة بقوله :

مَضَوْا غير معذورين لا النقع ساطع ... ولا البيض فى أيدى الكُماة دوالق(١)
ولكن دعتهم نبأة ، فتفرقوا ... كما انقض فى سرب من الطير باشق(٢)
فكم آبق تلقاه من غير طارد ... وكم واقف تلقاه والعقل آبق
إذا أبصروا شخصاً يقولون : جحفلٌ ... وجبنُ الفتى سيف لعينيه بارق
أسودٌ لدى الأبيات بين نسائهم ... ولكنهم عند الهياج نقانق(٣)
إذاً المرءُ لم ينهض بقائم سيفه ... فياليت شعرى ، كيف تحمى الحقائق ؟

وقد اتهم البارودى بأنه يطمع فى الملك ، وأنه يحاول ثل العرش ، وخلع توفيق فقال منكراً هذه التهمة ، معللا ثورته بعد أن نفى إلى (سرنديب) .

يقول أناسٌ إننى ثُرْت خالماً ... وتلك هَنات لم تكن من خلائقى
ولكننى ناديت بالعدل طالباً ... رضا الله ، واستنهضت أهل الحقائق
أمرت بمعروف وأنكرت منكراً ... وذلك حكم فى رقاب الخلائق
فإن كان عصياناً قيامى فإننى ... أردت بعصيانى إطاعة خالقى
وهل دعوة الشورى علىَّ غضاضة ... وفيها لمن يبغى الهدى كل فارق ؟
بلى ! إنها فرض من الله واجب ... على كل حى من مسوق وسائق
وكيف يكون المرء حراً مهذباً ... ويرضى بما يأتى به كلُّ فاسق ؟ !
فإن نافق الأقوام فى الدين غدرةً ... فإنى بحمد الله غير منافق

---

(١) دلق السيف : أخرجه من غمده .
(٢) النبأة : الصوت ويريد الخبر الكاذب ، والباشق : من الطيور الجارحة .
(٣) ج نقنق (بكسر فسكون) وهو الظليم ، ذكر النعام ويضرب به المثل فى الجبن .

على أنى لم آلُ نصحاً لمعشر ... أبى غدرُهم أن يةْ بلوا قول صادق
رأوا أن يسوسوا الناس قهراً فأسرعوا ... إلى نقض ما شادته أيدى الوثائق
فلما استمر الظلم قامت عصابة ... من الجند تسعى تحت ظل الخوافق
وشايعهم أهل البلاد فأقبلوا ... إليهم سراعاً بين آت ولاحق
يرومون من مولى البلاد نفاذ ما ... تألاَّه من وعد إلى الناس صادق

وإذا كان البارودى قد أنكر هذه التهمة هنا ونفاها عن نفسه ، فى شعره ما يثبتها ويدل على أنه كان يطلب من الثوار أن يولوه عليهم حاكما ، ويمدح نفسه ، ويطرى حكمه ، ومن البديهى أنه لم يرد رئاسة الوزارة فقد كان رئيساً للوزارة ، ولكنه يريد ما هو أعلى منها ، وتراه يذم هؤلاء الذين يقفون فى سبيله ويكيدون له :

امن كل وغد يكاد الدَّست يدفعه ... بغضاً ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت ... قواعد الملك حتى ظل فى خلل
وأصبحت دولة الفسطاط خاضعة ... بعد الإباء وكانت زهرة الدول

إلى أن يقول :

بئس العشيرُ وبئست مصر من بلد ... أضحت مناخاً لأهل الزور والخطل
أرض تأثل فيها الظلم وانقذفت ... صواعق الغدر بين السهل والجبل
وأصبح الناس فى عمياءَ مظلمةٍ ... لم يخط فيها امرؤ إلا على زلل
أصوَّحت شجرات المجد أم نضبت ... غُدْر الحَمِيَّة حتى ليس من رجل ؟!
لا يدفعون يداً عنهم ولو بلغت ... مَسْ المفافة من جبن ومن خَزَل(١)
فما لكم لا تعاف الضيم أنفُسُكم ... ولا تزول غواشيكم من الكسل
فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا ... شكالة الرَّيْث فالدنيا مع العجل

---

(١) الخزل : من الانخزال وهو الظلوع فى المشى من أثر شوكة أو شبهها — مشى فيه تثاقل وتراجع .

وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة ... يكون رِدْأً لكم فى الحادث الجلل
ماضى البصيرة غلاب إذا اشتبهت ... مسالك الرأى صاد الباز بالحجل
إن قال بَرَّ ، وإن ناداه منتصر ... لبى ، وإن هم لا يرجع بلا نفل
يجلو البديهة باللفظ الوجيز إذا ... عز الخطاب وطاشت أسهم الجدل
ولا تلجوا إذا ما الرأى لاح لكم ... إن اللجاجة مدعاة إلى الفشل
هذه نصيحة من لا يبتغى بدلا ... بكم وهل بعد قوم المرء من بدل ؟

فهذا الشعر السياسى ، وهذه النفس المتوثبة الطّموُح ، وهذه الثورة المتأججة التى انتهت بصاحبها إلى النفى والتشريد هى من الجديد فى معانى البارودى وشعره ، وهى جديدة حتى فى الأدب العربى كله ، وإن كان المتنبى قد حاول من قبل ملكا وثار على الدنيا التى مكنت للعبيد والخصيان والعلوج فى الأرض يسوسون شعوباً ضعيفة وجعل يقول :

فى كل أرض وطئتها أُمَمٌ ... تُرْعى بعبد كأنها غنم

فإنه اكتفى بالإشارة والتلميح والزفرة الحارة ، وعلامة الدهر ومحاربته فى مطلبه ، ولكن البارودى كان يطلب شيئاً آخر : كان يطلب الحرية لقومه ، والعدل والمساواة ، كان يطلب العيشة الهنية فى ظلال الحرية ، ولا عليه إذا طلب بجانب هذا ملكا عضوضاً ليحقق لقومه آمالهم . وهب البارودى قلد المتنبى فى بعض معانيه ، فهل كان اقتحامه نار الثورة تقليداً ؟ أو ليس شعره هذا وليد الحوادث وصدى لها ؟ وهل فترت عزيمته ، ووهنت قوته ، وذلت نفسه وهو يقاسى ألم النفى والتشريد ، مادام يدب فى جسمه شىء من العافية ؟ كلا ! وإذا شئت برهانا فاستمع لهذه الكلمات التى كان يخشى بأسها على البعد حكامُ مصر كأنها جيش لهَام يبدد سمادتهم .

أبى الدهر إلا أن يسود وضيعُه ... ويملك أعناق المطالب وغدُه
تداعت لدرك الثأر فينا ثُمَالةٌ ... ونامت على طول الوتيرة أُسْدُه

لختام نسرى في دياجير محنة ... يضيق بها عن صحبة السيف غمده ؟
إذا المرء لم يدفع يدَ الجور إن سطت ... عليه فلا يأسف إذا ضاع مجده
ومن ذَلّ خوف الموت كانت حياته ... أضر عليه من حِمام يؤُدُّه
وأقتل داء رؤيةُ العين ظالما ... يسيء ، ويُتلى في المحافل حمده
علام يعيش المرء في الدهر خاملا ... أيفرح في الدنيا بيوم يعدُّه ؟
يرى الضيم يغشاه فيلتذ وقعه ... كذى جرب يلتذ بالحك جلده
عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش ... بها بطلا يحمى الحقيقة شده
من العار أن يرضى الفتى بمذلة ... وفي السيف ما يكفي لأمر يعده
وإنى امرؤ لا أستكين لصولة ... وإن شدّ ساقى دون مسعاى قِدّه
أبت لىَ حمل الضيم نفسٌ أبية ... وقلب إذا سيم الأذى شبَّ وَقدُه

وربما قيل إن البارودى كان ذا أثرة ، وأنه كان يسعى سعيه لتحقيق أمله ، وأنه لم يكن مخلصا في دعوته لمحاربة الظلم وسواء كان هذا صحيحاً ، أو غير صحيح ، فالذى نلمسه هو أن البارودى كان يتغنى بمصر وأهلها ويظهر محبته لها ، وحرصه على خيرها ونفعها ، بما لم نسمعه قبل من شاعر . إنها الروح القومية الجديدة سرت في شعوب الأرض وجعلتهم يطالبون بالحرية والاستقلال ، ويشيدون بأوطانهم ويتغنون بمآثر قومهم وقد تمثلت هذه الروح في البارودى على غير انتظار وعلى غير سابقة من شعراء وطنه وزمنه . أصغ إلى القطعة التالية ، والمس ما بها من حرارة الصدق والمحبة لتعرف أكان البارودى مخلصاً في دعواه أو مداجياً ؟

فيا مصر ! مد الله ظلك وارتوى ... ثراك بسلسالٍ من النيل دافق
ولا برحت تمتار منك يدُ الصّبا ... أريجا يداوى عَرفه كل ناشق
فأنت حمى قومى ، ومشعب أسرتى ... وملعب أترابى ، ومجرى سوابق
بلاد بها حل الشباب تمائمى ... وناط نجادَ المشرفىّ بعاتقى
تركت بها أهلا كراما وجيرة ... لهم جيرة تعتادنى كل شارق

هجرت لذيذ العيش بعد فراقهم ... وودعت ريعان الشباب الفُرانق

إننا لا نستطيع أن نحكم على البارودى وشعره ينطق بوطنيته ، بأنه منافق خداع إنه كان يحب وطنه ، وفى سبيله شرد ونفى .

ومن عجائب ما لاقيت من زمنى ... أنى مُنيتُ بخطب أمره عجب
لم أقترف زَلَّةً تقضى علىّ بما ... أصبحت فيه ، فماذا الويل والحَرَب ؟
فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ... ذنب أدان به ظلماً وأغترب ؟ !

لقد كان يحب مصر حباً ملك عليه شغاف قلبه ، وهو القائل فيها :

بلد نشأت مع النبات بأرضها ... ولثمتُ ثغر غديره المتبسم
فنسيمها روحى ومعدن تربها ... جسمى وكوثرُ نيلها محْيا دمى
فإذا نطقتُ فبالثناء على الذى ... أولاته من فضلٍ علىّ وأنعم
هى جنة الحسن التى زهراتها ... حورُ المها ، وهَزار أيْكتها فمى
ما إن خلعتُ بها سيور تمائمى ... حتى لبستُ بها حمائل مِخْذَمِ

إن هذه النغمة الوطنية جديدة — كما ذكرنا — فى الشعر العربى ، وحسب البارودى فخراً أنه من أوائل من تغنى بأمجاد وطنه فى العصر الحديث ولقد كاد يقضى أسى وهو يغادر مصر إلى منفاه ، وزفر زفرة ملتهبة يتنفس بها عن جواه :

ولما وقفنا للوداع وأسبلت ... مدامعنا فوق الترائب كالمُزن
أهبت بصبرى أن يعود فعزنى ... وناديت حلمى أن يثوب فلم يُغن
فكم مهجة من زفرة الشوق فى لظًى ... وكم مقلة من غزرة الدمع فى دَجنْ
وما كنت جربت النوى قبل هذه ... فلما دهتنى كدت أقضى من الحزن

ولكنه سرعان ما يثوب إلى رشده ، ويكفكف من دمعه ، ويتجلد أمام خصومه ويظهر سمات الرضا ، وأنه يؤثر أن يبرح أرضاً يُغَشِّيها الظلم ، وتصك أنات الجور مسمعيه ، وتؤذى رؤية وجه الغدر ناظريه .

فيا قلب صبراً إن جزعت فربما جرت سُنُحاً طير الحوادث باليمن
فقد تورق الأغصان بعد ذبولها ويبدو ضياء البدر فى ظلمة الوهن
وكيف مقامى بين أرض أرى بها من الظلم ما أخنى على الدار والسَّكن(١)
فسمع أنين الجور قد شاك مسمعى ورؤية وجه الغدر حلَّ عُرى جَفنى

ولقد زاده النفى حباً فى وطنه وتعلقا به، وترديداً لمحاسنه، ويتمثله على البعد جنةدانية القطوف عبقة الشذى فمن ذلك قوله وهو بالمنفى يتشوق إلى أيام لهوه التى حُرمها، وإلى الأرض الطيبة التى أبعد عنها، ويصف جزيرة سرنديب وصفاً جميلا، وفيه تصوير دقيق يدل على حسنٍ مرهف، وذوق فنان عبقرى.

لبَّيك يا داعىَ الأشواق من داعى أسمَعتَ قلبى وإن أخطأتَ أسماعى
مُرنى بما شئتَ أبلُغ كلَّ ما وصلت يدى إليــه فإنى سامع واعى
إنى امرؤ لا يَرُدُّ العَذْلُ بادرتى ولا تَفُلُّ شَباةُ الخطْب إزماعى(٢)
أجرى على شيمةٍ فى الحب صادقة ليست تَهُمُّ إذا ريعتْ بإقلاعِ(٣)
للحب من مُهْجتى كهف يلوذ به من غدر كلُّ امرىء بالشر وقاع
يا حبذا جَرْعة من ماء مَحْنِيةٍ وضجعة فوق بَرْد الرمْل بالقاع
ونسمة كشميم الخلد قد حملت ريَّا الأزاهير من مِيثٍ وأجْراع(٤)
يا هَلْ أرانى بذاك الحى مجتمعاً بأهل وُدىَ من قومى وأشياعى
وهل أسوقُ جوادى للطراد إلى صيد الجآذر فى خضراءَ مِمْراع
منازلٌ كنتُ منها فى بُلَهْنِيةٍ مُمَتَّعا بين غلمانى وأتباعى

(١) السكن: السكان.
(٢) البادرة: ما يبدر من الإنسان عند حدة غضبه. والمراد بالبادرة هنا شدةالعزم وقوةالإرادة. الإزماع: العزم.
(٣) ريعت: أخفت والإقلاع: الترك والكف.
(٤) الميث: جرميثاء وهى الأرض السهلة اللينة من غير رمل، والأجراع: جمع جرع (كجبل) وهو الأرض الرملية السهلة.

فاليوم أصبحتُ لا سهمى بذى صَرَدٍ ... إذا رميتُ ، ولا سيفى بقطّاعِ(١)

أبيتُ فى قُنّةٍ قَنْواءَ قد بلغت ... هام السِّماك وفاتته بأبواعِ(٢)

يستقبلُ المزنُ لِيتَيها بوابله ... وتصدم الريح جَنْبَيها بزَعْزاعِ(٣)

يظل شِمراخُها يبساً وأسفلها ... مُكلّلاً بالندى يَرْعى به الراعى

إذا البروق أزمهرّتْ خلت ذروتها ... شهما تدرّع من تِبْرٍ بأدْرَاع

تكاد تلمس منها الشمسَ دانيةً ... وتحبسُ البدْرَ عن سير وإقلاعِ

أظلُّ فيها غريب الدار مبتئساً ... نابى المضاجع من هَمٍ وأوجاعِ

لا فى (سرنديب) خِلٌ أستعين به ... على الهموم إذا هاجت ولا راعى

يظننى من يرانى ضاحكاً جَذِلاً ... أنى خلىٌ ، وهمى بين أضلاعى

ولا وربِّك ما وجدى بمنْدَرس ... على البعاد ولا صبرى بمطواعِ

لكننى مالكٌ حزمى ، ومنتظرٌ ... أمراً من الله يشفى بَرْحَ أوجاعى

أكف غَرْبَ دموعى وهى جاريةٌ ... خوفَ الرقيب وقلبى جدُّ ملْتاعِ

فإن يكن ساءنى دهرى ، وغادرنى ... رَهْنَ الأسى بينَ جَدْبٍ بعد إمراعِ

فإن فى مصر إخواناً يسرهم ... قربى ، ويعجبهم نظمى وإبداعى

ويقول من قصيدة أخرى وهو فى المنفى يتشوق إلى مصر :

يا (روضة النيل) لا مَسّتْكِ بائقةٌ ... ولا عَدَتْك سماءٌ ذاتُ أغداقِ(٤)

ولا بَرِحَتْ من الأوراق فى حُلَلٍ ... من سُنْدُسٍ عبقرى الوشى بَرّاقِ

يا حبّذا نَسَمٌ من جوها عبِقٌ ... يسرى على جدول بالماء دفاقِ

بل حبّذا دَوْحَةٌ تدعو الهديلَ بها ... عند الصباح قُمارىٌ بأطواقِ

---

(١) صرد : مصدر صرد السهم أى أصاب ونفذ .

(٢) قنواء : عالية مرتفعة ، الأبواع : جمع باع .

(٣) الليتان : صفحتا العنق مثنى ليت . زعزاع : شديدة تزعزع الأشياء .

(٤) البائقة الداهية ، لا عدتك : لا تجاوزك والمراد بالسماء السحب والأمطار :

مرعى جيادى ، ومأوى جيرتى ، وحمى قوى ، ومنبت آدابى وأعراقى
أصبو إليها على بعد ، ويعجبنى أنى أعيش بها فى ثوب إملاق

(ح) النسيب :

وقد مر بنا أن البارودى قد قلد القدماء فى الوقوف على الأطلال والدمن ، وفى الأوصاف الموروثة ، وفى الوصف المادى للمرأة والنظرة إليها نظرة السلعة ، ولكنه مع هذا قد تحلل أحيانا من كل تلك القوالب القديمة ، وترفع فى نظرته إلى المرأة ، فحسبه منها نظرة :

إنى لأقنع من هواك بنظرة وأعدها صِلةً إذا لم تمنعى
هذى مناى وحبذا لو نلتُها عن طيب نفس فهى أكبر مقنع[1]

وهو يتمدح بعفته فى حبه ويبين مذهبه فى الوداد بقوله :

إنى امرؤ ملك الوداد قيادتى وجرى على صدق العهود وفائى
لا أستريح إلى السلو ، ولو جنى خِلّى علىَّ ، ولا أشين ولائى
لا ذمتى رهن الفكاك ولا يدى تلقى أزمة عفتى وحيائى

ويقول :

على أننى لم آت فى الحب زلة تغض بذكرى فى المحافل أو تزرى
ولكننى طوفت فى عالم الصِّبا وعدت ولم تعلق بفاضحة أزرى

ويقول :

والعشق مكرمة إذا عف الفتى عما يهيم به الغَوِى الأصْوَرُ[2]

---

(١) المعنى قديم طرقه من قبل جميل فى قوله :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا ، وبألا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالعام ينقضى أواخره لا نلتقى وأوائله

ولكن البارودى كان فى عصر مادى لا يفطن إلى هذا ، وقد سبقه آلاف الشعراء منذ جميل لم يقنعوا قناعته .

(٢) الأصور : المنحرف عن الهدى والرشاد من الصور وهو الميل .

يقوى به قلب الجبان ويرعوى طمع الحريص ، ويخضع التكبر

وقد فطن أحيانا إلى أن المرأة بها من أنواع الجمال غير هذه السمات المادية فقال :

فتاة يحار الطرف فى قسماتها لها منظر من رائد العين لا يخلو
لطايفة مجرى الروح لو أنها مشت على ساريات الذر ما آده الحمل

وله فى الغزل معان مبتكرة من مثل قوله :

تركتنى من غمرات الهوى فى لج بحر بالردى زاخر
أسمع فى قلبى دبيب المنى وألمح الشبهة فى خاطرى

وقد وفق البارودى فى البيت الثانى أيما توفيق ، على أن معظم نسيب البارودى من الشعر القديم ، وقد وفيناه نعتاً فيما سبق . .

(د) الهجاء :

والهجاء نوعان : شخصى وهو ما درج عليه معظم شعراء العربية ، واجتماعى ، ويراد به ذلك الهجاء التهكمى الذى يقصد إلى تجسيم عيب من عيوب المجتمع وتصويره فى أبشع صورة رغبة فى الإصلاح ، وقد يتمثل هذا العيب الاجتماعى فى شخص من الأشخاص فيهجوه الشاعر ويبرز ذلك العيب فيه بشكل يسترعى انتباه القارىء أو السامع ، وليس الشخص مقصوداً لذاته فى مثل هذا النوع من الهجاء ، وإنما المقصود هو هذه السوءة الاجتماعية ، ولن يبلغ الشاعر مرتبة الشعراء العالميين فى الهجاء ما لم يصل بهجوه إلى هذا النوع الاجتماعى ، وقد لجأ شعراء الغرب إلى التمثيل يصورون فيه هذه المثالب الإنسانية العامة ، ويجسمون العيوب تجسيما يحمل الشعب على الاشمئزاز منها والبعد عنها كما فعل شكسبير فى رواياته الكثيرة وكما فعل موليير فى هزلياته .

وقد وُجد فى شعر البارودى نوعا الهجاء : الشخصى والاجتماعى ، وأكثر من النوع الاجتماعى على غير عادة شعراء العربية فهو يشكو الناس ونفاقهم وظلمهم وغدرهم ، ويصور قومه ويعدد عيوبهم ، ويحرضهم على إصلاح تلك العيوب ، وقد مرت بنا نماذج من

النوعين فقصيدته التي يدعو فيها لنفسه ويعدد محاسنه ، وينعى على مواطنيه صفاتهم، وخمولهم والتي يقول فيها :

بئس العشير وبئست مصر من بلد ... أضحت مناخاً لأهل الزور والخطل
أرض تأثل فيهـا الظلم وانقذفت ... صواعق الغدر بين السَّهل والجبل

من نوع الهجاء الاجتماعي ، والمقطوعة التي يذم فيها النَّهِم الجشع من الهجاء الشخصي وإن لم يُظهر فيها أمراً شخصياً أو عداوة خاصة حفزته على هجائه وإنما ذمه بعيب عام وهو الجشع والنهم .

ومن النوع الاجتماعي قوله يذم زمانه وينعى على معاصريه تلونهم وعدم وفائهم في صداقتهم ، ولا سيا وقد خذلوه وآذوه :

أنا في زمان غادر ومعاشر ... يتلونون تلون الحرباء
أعداء غيب ليس يسلم صاحب ... منهم وإخوة محضر ورخاء
أقبحْ بهم قوماً بَلوتُ إخاءهم ... فبلوت أقبح ذمة وإخاء
قد أصبحوا للدهر سُبَّة ناقم ... في كل مصدر محنة وبلاء
وأشد ما يلقى الفتى في دهره ... فقدُ الكرام وصحبة اللؤماء
شقيَ ابن آدم في الزمان بعقله ... إن الفضيلة آفة العقلاء

فهو هنا لا يذم شخصاً بعينه لعداوة خاصة بينه وبينه ، وإنما يذم عيباً اجتماعياً متفشياً ، ولو تناول هذا العيب شاعر غربي لأظهر لنا شخصية المنافق في مسرحية شائقة ولأوسعه سخرية وتهكما . ولكن البارودي أوجز في وصفه على عادة العرب ؛ على أن له قطعاً تصويرية جميلة في هذا النوع الاجتماعي . اسمعه مثلا يصور جارة تكثر من الصخب والضوضاء ، ولها أولاد يتشاجرون كثيراً ، ويملئون الجو صراخاً وعويلا ، لا تراعي هذه الجارة حرمة الجيران ، ولا تعبأ براحة سواها ومن العجيب أن هذا العيب لا يزال منتشراً في كثير من بلدان الشرق بدعوى الحرية الكاذبة ، فترى الجار يقلق راحة جاره بشيّ

الوسائل . فتارة بالمذياع ، وأخرى بمكبر الصوت أو بالمشاجرة مع أهله وأولاده .. إلى آخر ما هنالك من أنواع المضايقات . والبارودى أديب ومفكر ، وقد ابتلاه الله بجارة مقلقة للراحة تبدد ضوضاؤها وجلبتها أفكاره وخيالاته فلا بدع إذا سخط عليها وبرم بها :

إلى الله أشكو طول ليلى وجارة تبيت إلى وقت الصباح بإعوال
لها صبية لا بارك الله فيهم قِباحُ النواصى لا يَنَمْن على حال
صوارخ لا يهدأن إلا مع الضحى من الشرفى بيت من الخير ممحال
ترى بينهم – يا فرق الله بينهم – لهيب صُياح يصعد الفلك العالى
كأنهم مما تنازعن أكلب طُرقن على حين المساء بِرِئبال
فهجن جميعاً هيجة فزعت لها كلاب القرى ما بين سهل وأجبال
فلم يبق من كلب عقور وكلبة من الحى إلا جاء بالعم والخال
وفُزعت الأنعام والخيل فانبرت تجاوب بعضاً فى رُغاء وتَصهال
فقامت رجال الحى تحسب أنها أصيبت بجيش ذى غوارب ذيّال
فمن حاملٍ رمحا ومن قابض عصاً ومن فَزِع يتلو الكتاب بإهلال
ومن صبية ريعت لذاك ونسوة هوائم دون الباب يهتفن بالوالى
فيارب هب لى من لدنك تصبراً على ما أقاسيه وخذهم بزلزال

ومن هجائه الشخصى الذى ينهش فيه العرض ، ويذم الشخص بصفات خاصة فيه حتى تؤذيه قوله ، وهو من أخف أهاجيه :

هجوته لا بالفـــا لؤمه لكننى كففت من غَرْبه
فإن أكن قد نلت من عوضه فإننى دنست شعرى به
فلا يلومن ســوى نفسه من سلط الناس على ثَلْبه

وقوله :

وقد تكوّن من لؤم ومن دنس فما يغار على عرض ولا حسب

يلتذ بالطعن فيـه والهجاء كما يلتذ بالحك والتظفير ذو الجرب

ولقد كان مولعاً بهجاء رياض (باشا)؛ إذ كان يرى فيه معولاً هداما للحركة الوطنية، وعدواً للشعب ، ونصيراً للاستبداد والظلم ، ولم يغفر له البارودى وشايته به لدى توفيق حين رأى ميوله الشعبية فأخرجه من الوزارة ولم يعد إليها إلا بعد أن ترضاه توفيق . ومن أهاجيه المقذعة فى رياض قوله :

إن ملكاً فيه رياض وزير لمباحٌ للخائنين وبلٌ(١)
أهوجٌ أحمق سقيم لئيم أغتم أبله زنيم عُتُلٌ
صَغُرت رأسه وأفرط فى الطو ل شواه وعنقه فهو صعل
أبرزت قدرة الطبيعة فيه شكل لؤم إن كان للؤم شكل
كن كما شئت يا رياض وما شا ءت رجال فأنت للؤم أهل
ليس تغنى الألقاب عن كرم الأصـل فمجد الفتى عفاف وعقل
أنت من عنصر لو اتكأ الذر م عليه لآده منه حَمل
نازعتك اليهود واختلفت فيـ ك النصارى فأنت لاشك بغل(٢)

وقد هجاه البارودى بقصيدة أخرى مطلعها :

مالى بودى يعد اليوم إلمام فاذهب فأنت لئيم العهد نمام

على أن البارودى لم يكن هجاء ، وأهاجيه الشخصية قليلة إذا قيست بشعره كله . ولكن سخطه على الناس وتبرمه بأخلاقهم وعيوبهم كثير نوعاً ما ، وهو يدل على النزعة الإصلاحية عنده ويدل على أنه قد أوذى ، ولقى من قومه محناً كثيرة ، وأنه كان يضيق بأخلاقهم ذرعاً . فهذا الهجاء الاجتماعى جديد فى شعر البارودى ، إنه صور به عصره وناسه

(١) بل : مباح ، يقال حل وبل .

(٢) هناك من يدعى أن رياضا من أصل يهودى راجع كتاب الثورة العرابية للرافعى ص ٣٧ ، ٣٨ ، وراجع كذلك Young : Egypt, p. 104

تصويراً ملوناً بشعوره الخاص ، وحسبنا من الشاعر أن يصور مايختلج فى صــدره من عوطف وأحاسيس وأن ينقل إلينا مشاعره الخاصة ، لا أن يستتر وراء سُدُف كثيفة مصطنعة من المجاملات والنفاق الاجتماعى ، والمدح الـكاذب .

(هـ) المخترعات الحديثة:

حفَـلَ القرن التاسع عشر بكثير من المخترعات الحديثة التى ذللت الطبيعة وأرضختها لخدمة الإنسان وجعلت أمور الحياة هينةأمامه .وقد أخذت مصر بنصيب من هذهالمخترعات فانتشر فيها مثلا استخدام الـكهرباء وآلة التصوير ، وعرفت فى أواخر أيام البارودى الطائرات . وماشاكل ذلك . وكان البارودى حريصاً على أن يستمد تشبيهاته من هذه المخترعات الحديثة رغبة فى الطرافة ، وتمثيل عصره ، فيقول مثلا :

تعرض لى يوماً فصورت حسنه ببلورتَى عينَى فى صفحة القلب

ويقول :

فالعقل كالمنظار يبصر مانأى عنه بعيداً دون لمس باليــد

ويقول :

فسرت بجسمى كهرباءة حسنه فمن العروق به سلوك تخبر

ويقول :

شفت زجاجة فكرى فارتسمت بها عليك من منطقى فى لوح تصوير (١)

ويقول :

جسم برته يد الضنى حتى غدا قفصا به للقب طـير يصفر
لولا التنفس لاعتلت بى زفرة فيخالنى طيــارة من يبصر

وقد يبدو على بعض هذه الأبيات شىء من التـكلف ، ولـكن البارودى ما كان

(١) ارتسمت : يريد رسمت غير موجودة بالمعاجم .

ليستطيع أن يبتعد عن استخدام هذه المخترعات فى شعره ، وهو الولوع بالتجديد فى الشعر الحريص على أن يمثل زمانه تمام التمثيل .

(ح) نظرة عامة :

رأيت مما سبق أن البارودى حاول أن يجدد فى الشعر العربى من حيث الموضوعات التى تناولها ، ولاسيما فى الوصف ، وفى الشعر السياسى ؛ ورأيت أن الوصف قدتناول نواحى عدة : من وصف للطبيعة ، والأشخاص ، وميادين القتال ، والأشياء ، وأن وصف البارودى كان فى الغالب وصفاً حسياً يقف عند القصور المشوب بشىء من العاطفة دون أن يتعمق فيه ، ويحلل ويوازن ويتخيل ، وأن موصوفاته كانت كذلك من المشاهدات غالباً ، ولم يحاول وصف الأمور المعنوية والنفسية إلا قليلا ؛ ومع ذلك فالبارودى بإفراده قصائد خاصة بالوصف وبمحاكاته الطبيعة فى شعره ، وإتيانه بالأدب الواقعى المجرد عن العواطف والأخيلة إلا القليل ، قد فتح فتحاً عظيما فى الشعر العربى ونفض عنه غبار السنين الطويلة ، وعرض القديم عرضاً جديداً شائقاً جذاباً ، ومهد الطريق لمن أتى بعده من الشعراء . ناهيك بأسلوبه الفخم الجزل ، وبعده عن الزخارف والحلى التى تطغى على المعنى وتذهب ببهاء الشعر وتدعو إلى التكلف والتعسف .

ومن أهم مزايا البارودى أنه كان بعيداً عن التكلف ، بل كان ينطلق على سجيته ويظهر كل ما فى نفسه ، ويصور مشاعره السارة والحزينة دون إخفاء أى شىء منها ؛ وقد يغلبه التقليد للقديم أحياناً فيخالف طبعه ، ويسير على غير سجيته ، ويتكلف القول محاكياً القدماء ، وتلمس أثر هذا التكلف واضحاً ليس عليه طابع البارودى ولا شخصيته ، وقد مر بنا عند الكلام على القديم فى شعره نماذج من هذا الطراز .

وهناك أغراض تقليدية قال فيها الشعراء منذ عصر امرىء القيس ، وقال فيها البارودى كذلك مثل : الرثاء والمدح والحكمة وما شاكل هذا . ولا نستطيع أن نختم الكلام على البارودى قبل أن نرى موقفه من هذه الأغراض .

الرثاء :

ولم يرث البارودى إلا صديقاً أو قريباً ، فلم يكن رثاؤه مفتعلا أو من شعر المناسبات وإنما كان منبعثاً عن عاطفة صادقة ، وقد تمثل فى رثائه كل ما يخطر ببال الراثى ، من تفجع وشكوى من الزمن والحياة وسخطه عليهما وإظهار لمحاسن المرثى ، وبعض الحكم يتأسى بها الشاعر أو يعظ بها غيره ، ويقدم العزاء أحياناً لأهل الميت ، وإن لم يحاول الوقوف على سر الحياة الأخرى وأن يستشف ما بعد الموت كما كان يفعل شوقى . وقد يأتى البارودى ببعض المعانى القـــديمة فى قصائد الرثاء كأن يدعو الله أن ينزل الغيث على جدث الميت وما شابه هذا من الصيغ التقليدية المعروفة . وهو يظهر الجزع والحزن الشديد دون مبالغة جارفة فى النعوت التى يضفيها على الميت ، وجزعه وحزنه يدلان على عاطفة مشبوبة وقلب وفىّ ، ولا سيما وقد قال معظم مراثيه وهو فى المنفى فزاد فى أساه لوعة النوى عن الوطن ، وحرمانه التزود من الميت بنظرة أو حديث ، ودعاه هذا إلى توجيه الخطاب للشامتين به فى نكبته ومحنته وأن يظهر لهم التجلد فى أخريات قصائده وأنه لا زال صلب العود ولا سيما إذا كان الميت من ذوى قرابته .

ومن أحسن مراثيه قوله فى ولده على :

كيف طوتك المنون يا ولدى ؟ ... وكيف أودعتك الثرى بيدى ؟

وا كبدى ، يا على بعدك لو ... كانت تبل الغليل وا كبدى !!

فقدك سَل العظام منى ورم ... دَّ الصبر عنى وفت فى عضدى

كم ليلة فيك لا صباحَ لها ... سهرتها باكيا بلا مدد

دمع وسهد ، وأى ناظرة ... تبقى على الدمعين والسهَّد ؟ !

لهفى على لمحة النجابة لو ... دامت إلى أن تفوز بالسدد

ما كنت أدرى إذ كنت أخشى علي ... ك العين أن الحمام بالرصد

فاجأنى الدهر فيك من حيث لا　　أعلم ختلا والدهر كالأسد
لولا اتقـاء الحياة لاعتضت بالـ　　حلم هـُيامنا يحيق بالجلد
لـكن أبت نفسىَ الـكريمة أن　　أُثلم حد العزاء بالـكمد
فذبيك قلبى عليك ، فالعين لا　　تبلغ بالدمع رتبة الَخلد[1]
إن يك أخنى الردى عليك ، فقد　　أخنى أليم الضنى على جسدى
عليك منى السلام توديع لا　　قال ، ولـكن توديع مضطهد

ومن رثائه الذى ينم عن عاطفة صادقة ، ويظهر فيه الأسى واللوعة ، وعظيم التفجع من غير مواربة أو تحفظ رثاؤه لزوجته ، وقد ورد إليه نعيها وهو بسرنديب ، وعلى الرغم من أن رثاء الشعراء لزوجاتهم قليل فى الأدب العربى ، فإن قصيدة البارودى هذه تعد من عيون قصائد الرثاء ، وهى تدل على الوفاء والمحبة وعلى فرط حساسيته ويقول فى مطلعها :

أيدَ المَنون قَدَحْت أىّ زنادِ　　وأطَرت أيَّةَ شعلة بفؤادى

ومنها :

لا لوعتى تدعُ الفؤاد ولايَدى　　تقوى على ردّ الحبيب الغادى
يا دهرُ فيمَ فجعتنى بحليلة　　كانت خُلاصةَ عُدتى وعَتادى؟
إن كنت لم ترحم ضناى لبعدها　　أفلا رحمتَ من الأسى أولادى
أفردتهُنّ فلم يَنمْنَ توجعاً　　قرحَى العيون رواجف الأكباد
يبكين من وَله فراق حفية　　كانت لهن كثيرة الإسعاد
فخدودهن من الدموع ندِيَّةٌ　　وقلوبهن من الهموم صوادى
أسليلة القمرين ! أى فجيعة　　حلت لفقدك بين هذا النادى ؟
أعزز علىّ بأن أراك رهينةً　　فى جوف أغبرَ قاتم الأسداد
أو أن تبينى عن قرارة منزل　　كنتِ الضياء له بكل سواد

(١) الخلد : القلب ، أى أن العين مهما بكت لايصل حزنها إلى منزلة حزن القلب .

لو كان هذا الدهرُ يقبل فديةً　　بالنفس عنكِ لكنتِ أول فادى

ثم يذكروفاءه لها ، ولعله بذلك يسوغ رثاءه لها على الرغم من شهرته بالجلد والشجاعة ولأنه لم تجر العادة بأن يرثى الشعراء زوجاتهم إلا فى النادر : ولعل ظرف البارودى ، وبعده فى المنفى عن أهله وأولاده ، ورعاية هذه الزوجة لهؤلاء الأولاد هو الذى حز فى نفسه ، وتذكر أيامه الطيبة السعيدة فى عش الزوجية بوطنه الحبيب ، كما أنه كان يتخيل أن كل كارثة تحل بهم تشمت به الأعداء فيزيد ذلك من لوعته ؟ قال :

جَزَعُ الفتى سِمَةُ الوفاء ، وصبرُه　　غَدْرٌ يَدُلُّ به على الأحقاد

ومن البليَّة أن يُسام أخو الأسى　　رَعْىَ التجلُّدِ وهو غير جماد

وإذا عددت مراثيه وجدته رثى أصدقاءه الأدباء الذين كانت بينهم وبينه آصرة محبة ووداد ، وتقدير وتفاهم ، مثل أحمد فارس الشدياق ، وعبد الله فكرى ، وحسين المرصفى ووجدته رثى أولاده ، وزوجه ، ورثى والده وإن كان قد توفى وهو صبى كما عرفناه ؛ ولذلك جاء رثاؤه لوالده خالياً من العاطفة فيه كثير من الفخر ، ليس فيه تفجع الحزين ، ولا حسرات الفراق ، وبه كثير من المبالغات غير المقبولة ، وفيه يقول :

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادى　　طاح الردى بشهاب الحرب والنادى

مات الذى ترهب الأقران صولته　　ويتقى بأسه الضرغامة العادى

جف الندى ، وانقضى عمر الجدى وسرى　　حكم الردى بين أرواح وأجساد

المدح :

واقتصر فى مدحه على ولاة مصر : اسماعيل ، وتوفيق ، وعباس ، وهو فى مدحه لاينسى مصر وموقف الوالى منها ، وما قدم لها أو ما يرجى على يديه من خيرات لمواطنيه. فيمدح توفيقا لعزمه على الأخذ بالشورى والعدل .

ويستطرد إلى مدح النظام الشورى وأنه من تعاليم الإسلام ، والأمة التى لا تأخذ به

مصيرها إلى الانهيار ، والملك الذى لا يتبعه ملك غير عادل ، وملكه سرعان ما يدب إليه الضعف ؛ وهو فى مدحه لعباس يذكر عدله وأريحيته ، وما يرجى على يديه من نفع ، وقد مدح عباساً لأنه عفى عنه وأعاده إلى وطنه ، فكان لزاماً عليه حين يمدحه أن يذكر له هذه اليد الكريمة . أما اسماعيل فقد مدحه حين ولى على أريكة مصر ، وقدم نفسه لإسماعيل وأطراها ، وأظهر استمداده لخدمته وخدمة وطنه . هذا ولم يغفل أن يثنى على كل ممدوحيه وينعتهم بكرم الأصل وحب الخير والعدل وأنهم ذوو هيبة وشمائل كريمة . . . الخ هذه الصفات المعروفة والمعانى المطروقة ، وقد مرت بنا بعض أبيات من مدحه لتوفيق وعباس ، وهاك بعض ما قاله فى اسماعيل حين ولى أريكة مصر :

طربَ الفؤاد وكان غير طروب ... والمرء رهن بشاشة وقطوب
وردالبشير ، فقلت من سَرَفَ المنى ... أعِدِ الحديث علىّ فهو حسيبى
خَـبرٌ جلا صدأ القلوب فلم يدع ... فيها مجـال تحفز لوجيب
فلتهنَ مصرُ وأهلُـها بسلامة ... جاءت لها بالأمن بعد خطوب
بالماجد المنسوب ، بل بالأروع ا ... مشبوب ، بل بالأبلج المعصوب[1]
ربُّ العلا والمجد (اسماعيل) من ... وضحت به الأيام بعد شحوب
ورد البلاد وليلُـها متراكب ... فأضاءها كالكوكب المشبوب
برويـةٍ تجلو الصواب وعزمة ... تمضى مضاء اللهذم المذروب[2]

ويقول فيها :

وأعاد مصر إلى جمال شبابها ... من بعد ما لبست خمارِ مشيب
فتنعمت من فيضه فى غبطة ... وتمتعت من عدله بنصيب

(١) المنسوب ذو النسب ، والأروع . من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشاعته ، والمشبوب : الحسن الوجه . والبلجة (بضم فسكون) : الضوء ، ونقاوة ما بين الحاجبين ، ويقال للرجل الطلق الوجه أبلج ، والمعصوب : المتوج .
(٢) المذروب : المحدد المسنون .

ويقدم نفسه لاسماعيل بقوله :

فاسمع مقالة صادق لم ينتسب　　لسواك فى أدب ولا تهذيب
أوليته خيراً ، فقام بشكره　　والشكر للإحسان خير ضريب
فاعطف عليه تجد سليل كرامة　　أهلا لحسن الأهل والترحيب
ينبيك ظاهره بود ضميره　　والوجه وسمة مخلص ومريب
وإليك من حَوْك اللسان حبيرةً　　يغنيك رونقها عن التشبيب
حضرية الأنساب إلا أنها　　بدوية فى الطبع والتركيب

ولم يكن البارودى شاعراً مداحاً متكسباً بشعره كما درج على هذه العادة معظم الشعراء فى الأدب العربى ، ولكنه كان أميراً فارساً عفيفاً يقول الشعر للتعبير عن خلجات فؤاده وقد قال :

الشعر زين المرء مالم يكن　　وسيلة للمدح والذام

وهو إذا مدح لم يقصد بمدحه العطاء ، وإنما للتعريف بمنزلته ، أو الشكر على يد أسديت إليه ، أو حث على مكرمة ، ومديحه خال من المبالغات المذمومة والنعوت الموهومة وهذا طبيعى ما دام لم يقصد بمدحه صلة أو عطية ؛ لأن الشعراء إنما لجئوا إلى هذه المبالغات ظناً منهم أنها تزيد فى عطائهم ، وأن نفس الممدوح تسر لها فيغدق عليهم جزيل الهبات .

فخره :

وقد افتخر البارودى كما عرفت بنسبه وحسبه ، وافتخر كذلك بشجاعته وفروسيته وقد أكثر من القول فى هذا المعنى وله فيه مبالغات سخيفة ؛ فمن ذلك قوله يفتخر ببأسه ونجدته وأنه ملك أزمة الفصاحة والبيان ، وأن الزمان لو تقدم به لبذ الشعراء الفحول ولسطر اسمه على جبين التاريخ بالفخر إلى آخر هذه المعانى المعروفة من مثل قوله :

ولى شيمة تأبى الدنايا وعزمة　　ترد لهام الجيش وهو يعود

إذا سرت فالأرض التى نحن فوقها مَرادٌ لمهرى والمعاقل دور
فلا عجب إن لم يَصرنْىَ منزل فليس لعقبان الهواء وكور
وأصبحت محسود الجلال كأننى على كل نفس فى الزمان أمير
إذا صُلْتُ كف الدهر من غُلَوائه وإن قلت غصّت بالقلوب صدور
ملكت مقاليد الكلام وحكمة لها كوكب فخم الضياء منير
فلو كنت فى عصر الكلام الذى انقضى
لباء بفضلى (جِرول) و (جرير)
ولو كنت أدركت النواسىّ لم يقل « أجارةَ بيتَيْنا أبوك غيور »
وما ضرنى أنى تأخرت عنهم وفضلىَ بين العالمين شهير
فيارُبما أخلى من السبق أولٌ وبذ الجياد السابقات أخير

ويسود هذا النوع من الفخر شعر البارودى ، ويبين أنه محسود المكانة ، وأنه فريد عصره وواحد دهره كما يقول :

فإن أكن عشت فرداً بين آصرتى فهأنا اليوم فرد بين أندادى
بلغت من فضل ربى ما غنيت به عن كل قار من الأملاك أو باد
فما مددت يدى إلا لمنح يد ولا سعت قدمى إلا لإسعاد

الزهد :

ولعل قوله فى الزهد يرجع إلى تلك الحالات النفسية التى غلبه فيها اليأس على أمره وهو وحيد شريد يعانى غصص الفراق والنفى ، وإلا فهذه النفس الطّموح التى خاطرت وغامرت وتطلعت إلى الملك وتلذذت ونعمت بالحياة كانت بعيدة عن الزهد فى الحياة ، ولعلها لم تزهد إلا مرغمة . وعلى كل فما قاله فى الزهد قليل مما يدل على أنه أثر لنوبات كانت تعتريه فيتشاءم من الدنيا ويتذكر الموت ، والموت يذكره بالعمل الصالح والإقلاع عن الغواية والجهل ، ويذكره بمن ماتوا قبله من ملوك وأمراء وأصحاب عروش وضياع ، ذهبوا وذهبت دنياهم

الحافلة باللذات ، وعمرت منهم القبور ؛ ولم يذد عنهم الموتَ ما ُلهم ولا جاههم إلى آخر هذه المعانى التى استنفدها من قبل أبو العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس وأضرابهما من مثل قوله :

كل حى سيموت   ليس فى الدنيا ثبوت
حركات سوف تفنى   ثم يتلوها خفوت
وكلام ليس يحلو   بعده إلا السكوت
أيها السادر قل لى   أين ذاك الجبروت ؟
كنت مطبوعاً على النط   ق فما هذا الصموت ؟
ليت شعرى أهمود   ما أراه أم قنُوت ؟
أين أملاك لهم فى   كل أفق ملكوت ؟ !
زالت التيجان عنهم   وخلت تلك التخوت

ومما يتصل بهذا الموضوع مدحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد مدحه بقصيدة طويلة يتوسل فيها بجاهه ويطلب شفاعته ، ويرجو الرحمة والمغفرة من الله بسببه ويقول :

هو النبى الذى لولا هـــدايته   لـكان أعلم من فى الأرض كالهمج
أنا الذى بت من وجدى بروضته   أحن شوقاً كطير البانة الهزج
هاجت بذكراه نفسى فا كتست وَلَهاً   وأىُّ صب بذكر الشوق لم يهج
يارب بالمصطفى هب لى وإن عظمت   جرائمى — رحمة تغنى عن الحجج
ولا تكلنى إلى نفسى فإن يدى   مغلولة ، وصباحى غير منبلج
مالى سواك وأنت المستعان إذا   ضاق الزحام غداة الموقف الحرج

الحكم :

وقد أكثر البارودى من قول الحكم ، ومعظمها حكم غير مبتكرة وقع عليها السابقون وصاغها البارودى صياغة جديدة بأسلوبه الجزل الفخم ، وقد وردت له كثير من الأبيات

السائرة التي صارت كأنها أمثال كقوله :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب

وقوله :

وقليلا ما يصلح المرء للجد إذا كان ساقط الأجداد

وقوله :

لعمرك ما في الدهر أطيبُ لذةً من اللهو في ظل الشبيبة واليسر

وقوله :

إذا ساء صنع المرء ساءت حياته فما لصروف الدهر يوسعها سبا

ومن أبيات الحكمة التي اشتهر بها قوله :

والدَّهرُ كالبحر لا يَنفكُّ ذا كدر وإنما صفوه بين الورى لُمَعُ
لو كان للمرء فكر في عواقبه ما شان أخلاقه حِرْصٌ ولا طَبَعُ(١)
وكيف يُدْرِكُ ما في الغيب من حَدَثٍ من لم يزل بغرور العيش ينخدعُ
دهر يَغُرُّ ، وآمال تسرُّ وأعـ مارٌ تمرُّ ، وأيام لها خُدَعُ
يسعى الفتى لأمور قد تضر به وليس يعلم ما يأتي وما يَدَعُ
يأيها السادرُ المزورُّ من صَلَفٍ مهلاً فإنك بالأيام منخدع
دع ما يَريب ، وخذ فيما خُلقتَ له لعل قلبك بالإيمان ينتفع
إن الحياة لثوبٌ سوف تخلعه وكلُّ ثوب إذا ماربًّ ينخلع

وهي حكم قريبة المعنى مأخوذة من تجارب عادية ليست فيها فلسفة عميقة ، ولا تدل

---

(١) الطبع : الدنس والدنس والعيب .

على مذهب فى الحياة ومصيرها ومصدرها ، أو على نظرة عامة شاملة للكون ، وإنما هى نظرات عابرة ليس فيها تحليل دقيق ، ولا سبر لأغوار الحياة والمجتمع ونفسيته ، ولكنها حلوة الصياغة خفيفة على الألسنة متقنة السبك .

وبعد فهذه معظم الموضوعات التى تكلم فيها البارودى وقد عقبنا على كل موضوع بكلمة موجزة ، وعرفنا إلى أى حد مشى البارودى فى ظل القدماء وإلى أى حد تميزت شخصيته ، وبرزت خصائصه ، وفى شعر البارودى هنات .

هنات :

وهذه الهنات قليلة لا تقدح فى منزلته ولا تنقض من شأنه ، وبعض هذه الهنات ترجع إلى :

١ — لغويات : فاستعمل البارودى كلمات كثيرة غير موجودة فى المعاجم ولا يعين عليها الاشتقاق الصرفى من مثل قوله (حمامة نفس) فهذا المصدر بالمعنى الذى يريده أى قوة العزم غير موجود فى المعجمات التى بين أيدينا ، وقد يلتمس له تخريج بعيد ، فيه كثير من التعسف . ومن مثل قوله : (يكفيك منه إذا استحس) يريد أحس ، ومثل قوله :

شفت زجاجة فكرى فارتسمت بها عاياك من منطق فى لوح تصوري

فارتسمت بمعنى رسمت غير موجودة بالمعجمات ، ومعناها فى المعاجم امتثل ؛ ومثل قوله :

فكم سملوا عيناً بها تبصر العلا وشلوا يدا كانت بها راية النصر

والفعل شل لازم ، ويتعدى بالهمزة فيقال . أشل الله يد فلان . واستعمله الشاعر هنا متعدياً بنفسه ، وقد يوجد له تخريج بعيد .

ومن مثل قوله :

« تمد يداً نحو السماء خضيبة » وخضيب على وزن فعيل بمعنى مفعول أى مخضوبة ،

ويستوى فيه المذكر والمؤنث إن تبع الموصوف ، ولهذا قالوا : كف خضيب وامرأة خضيب. فاستعمال خضيبة خطأ .

ومثل قوله .

فما أبصرته الخيل حتى تمطرت بفرسانها واستتلعت كيف تخلص

وليس بالمعجمات استتلعت ، وإنما بها تلعت بمعنى مدت أعناقها . وقد يقال إن زيادة الهمزة والسين والتاء للطلب قياسية عند بعض الصرفيين .

٢ — وقد يخطىء البارودى فى الأساليب العربية فى مثل قوله :

إذا راطنوا بعضاً سمعت لصوتهم هديداً تكاد الأرض منه تميد

والفصيح إذا راطن بعضهم بعضاً .

ولكن هذا قليل فى شعره ، لأنه طبع على قول الفصيح لكثرة محفوظه من كلام العرب الخلص .

٣ — ومن المآخذ التى كثيراً ما يُعَيَّر بها البارودى اتهامه بسرقات شعرية تأتى فى صورة أبيات أو أنصاف أبيات من مثل قوله :

على طلاب العز من مستقره ولا ذنب لى إن عارضتنى المقادر

وهو من قول أبى نواس :

على طلاب العز من مستقره ولا ذنب لى إن حاربتنى المطالب

ومثل قوله :

تميل من الدنيا إلى ظل مزنة لها بارق فيه المنيــة تلمع

فالشطر الثانى مأخوذ من قول أبى العتاهية .

لها عارض فيه المنية تلمع

وقول البارودى :

قد يظفر الفاتك الألوى بحاجته ... وليس يدركها الهيابة الخلط

مأخوذ من قول الشاعر العباسى :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وقوله :

وما الحلم عند الخطب والمرء عاجز ... بمستحسن كالحلم والمرء قادر

مأخوذ من قول المتنبى :

كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجة لاجىء إليها اللئام

وهناك أبيات كثيرة تدل على نظرته إلى أشعار القدماء ؛ وقد ذكرنا آنفاً أن البارودى لم يسرق ، ولم يتعمد أخذ هذه الأبيات والسطو عليها ، وإنما كثر محفوظه ، وتأثر به كل التأثر ، ولا سيما إذا كان يعارض قصيدة لشاعر مجيد ، فإنه يجاريه حتى لقد يختلط شعره بشعره وتتعذر التفرقة بينهما ، وذلك لجودة محاكاته وسلامة طبعه ، وقد تردُ على لسانه كلمات أو أبيات من أشعار القدماء دون أن يدرك ، لأنها من محفوظه وقد عرفنا أنه لم يتعلم قواعد اللغة والصرف وغيرها وإنما صار يقرأ الشعر ويحفظه حتى مرن لسانه على قوله وتملك أزمة اللغة ، وطبع على الفصاحة ، كل هذه الهنات التى ذكرناها مصدرها اعتداده بنفسه واعتماده على ذاكرته وعدم دراسته المنظمة ؛ ولكنها تافهة لا تغض من شعره أو تضير منزلته بشىء .

٤ — هذا وللبارودى مبالغات سقيمة من مثل قوله :

وما زاد ماء النيل إلا لأننى ... وقفت به أبكى على الأحباب

ويكرر هذا المعنى فى قوله :

وكفكفت دمعاً لو أسلت شئونه ... على الأرض ماشك امرؤ أنه البحر

ومن مثل قوله :

إذا تنفستُ فاضت زفرتى شرراً ... كما استنار وراء القدحة اللهب

على أنها تغتفر له فإنها خيالات شاعر .

منزلته :

يدين الشعر العربى الحديث للبارودى بأنه النموذج الحىُّ الذى احتذاه الشعراء من بعده وساروا على نهجه فى أسلوبه وأغراضه وذلك لأنه أتى — كما رأيت — بشعر جزل رائق الديباجة عذب النغم فى حقبة ساد فيها شعر الضعف والصنعة وضحالة المعنى وعقم الخيال ، ثم إنه مثل عصره أتم تمثيل وكان صدى لحوادثات بيئته فكان قدوة لمن جاء على أثره فى التجديد .

أضف إلى ذلك أنه علمهم كيف يتجهون إلى الأدب العربى فى أزهى عصوره ويغترفون من ذخائره بحيث لا تفنى شخصياتهم ، فيقوى أسلوبهم وتشرق ديباجتهم ويبعدون عن الحلى المتكلفة ، وبذلك سار الشعر من بعده إلى الأمام ولم يرجع أبداً إلى عصور الضعف والركاكة .

وممن تتلمذ على البارودى واقتفى أثره عدد كبير من شعراء العربية اتخذوه إمامهم غير مدافع كشوقى وحافظ والرافعى وصبرى وعبد المطلب والجارم والكاظمى والرصافى وأحمد محرم والكاشف ونسيم والزين وغيرهم ، على تباين بينهم فى حظ كل منهم من التجديد والتأثر بثقافة الغرب ومذاهبه الأدبية .

وعلى الرغم من قيام مدرسة مجددة نشيطة يتزعمها مطران وشكرى والمازنى والعقاد

وأبو شادى ، فلا زال كثيرون فى البلاد العربية بعامة ، وفى مصر بخاصة ، يحنون إلى ديباجة البارودى وموسيقى مدرسته مع الأخذ بطرف من الجديد فى المعانى والأخيلة والصور .

وحسب البارودى فخراً أنه أحيا الشعر بعد مواته على غير مثال سبق من معاصريه .

ونقول مع هيكل : إنه كان مجدداً فى كل بيت من أبياته حتى فى معارضاته للقدماء والنهج على منهجهم .

هذا وقد حاول البارودى التجديد فى الأوزان فنظم قصيدة من تسعة عشر بيتاً على وزن جديد هو مجزوء المتدارك ، ولم يسبق للعرب أن نظموا منه ، وإنما ورد المتدارك عندهم كاملاً أو مشطوراً ، تلك هى القصيدة التى يقول فى أولها :

أملأ القدحْ واعص مَنْ نصح
وارو غُلَّتى بابنة الفرح
فالفتى متى ذاقها انشرح

وقد نظم شوقى من هذا الوزن الذى اخترعه البارودى قصيدته التى مطلعها :

مال واحتجب وادَّعى الغضب
ليت هاجرى يشرح السبب

الفصل الخامس

نهضـــة النـــثر

عرفت فيما سبق كيف أن الصحافة فى عصر اسماعيل نهضت بلغة الكتابة ، وحررت النثر من السجع المتكلف ،والإمعان فى طلب المحسنات البديعة ، وأنها تناولت موضوعات شتى مما يمس الحياة العامة ومشكلات الشعوب ، بيد أن نظرتنا ثمة كانت عابرة ، لم تقف طويلا لتتعرف على خصائص هذا النثر ومميزاته الفنية ، والموضوعات المتباينة العديدة التى خاض غمارها ، والعوامل الكثيرة التى تضافرت على النهوض به ، والتى اتخذت من الصحافة منبراً يذيع على الناس فكراً جديدا .

ورأيت أن المدرسة الديوانية التى مثلها عبدالله فكرى لم تتناول السياسة والاجتماع والإصلاح ، وأن موضوعاتها لم تتعد الأمور الشخصية أو الأدبية البحتة كرسائل التعزية والتهنئة والاعتذار والرجاء ،أو وصف منظر جميل أو آنية أنيقة الصنع ... وماشا كل ذلك مما يكون مبعثه الشعور الشخصى .

ولقد شهدت أخريات عهد اسماعيل ، وعهد توفيق لوناً جديداً من النثر ، وأدباً ينبض بالحياة وبالحرارة رأينا نتفاً منه قبل[1] وآن لنا أن نخصه بنظرة واسعة .

(١) موضوعاته :

أما موضوعات هذا النثر فكانت واسعة الأفق ، وتناولت مشكلات الحياة ومايهم الشعوب ومايبعث على اليقظة والنهضة ممثلة فى :

١ — الدفاع عن الشعوب المظلومة التى ظلت تئن تحت نير العبودية والعسف قروناً

---

(١) راجع ما كتبناه عن الشدياق وأديب إسحق فيما تقدم .

مديدة ، لاتعرف كيف تراجع الحاكم فى حكم أبرمه ولو كان ظالماً ، ولا كيف تثور وتشكو وتئن وتتوجع وتسمع شكاتها للعالم ،والحاكم سادر فى غلوائه،يمتص دماءها ، ويسخرها لأهوائه وشهواته ؛ ولا يفكر فى نفعها إلا بمقدار مايعود عليه هو من الفائدة ، استمع للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كيف يصور لك حال مصر قبل أن يشيع هذا الأدب الجديد والفكر الجرىء فى أرجائها .

« إن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ، ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله أو خيانته وظلمه،ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده . أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم . وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوربية — ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا وتعلم فيها من عهد محمد على الكبير إلى ذلك التاريخ ، وذهاب العدد الكثير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد على باشا الكبير وإبراهيم باشا لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف . ومع أن اسماعيل باشا أبدع مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأناً فى مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده فى النظام وفى العمل،ولو حدثت إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة خير غير التى يوجهاإليه الحاكم لما أمكنه ذلك ؛ فإن بجانب كل لفظ نفياً عن الوطن ، أو إزهاقاً للروح ، أو تجريداً من المال » .

وكان الأدب صدى لهذه الحياة البئيسة التى تقبر فيها الحريات وتغل العقول ، يتغنى

بما قام به هذا الحاكم الظالم من أفعال وضيعة ، ويصور سيئاته حسنات ، وسخافاته آيات ، وحماقاته معجزات ، ولكن الأدب الجديد أخذ ينظر إلى هذه الشعوب ، ويجعل خيرها غايته فيجمعهم على من اعتدى عليها ، ويبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم وأدوائهم ، وطرق علاجها ، ويقف للحكام بالمرصاد يذيع سيئاتهم ومظالمهم وينقدهم فى غير هوادة أو رفق ، ويشجع أفراد الأمة على المطالبة بحقوقهم ، وألا يخشوا بأس الحاكم وجبروته ، لأنه مدين بقوته لهم ، وبغناه وضياعه لكدهم وكدحهم . واستمع كذلك إلى الأستاذ الشيخ محمد عبده كيف يحرض الأمة على خلع نير العبودية ، والحد من سطوة الحاكم الغاشم ، وينعى عليه جهله وسفالته :

« إن الأمة التى ليس لها فى شئونها حل ولا عقد ، ولا تستشار فى مصالحها ولا أثر لإرادتها فى منافعها العمومية ، وإنما هى خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ومشيئته نظام ، يحكم مايشاء ويفعل مايريد ، فتلك أمة لاتثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير ، فتعتورها السعادة والشقاء ، ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر ، ويتناوبها العز والذل ، وكل مايعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها ، فهو تابع لحال الحاكم. فإن كان حاكمها عالماً حازماً أصيل الرأى ، علىّ الهمة ، رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل ورفع فيها منار العلم ، ومهد لها طرق اليسار والثروة ، وفتح لها أبواباً للتفنن فى الصنائع والحذق فى جميع لوازم الحياة وبعث فى أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلى بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة ، وإباء الضيم ، والأنفة من الذل ، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة وتقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير .

وإن كان حاكمها جاهلا ، سيىء الطبع ، سافل الهمة ، جباناً ضعيف الرأى أحمق الجنان ، خسيس النفس ، معوج الطبيعة أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوى الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر ، وجار فى سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبواباً للعدوان فيتغلب القوى على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد

الأخلاق ، وتخفض الكلمة ويغلب اليأس فتمتد إليها أنظار الطامعين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها فى أحشاء الأمة . عند ذلك إن كان فى الأمة رَمَقٌ من الحياة ، وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيرا ، اجتمع أهل الرأى وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة ، واستئصال جذورها ، قبل أن تنشر الرياحُ بذورَها ، وأجزاءها السامة القاتلة بين جموع الأمة فتميتها وينقطع الأمل من العلاج(١) » .

بمثل هذا الأدب أخذ المصلحون ينادون الشعوب المستكينة للذل ويوقظونها من سباتها العميق ويندون بما عليه أبناؤها من جبن وخور ، فلا يغضبون لكرامة امتُهنت ، ولا يثورون لعفاف ثُلم ، وشرف دُنِّس :

« الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها ، هو الذى قطع روابط الأمم فحل نظامها ، هو الذى وهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم ، هو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين ، يسهل على النفوس احتمال الذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهوِّن عليها حمل نير العبودية الثقيل . يوطن النفس على تلقى الإهانة بالصبر والتذليل بالجلد ، ويوطىء الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب أثقل مما كان يُتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والإقدام . الجبن يُلبس النفس عاراً دون القرب منه موتٌ أحمر عند كل روح زكية وهمة علية ، يرى الجبان وعر المذلات سهلا ، وشظف العيش فى المَسْكنات رفها ونعيما »

« من يَهُنْ يسهل الهون عليه   ما لجرح بميتٍ إيلام »(٢)

وإذا جاوز الحاكم حدَّه ، طغى وبغى واستبد ، وباع بلاده للأجانب الطامعين المستعمرين الغاصبين ، ونكل بالأحرار المفكرين كما فعل نوبار باشا مثلا حين طلب إبعاد الزُّبير باشا من مصر ، وحين حارب كثيرين من المصلحين ، وحين مكن للانجليز فى وادى النيل ، فإن زعماء الإصلاح لا يترددون فى التحريض على قتله ، وتخليص الأمة منه .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الثانى ص ٣٣١ والعدد الرابع عشر من مجلة العروة الوثقى .
(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ص ٣٢٨ .

« إنى أتعجب ، وكلُّ ذى إحساس يتعجب من سكان الديار المصرية من المصريين والأتراك والحجازيين واليمانيين ، ألا يوجد بين هؤلاء فتى يشمر عن ساعده ويتقدم بصدره ، ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمنى فيبطل هذه الصفقة وينقض هذه البيعة ، ويكشف له وللمغرورين من أمثاله حقيقة الوطنية ، ويرفع الحجاب عن واجبات المليَّـة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ! إن المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل فى ذل ، ويعيشون من خوف العبودية فى العبودية ويتجرعون مرارات سكرات الموت فى كل لحظة خوفاً من الموت . لا الدين يسوقهم إلى مرضاة الله ، ولا الحمية تدفعهم إلى ما به فخار الإنسان »(١) .

وانصت إلى السيد جمال الدين الأفغانى كيف يثير فى النفوس الحمية ، ويريدها متمردة على الطغيان والعسف والهوان ، وينعى على المصريين خورهم واستكانتهم إلى كل من يحكمهم ؛ فقد روى سليم عنحورى عن السيد جمال الدين قوله : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوامَ حياتكم ومواد غذائكم التى تجمعت بما يتحلَّب من عرق جباهكم بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم معرضون . فلو كان فى عروقكم دمٌ فيه كُرَياتٌ حيوية ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة . تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهياكل ممفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ؛ فهى شاهدة بمَنَعَةَ آبائكم وعزة أجدادكم .

---

(١) مجلة العروة الوثقى القسم الثانى ص ١٤٢ .

هبوا من غفلتكم . . . ! اصحوا من سكرتكم . . . ! عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء . (١) .

بل كان السيد جمال الدين فى غاية الجرأة يحرض على الثورة علانية فى كلمات ملتهبة تثير الهمم الخامدة ، وتحيى العزائم الميتة ، وتحرك العقول الجامدة من مثل قوله من خطبة له بالإسكندرية قبيل خلع الخديو اسماعيل :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ »(٢) .

ومن الكلمات التى تتلظى لهباً ، وتتقد غيرة وحماسة حين تصور بؤس المصريين وكيف يسومهم حكامهم العسف والخسف تلك الكلمة التى كتبها أديب إسحق وهو مريض بباريس تحت عنوان « نفثة مصدور » ويوازن فيها بين الحياة النيابية الحرة فى فرنسا وحياة الاستبداد بمصر فيقول : « وأنا تحت سماء الإنصاف على أرض الراحة ، بين أهل الحرية أسمع ألحانا فى مجالس العدل ، فأذكر أنين قومى فى مجالس الظلمة ، وتحت سياط الجلادين ، فأنوح نوح الثاكلات ، وأرى علائم النعمة فى معاهد المساواة ، فأذكر شقاء بنى ربى فى ربوع الظلمة ، فأذرف الدمع ممتزجاً بسواد القلب فأكتب إليهم : ياقوم ظلمتم غير معذورين ، وصبرتم غير مأجورين وسعيتم غير مشكورين ، فهلكتم غير مأسوف عليكم ، تصبرون على الظلم حتى يحسبه الناظر عدلا ، وتبتسمون للقيد حتى يظنه الناقد حليا ، وتخفضون للظالمين جناح الذل حيث يقول من يراكم ما هؤلاء بشر إن هم إلا آلة سخرت للناس ، يفلحون بها الأرض ويزرعون . يقلب الجائرون عليكم أنواع المكايد وأصناف الحيل وألوان الخداع فيما يختلسون كما تقلب المشعوذة لدى الأطفال أوجه الودعات فى استخراج ما يضمرون .

---

(١) سليم عنحورى . تاريخ محمد عبده لرشيد رضا ج ١ ص ٤٦ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن : أحمد شفيق ص ١٠٩ .

رأيت فلاحهم فى حقله الصغير يتناول الطعام أكلاً مريئاً ، وينام القيلولة نوماً هنيئاً ، ويأوى إلى البيت فيأكل بين عياله ويتلو عليهم صحيفة النهار ، ثم ينام ملء عينيه ، لا يحلم بسوط المأمور ولا يتصور عصا الشيخ ، ولا يتذكر حبس المدير ، فتخيلتكم بين السواقى والأنهار تشتغلون سحابة اليوم لتجتمعوا على القصعة السوداء فتلتهموا فتات الشعير ، وتنكبوا على التُرْعة فتشربوا الماء الكدر . تعودون إلى الأرض المريعة تزرعونها ، والغلّة الوفيرة تحصدونها لتنصرفوا إلى أكواخ بالية تشبه قبوراً توالت عليها السنون ، فيجتمع من حولكم صغار لا تعرف أبدانهم الوقاء ، ونساء تعوّضن الأقذار عن الكساء ثم يأتيكم المأمور سالبا ، والشيخ غاضباً ، والمدير ناهبا ، فأنتم فى بلاء مستقر ، وعناء مستمر ، تحصدون البُرّ ولا تأكلون ، وتملكون الأرض ولا تسكنون »(١) .

بل استمع إليه يحرض على الثورة جَهْرَةً فى كلمته التى كتبها تحت عنوان « التردد » وهو فيها لا يقل حمية وحماسة عن جمال الدين ، ساقها فى أسلوب شعرى يهيج العواطف وذلك حيث يقول :

« قد بُليتم بما يذيبُ الشحم ويفرى اللحم ، ويُنَقِّى العظم وأنتم صابرون ؛ ومُنيتم بما وفر النِّقم وغير النِّعم وأهلك النَّعم وأنتم صامتون ، ورزئتم بما جلب المصاب ، وهتك الحجاب ، وأبرز الكعاب وأنتم خاشعون ، فما الذى تخافون ؟ .

تقولون لا نرضى بهذا الخسف ، ولا نقوى على احتمال الذل ، فقد صار تاجرنا عاملا ، ونبيهنا خاملا ، وعالمنا سائلا ، فلم يبق فينا غير الأجير والتابع والشحاذ والزارع ، والجندى منخفض الجانب ، والشرطى منقطع الراتب ، بل زارعنا الذى يدفن مع الحبة قوة يمينه ، ويسقى الغرس بماء جبينه : نزيل فى دار أبيه ، وغريب فى أرض ذويه ، يحصد مما زرع ولكن لسواه ، ويجنى مما غرس ولا يذوق جناه .

وكأنى بكم عصابة ، من أهل الهمة والإصابة ، ترفعون الأصوات فى طلب الحق

---

(١) الدرر ص ٧٠ .

المسلوب ، وتمدون الأكف لالتماس المال المنهوب ، وتحملون الأبدان للوطن سوراً يرد عنه العدو مذعوراً ، وأنتم الكلمة المتحدة والقوة المتجمعة هي أقوى من العدد الكثير إلا أنكم تترددون .

فياحليف الصبر ويا نضوَ العناء ، نداء مشارك في بلواك ، وسامع لنجواك ، دع التردد إن أردت النجاح والنجاة ، وأقدم ، فرب حياة تكون في طلب الموت ، ورب موت يجيء من طلب الحياة »[١] .

وهي كما ترى كلمة تحمل روح جمال الدين ، وتحض على الثروة علانية ، بتنبيه المصريين لمهاوي الذلة التي تردّوْا فيها وحثهم على استخلاص حقهم بالقوة من ظالميهم .

٢ — الدعوة إلى الأخذ بنظام الشورى في الحكم ، حتى تشعر الأمة أن مقدراتها بيدها ، وحتى تأمن جانب الحكام وعبثهم بكنوزها وأرزاقها ، بل مقامرتهم على استقلالها وحريتها ، وحتى لا تدع للأجانب حجة يتكئون عليها في إشرافهم على الحكومة وإدارتها .

وقد رأيت طرفاً مما قاله البارودي الشاعر في الشورى . وقد كانت هذه الروح التي تجلت في شعر البارودي قبسا من نار مشتعلة في نفس جمال الدين الأفغاني وصحبه وحوارييه من أمثال محمد عبده وعبد الله نديم ، وأديب اسحق ، استمع إلى هذا الحوار بين توفيق باشا وبين جمال الدين الأفغاني وقد طلبه للمثول بين يديه في قصر عابدين :

قال توفيق : إني أحب كل المصريين ، ويسرني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح ، ولكن من الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يُلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون بأنفسهم في تهلكة » .

فأجاب جمال الدين : « ليسمحْ لي سموُّ أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص : إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى

(١) الدرر ص ٧٢ .

فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن نواب الأمة لتسن القوانين وتنفذها باسمكم وارادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم »[١] .

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، مبرهنا على أن الأمة المصرية بلغت حداً من النضج يؤهلها لأن تتولى أمورها بنفسها .

« ومما تقدم سرده تعلم أن أهالى بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد ، وأشرفت نفوسهم على مدارك الرأى العام ، وأخذوا يتنصلون من جرم الإهمال ، ويستيقظون من نومة الإغفال ، وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ، ثم تقشعت عنهم فطالعوا من سماء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار ، حتى أشرأبت مطامعهم إلى بث أفكارهم فيما يصلح الشأن ويلم الشعث ويجمع المتفرق من الأمور ليكونوا أمة متمتعة بمزاياها الحقيقية ، فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الأقوم طريق الشورى والتعاضد فى الرأى »[٢] .

٣ — محاربة الاستعمار ، وإثارة الحمية الوطنية فى نفوس الشعوب المستذلة التى غلبت على أمرها وقادها ملوكها وزعماؤها إلى الدمار والبوار ، بينما العدو يتربص بهم الدوائر ، فلما لاحت الفرصة انقض على الفريسة كالوحش الكاسر يوسعها نهشاً وعضاً ، حتى خرت تحت قدميه دامية الجسد ، هامدة الفكر ، تنظر بعينين ملؤهما الرعب والذلة .

وقف هذا الأدب يصرخ فى هذه الشعوب صرخات مدوية علها تفيق من سباتها ، وتنهض لمحاربة عدوها وتتنبه إلى الختل والغيلة ، والغدر والحيلة ، وشتى الوسائل الزائفة التى عمد لها الطامع الجشع من وعود مصيرها الخلف ، ومواثيق غايتها النقض ، وأيمان يتبعها الحنث . كل ذلك حتى يمكن لنفسه فى البلاد فيمتص دماء أهلها ويسخرهم لطاعته عبيداً غيره مأجورين وفعلة غير مشكورين :

« بلغ الأجحاف بالشرقيين غايته ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم

---

(١) خاطرات جمال الدين لمحمد باشا المخزومى .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ج٢ ص ٢١٧ — ٢١٨

نكايته ، خصوصا فى المسلمين منهم ، فلوك أُنزلوا عن عروشهم جوراً ، وذوو حقوق فى الإمرة حرموا حقوقهم ظلما وأعزاء باتوا أذلاء ، وأجلاء أصبحوا حقراء ، وأغنياء أمسوا فقراء ، وأصحاء أضحوا سقاما ، وأسود تحولت نعاما ، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من إفراط الطامعين فى أطماعهم ، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التى بذرت بذورها فى الأراضى المصرية نحو خمس سنوات بأيدى ذوى المطامع فيها ، حملوا إلى البلاد مالا تعرفه فدهشت عقولها ، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها ، وألزموها ماليس فى قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ؛ ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع فكانت الحركة العرابية فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين ، فاندفع بهم سيل المصاعب ، بل طوفان المصائب على تلك البلاد ، وظنوا بلوغ الأرب ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا(١) » .

واستمع لهذا الفئة المصلحة اليقظة كيف تتنبه لمكايد الإنجليز وصنائعهم فى مصر ، وتفضح حيلهم : « نوبار باشا ساع إلى أمر مهم وهو ماذكرناه فى العدد السابق ، ونشرته بعدنا جريدة (الدّبا) وسائر الجرائد الإنجليزية ، وهو أن يكون ولى القاصر (عباس) بعد خلع أبيه فينال بسطة فى السلطة ، وإطلاقاً فى الأمر والنهى ، وعلم أن هذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الإنجليزية على تملك مصر ، وهى محتاجة فى ذلك إلى من ليس له وطن ولا دين ولا جنس فى مصر ، فهى فى شدة الاحتياج لنوبار باشا ، وتوفيق باشا قبة جوفاء لا يرجع منها إلا صدى الأصوات ، إن قلت : لا ، فلا ، أو قلت : نعم ، فنعم ، فهو فى غضبه ورضاه تابع لما يلق إليه ، فعلم نوبار أن خديويا مثل هذا يمكن أن يكون واسطة فى تمكين الإنجليز من مصر من حيث لا يشعر ، وبتقديمه هذه الخدمة لهم يبنى لنفسه من العزة قصراً شاهقا(٢) » .

واستمع كذلك إلى أديب إسحق تلميذ جمال الدين الأفغانى ، وأحد الألسنة التى أطلقها تندد بالاستعمار وحيله ، كيف ينبه المصريين إلى خداع الإنجليز ، وتخديرهم المصريين بتخفيض الضرائب حتى يمدحوا أيامهم ، ويوازنوا بينهم وبين حكامهم المتعسفين فيرجحون

---

(١) افتتاحية مجلة العروة الوثقى .

(٢) مجلة العروة الوثقى ج ٢ ص ١٤٦ .

فى كفة العدالة ، وقد أشارت بعض الصحف بما قدم الإنجليز من عمل ، فثارت ثائرته وقال :

« فهل خفى عن تلك الصحف أن من شفقة الصياد على الطير إلقاؤه الحب بين يديها ؟ أو لم تعلم أن القائل بهمجية المصريين ، المعتقد بانحطاط مداركهم ، لا يطعمهم هذا الفتات إلا ليسهل على الإنجليز هضم قوتهم والتهام ثروتهم !

كلا ! إن الجرائد المصرية لا تجهل حقيقة الأمر ، ولكنها لا تستطيع التصريح ، علماً بأن اللص العازم على سرقة الحقوق الوطنية يكره النور ، فإذا حاولت الجرائد إظهاره سارع إلى إطفائه بتعطيلها وإلغائها .

يا أهل مصر : إنى محدثكم حديثا غريبا . إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم أسخياءكم وأموركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها » .

٤ — السعى فى إصلاح المفاسد الاجتماعية ، فالفقر الذى يذوى الشباب الغض والإهاب النضر ويذل النفس الأبية ، ويطوح بالأنفة والكبرياء بعيداً حين تصرخ المعدة الجائعة صرخة تنهار على أثرها النفس المتجلدة قد جثم على صدور كثير من أبناء الشرق ، يكدون ويكدحون لفئة قليلة من الأغنياء ، يبعثرون على موائد الفساد ما جمع هؤلاء المساكين فى حمارّة القيظ وصبارّة الشتاء ، وهم يبيتون على الطوى ، وأبناؤهم يتضاغون من السغبة والفاقة ويتضورون من الجوع والعرى ، ويتلوون من السقام والأوصاب . والجهل الذى بنى أعشاشه فى رءوس الجمهرة من أبناء الشرق ، وباض وفرخ وملأ الدنيا خرافات وخزعبلات يجب أن يحارَبَ وتفتح لأبناء الأمة مغاليق الأمور حتى يعيشوا كالأناسىّ ، إن الفلاح المسكين كان نهباً للمرابين والمستغلين يأكلون ظلماً وعدواناً ما سعى لتحصيله بكد النهار وسهر الليل . استمع لعبد الله نديم يصور لك هذا الجهل بالحساب ، ووقوع هذا الفلاح البائس فى أحابيل شياطين الفرنجة من المرابين والأفاقين ، وكيف يضاعفون ديونه ظلما ، وينهبون ماله جهراً ، وهو لا يدرى من الأمر شيئا كأنه سائمة ترعى . وقد ساق عبد الله نديم هذه المحاورة بين الفلاح والمرابى باللغة العامية حتى يبين للفلاحين خداع هذا اللص الكبير ، وسذاجة هذا الجاهل الغر . « ذهب المزارع إلى المرابى ليقترض مائة جنيه

بفائدة قدرها عشرون فى المائة ، فقال المرابى : حسن ! سأخصم من المائة عشرين فتستحق ثمانين ، وأضيف الفائدة وقدرها عشرون فيكون الدين مائة وعشرين » ، ووافق الفلاح لجهله بالحساب ، وبذلك أخذ ثمانين جنيهاً ليسددها مائة وعشرين ، وحين السداد جاء بكل ما أنتجته أرضه فاشتراه المرابى بأبخس الأثمان ، وخرج الفلاح بعد بيع محصوله الكبير مديناً بمبلغ مائتى جنيه فى حين أن المرابى لو قدر المحصول كما يجب لسدد الفلاحُ دينه ، ودفع له المرابى فوق ذلك مائة جنيه ، ولكنه الجهل والغش .

ويحارب المصلحون زبرج المدنية الخلاب ، ولألاءها الخداع ، والفتنة التى أوقعت المصريين فى شباكها ، فراحوا يلتقطون فى نهم بالغ نُفاياتِ الحضارة الأوربية العفنة يحسبونها تمديناً ، ونسوا دينهم وأخلاقهم الكريمة وعاداتهم الطيبة .

لقد جهد هؤلاء المصلحون والمفكرون أن ينيروا للأمة سبيلها ويبصروها عاقبة السير فى ظلماء الجهالة ، ويحثون على التعليم ، بل يشيدون المدارس ، ويخطبون فى كل مكان علَّ الأمة تستجيب لندائهم ، فتمرق من شرك الجهل ، وأحابيل الضلالة .

ونمت فى الشعوب الجاهلة التى ظلت قروناً تخضع لسيطرة العتاة الجبارين صفات رديئة كالنفاق ، والرشوة ، والكذب ، والخداع ، والتراخى فى العمل . إلى آخر هذا الثَّبت الشنيع من نقائص الأمم المغلوبة على أمرها ، حتى ماتت فيها روح الكرامة والعزة ، وكثير من المحامد التى لا تستطيع النمو فى جو خانق بِمعْشَر الظلم ودخانه ؛ ولذلك عمد الكتاب المفكرون فى هذه الحقبة إلى التشنيع على هذه الرذائل وتبشيعها لدى أفراد الشعب كى يقلعوا عنها .

وهكذا امتد أفق الكتابة إلى جميع الأغراض السياسية والاجتماعية ، وكانت الصحف خير معوان على بث هذه الآراء الجريئة ، والإرشادات النافعة ، والنصائح الثمينة التى حركت الهمم وأثارت العزائم ومهدت الطريق لنضج الشعوب العربية والإسلامية .

وكان بجانب هذه الأغراض السياسية والاجتماعية موضوعات أدبية بحتة ، من وصف وتعزية وتهنئة ، وتحدث عن الأمور المعنوية كالجمال ، والعاطفة ، والذوق ، والسعادة

وما شاكل هذا . وقد حاول بعض الكتاب أن يرشد الناس إلى ما تقتضيه صنعة الكتابة من أمور ، وما تطلبه من جهود كأديب اسحق ، وقد بين فى مقالاته[١] شروط الكتابة السليمة وأنواعها وكان ذلك ضرورياً فى هذه الحقبة ، ويقول الشيخ خليل اليازجى فى الإنشاء :

« الإنشاء ملكة راسخة فى النفس يعين عليه سلامةُ الذوق وطول المزاولة ، والناس فيها طبقات متفاوتة مرجعها فى الأكثر إلى بداهة الخاطر وذكاء البصيرة وغزارة المادة ، وله أحكام إذا راعاها المجيد نبغ فيها ، وإذا راعاها الضعيف استأنس بها ، فأعانته على الجرى فيها »[٢] .

ومن أمثلة النثر الأدبى رسالة لعبد الله نديم يشكر صديقا على كتاب وصله منه[٣] :

« لبيك كوكبَ الصبح ، دام نداك ، وسعد بك نسيم الصَّبا ، طاب بشذاك ، وأهلا بك يا نور النهار ، ومرحباً بك يا نَوْر البَهار ، فإنى أرقت لِلقاء مذ سمعت بالإسراء ، وما زلتُ أسأل عن ركبكم فى منازل البدر ، واستفهم منه ركبان النجوم حتى مطلع الفجر فالشِّعرى تقول : تركتهم بتلك المرحلة ، وعطارد يقول : تقدمتهم بمنزلة ، والمريخ يقول أناخوا ركائبهم ، والمشترى يقول أثاروا نجائبهم ، والدجى تقول : ليلهم قمرى ، والزهرة تقول هم أولاء على أثرى ، وكل ذلك وأنا هائم كحاطب بليل حتى طلع علىّ من جانب السحر سُهيل ، فهممت بتقبيله فأبى ، وارتفع عنى ونبا ، فأشرت له بتلطف وأنشدته بتعطف .

سُهيْلُ انعطف وانزل بساحة مغرم ... يراك بعين طول ليلتها عَبْرَى
عسى يأخذ الأخبارَ منك عن الألى ... سيصلى بهم جمر الغضا ولك البشرى »

ومن أمثلة النثر الأدبى كذلك ما كتبه السيد مصطفى نجيب[٤] يصف الحاكى (الفونوغراف) :

(١) مجالى الغرر ج ٣ ص ٥ وص ١٠٠ من هذا الكتاب .

(٢) مجالى الغرر ص ١٠ ج٣ . (٣) سلافة النديم ص ٤٥ .

(٤) كان كاتبا إداريا بديوان الخديو ، ومنه تحول إلى وزارة الداخلية ، وكان أديباً عذب النثر سهل الشعر وله كتاب (حماة الإسلام) توفى سنة ١٨٩٩ .

« مثالُ القوة الناطقة ، من غير إرادة سابقة ، يقتطف الألفاظ اقتطافا ، ويختطف الصوت اختطافا . مطبعة الأصوات ، ومرآة الكلمات ، ينقل الكلام من ناحية إلى ناحية نقلَ كلام عمر رضى الله عنه إلى سارية ، أشدُّ من الصَّدى وفعله ، فى إعادة الصوت إلى أصله ، كأنه الحرف فى يد الطابع ، والوتر فى يد الضارب ، والقصبُ عن فم القاصب[1] يحفظ الكلام ولا يبيدُه ، ومتى استعدتَه منه يعيده ، من غير أن يبقى لفظاً فى صدره ، أو يكتم شيئاً من أمره ، كأنما حفظ الوديعة فى نفسه طبيعة ، فلو تقدم به الوجود فى مرتبة الزمن لما احتجنا فى الأخبار إلى عَنعنة ، ولا فى الدعاوى إلى بيِّنة ، بل كان يُسمعنا كلام السيد المسيح فى المهد ، وصوتَ عازرٍ من اللحد ، وكانت استودعته الفلاسفة حكمتهم ، وأنشدوه كلمهم فرأينا غرائب اليونان ، وبدائع الرومان ، وربما سمعنا خطب سحبان ، وشعر سيدنا حسان بذلك اللسان ، وأصبح وجود الإنسان غير محدود بزمن من الأزمان .

لله درُّه من تلميذ يستوعب ما عند المعلم ويستخلصه فى لحظة ، معيداً لقوله ناقلاً صوته ولفظه .

لقد وجدت مكان القول ذا سعة   فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

نديمٌ ليس فيه هفوة النديم ، وسمير لا يُنسب إليه تقصير ، تسكته وتستعيده ، وتذمه وتستجيده ، وهو فى كل هذه الأحوال ، راضٍ بما يقال ، لا يكلُّ من تحديث ، ولا يَملُّ من حديث ، نمام كما ينم لك ينم عليك ، وينقل لغيرك كما ينقل إليك ، فهو المصور لكل فن ، المتكلم بكل لغة المحدث بكل لسان ، المؤرخ لكل زمان ، الشاعر الناثر المغنى العازف ، لا تعجزه العبارة ، ولا تجهده الإدارة ، ولا يضيره اختلاف شكل ، ولا تباين أصل » .

ومن أمثلة النثر الاجتماعى غير ما تقدّم عرضه قول قاسم أمين فى كتابه عن (المرأة الجديدة) :

« إن كل تغيير يعرض على الأنظار فى صورة مشروع يُلتَمس قبوله ، ولم يكن بدأ الناس فيه من قبل ، هو فى الحقيقة فكر سبق أوانه وقت عرضه ، ولهذا لا يفهمه

---

(١) القصب : المزمار ، والقاصب هو الذى يزمر فيه .

ولا يقدره حتى قدره إلا العدد القليل ، ممن يمتد نظرهم إلى ما يكنه المستقبل من الحوادث .
انظر إلى حالة مصر ، فقد عاشت الأمة المصرية أجيالا فى الاستعباد السياسى ، فكانت النتيجة انحطاطاً عاماً فى جميع مظاهر حياتها : انحطاطاً فى العقول ، وانحطاطاً فى الأخلاق ، وانحطاطاً فى الأعمال ، وما زالت تهبط من درجة إلى أسفل منها ، حتى انتهى بها الحال إلى أن تكون جسما ضعيفاً ، عليلاً ساكناً يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان ، فلما تخلصت من الاستعباد ، رأت نفسها أول الأمر فى حـيرة لاتدرى مماذا تصنع بحريتها الجديدة ، وكان الـكل لايفهم لهذه الـكلمة معنى ولايقدر لهاقيمة . وكان الناس يستخفون ويهزءون بالحرية بل ويتألمون منها ، وينسبون إليها اختلال عيشهم ، وعلل نفوسهم فـكم من مرة سمعنا بآذاننا أن سبب شقاء مصر هو تمتعها بالحرية والمساواة . ثم اعتاد القوم شيئاً فشيئاً على الحرية ، وبدءوا يشعرون بأن اختلال عيشهم لا يمكن أن يكون ناتجاً عنها بل له أسباب أخرى ، ثم تعلق بنفوس الـكثير مناحب الحرية حتى صاروا لا يفهمون للوجود معنى بدونها . ولنا الأمل فى أن أولادنا الذين يشبون على حب الحرية يجنون ثمراتها النفيسة التى من أهمها تهيئة نفوسهم للعمل ، وعند ذلك يعرفون جيداً أن الحرية هى أساس كل عمران ، وقد دلت التجربة على أن الحرية هى منبع الخير للانسان ، وأصل تربيته وأساس كماله الأدبى ، وأن استقلال إرادة الإنسان كانت أهم عامل فى نهوض الرجال ، فلا يمكن إلا مثل هذا الأثر فى نفوس النساء » .

ومن أمثلة النثر السياسى غير ما تقدم ما كتبه الشيخ على يوسف فى المؤيد تحت عنوان « لا تعصب فى مصر » :

« التعصب بالمعنى المعروف فى الغرب عن الشرق ، وبعبارة أخرى من المسيحيين عن المسلمين ، هو انبثاث روح العداء والبغضاء من الآخرين ضد الأولين ، انبثاثاً يحمل على الاعتداء عليهم حيناً بعد حين ، أو هو التوحش الذى يفتك بنفوس الأبرياء كلما ثار ثائره ، فهو أشبه شىء بالغول الـكاسر الذى يندفع بعماية فيفترس كل ما فى طريقه من نفوس البشر وهو على هذا مجموع أرواح شريرة لا نظام لها فى ثوراتها وعدوانها ، والتعصب بهذا المعنى

رذيلة من الرذائل التى ينهى عنها الدين الإسلامى ، والقوانين الاجتماعية ، نعوذ بالله أن تُرزَأ أمة بهذا البلاء العظيم .

قالوا : إن المصريين متعصبون تعصباً دينياً ، وممنى هذا عندهم ، أنهم يكرهون المخالفين لهم فى الدين كراهة عمياء ويعتدون عليهم بروح البغضاء المتناهية ، كلما سنحت لهم فرصة أو استفزهم صائح ، ولكن كيف وفى البلاد من قديم الزمان أديان مختلفة يتجاور أهلوها فى المنازل ، ويتشاركون فى المرافق ، ويتنافسون فى الأعمال ، فلم تكن بين المسلمين والأقباط تلك الروح الشريرة ، ولو كانت فى فطرة المسلمين أو فطرة الفريقين للاشت الأكثرية الأقلية فى عصور مضت وخصوصاً فى عصور كانت الجهالة فيها سائدة ، وكان بعض الحكام من المسلمين وغيرهم يبذرون بذور البغضاء بين الفريقين لا لخدمة دينية إسلامية ، بل لأغراض منشؤها الشهوات والمطامع ، ولكن التواريخ تدل على أن الفريقين عاشا على الوئام والسلام فى كل الظروف أو أكثرها .

وقد وفَدَ على القطر المصرى وفود من كل الطوائف المسيحية ، غربية وشرقية ، ومن أرمن وأروام وسوريين وفرنساويين وطليانيين وإنكليز ونمساويين وأمريكيين ، ومن بروتستانت وكاثوليك وأرثوذكس ، وغير ذلك ، من علماء وتجار وصناع وعمال وهمل متشردين ، فلقى الكل فى مصر صدراً رحبا ، وكان منهم الموظفون فى كل مصلحة ، حتى تولى نوبار باشا الأرمنى رياسة النظار فى مصر ، وكان قائم مقام خديوى ، ورئيساً للاحتفال بموكب المحمل الشريف ، فهل يوجد فى أمة غير الأمة المصرية المسالمة مثلُ هذا التساهل الذى يرأس فيه احتفالاً دينياً رجلٌ غير مسلم .

وكان من علمائهم الأساتذة والمعلمون ونظار المدارس والمفتشون ، فهل الأمة التى تربى أبناءها على أيدى أساتذة من غير دينها تعد متعصبة ، وكان التجار على ما يحبون من الرحب والسعة وحسن القبول ، فضربوا فى البلاد بمتاجرهم من غث وسمين ، وجيد وردىء ، وخالص ومغشوش ، حتى صارت مصر من أوسع أسواق متاجر أوربة ومعاملها التى وجدت إقبالا من الأمة هائلاً . وهؤلاء بعض الأجانب يقيمون الأكواخ الصغيرة الحقيرة لبيع الخمور الرديئة فى كل قرية من قرى القطر مهما سحقت وقل عددها ، أو يربون الخنازير ويثرون

شيئاً فشيئا حتى يكون الصعلوك منهم فى بضع سنوات صاحب القرية ومزارعها ومداين أهليها وسيدهم ، فهل هؤلاء هم المتعصبون الذين يخشى من شرهم فى وادى النيل على الأوربيين ؟ كيف يكون عند المصريين تعصب دينى وهؤلاء بينهم تتسع معاملاتهم معهم ، وكثيراً ما تنتهى هذه المعاملات بمصادرات المدنيين فى أملاكهم ، ولا يخطر على بال مسلم خاطر سوء من ناحيتهم ، لعله أن دينه ينهاه عن ذلك ، حيث لا تكفى القوانين النظامية فى زجر النفوس المتعصبة ، لأن للاعتداء ضروبا شتى وطرقا خفية أكثر منها ظاهرة ، وهذه تعديات الأهالى على بعضهم تعد بالألوف ، فى حين أن تعدياتهم على غيرهم لا تكاد تذكر فى جانب تعديات الأجانب على بعضهم فى هذه البلاد .

فكيف تعمى أعين الناظرين عن هذه الشمس المشرقة العامة بأشعتها على أرجاء القطر ويقوم مفترون يزعمون أن فى المصريين تعصباً ثائراً يكاد يفتك بالأوربيين لمجرد كونهم مسيحيين . أيها المدعون راقبوا الله فى أمة رزئت بالإهمال فى شئونها ، حتى انحلت عرا الجامعة بين أفرادها ، وذهبت منها ريح العصبية فى كل شىء ، حرام عليكم مع هذا الانحلال أن تتهموها بالتعصب فى أشد حالاته » .

ومن هذه النماذج التى سقناها إليك هنا وفى غير هذا الموضع تستطيع أن تدرك إلى أى حد وصل النثر الفنى فى هذه الحقبة التى نتحدث عنها ؛ بل إنه سار إلى سبيل الكمال حثيثا حتى يومنا هذا ، لم يرجع القهقرى منذ تكونت هذه المدرسة الإصلاحية ومنذ أثمرت نهضة إسماعيل العلمية والأدبية ، بل تراه قد زاد فنوناً ، وتنوعت موضوعاته ، وتعددت نظراته إلى الأشياء ؛ لكثرة ما قرأ الكتاب من الأدب القديم ، وما اطلعوا عليه من آداب الغرب . ولهذا النثر مميزات وخصائص وطابع يعرف بها ، ويختلف عما شاهدناه من الكتابة الديوانية .

(ب) مميزاته :

إذا كانت الأحداث السياسية ، وتقلباتها الكثيرة ، والثورات العنيفة ، ويقظة الشعوب الشرقية والإسلامية ، قد وضعت أمام الكتاب مادة خصبة غزيرة ، وجعلتهم

يخوضون فى شتى الموضوعات ؟ وإذا كانت الحال الاجتماعية ، وما عليه الناس من فقر وجهل ومرض وانحلال قد دعت زعماء الإصلاح الاجتماعى إلى تشخيص الداء ، ووصف الدواء وحث الهمم على التخلص من تلك الرذائل فإن ثمة عوامل أخرى نهضت بالنثر من حيث أسلوبه وألفاظه . وقد مر بنا ما قدمته حكومة إسماعيل للنهضة الأدبية من وسائل : كالمدارس والمكتبات العامة ، وانتشار الصحف ، وتشجيع المطابع على إحياء تراث الآباء والأجداد ، والقيام بترجمة شىء من أدب الغرب ، وقد أضفى كل هذا على النثر طابعا خاصا ، فخلصه فى الغالب من المحسنات البديعية التى كانت شائعة فى الكتابة الديوانية وصرف الأدباء همهم إلى العناية بالمعانى لا إلى تنميق الألفاظ ، اللهم إلا فى الموضوعات الأدبية البحتة وخلا النثر من المبالغات الممجوجة والأخيلة السخيفة ، وانصرف عن المقدمات الطويلة التى كثيراً ما تستهلك جهد الكاتب والقارىء جميعا دون بلوغ الغرض الذى سبق له الكلام .

وكان من أثر هذا كذلك تغير طريقة الكتابة تبعاً لتغير طريقة التفكير : من تقصير الجمل ، وفصل العبارات ، وحبس كل واحدة منها على أداء معنى واحد ، واعتماد لون طريف فى ترتيب الكلام وتبويبه ، وسوق المقال فى الغالب لأداء فكرة واحدة ، واستحداث صيغ جديدة لأداء معان جديدة ، والتجوز بكثير من المفردات لإصابة مالا تطوله بأصل الوضع اللغوى .

ولقد رأيت من النماذج التى سقناها إليك أن موضوع هذا النثر ، اجتماع ، أو سياسة أو أدب ، ولقد تميز كل نوع من هذه الموضوعات بسمات عامة اقتضتها روح الموضوع وطريقة علاجه .

١ — فالنثر الاجتماعى يتطلب صحة العبارة ، وبالضرورة البعد عن الزخرف والزينة ، ووضوح الجمل ، وترك المبالغات ، وسلامة الحجج وإجراءها على حكم المنطق الصحيح ، لأن الغرض منه معالجة الأمر الواقع ، فلا ينبغى استعمال الأقيسة الشعرية ، ولا الخيال المجنح ، اللهم إلا فى المقامات التى تقتضى استفزاز الجماهير ، وإثارة عواطفهم ، وتحميسها

للاقلاع عن خلة فاسدة ، أو للتظاهر على الاضطلاع بنفع عام ، على أن يكون ذلك بقدَرَ ، فإن الأغراض الاجتماعية إنما تجرى فى حدود الحقائق الواقعة على كل حال .

وقد رأيت أن هذا النوع من النثر قد خلا من السجع المتكلف ، لأن الاهتمام باقتناص السجعة قد يُفَوِّتُ على الكاتب الغرض الذى يرمى إليه ، وقد يذهب المعنى فى سبيل سجعة متكلفة ، بل قد حمل بعض الكتاب فى هذا العصر على هذا السجع فقال أديب إسحق مع أنه كان ممن يسجعون كثيراً وممن يحتفى بأسلوبه لأنه كان أديباً بطبعه .

« ولم يدخل هذا السجع كلام القدماء فى الجاهلية وصدر الإسلام إلا ما كان منه عفو القريحة ، فواصلُ غير مقفاة ، أو ما يعزى إلى الكهان والمشعوذين ، مما يراد به الإيهام والإبهام ، فلما استولت العجمة على الألسن ، وضعفت قوة الاختراع فى الأذهان سرى داؤه فى المكاتبة إلى هذا العهد ، فعدل الكتاب عن الكلام الفحل واللفظ الساذج والأسلوب الطبيعى إلى هذه الأسجاع الملفقة البالية ، يتناقلونها خلفاً عن السلف ، ويطيلون بها الكلام بلا طائل ستراً لقصورهم فى ابتداء المعانى وإيضاح وقائع الحال من طريق البلاغة والإيجاز »(١) .

والانصراف عن السجع والزخرف فى هذا النوع من النثر بدهى ، لأن الفكر منصرف إلى تفتيق المعانى ، وسوق الحجج ، وضرب الأمثلة لا إلى الجرى وراء كلمة أو سجعة .

٢ — النثر السياسى أو الصحفى ، ويمتاز بالسهولة والوضوح بحيث يكون معناه فى ظاهر لفظه ؛ لأن الصحف تخاطب الجماهير ، ويقرؤها الخاصة والعامة ، وتتحدث إلى الجهال كما تتحدث إلى المتعلمين ، هذا إلى أن قراءها إنما يبغونها للساعة ، فلا محل للارتفاع بعبارتها والتعمق فى معانيها مما يقتضى من القارىء كد الذهن ، وإرهاق المصب .

---

(١) مجالى الغرر ص ٨ ج ٣ .

وإذا كان النثر الاجتماعى ينبغى أن يجرى الاحتجاج فيه على الأقيسة المنطقية ، لأنه يعتمد على القضايا العلمية والحقائق الواقعة ، فإن النثر الصحفى لا يلتزم فيه ذلك ، بل يلجأ إلى الأدلة الخطابية ؛ لأنها أنفذ فى إقناع الجماهير من سواها إذ تقوم النزعات السياسية فى الغالب على الفروض والاعتبارات والميول الوجدانية أكثر مما تقوم على الحقائق العلمية.

وليس فى هذا النثر احتفاء بالأسلوب ، أو تخير للألفاظ ، أو جنوح إلى الخيال ، أو تعمق فى المعنى ، وإنما هو التصوير السريع ، وليس فيه تحقيق على منظم مبنى على الاستقراء أو ذكر المقدمات الوافية ، ويكثر فيه التكرار ، وعدم ترتيب الفكرة .

وهناك صحف خاصة أو مجلات علمية وفنية ، ويلحق بها الأبواب التى تحررها الصحف السياسية للعلوم والفنون ، فهذه ينبغى التأنق فى عباراتها والإيغال فى معانيها تحقيقاً للغرض المقصود بها من تعليم العلوم وترقية الآداب ، ولا يقبل على قراءة مثل هذه المجلات إلا المتعلمون .

٣ — النثر الأدبى ، وهو أشد أنواع النثر حاجة إلى تخير اللفظ ، والتأنق فى النظم ، حتى يخرج الكلام مشرقاً منيراً ، لطيف الموقع فى النفوس ، حلو النبرة فى الآذان ، لأن للموسيقى اللفظية أثراً كبيراً فى الأذهان . وهو أدنى أنواع النثر إلى الشعر ؛ ولهذا لا ينكر منه البديع ، على ألا يكون من الكثرة بحيث يستهلك ذهن القارىء ، وبحيث لا يستكره على النظم استكراهاً ، ولا تساق الجملة لمجرد اصطياده ، بل إن خيره ما جاء عفواً .

ويقضى التأنق فى اللفظ ، وجودة السبك ، وتفتيق المعانى ، معرفة بأسرار اللغة ، ووفرة محصول من المفردات ، وخبرة بالكلام الجيد ، واستظهار كثير من المنثور والمنظوم ، هذا إلى طبيعة موانية ، وحس مرهف ، وذوق ، وفطنة إلى مواطن الجمال .

وعلينا بعد أن سقنا إليك أمثلة من أنواع النثر ، وعرفناك بخصائصه ومميزاته ، أن نطلعك على سير موجزة لأعلام البيان فى هذا العصر ، ومابرز فيه كل منهم غير هؤلاء الذين ترجمنا لهم آنفاً أمثال الشدياق وأديب إسحق .

١ — السيد جمال الدين الأفغاني :

وإذا أردت أن تقف على الروح التي تكمن من وراء هذا الأدب الحي ، والتي بعثت في الشرق الإسلامي كله حيوية دافقة ، وهزته هزة عنيفة أيقظته من نومه الطويل ، وعرّفته كيف يطلب حقه من الأقوياء العتاة ، وكيف يدفع عن نفسه جور الظلَمة القساة ، فاعلم أن الروح تمثلت في السيد جمال الدين الأفغاني : من يدين له الشرق الإسلامي بيقظته القومية والفكرية في العصر الحديث .

رجل فرد ، استطاع بما أوتي من عزيمة جبارة تنهار أمامها العروش وتزلزل الممالك ، وتتقوض الحصون ، وبما أوتي في فكر نير مشرق ملهم ينقشع أمام ضوئه الوهاج حندسُ الجهل وغياهب الظلم ، وبما أوتي من لسان ذَرِب طَلْق ، حاد مِطْواع ، يدفعه شعورٌ متقد ، وعاطفة متأججة ، وإحساس مرهف ، وحماسة عارمة فيلهب بهذا اللسان ، وذاك الشعور كل من ينصت إليه ، فيحيل البليد نشيطاً ، والجبان جريئاً ، والخامل مقدماً ؛ استطاع هذا الرجل وحده بهذه القوة أن يخلق قادة وزعماء ، وأن يُكَوِّن جيلا من الناس يسيرون بأممهم إلى حيث أمّل السيد وصوب ، فكان بعمله أقوى من الحكومات القومية الفتية . وهكذا يأبى الله إلا أن يضرب للناس أمثلة على بالغ قدرته ، وعظيم إعجازه في كل جيل . وقد مر بك ماقاله الشيخ محمد عبده عن حالة مصر قبل أن يهبط واديها جمال الدين ، وكيف أن بعثات محمد علي وإصلاحاته ونشاط إسماعيل وتقديراته ، واطلاع بعض شباب مصر وشيوخها على حضارات الأمم الأوربية وغيرها لم يؤت ثمره ، ولم يبعث في الأمة هذه الروح المتوثبة ، ولم يحرك خامد العزائم ، وينصب المثل العليا أمام الشعوب تهدف إليها في سيرها وتحث الخطى نحوها ، وإنما وجد ذلك كله على يد جمال الدين . فأي رجل كان هو ؟

شعلة متقدة من الذكاء ، وسرعة الخاطر ، وقوة العارضة ، شديد الرغبة في الإصلاح ،

وإنهاض الأمم الإسلامية ، وتحطيم الأغلال والقيود التي جعلتها في مسغبة ومذلة وجهل ومرض وانحلال ، كان ثورة عنيفة على الظلم والطغيان والجبروت . قابله السلطان عبد الحميد الطاغية في (يلدز) فطلب منه أن يكف عن هجماته على شاه العجم فقال السيد : « إني لأجلك قد عفوت عنه » ، فيرتاع السلطان لهذه الكلمة الجريئة ، عفا « السيد » عن الشاه ذي الحول والسلطان ، أجل ؟ فالسيد أقوى منه بأساً وأعظم قدراً ، وأقدر على النكاية ، إنه حرب شعواء تطوح بالتيجان وتدك العروش . ويجلس جمال الدين بحضرة عبد الحميد ، وهو يداعب مسبحته غير حافل بمن تعودت الأبصار أن تخشع في مجلسه ، وتطأطيء الرءوس فرَقاً ورعبا منه . ونبهه إلى هذا كبير من رجال الحاشية بعد مغادرة عبد الحميد للمجلس فقال له : « إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة ، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبحته كما يشاء ؟ » فيرتاع الرجل ، ويهرب من سماعه هذه الكلمة لم يجرؤ أي إنسان أن يرفع بمثلها أو بما هو أقل منها صوتاً في البلاد الإسلامية .

ولد السيد جمال الدين في قرية (أسعد أباد) من قرى (كنر)(١) ببلاد الأفغان سنة ١٢٥٤ هـ — ١٨٣٩ م من أسرة شريفة تنتسب إلى الإمام الترمذي المحدث المشهور ، وترتقي إلى الإمام الحسين بن علي رضى الله عنهما ، وانتقل به والده إلى (كابل) وهناك تلقى تعليمه ، فدرس مبادىء العلوم العربية والتاريخ ، وعلوم الشريعة ، والعلوم العقلية من منطق وحكمة عقلية سياسية ، وفلسفة ، وكذلك العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة وفلك ، ودرس نظريات الطب والتشريح ؛ ثم سافر إلى الهند ، وهو في الثامنة عشرة من عمره ، واطلع على علوم الرياضة في الطرق الحديثة ، وقدم الحجاز للحج ، وقضى في رحلته إلى مكة سنة ، فأفادته الرحلة خبرة بالشعوب الإسلامية ، وأحوالها الإجتماعية ؛

---

(١) هكذا روى جمال الدين عن ولادته ، أما الفرس فيدعون أنه ولد بالقرب من همدان بإيران ، ويرجع تفضيله الانتساب إلى الأفغان ، كما يقول الأستاذ براون (الثورة الفارسية ص ٤٠٢ . هامش) إلى أن جمال الدين كان سنياً عربياً وأنه أراد الهروب من الجنسية الفارسية الشيعية التي كان يملك في قيمتها .

ثم رجع إلى بلاده ، واشترك فى مؤامرة سياسية مكنت بعض الأمراء من التغلب على عرش الأفغان ، فعظمت مكانته لدى هذا الأمير ؛ ولكن عصفت الأحداث بأميره هذا ، وحاول خلفه الانتقام من السيد جمال الدين ، ففطن لمكايده وغادر بلاده إلى الهند فمصر ، ومكث بمصر أربعين يوما ، ومن ثم يمم نحو الآستانة فذاع صيته بها ، وعلت مكانته حتى انتخب بعد مدة وجيزة عضواً فى مجلس المعارف الأعلى ، ولكن آراءه الإصلاحية الجريئة ، وأفكاره الحرة التى لم يألفها الناس فى عصره بعثت فى نفوث رجال عبد الحميد الهلع ، وتألب عليه كثير من علية القوم ، ولا سيما شيخ الإسلام ، فجاءه الأمر بمغادرة البلاد خشية أن يشعل فى عرش عبد الحميد الحريق .

فقدم السيد جمال الدين مصر ، ودخلها فى مارس سنة ١٨٧١ ، ومكث بها ثمانى سنوات كانت خير السنين بركة على مصر وعلى الشرق العربى والإسلامى ، فقد حاول جمال الدين من قبل أن يغرس تعاليمه ، وينفخ فى الشعوب الشرقية من روحه ؛ ولكن وجد أرضاً مجدبة ، وشعوباً ميتة لم تسمع لندائه وما أن نزل مصر حتى فتحت له ذراعيها ، وحبيت له الإقامة بها ، والتف حوله لفيف من أبنائها ، من كل تواق للحرية ، محب للعلم حريص على نفع وطنه وإنهاض قومه ، وتجاوبت روحهم وروحه ووجدوا فيه المعلم الفذ والمفكر الجرىء وصاحب العقل المستقيم ، ووجد فيهم تلامذة بررة ، وعقولا خصبة ، ونفوسا تتحرق شوقا للحرية والعدل .

كانت هذه السنوات الثمان مليئة بالأحداث ، فقد غرقت مصر فى ديونها التى اقترضها إسماعيل ، وبدت مطامع إنجلترا وفرنسا جلية ، فانشىء صندوق الدين وفرضت الرقابة الثنائية واستحالت هذه الرقابة إلى مشاركة فى الحكم ؛ إذ دخل وزارة نوبار باشا وزيران أوربيان أحدهما فرنسى والآخر إنجليزى ، يشرف الفرنسى على وزارة الأشغال ويشرف الإنجليزى على وزارة المال[1] ، وأى احتلال أبشع من هذا ؟ إن الذى يصرف

---

(١) عصر اسماعيل لعبد الرحمن الرافعى ج ٢ ص ٩٠ .

المال قوام على شئون الدولة ، ومن يتولى الأشغال مهيمن على تقدم الأمة ، فكان عجباً ألا ينغمس السيد جمال الدين فى السياسة من أخمص قدميه إلى قمة رأسه ، وهو الذى حاول من قبل أن يثل عرشاً ، وينصب ملكا ، ويصلح من شئون عبد الحميد المستبد الطاغية .

جاء جمال الدين مصر وهذه ظروفها ، ووجد من اسماعيل صدراً رحباً ، لأنه رأى فيه العالم المشهور بفلسفته وعلمه ، فوجوده بمصر ربح لا يقدر ، وهو فى نظره أجل وأنفع من بعض المعاهد العلمية التى أنشأها ، لأنه ممهد حى حنكته التجارب وأنضجته الحوادث ، ولم يكن السيد قد عُرف بآرائه السياسية المتطرفة بل غلبت عليه الصبغة العلمية ، ولم يكن إسماعيل يخشى على حكمه أحداً ، وهو الحاكم الذى لا يرجع فى حكم ، والذى يتصرف فى أقدار البلاد دون رقيب أو حسيب ، وكان مجلس الشورى آلة مطواعة فى يده ، لا يجهر باعتراض ، أو يجرؤ على مخالفة ، ثم إن اسماعيل كان يتحدى الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ، ويتوق جهده إلى الاستقلال بأمر مصر ، وقد رأى أن الآستانة قد ضاقت رحابها بالسيد جمال الدين وخافت من آرائه وتعاليمه ، فلتبرهنْ مصر على أنها أقوى من تركيا وأكرم نفساً ، وأقدر على هضم آراء جمال الدين من أى بلد فى الشرق ، ولم يكتف إسماعيل بهذا الترحاب بل أجرى على السيد راتباً شهرياً زيادة فى إكرامه .

وأخذ هذا العقل المنظم الجبار يشع النور فى كل مكان يحله صاحبه ، فدروس منظمة يلقيها فى بيته على صفوة مختارة من حوارييه أمثال : محمد عبده وعبد الكريم سلمان ، وابراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وكانوا جميعاً طلبة بالأزهر حينذاك وكانت هذه الدروس : منطقاً وفلسفة وتصوفاً وهيئة ، مثل كتاب الزوراء فى التصوف وشرح القطب على الشمسية فى المنطق ، والهداية والإشارات وحكمة العين ، وحكمة الإشراق فى الفلسفة ، وتذكرة الطوسى فى علم الهيئة القديمة . وهى كتب قديمة تمثل علماً قديماً دوّنها أربابها فى العصور الأولى للدولة العربية ، ولكن الروح التى درس بها جمال الدين هذه

الكتب ، والطريقة التى عرض بها هذه المباحث ، والتعليقات التى كان يفيض فيها عقب كل مقالة أو بحث ، والاستطرادات التى تدعو إليها مقتضيات العصر وظروفه هى التى حببت هذه الدروس وتلك الكتب لهؤلاء التلاميذ الأذكياء ، وجعلت من دروس جمال الدين نبعاً صافياً يغترف منه الطلبة علماً وفلسفة ، ووطنية واجتماعاً ، وحججا قوية لرد المارقين عن جادة الدين ، ووجدوا فيه شخصية لا تتردد فى إصدار الأحكام العامة على القضايا المعروضة .

وبجانب هذه الدروس المنظمة كان للسيد مجلس آخر بأحد المقاهى القريبة من حديقة الأزبكية ، حيث يلتف حوله أخلاط شتى من الراغبين فى التزود من علمه وفكره ، يجلسون إليه ويطرحون عليه أسئلة فى مختلف الموضوعات ، وهو يجيب إجابات العالم المحقق « لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها « وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم فاستيقظت مشاعر ، وتنبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصاً فى القاهرة[1] » .

فى هذه الحلقة أنشئت مدرسة غير مقيدة بمنهج أو كتاب ، ولكنها كانت روحاً مشعة تبدد دياجير الغفلة ، وتحيي العزائم الميتة ، وتلهب الإرادات الخامدة وتفتح الأذهان المغلقة ، وفيها تخرج محمود سامى البارودى ، وعبد السلام المويلحى ، وأخوه إبراهيم المويلحى ، ومحمد عبده ، وإبراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وسليم نقاش ، وأديب إسحق وغيرهم . وفى هذه المدرسة العامة ، استعرضت حال الأمة الاجتماعية والسياسية ، وحقوقها وواجباتها ، وأدواؤها ودواؤها ، وانتقدت الحكام ، وبثت التعاليم ، وفشت روح التذمر من الأجانب وتدخلهم فى شئون البلاد مما كان له أبلغ الأثر فيما بعد .

---

(١) من ترجمة الإمام الشيخ محمد عبده له .

كان جمال الدين يقضي بياض نهاره فى بيته يختلف إليه أخصاء تلاميذه ، وما أن يقبل الليل حتى يخرج متوكئاً على عصاه إلى هذا المقهى ، فيجد فى انتظاره الطبيب والمهندس والأديب والشاعر والمعلم والكيماوى وغيرهم ، ويظل يحدثهم بشغف وقوة حتى يمضى جزء كبير من الليل .

ولم يكتف جمال الدين بهذه المدرسة العامة ، ولا بالدروس الخاصة ، بل حاول أن يسيطر على الحياة السياسية ، فانضم إلى جماعة (الماسون) وبها الطبقة الممتازة من أبناء الأمة لعله يستطيع أن يريهم النور ، ويبصرهم حقيقة ما هم فيه ، وما عليه بلادهم وكيف يستطيعون نفعها بمالهم وجاههم ؛ ولكن وجد المحفل الماسونى يأبى أن يقتحم ميدان السياسة ، ويتعرض للمسائل العامة والقضايا الهامة ، فثارت ثائرته وأخذ ينقد أعضاءه نقداً لاذعاً ، ويتهكم بهذه الكلمات الجوفاء التى اتخذوها لهم شعاراً مثل : « الحرية والمساواة ومنفعة الإنسان ، والسعى وراء دك صروح الظلم ، وتشييد معالم العدل المطلق » فكيف تتحقق معانى هذه الكلمات إذا لم يشغل المحفل (الماسونى) بالسياسة . ولما أخفق فى بعث هذه النار الهامدة فى نفوسهم الميتة استقال ، وكون محفلا آخر للشرق الفرنسى ، وأخذ الأعضاء يزيدون حتى بلغ عددهم ثلاثمائة عضو من نخبة المفكرين ، ونظمهم شعباً مختلفة : فشعبة للعدل ، وأخرى للمالية ، وثالثة للأشغال ، ورابعة للجيش وهكذا ، حتى تدرس أحوال البلاد جميعها وتعرف وجوه النقص ، وما يتطلبه الإصلاح من أعمال .

وبذلك أراد جمال الدين أن يسيطر على عقول العلماء فى بيته ، وعلى أفئدة المستنيرين فى مقهاه ، وعلى أزمة السياسة فى محفله ، ويأبى إلا أن يصبغ مصر المتعلمة غنيها وفقيرها بآرائه وتعاليمه ، ويدفعها فى الطريق التى رسمها .

أثره بمصر :

١ — أراد فى درسه النظامى أن يعوّد الطلبة حرية البحث ، ويطلعهم على آفاق جديدة من التفكير وفهم العالم ، وأن يوجد شخصيات تبحث وتنقد وتحكم ، وألا تقف عند حد النص كأنه تنزيل من الله سبحانه ، وكانت طريقته فى هذه المدرسة جذابة شائقة ، إذ يفيض فى شرح المسألة ويعلق عليها من عنده ثم يقرأ النص بعد ذلك ، فإذا هو واضح كل الوضوح . وعلى العكس من ذلك كانت طريقة الشيخ محمد عبده ، إذ كان يقرأ النص أولا ، ثم يعلق عليه بعد ذلك .

٢ — وأراد فى مدرسته العامة أن يعلم الشعب كيف يسترد حريته المفقودة وكرامته المهدرة ، وكيف يحاسب حكامه حساباً عسيراً على تصرفاتهم ، وكيف يتنبه إلى دسائس المستعمرين الجشعين ونواياهم ، وكيف يعيش هذا الشعب عيشة تليق بالأناسى .

٣ — وأراد فى ميدان السياسة أن يغير هذا الحكم المطلق الذى يستبد فيه الحاكم بأمته ويستهين بشعبه ، ويتصرف فى أموالهم وأرواحهم تصرف السيد فى حرّ ماله وعبده ؛ أراد أن يشترك الشعب فى حكم نفسه بنفسه ، وأن ينوب عنه ممثلون نيابيون يرعون مصالحه ويسهرون على إسعاده .

وقد كان له فى السياسة كذلك مقصد أسمى من هذا ، وعنه عبر الشيخ محمد عبده بقوله : « إنه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام بشئونها ، حتى تلحق بالدول القوية ، فيعود للاسلام شأنه ، وللدين الحنيف مجده ، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية ، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية ، وله فى عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها[1] » .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص ٣٤ .

٤ — وقد استعان على تحقيق هذه الأهداف — وإن لم تتحقق كلها ولا سيما السياسية منها — بتكوين جماعة من الكهول والشبان حبب إليهم الكتابة ، ورسم لهم خطتها ، وأوحى لهم بالمعانى الجديدة التى يكتبون فيها . وشجعهم على إنشاء الجرائد ، يكتب فيها بنفسه ويطلب إلى من يتوسم فيه المقدرة والمنفعة أن يكتب فيها ، ومن مقالاته فى جرائد أديب إسحاق ما كان يوقعه باسم (مظهر بن وضاح) . وطلب إلى الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى وغيرهما أن يشتركا فى تحرير جريدة (التجارة) التى أنشأها أديب إسحق ، وفى هذه الجريدة كتب السيد جمال الدين مقالين أحدهما : «الحكومات الشرقية وأنواعها» والثانى بعنوان « روح البيان فى الإنجليز والأفغان » ، وكان لهذين المقالين صدًى بعيد ، ولكن جريدتى أديب إسحق (مصر والتجارة) ضايقا رياض باشا بروحهما الجديدة وأسلوبهما الملتهب ، وأفكارهما الجريئة فأغلقهما كما مرّ بنا[1] .

وقد تدخل كذلك فى تحرير « الوقائع المصرية » وطلب إلى الكتاب أن يدبجوا مقالاتهم فى موضوعات معينة تمس حياة الأمة فى صميمها ، فيقول الشيخ محمد عبده : « إن الحاكم وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل » .

وتراه يحرض الصحفى اليهودى « يعقوب بن صنوع » على إصدار جريدته التهكمية (أبى نضارة) ويشجعه على الاستمرار فى النقد الذى يلدغ به إسماعيل .

وقد كان لهذه المقالات أثران : أحدهما تنبيه الأذهان إلى المسائل الحيوية وتعويد الناس الجرأة على الحكام ومطالبتهم بالنصفة والعدل ، وتبيان مكايد الأجانب وجشعهم ، وثانيهما تكوين جيل من الكتاب متمكن من اللغة قدير على الإسهاب وشرح المعضلات من غير لجوء إلى المحسنات والزخارف ، خبير بتفتيق المعانى وتوليد الأفكار ، متحرر من السخافات

---

(١) راجع ص ٩٢ من هذا الكتاب .

والجمود ، متبعاً فى ذلك سنن أستاذه جمال الدين الذى يقول عنه الشيخ محمد عبده : «له سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى الصورة اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له ، وله قوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتى على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه ، وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع » .

ويقول فى موضع آخر . « كان أرباب العلم فى الديار المصرية ، القادرون على الإجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل ، وما كنا نعرف منهم إلا عبد الله باشا فكرى ، وخيرى باشا ، ومحمد باشا سيد أحمد ، على ضعف فيه ، ومصطفى باشا وهبى ، على تخصص فيه ، ومن عدا هؤلاء ، فإما ساجعون فى المراسلات الخاصة ، وإما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها ، ومن عشر سنوات ترى كتبة فى القطر المصرى ، لا يشق غبارهم ، ولا يوطأ مضمارهم ، وأغلبهم أحداث فى السن ، شيوخ فى الصنعة وما منهم إلا أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه أو قلد المتصلين به » .

وقد مر بك ما تميز به أسلوب هذا النثر فى موضوعاته الثلاثة : الاجتماع ، والأدب ، والسياسة .

جمال الدين والثورة :

لم يكن جمال الدين على وفاق مع إسماعيل فى أخريات أيامه ، بل كان ناقماً عليه لاستبداده وإسرافه ، وتمكينه بسياسته للأجانب فى البلاد ، وكان يتوهم الخير فى توفيق إذ كان يجتمع به وهو ولى العهد ، ويرى ميله للأخذ بنظام الشورى ، ونقده لسياسة أبيه وإسرافه ، وقد اجتمعا فى محفل الماسونية ، وتعاهدا على إقامة النظام النيابى .

بَيْدَ أن توفيقاً لم يف بعهده بعد أن تولى الحكم ، وسَرْعان ما تنكر لمبادئه ولأصدقائه فلم يدخل نظام الشورى ، ولم يحسن معاملة السيد جمال الدين الأفغانى ، بل استمع لأقوال الوشاة من الإنجليز وسواهم ؛ إذ حرضوه على إخراجه من مصر[١] فاستجاب لهم ، ولم يكن كريماً فى معاملة هذا العبقرى الشريف بل استعمل معه غاية الغلظة والقسوة والجفاف ، فسيق إلى دار الشرطة بليل بعد انصرافه من مقهاه بغير غطاء أو فراش ، وبات ليلته كما يبيت اللص الأفاق على أرض المخفر ، ثم هُرِّب إلى السويس حيث رحلت به سفينة إلى الهند ، وهكذا حرمت مصر مصدر خير كبير لها ، وجازت هذا النابغة على فضله جحوداً وجفوة .

ومن العجيب أن يضم مجلس الوزراء الذى أصدر أمره بنفيه بحجة أنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » اثنان أعجب بهما وتوسم فيهما الخير : توفيق باشا ، والبارودى ، وكان ألمه بالغــاً غايته للنكسة التى أصابت البارودى وقد كان يؤمل فيه كل خير ، وبعده ليوم عصيب فى تاريخ مصر ، وقد ظلت لهذه الآلام تحز فى نفسه حتى أخريات حياته فقد زاره الأمير شكيب أرسلان وهو بالأستانة ، ويدور الحديث حول ما روى من أن العرب عبروا المحيط الأطلسى قديماً وكشفوا أمريكا بدليل الأهرام الموجودة ببلاد المكسيك ؛ فيقول السيد : « إن المسلمين أصبحوا كما قال لهم الإنسان كونوا بنى آدم أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكذا ، وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من خمول وضعة ، إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم ! قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاد كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم ؛ إن

---

(١) المنار جـ ٨ ص ٤٠٤ وانظر كذلك The persian Revolution : F. G. Browne. 1909 p. 8. وتاريخ الإمام جـ ١ ص ٧٠ .

المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شىء واحد فيهم هى شهواتهم . هذا محمود سامى البارودى عاهدنى ثم نكث معى وهو أفضل من عرفت من المسلمين » .

والحق أن موقف البارودى من السيد جمال الدين لا يمكن الدفاع عنه . وإذا كانت مصر قد حُرمت شخص جمال الدين فقد ظلت تعاليمه وروحه الثورية مشتعلة ، وقد انتقل منها قبس إلى كل من اتصل به ، يتطلمون إلى نظام جديد فى الحكم حتى قامت الثورة العرابية ، وكثير من أقطابها مدينون بأفكارهم وحماستهم للسيد جمال الدين .

أقام السيد جمال الدين بحيدر أباد بعد أن خرج من مصر ، وهناك ألف كتابه فى الرد على الدهريين ، وفيه يثبت أن الدين أساس المدنية ، والكفر فساد العمران ، ويبطل فيه مذهب (داروين) فى النشوء والارتقاء ، لأن هذا المذهب قد أثار موجة من الإلحاد والزندقة كادت تودى بالحياة الروحية بالشرق وهى كل ما بقى له من تراث السلف ، بعد أن نال منه الدهر غايته ، وبين فى هذه الرسالة كذلك أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث خصال : كل منها ركن لوجود الأمم . أما العقائد فالأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضى وأنه أشرف المخلوقات ، والثانية : يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل ، والثالثة : يقينه بأن الإنسان جاء إلى الدنيا كى يَكْمُل كمالا يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى . وأما الخصال الثلاث : فهى الحياء والأمانة والصدق . ويبين أن الإسلام يتميز على غيره من الأديان بمزايا عديدة : منها صقل العقول بالتوحيد وتطهيرها من لوثة الأوهام ، ومخاطبة العقول حتى تؤمن فلا يقبل الاعتقاد بدون دليل ، وحرصه على تعليم الأمة ذكوراً وإناثاً .

ولما أخفقت الثورة العرابية ، ودخل الإنجليز مصر أبيح له أن يذهب أنى شاء في غير بلاد الشرق فاختار أوربا ، وزار لندن ثم انتقل إلى باريس ، ووافاه إليها تلميذه الأكبر محمد عبده ، وكان منفيا ببيروت وهناك أصدرا معاً :

جريدة العروة الوثقى :

وهي دليل آخر على أن عزيمة السيد لا تفتر ، وعلى أن اليأس لم يبلغ في نفسه مبلغاً يثنيه عن أداء رسالته ، وقد كان من رأى الشيخ محمد عبده أن هذا الجيل من المسلمين ، الذين يدعونه للرشاد واليقظة جيل فاسد لا رجاء فيه ، وأن الأولى أن تنشأ مدرسة يربى بها عدد محدود من خيار الشباب يقودون الأمة فيما بعد لما فيه خيرها وتقدمها ، ولكن هذه الفكرة لم ترق للسيد ، ورأى فيها تثبيطا للهمم ، وكأنى به يتعجل قطف الثمرة لهذه الغراس التي أودعها المتصلين به ، وأصر على أن يوجه الدعوة إلى الجيل الحاضر من الناس في صورة جريدة العروة الوثقى ، يكون له فيها الفكر المدبر والعقل المسيطر ، وللشيخ محمد عبده القلم المحرر واللسان المعبر ، ولميرزا محمد باقر الترجمة من الصحف الأوربية ، ونقل كل ما يهم الشرق والإسلام[1] : وصدر من الجريدة ثمانية عشر عدداً ، وكانت شعلة ملتهبة متوهجة من الحماسة والآراء الحرة الجريئة ، وكانت حربا شنهـا جمال الدين وزميلاه على الاستعمار الجشع ؛ وكان طبيعياً أن يحاربها الاستعمار خشية أن تفسد عليه تفرده بالغنيمة وقتله الشعوب التي وقعت في قبضته ، فنعها من دخول الهند ومصر[2] . ولما شعر السيد وزميلاه أن الأعداد لا تصل إلى أصحابها إلا في النادر ، وأنه قد حيل بينهم وبين وصول صوتهم إلى آذان الناس في مصر والشرق عطلوها ، وإن لم يمت أثرها حتى اليوم .

---

(١) تاريخ الإمام جـ٢ ص ٢٢٩ ، والمنار جـ٨ ص ٢٥٥ .

(٢) المنار جـ٨ ص ٤٦٢ ومشاهير جـ٢ ص ٥٧ .

عود إلى الرحلة :

لما عطلت الجريدة ، وانفرط عقد هذه الجماعة الصغيرة المجاهدة ، ورجع الشيخ محمد عبده وميرزا باقر إلى بيروت ، طلب شاه العجم السيد جمال الدين فلبى دعوته عله يجد ميدانا صالحا للجهاد ، وأرضا خصبة لغرس تعاليمه ، وملكا شهما مستنيراً ينفذ آراءه فيكون هو الأمل المنشود ، ولكن هيهات وملوك ذلك الزمان ماألفوا أن يشاركهم في سلطانهم أو جاههم أحد ، ولذلك سئم الشاه (نصر الدين) صحبة السيد ، ودبت في نفسه الغيرة منه ، ولما أحس جمال الدين أنه أخذ يتنكر له استأذن في الرحيل ، ويمم صوب روسيا حيث قضى بها ثلاث سنوات يحرك روسيا ضد انجلترا ، ويشن هجمات متتالية شديدة على شاه الفرس كي يقر النظام الشورى ، ولما سأله القيصر عن سبب عداوته للشاه أجاب بأنه نظام الشورى الذى لا يرضيه ، والذى لا أنفك أدعو إليه ماحييت فقال القيصر : إن الشاه على حق ، فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ، فقال السيد : أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداءه يترقبون له الفرص ، فلم يعجب القيصر هذا الحديث ، وكان من الطبيعى ألا يعجبه وهو المستبد الذى لا ينازعه سلطته منازع ، ولذلك عمل على إبعاده من روسيا[١] .

ومن ثم توجه السيد إلى باريس ، وفى طريقه إليها تقابل مع الشاه مرة ثانية واعتذر للسيد عما حدث ، ووعده أن يمهد له طريق الإصلاح إن هو عاد معه ، وتمنع السيد جمال الدين ، ولكن رغبته فى الإصلاح وحرصه عليه جملته يقبل الرجوع إلى طهران . وفيها أخذ يعد العدة للاصلاح وإقامة العدل ، هو ومن التف حوله من العلماء والعظماء ، والشاه يظهر استعداده لتقبل هذا الإصلاح ، ولكن الصدر الأعظم فى تركيا خشى إن

(١) The Persian Revolution, p. 11 - 70.

تمكن نظام الشورى فى فارس أن تسرى عدواه ، فوسوس للشاه ، ونفره من هذا الإصلاح بدعوى أن ذلك يحد من سلطانه ، ويتركه إمّعة لا رأى له فى بلده . فتجهم للسيد جمال الدين ، ولكن هذا لجأ إلى ضريح ولى فى بلاده (شاه عبد العظيم) وهو حرم من دخله كان آمنا ، ووافاه جم غفير من العلماء والزعماء ولقنهم دعوته ، وملأ قلوبهم إحنا وبغضا للشاه ونظامه فاغتاظ هذا وأرسل جنده إليه ، واقتحموا عليه الضريح غير مبالين بحرمته ، ولا بعرض السيد ، وفى ذلك يقول : «سحبونى على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها فى الشناعة . . . ثم حملتنى زبانية الشاه وأنا مريض — على برذون ، مسلسلا ، فى فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية وساقتنى جحفلة من الفرسان إلى خانقين » ومنها سافر إلى البصرة وهو فى أشد حالات المرض ، وكاد يقضى عليه لولا رحمة الله به(١) .

ولكن هذا المكافح أبى أن يتقبل هذه الأهانة . وأقسم ألا يكف عن الشاه حتى يسقطه عن عرشه وقد بر بقسمه ، وذلك بتحريضه العلماء والزعماء وتعديده مساوىء الشاه وتجسيمه أخطاءه ، ولا سيما تعاقده مع شركة إنجليزية للدخان ، واضطر الشاه إلى فسخ العقد ودفع تعويض مالى كبير ، فكان ذلك أول خطوة فى الإنتقام .

وأخيراً ذهب السيد إلى لندن وأصدر مجلة شهرية سماها « ضياء الخافقين » بالعربية والإنجليزية ، وكان يكتب بها مقالات بإمضاء (السيد الحسينى) .

خاتمة المطاف :

ثم رأى السلطان عبد الحميد أن يدعو إليه جمال الدين خشية أن ينضم إلى حزب تركيا الفتاة فيزيد قوته ، وأرسل عبد الحميد رجاله يغرون السيد بالسفر إلى الآستانة

---

(١) Persian Revolution, p. 11. وتاريخ الإمام جـ١ ص ٥٥ .

ويمنونه الأمانى الحلوة حتى استجاب لدعواه فكان بها كأنه فى قفص من ذهب ، يحصون عليه حركاته وأقواله ، وإن لقى من السلطان حظوة عالية . بيد أن الحاشية ولا سيما أبو الهدى الصيادى ذلك الداهية المحتال الذى أتقن فن الدس والمؤامرات وتمكن من قلب السلطان حتى أصبح قوة غلابة ، قد أفسدوا السلطان عليه ، وما لبث عبد الحميد أن اصطدم بآراء السيد وجرأته ، ولم يدع السيد فرصة إلا حرضه فيها على الإصلاح وإقصاء الخونة والجبناء عن حاشيته ولكن لم يستجب لشىء من هذا . ولما قتل شاه العجم سنة ١٨٩٦ على يد أحد تلاميذ السيد اشتدت الريبة فى جمال الدين وضيق عليه حتى صار محبوساً فى قصره ، ولما أراد الرحيل ترضاه السلطان خشية أن يشنها عليه حرباً شعواء فى الخارج ، وهو تحت سمعه وبصره أهون ، ثم مرض السيد بالسرطان فى فمه ومات ، وشاعت الأقوال بأنه مات مسموما ، أو أن الطبيب أهمل فى علاجه عمداً[1] وكانت وفاته فى ٩ من مارس سنة ١٨٩٨ ، ودفن فى قبر حقير كما يدفن أقل الناس ، وطمست معالم هذا القبر إلى أن قيض الله له رجلا أمريكيا بحث عنه حتى وجده فجدده ، وبنى عليه حاجزاً حديديا وشاده بالرخام وكتب على أحد وجوه الرخام اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته ؛ وفى وجه آخر العبارة الآتية : « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين فى أنحاء العالم الخير الأمريكانى المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦[2] » وهكذا خمدت هذه الشعلة المتوهجة ، وإن ظلت آثارها حتى اليوم فى نفوس من خالطوه وأخذوا عنه ، وفى نفوس تلاميذه وأتباعهم والأجيال التى تأثرت بهم .

نبذة من آرائه :

١ — مرّ بك فى ثنايا هذه الترجمة الموجزة شىء من آراء السيد جمال الدين ، وهناك بعض من أفكاره وتعاليمه ونظراته إلى الحياة جديرة بالنظر ، فقد كان فى أول حياته

---

(١) راجع حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) أحمد أمين بمجلة الثقافة العدد ٢٨٨ .

طموحا ، ذا خيال واسع ، وأمل عريض شمل الإنسانية جمعاء ، حتى دعاه ذلك إلى التفكير فى السبب الذى يدعو الناس إلى الاختلاف والخصام ، ويدعو الدول إلى الحروب والعداء ، وهداه تفكيره إلى أن السبب الأول هو تعصب رجال الدين فى كل ملة ، وسوء توجيههم للشعوب ، وشحن قلوبهم بالحقد والبغضاء لكل من خالف دينهم ؛ وفى هذا يقول : « ورجعت إلى أهل الأرض ، وبحثت فى أهم ما فيه يختلفون فوجدته الدين ، فأخذت الأديان الثلاثة ، وبحثت فيها بحثاً مجرداً عن كل تقليد منصرفاً عن كل تقيد مطلقاً للعقل سراحه » ووجد أن الأديان الثلاثة تتفق فى الغاية والمبدأ وأنه « إذا نقص فى الواحد شىء من أوامر الخير المطلق استكمله الثانى — وإذا تقادم العهد على الخلق ، وتمادوا فى الطغيان ، وساءت الكهان فهم الناموس أو أنقصوا من جوهره أتاهم رسول فأكمل لهم ما أنقصوه ، وأتم بذاته ما أهملوه » وإذا كانت الأديان متفقة فى المبدأ والغاية فما الذى يحول بين أهل هذه الأديان وبين الاتحاد ؟ إن اتفاقهم ووحدتهم تكفل لهم السعادة للبشرية ، وبعد ذلك يقول : « وأخذت أضع لنظريتى هذه خططاً وأخط أسطراً ، وأحبر رسائل للدعوة ، كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب ، ولا تعمقت فى أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد ، وتفرقهم فرقاً وشيعاً وطوائف » . ولكن سرعان ما أدرك أن دون هذا الاتحاد أهوالا وأهوالا ، ولقد نسى قوله تعالى . « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » وأن من يتعرض لهذه الدعوة يرمى بالكفر والإلحاد ، والخروج عن جادة الدين ، وقد رمى بذلك فعلا ولهذا باء بالإخفاق : « انقلبت أفراحى بالخيال أتراحاً ، ورجعت عن نظريتى والفشل ملء إهابى وجبتى »(١) .

وتطامن من أهدافه ، ووجد أن الشرق المسكين أولى بالرعاية والعناية ، وأن إصلاح العالم كله محال ، ولذلك عكف على جهاده فى سبيل هذا الشرق وكان متألماً لبعض الخلافات الدينية بين أبناء الملة الواحدة كالسنة والشيعة .

---

(١) قدري طوقان جمال الدين : آراؤه وأثره فى نهضة الشرق ص ٢٠

٢ — وكان يرى ألا موجب لسد باب الاجتهاد فى الدين ، وعلى المسلمين إذا أرادوا التقدم ، أن يستعملوا عقولهم ، ويستنبطوا كما استنبط أسلافهم أحكاماً تتمشى مع زمنهم وبيئاتهم ، ويقول : ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نص سد ؟ ومن قال لا يصح لمن بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين ويهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمن وأحكامه ؟ . إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا فطرة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده[1] » .

وإذا تأملت أهداف جريدة العروة الوثقى التى ذكرها فى المقال الافتتاحى أدركت إلى حد ما بعض آراء جمال الدين فى إصلاح الشرق ، وقد عرفت أن جمال الدين كانت له الفكرة التى يعبر عنها محمد عبده فى الجريدة . وهاك بعض هذه الأهداف والآراء :

(ا) بيان الواجبات على الشرقيين التى كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات ، ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشىء العلل التى أفسدت حالهم ، وعمت عليهم طريقهم ، وإزاحة الغطاء عن الأوهام التى حلت بهم .

(ب) إشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح ، وإزالة ما حل بها من اليأس .

(ح) دعوتهم إلى التمسك بالأصول التى كان عليها أسلافهم وهى ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب .

(ء) الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصا من التهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون فى المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

(هـ) تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها وتأمين المنافع

---

(١) خاطرات محمد باشا المخزومى .

المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

وكان جمال الدين يعتز بشرقيته وبلغته ، ويشمئز من هؤلاء الذى يتنكرون لقوميتهم ولغتهم ؛ فإن هذا التنكر يساعد المستعمر ، بل هو أثر من آثار تعاليمه يرمى بها إلى الحط من شأن كل ما هو شرقى و « لإضعاف لغة القوم ، والتدرج بقتل التعليم القومى ، وتنشيط القائلين من الشرقيين بأن ليس فى لسانهم العربى أو الفارسى أو الأردى أو الهندى آداب تؤثر ، ولا فى تاريخهم مجد يذكر » : لقد بلغ ببعضهم السفه « أن ينفروا من سماع لغتهم ، وأن يتباهوا بأنهم لا يحسنون التعبير بها ، وأن ما تعلموه من الرطانة الأعجمية هى منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشرية » .

وقد عرفت فيما سبق كفاحه فى سبيل حرية الشعوب ، ومطالبته بنظام الشورى ووقوفه أمام الحكام المستبدين كالجبل الأشم فى جرأة وعزة نفس ، واستنهاضه الهمم كى تقوى دولة إسلامية تكون النواة التى يلتف غيرها حولها وبذلك يعاد مجد الإسلام قوياً أمام مطامع الغرب وعسفه .

ولقد كان جمال الدين عالماً ومفكراً وفيلسوفا ومصلحا اجتماعيا ، أشرب قلبه حب بلاده ودينه ، وأرسله الله فى هذه الحقبة من التاريخ ليبدد دياجير الجهل ويبعث الحمية فى النفوس . ولقد أرغم خصومه على احترامه بصراحته وجرأته ، ولقد رأيت كيف ضاقوا به ذرعا فى كل مكان ؛ لأنه كان حربا على الجهل والظلم والقسوة والطغيان ، ولقد أقر له الغربيون بالفضل حتى لقد قال عنه (رينان) وهو من هو فى كرهه للمسلمين : « ولقد يخيل إلى من حرية فكر الأفغانى ونبالة شيمه وصراحته — وأنا أتحدث إليه — أنى أرى أحد معارفى من القدماء وجهاً لوجه ، وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من العظام الذين ظلوا قرونا عدة يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار » .

أسلوبه في الكتابة :

لم يكن جمال الدين مفطوراً على اللغة العربية مطبوعا على أساليبها الفصيحة ، لأنها ليست لغته الأولى ، وإنما تعلمها تعلماً ، ولم يكن حظه من آدابها كثيراً ، ولم يتذوق منازع بلاغتها بقدر كبير ، ولكنه أفادها فائدة جليلة بارشاد تلاميذه إلى التحرر من القيود الثقيلة التى كانت ترسف فيها الكتابة الإنشائية من محسنات بديعية مختلفة ، وسجع متكلف ممقوت ، واستعارات غريبة وغير ذلك مما أفسد المعنى ، وستر الأفكار عن الوضوح والجلاء كما أرشدهم إلى تجنب المقدمات الطويلة ؛ وطبعى أن يصرفهم إلى الاهتمام بالمعانى . لأن هناك أشياء كثيرة يريدون الإبانة عنها ، والإفاضة فيها . ولا يتسع هذا النثر المقيد لكل تلك المعانى ولا يستطيع إيضاحها كاملة ، ولقد رأيت فيما سبق نماذج من هذا النثر دبجها تلاميذه ، أمثال محمد عبده وأديب إسحق ، وقد قال أديب عن أسلوبه الذى تأثر فيه بتعاليم جمال الدين : « رأيت أن أصرف العناية والاجتهاد إلى تهذيب العبارة ، وتقريب الإشارة لتقرير المعنى فى الأفهام ، من أقرب وأعذب وجوه الكلام ، وانتقاء اللفظ الرشيق للمعنى الرقيق ، متجنبا من الكلام ما كان غريبا وحشياً أو مبتذلا سوقياً ، فإن التهافت على الغريب عجز ، وفساد التركيب بالخروج عن دائرة الإنشاء داء إذا سرى فى القراء والمطالعين أدى إلى فساد عام ، وأغلق على الطلبة معانى كتب العلم ، والتنازل إلى ألفاظ العامة يقضى بإماتة اللغة وإضاعة محاسنها ، وإن فى لغة القوم لدليلا على حالهم » .

وهذا الوصف الذى ذكره أديب إسحق لنثره هو أثر من تعاليم جمال الدين وسترى من النموذج الذى سأعرضه عليك من نثره أن جمال الدين وإن لم يكن من المطبوعين على أساليب العربية الجميلة ، إلى أنه كان ينتزع البلاغة انتزاعا فترى لقلمه سطوة لا تراها لكثير من الأقلام ، وقد مر بك ، ما قاله الشيخ محمد عبده فى قدرته على تفتيق المعانى والاحتفال بها ، ومن مزايا أسلوبه كثرة الجمل الاعتراضية ، والفصل بين فعل الشرط وجوابه أو المسند

والمسند إليه بفواصل طويلة ، وهذا ناشىء من ترتيب فكره وتعوده على الأساليب الفارسية الأعجمية . كما كانت لديه جرأة فى استعمال القياس فى اللغة فيأتى بجموع لم يعرفها العرب وصيغ لم تسمع فى لغتهم . وكان من مستلزمات كعابته وأثر من آثار عجمته إدخال (ال) على الأعلام.

هذا وقد وفينا موضوعات النثر فى ذلك العصر حقها من الكلام ، وبينا الأسلوب الذى تميز به كل منها ، فألق عليها نظرة لتقف على أسلوب جمال الدين فقد كان المرشد للكتاب ، وإن لم يكتب هو إلا القليل ، ومن هذا القليل الرسالة الآتية التى بعث بها إلى عبد الله باشا فكرى يعتب عليه ، وقد بلغه أن رجلا ذمه أمام الخديو على مسمع من فكرى باشا فسكت ولم يدافع عنه ، وهى من النوع الأدبى ولذلك احتفى بأسلوبها أيما احتفاء ، وفيها تتجلى خصائص أسلوبه عامة .

« مولاى . إن نسبتك إلى هوادة فى الحق وأنت — تقدست جبلتك — فطرت عليه ، وتخوض الغمرات إليه ، فقد بعت يقينى بالشك ، وإن توهمت فيك حيدانا عن الرشد وجوراً عن القصد - وأنا موقن أنك لازلت على السداد غير مُفرِط فى الحق ولا مُفرِّط ، فقد استبدلت علمى بالجهل — ولو قلت : إنك من الذين تأخذهم فى الحق لومة لائم ، وتصدهم عن الصدق خشية ظالم ، وأنت تصدع به غير وان ولا ضجر ، ولو ألب الباطل الكوارث المردية ، وأجرى عليك الخطوب الموبقة لكذبت نفسى وكذبنى من يسمع مقالتى ؛ لأن العالم والجاهل ، والفطن والغبى كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيتك ونقاوة سريرتك واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت ، والحق معك أينما كنت لاتفارق المكارم ولو اضطررت ، وأنت مجبول على الخير لايحوم حولك شر أبداً ، ولا تصدر عنك نقيصة قصداً ، ولا تهن فى قضاء حق ، ولا تنى عن شهادة صدق ، ومع هذا وهذا وذاك إنك مع علمك بواقع أمرى ، وعرفانك بسريرتى وسرى ، أراك ماذدت عن حق كان واجباً عليك حمايته ، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته ، وكتمت الشهادة ، وأنت تعلم أنى ما أضمرت للخديو ولا للمصريين شراً ولا أسررت لأحد فى خفيات ضميرى ضراً ،

وتركتنى وأنياب النذل اللئيم (فلان) حتى نهشتنى السبع الهرم العظام ، ضغينة منه على السيد إبراهيم اللقانى ، وإغراء من أعدائى أحزاب (فلان) .

ما هكذا الظن بك ولا المعروف من رشدك وسدادك ولا يطاوعنى لسانى — وإن كان قلبى مذعناً بعظم منزلتك فى الفضائل ، مقراً بشرف مقامك فى الكمالات — أن أقول عفا الله عما سلف ، إلا أن تصدع بالحق ، وتقيم الصدق ، وتظهر الشهادة ؛ إزاحة للشبهة وإدحاضاً للباطل ، وإخزاء للشر وأهله ، وأظنك قد فعلت أداء لفريضة الحق والعدل . ثم إنى يامولاى أذهب إلى لندن ومنها إلى باريس مسلمـــاً ، وداعيا لكم ، والسلام عليكم وعلى أخى الفاضل البار أمين بك » .

٨ صفر سنة ١٣٠٠ جمال الدين الأفغانى

٢ — الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

وإذا كان جمال الدين قد أبعدته الظروف القاسية ، وجنود الغدر والاستعمار عن مصر وهى أحوج ما تكون إليه ، فقد ظلت بها روحه الوثابة ، ومصر فى ذلك الوقت قلب الإسلام النابض ، وأمل العروبة الغض ؛ لأن تركيا — وهى مقر الخلافة — كانت عجوزاً مشلولة الأطراف ، جافة الفؤاد يابسة العود ، تعتلج فى أحشائها الوساوس والدسائس ، ويسيطر عليها خلفاء شبعوا من اللذائذ المادية حتى بشموا ، وانغمسوا فى حمأة الشهوات حتى شرقوا ، والشام قد هجرها المستنيرون الأحرار ، واستوطنوا مصر هربا بنفوسهم الأبية أن يذلها الظلم ، ويجرحها الحيف والاضطهاد ، وبقية أقطار العروبة فى سبات عميق ، أو يقظة قريبة من الوسن ، قد أعدتها تركيا بأدوائها ، فهى تترنح تحت فتكات الأمراض الاجتماعية وآلامها المبرحة وتكاد تسلم الروح إعياء وهزالا .

أجل ! قد بقيت روح جمال الدين بمصر ترفرف على واديها فى شخص محمد عبده[1]

---

(١) ولد محمد عبده بقرية « هنرا » بمديرية الغربية سنة ١٢٦٦ هـ — ١٨٤٩ م وانتقلت به أمه إلى بلدة أبيه « محلة نصر » بمديرية البحيرة بعد ولادته بقليل وكان أبوه ذا مكانة ملحوظة =

وهو شيخ من صميم ريف مصر . أرسله أبوه إلى الجامع الأحمدى ليتعلم كما يتعلم كثير من الناس بعد أن حفظ القرآن ، ولكنه تمرد على هذا التعليم بعد سنة و نصف حاول فيها أن يفك طلاسم (الأجرومية) فأعيته الحيل ، فأيقن أنه غبي ، وأنه غير مستعد لتلقي العلم وصمم على العمل فى الحقل كما يعمل إخوته وأهله ؛ بيد أن والده أكرهه على الاستمرار فى طلب العلم فهرب إلى أحد أخوال أبيه وهو :

الشيخ درويش :

والشيخ درويش من الشخصيات التى أثرت فى عقل محمد عبده وفى نفسه وفى خلقه ، وحددت له أهدافه فى الحياة . ولايذهبن بك الظن ، فتتخيل أن الشيخ درويشاً هذا فيلسوف أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، أو أنه عالم من علماء التربية الأفذاذ ، فلم يكن — علم الله — إلا شيخاً صوفياً سليم العقيدة ، نير البصيرة ، على حظ قليل من العلم ، وكثير من التجارب ؛ فقد تتلمذ على السنوسى بطرابلس ، وجاب بعض الأقطار يتلقى على رؤساء الصوفية طريقة الدعوة وسياسة النفس .

جاء الشيخ محمد عبده إلى الشيخ درويش هارباً[١] من العلم وكان فى الخامسة عشرة من عمره فتيا قويا مغرما بركوب الخيل واللهو مع أمثاله من الشباب ، ولكن الشيخ درويش تلقاه كما يتلقى الطبيب المريض ، وعالج هذه العقدة التى كونتها (الآجرومية) فى نفس الفتى ؛ وأعطاه كتابا سهلا فى المواعظ والأخلاق ولم يكن للفتى صبر على القراءة

= فى قريته يمتاز بقوة الجسم وصحته ، وبشيء من سعة الرزق والكرم والاستنارة ، وقد ورث عنه محمد عبده كل هذا .

وقد ترك محمد عبده ترجمة حياته فى وثيقتين إحداهما كتبها استجابة لصديقه الشاعر الرحالة الإنجليزى « ولفرد سكاون بلنت » وفيها شيء عن أصل أسرته وجزء من تاريخ حياته W. S. Blunt Secret History of Egypt. London 1907 ، والثانية ما نقله عنه الشيخ رشيد رضا إجابة على أسئلة وجهها إليه . انظر المنار ٨ ص ٤٠٥ وما بعدها .

(١) مع العلم أنه كان قد تزوج وصمم على المكث بالبلدة ، ولكن والده أمره بالذهاب إلى طنطا بعد أربعين يوما من زواجه .

وسرعان مامل المجلس ، ولـكن الشيخ درويشا أخذه برفق وتؤدة ، وكان يفسر له مايقرأ فوجد الفتى فيما قرأ لذة ، وانصرف عن اللهـو ، وعكف على قراءة الـكتاب ، ويقول فى ذلك : « وطلبت منه (يوما) إبقاء الـكتاب معى ، فتركه ، ومضيت أقرأه ، وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت علامة لأسأله عنها ، ألى أن جاء وقت الظهر وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة فى اللعب ، وهوى ينازعنى إلى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته ،وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبة فى المطالعة والميل إلى الفهم ولم يأت اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شىء إلى هو ما كنت أحبه من لعب ولهو ونخفخة وزهو ، وعاد أحب شىء إلى ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم »[١] .

وهكذا استطاع الشيخ درويش أن يحل العقد النفسية ، ويعيد للفتى ثقته بنفسه وفى ذكائه ، ويرغبه فى العلم : وقد أفاد الفتى من ذلك درسا لم ينسه مدى حياته ، وهو أن الأزهر بحاجة إلى الإصلاح الشامـــل فى كتبه التى تدرس : وفى المعلمين الذين يقومون بالتدريس وكان هذا أحد أهدافه فى الحياة كما سترى .

وقد أفاد من الشيخ درويش درسا آخر وقر فى نفسه وبدل من قيم الأشخاص والناس عنده فلم يعد يهتم بالتفوق المادى والغنى والجاه ، بل علمه أن الإنسان الـكامل فى هذه الحياة هو من آمن وعمل صالحاً سواء كان غنيـا أو فقيراً ، وعلمه كذلك أن الإسلام الصحيح يتنافى مع الأخلاق المنحلة والفساد ، لأنه عقيدة وعمل ، لا ألفاظ تقال ، ثم علمه كذلك أن الإسلام دين سهل سمح ، وأن مصدره الذى يجب أن يؤخذ منه هو القرآن وحده[٢] وظلت هذه الدروس التى تلقاها فى صباه تنمو وتترعرع فى نفسه حتى صارت مبدءاً يسعى إليه وغاية يصبو إلى تحقيقها .

---

(١) وبهذا برهن الشيخ درويش فى قريته على أنه أقدر من علماء الأزهر فى هداية الطلاب وتحبيبهم فى القراءة : ولقد كان مشايخ الصوفية فى الماضى رسل هداية وتبشير وعلى أيديهم أسلم كثير من وثنى السودان وزنوج غابات إفريقية ، وهم الذين نشروا الإسلام فى كثير من بقاع الأرض فأين منهم متصوفة زماننا الذين لا هم لهم إلا ملء البطون وكنز الأموال .

(٢) كان الشيخ درويش تلميذاً للسنوسيين كما رأينا ، وهؤلاء كانوا يتبعون مذهباً شبيهاً بالمذهب الوهابى ، وهو الرجوع بالإسلام إلى بساطته الاولى ، متجنبين البدع وتفسيرات المتأخرين وزياداتهم فى العقائد والفروع

وليس هذا كل ما فعله الشيخ درويش من توجيه لتلميذه ، بل كان يلقاه فى الإجازات الصيفية بعد عودته من الأزهـــر ، ويلومه على عزلته وعدم الاختلاط بالناس ودراستهم وإفادتهم بما عرف ، وكان يغشى به المجالس ويحمله على أن يتحدث إلى الناس ويجيب عن أسئلتهم ويكون لهم مرشدا ، لأن العلماء الذين يعنون بعلمهم على الناس لاخير فيهم . وقد بقى الشيخ محمدعبده حتى مات وهو يعمل بهذه النصيحة ، ويرشد الناس كباراً وصغاراً رعية وساسة . فرحم الله الشيخ درويشاً لقد أدى للاسلام ولمصر وللشرق خدمة جليلة .

فى الأزهر :

وتحول الشيخ محمدعبده من الجامع الأحمدى إلى الأزهر ، وكان الأزهر فى ذلك الوقت على حالة من الفساد لاتطاق وبحسبك أن تقرأ تقريراً وضعه الشيخ عبد الكريم سلمان(١) عن هذا المعهد وحال أساتذته وطلبته ، ومدة الدراسة فيه(٢) ، وحال العلم ، فإن الكتب التى كانت تدرس به من نتاج العصور المتأخرة يدرسها أساتذة لايفهمون الغاية منها ، ولايستطيعون كتابة أربع جمل صحيحة(٣) ، وكان به كثير من ضيقى الفكر الذين يرمون الناس بالزندقة والكفر جزافاً مثل الشيخ عليش ؛ ولكن كان به من هيأتهم الظروف

---

(١) لم يحمل التقرير اسم الشيخ عبد الكريم ولكن اشتهر بأنه له ، وفيه أعمال مجلس إدارة الأزهر من ابتداء تأسيسه سنة ١٣١٢ هـ وهى مدة اشتغال الشيخ محمد عبده فى مجلس الأزهر .

(٢) كانت إجازات الطلاب كثيرة فنى مولد السيد البدوى ، والدسوقى . ويوم عاشوراء والمولد الحسينى ، ومولد الشافعى ، والمغنى والشرقاوى ، وهذا عدا الأعياد الإسلامية والمولد النبوى ورمضان والأعياد الرسمية ، ولم تكن مدة الدراسة تزيد عن ثلاثة أشهر ونصف يخرج منها الخميس والجمعة من كل أسبوع .

(٣) وقد مر بك وصف عبد الله فكرى لهم فى ص ١٥٧ من هذا الكتاب ، وقد كان الشيخ أحمد الرفاعى يدرس فى ذلك الوقت كتاب المطول فى البلاغة ويعترف أنه لايحسن أن يكتب خطابا ولو غير بليغ لأن هذا عمل تلاميذ المدرسة المدنية (أحمد أمين بمجلة الثقافة العدد ٣٨٨) ، واعتذر أحد أكابر العلماء وهو الشيخ الإمبابى من حضور وليمة فى رمضان فكتب رسالة الاعتذار على ورقة من أوراق العطار وأخطأ فيها عشرة أخطاء نحوية ، (محمد عبده لمحمد صبيح ص ٦٥ ، وتقرير الشيخ عبدالكريم سلمان) .

لأن يتسم أفقهم ببعض السعة كالشيخ البسيونى ، والشيخ حسن الطويل ، وكان ذكياً حكيما له نظرات فى الحياة صائبة ، يقرأ الفلسفة فيرمى بالزندقة .

كانت هذه حال الأزهر العلمية حين وفد إليه محمد عبده ، ناهيك بالقذارة التى كانت تلوث المسجد وصحنه ، ودورة مياهه وأروقته ، والفوضى الخلقية التى كانت سائدة بين طلابه . وأخذ الشيخ محمد عبده يدرس العلوم المتداولة بالأزهر حينذاك من نحو وفقه وتفسير . أما العلوم الحديثة فلم يكن يسمع عنها الأزهر ورجاله ، ومن يتعرض لها فهو كافر فى عرفهم مارق عن جادة الدين .

وكان الشيخ درويش حينما يعود الطالب الفتى إليه يسأله عما درس بالأزهر فى عامه وبعد أن يستمع إليه قليلا يسأله : ما درست المنطق ؟ وما درست الحساب ؟ ما درست الهندسة ؟ فيجيب الشيخ محمد عبده بأن هذه الدروس لا يرى الأزهريون تعليمها ، فيقرر له هذا الصوفى المنزوى فى قريته بأن كل العلوم يجب أن تعلم ، وعلى الطالب أن يسعى إليها فى كل مكان ، ويقول له : « إن الله هو العليم الحكيم ، ولا علم يفوق علمه وحكمته ، وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه ! وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شىء من العلم بممقوت عند الله ، ولا شىء من الجهل بمحمود لديه إلا ما يسميه بعض الناس علما ، وليس فى الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما إذا قصد من تحصيلها الإضرار بالناس » فأى رجل كان الشيخ درويش هذا ؟ وعلى أى حال من الجهل كان الأزهر ؟

التمس الشيخ محمد عبده بعض هذه الدروس التى وجهه إليها مرشده عند الشيخ حسن الطويل[1] ، بيد أن هذه الدروس لم تشبع نهم نفسه ؛ على الرغم من طرافتها ، وذكاء

---

(١) وكان الشيخ حسن الطويل من الشخصيات الفذة فى عصره ، ذا ذكاء حاد ومعرفة بالرياضيات، وكان مدرسا بدار العلوم ، وقد بلغ من مهارته فى الرياضيات أن كان يحل لطلابها ما أشكل عليهم من تمرينات الهندسة ، وكان على معرفة بكتب الفلسفة القديمة وبالدنيا والسياسة وكان ذا شجاعة فى الكلام =

مدرسها وسعة مداركه وإنما كانت مثيرة لنفس الشيخ محمد عبده ، تبعث فيها الرغبة إلى الاستقراء والتعمق والوصول إلى الحقائق الواضحة بدون تردد أو التواء ، وأن تستشف ما وراء هذه الألفاظ القديمة ، وأن تصل هذا العلم القديم بالحاضر الجديد ، وتحل مشكلات الحياة بعامة ومشكلات مصر بخاصة . ولم يكن ذلك ميسوراً عند الشيخ حسن الطويل، وإنما تهيأ لمحمد عبده أن يدرك هذه الغاية عند أستاذه الأكبر جمال الدين الأفغانى حين وفد على مصر وقد تحابا وتصادقا ، ووجد جمال الدين فى محمد عبده التربة الخصبة التى تحيل تعاليمه عملا صادقا قويا لاينقص منه شىء بل يزيد على مرور الأيام نماء ، ووجد محمد عبده فى جمال الدين الأستاذ الذى كمل له ما كان يشعر به من نقص ؛ فإذا كان الشيخ درويش قد لقنه شيئاً من التصوف سابقاً فقد كان تصوفا خياليا تحول على يد جمال الدين إلى تصوف عملى ، وإذا كان الشيخ درويش قد بعث فيه الجرأة لمواجهة الناس والتحدث إليهم وبث تعاليمه بينهم ، فقد مكنه جمال الدين من اختيار الموضوعات الصالحة التى يتكلم عنها ، وأفسح أمامه أفق الإصلاح فتعددت شعبه وميادينه من دينية وخلقية واجتماعية ، ثم إن جمال الدين حرضه على استخدام سلاح آخر فى ميدان الدعوة ، غير الخطابة والمشافهة ، ألا وهو سلاح القلم ؛ حتى تسير دعوته مشرقة ومغربة ، فتشمل القريب والبعيد ، وحتى تكون متقنة رائعة تغذيها التؤدة والفكر الناضج والمنطق . وقد فتن محمد عبده بجمال الدين وبدروسه وبروحه المتوهجة وحماسته العارمة ، ونشاط فكره ونظراته للحياة ، ووجد فيه ما لم يجده عند حسن الطويل ، فلا بدع إذا رأيناه يكتب بخط يده على نسخة من كتاب قديم : « وكان الفراغ من قراءته وتقريره عند لسان الحق ، وقائد الخلق إلى

= بما يعتقد ولو حرم منصبه بدار العلوم ؛ وزهد فى الدنيا حتى لايهمه منها شىء ، يلبس ثيابا رخيصة ، ويأكل قليلا ويدعى إلى موائد الأغنياء للافطار فى رمضان فيأكل من طبق الفول ويزهد فيما عداه ، ويطرد من دار العلوم لكلامه فى السياسة فينفق عليه صاحب مقهى بلدى ، فلما عاد إلى عمله سلمه الشيخ حسن الطويل مرتبه لينفق عليه منه كما كان يفعل وهو مطرود ، وكان يدرس فى الأزهر الفلسفة والمنطق .

جناب الحق ، خلاصة من تجلى بالحكمة ، ومنقذ الضالين فى تيه الجهالة والغُمّة ، محيى الحق والدين أستاذنا السيد جمال الدين » وكان يلقبه « الحكيم الكامل » .

وكان جمال الدين يبادل محمد عبده حبا بحب وإعجابا بإعجاب ، فقال عندما رحل من مصر سنة ١٨٧٩ : تركت لكم الشيخ محمد عبده ، وكفى به لمصر عالما » . وهى كلمة تدل على مبلغ اعتقاد هذا المصلح الكبير فى تلميذه وقدرته على تنفيذ تعاليمه والقيام بالدعوة إليها من بعده : وقد روى المخزومى فى خاطراته أن جمال الدين لم يذكر اسم محمد عبده إلا مقترنا بكلمة « الصديق » أو « صديق الشيخ » ، ولما اعترض عبد الله نديم على ذلك وقال له ذات يوم : « أيها السيد ما غفلت مرة عن إضافة لفظ الصديق إلى الشيخ محمد عبده كأنه لم يكن بين الناس صديق غيره ؛ إذ تراك تنعت من سواه بلفظ صاحبنا أو فلان من معارفنا ، أجاب جمال الدين بقوله : وأنت ياعبد الله صديق ، ولكن الفرق بينك وبين الشيخ محمد أنه صديق على الضراء ، وأنت صديق على السراء » ؛ ويعترف محمد عبده بأنه مدين بالشىء الكثير لجمال الدين ويقول : « إن أبى وهبنى حياة يشاركنى فيها (أخواى) علىّ ومحروس ، والسيد جمال الدين وهبنى حياة أشارك فيها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين » وقد مرت بك كلمته فى قدرة جمال الدين على تفتيق المعانى وكيف يتكلم فى كل فن كأنه من كبار أساتذته .

ومنذ اتصل محمد عبده بجمال الدين ابتدأ اتصاله بالحياة العامة ، والجهاد فى سبيل إصلاح الأمة ، وهو بعد طالب فى الأزهر ، لم ينل شهادة تجيز له التدريس فقد كتب فى (الأهرام) فى السنة الأولى من صدورها بعض مقالات دلت على روحه وجرأته مثل « الكتابة والقلم » و « المدبر الإنسانى والمدبر العقلى الروحانى » و « العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم المصرية »[1] . ولخص بعض دروس أستاذه فى الفلسفة بجريدة

---

(١) انظر تاريخ الأستاذ الشيخ محمد عبده لرشيد رضا ج ٢ ص ٢٧ — ٥٧ وسنتكلم عن هذه المقالات فيا بعد من حيث قيمتها الأدبية .

(مصر) التي كان يصدرها أديب إسحق ، وكان من الطبيعي أن يثير هذا ضجة حول ذلك الشيخ الأزهري الجرىء فمن معجب به ومن حاقد عليه ، ومن جامد ساخط يرميه بالزندقة .

وأخيراً تقدم الشيخ محمد عبده لنيل شهادة العالمية ، وقد تآمر الممتحنون عليه قبل مثوله أمامهم ، وعزموا على ألا يمنحوه العالمية ، بيد أنه خيب أملهم بعلمه ومهارته في تصريف الكلام وسعة اطلاعه وسرعة بديهته ، ووجد من الشيخ العباسي المهدى عطفاً ، واستطاع الشيخ العباسي أن يقنعهم بوجوب منحه (الشهادة) ولكن أصروا في عناد على أنه لن ينالها من الدرجة الأولى واكتفوا بإعطائه الدرجة الثانية(١) في غرة رجب ١٢٩٤هـ — ١٨٧٧م .

وتصدى الشيخ محمد عبده بعد ذلك للتدريس بالأزهر ، وأثار حوله ضجة كبيرة فالشيخ عليش يهم بضربه لأنه رجّح مذهب المعتزلة في مسألة من المسائل على مذهب أهل السنة ، وتراه يتحدى علماء الأزهر جميعا بإعطاء مائة جنيه لمن يبرهن على (أن الله واحد) ويُنظرهم إلى الغد ، ويفتتح الدرس ويسأل الحضور — وقد توافدوا أفواجاً — عن العالم الذي يريد مائة جنيه ويقرر في حجج دامغة وحدانية الله ، ويسود الصمت ، وتضطرب القلوب ، وتتقلب الأبصار مدة غير وجيزة ثم يبدأ هذا العالم الصغير درسه غير تارك شبهة إلا وضحها ولا حجة إلا أوردها ، ولا عويصاً إلاَّ حله ، فترك في بعض القلوب فرحة ، وفي كثير من القلوب غُصّة .

وكان يخص بعض مريديه بدروس في منزله تختلف نوعاً عن دروس الأزهر فيدرس لهم (تهذب الأخلاق) لابن مسكويه ، ويقرأ لهم كتاب (التحفة الأدبية في تاريخ

---

(١) ولقد رجع الأزهر فيما بعد ذلك بست وعشرين سنة عن هذا القرار ، ومنح الشيخ محمد عبده في سنة ١٩٠٤ العالمية من الدرجة الأولى ، وكان شيخ الأزهر إذ ذاك الشيخ علي الببلاوي .

عدين الممالك الأوربية) للمؤلف الفرنسى (جيزو) وقد عربه (حنين نعمة خورى) .

ثم عين الشيخ محمد عبده فى أواخر سنة ١٨٧٨ مدرساً للتاريخ بدار العلوم — إذ توسط رياض باشا فى هذا التعيين ، ولم يدرس ملخصاً من ابن الأثير أو الطبرى أو ما شاكلها من الكتب القديمة ولكن عمد إلى (مقدمة ابن خلدون) يبسط فى درسه آراء هذا النابغة فى أصول المدنية والاجتماع ، وألف كتاباً فى « علم الاجتماع والعمران » فقد ولم يعثر عليه[1] . وعين محمد عبده فى نفس الوقت مدرساً للعلوم العربية بمدرسة الألسن ، وكان همه - سواء كان فى الأزهر أو دار العلوم أو الألسن — هو (إيجاد نابتة من المصريين ، تحيي اللغة العربية والعلوم الإسلامية ، وتقوم عوج الحكومة)[2] :

محرر الوقائع المصرية :

ثم دارت الأيام دورتها وعزل إسماعيل عن العرش ، وتولى توفيق ، ونفى السيد جمال الدين كما عرفت من قبل ، وتسلم محمد عبده راية الإصلاح بعد أستاذه ووجد فى رياض باشا مشجعاً وحامياً فعينه محرراً للوقائع المصرية ، وجمع الشيخ حوله بعض النابهين من الشباب[3] وأنشأ بالجريدة (الرسمية) قسما أدبياً تنشر به المقالات الإصلاحية والاجتماعية وقد كانت الجريدة تفرض على أعيان البلاد وموظفى الدولة ، ويجدون بها قرارات جافة ركيكة العبارة و « أراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة فى ذاتها تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ماتضمنه من الأوامر واللوائح ، فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة بهم ومنهم من غير إكراه ، وكان قد أحس

---

(١) أحمد أمين فى مجلة الثقافة العدد ٣٨٩ والمنار جـ ٨ ص ٤٠٣ — ٤٠٤

(٢) المنار جـ ٨ ص ٤٠٤

(٣) أمثال سعد زغلول ، وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم الهلباوى ، ومحمد خليل والسيد وفا .

بتوجيه الأفكار إلى طلب شيء من طلاوة العبارة ، ووفرة المعنى وحسن الانتقاد »[١] .

ووضع الشيخ (لائحة) للجريدة الرسمية وجعلها مشرفة على كل مايصدر فى البلاد من كتب وصحف ، وحق إنذار هذه الصحف عربية أو أجنبية ، ومعاقبتها بالتعطيل الدائم أو المؤجل كى يلزمها « الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب مع إطلاق الحرية لها فى تبين الحقائق وكشف وجوه الخطأ والصواب بدون خوف » كما أعطت هذه اللائحة لرئيس تحرير الوقائع الحق فى انتقاد جميع إدارات الحكومة حتى وزارة الداخلية التى يتولاها رياض باشا ؛ وذكر السيد رشيد رضا أن « أول ما بدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التى كانت متبعة فى النظارات والإدارات ، فأخذت تبين وجه الخلل بها وإضرارها بفهم المعانى المطلوبة ، ثم ترسم الطريقة المثلى التى يجب السير عليها ، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوى الإلمام باللغة العربية من موظفى الحكومة ، وحضهم رؤساؤهم على مكاتبة الجريدة الرسمية ستراً لعيوب الإدارات ؛ واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير »[٢] .

وبهذا صار محمد عبده مشرفاً على الأداة الحكومية جميعها ، تراجعه جميع الإدارات فى كل مالديها من الأعمال الهامة والتى تنوى عملها ، وقد اشتدت حملته على وزارة المعارف وتبيان مابها من خلل وفوضى وسوء إدارة ، فأدى ذلك إلى إنشاء (مجلسُ أعلى) لها واختير به عضواً ، وكانت الوقائع المصرية منبراً تذاع منه تعاليم جمال الدين فى العدالة والتربية الخلقية والإصلاح الاجتماعى ، فيتكلم عن الفقر ومشكلته وعن (وخامة

---

(١) من كلام الشيخ محمد عبده قبل أن يتولى رئاسة تحرير الوقائع : المنار جـ ص ٤٠٦ وما بعدها .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الأول ، هذا وقد أنذر محمد عبده مرة مدير جريدة مهمورة بتعطيل جريدته إذا لم يختر لها محرراً صحيح العبارة فى مدة معينة ، فأسرع مدير الجريدة إلى تنفيذ ماأراده رئيس تحرير الوقائع ، وتعقبت الجريدة مرة مدير بنى سويف وانتقدته انتقاداً مراً فأصدر أمره بعدم دخولها وراجع وزارة الداخلية فى أمرها فنصرت الجريدة عليه ونشرت فعلته فى منشور عام .

الرشوة) وعن (العفة ولوازمها) وعن (القوة والقانون) وعن (منتدياتنا العامة وأحاديثها)[١] وغير ذلك من المقالات الاجتماعية والإصلاحية بيد أنه لم يخض فى المسائل السياسية ولعل ذلك لأن رياض باشا هو رئيس الوزارة ، وله عليه يد لا تنكر ، أو لأنه كان يعتقد مذهب رياض فى التدرج وعدم الطفرة ، وظل بمنصبه هذا إلى أن قامت الثورة العرابية .

محمد عبده والثورة :

كان محمد عبده يختلف مع جمال الدين فى طريقة الإصلاح ، فبينما الأول يريد أن تقفز الأمة قفزاً ، وتتمتع بالشورى والحرية على يد مجلس نيابى يشرع لها القوانين وتكون الحكومة مسئولة أمامه ، كما تكفل فى ظله حرية الفرد الشخصية ، إذا بمحمد عبده وأصحابه يرون أن الإصلاح لا ينتج إلا إذا تربت الأمة وتعلم أبناؤها كيف يحكمون أنفسهم بأنفسهم وأن يسير الإصلاح تدريجياً فى كل ناحية ، حتى فى العادات « وإنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة فى عقول أفرادها ثم يطلب بعض التحسينات فيها لا تبعد منها بالمرة ، فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج حتى لا يمضى زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرقى وأعلى من حيث لا يشعرون[٢] » . وكان يرى أن الشرق إنما ينهض على يد مستبد عادل يحكمه خمس عشرة سنة « يصنع فيها ما لا يصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرناً » مستبد « يُكره المتناكرين على التعارف ، ويلجىء الأهل إلى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه فى منافعهم بالرهبة ، إن لم يحملوا أنفسهم على مافيه سعادتهم بالرغبة عادلٌ لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذى يحكمه » وكان هذا رأى رياض باشا

---

(١) تاريخ الأستاذ الأمام الجزء الثانى ص ٦٨ وما بعدها إلى ص ٢٢٥ .

(٢) من مقالة الأستاذ الإمام تحت عنوان (خطأ العقلاء) . انظر تاريخ الأستاذ الإمام ج٢ص١٢٣ .

وانقسمت الأمة فريقين ، فريق النهضة السريعة والإصلاح العاجل ويتزعمه شريف باشا وهو كما صوره محمد عبده « من أقوى عوامل النهضة » التى (انقلبت إلى فتنة) فى رأيه ، ومن ألسنة هذا الفريق وأسلحته البتارة أديب إسحق ، وفريق يود النهضة البطيئة المتدرجة ويتزعمه رياض باشا ويناصره فى رأيه محمد عبده(١) .

ولما قامت الثورة على يد العسكريين وتزعم عرابى مطالب الذين يريدون المجلس النيابى ، وانضم إليه كثير من زعماء الأمة وفى مقدمتهم سلطان باشا ، وعبد الله نديم ، وامتزجت مطالب الجنود بمطالب الأهالى ، وطلب العدالة بين الضباط بطلب الحكم النيابى بإلغاء الاستبداد لم يكن محمد عبده من المحبين لهذه الثورة أو العاملين فيها ، لأنه كان يكره عرابى باشا ، ويعتقد أنه شهم فى الكلام ضعيف فى الحرب ، أليق به أن يكون واعظاً للعوام من أن يكون زعيم أمة ، ويقول فيه : « كان أحمد عرابى ينظر إلى رؤسائه من الجراكسة نظر العدو إلى عدوه ، وكان يحتقرهم فى نفسه لاعتقاده أنهم دونه فى المعرفة ، ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التى كانو يتمتعون براتبها ونفاذ الكلمة فيها ، وربما لم يكن مخطئا فى الكثير منهم ، وكان أجرأ إخوانه على القول وأقدرهم على إقامة الحجة » ونسى محمد عبده أن عرابى كان يبادل هؤلاء الجراكسة احتقاراً باحتقار ، لأنهم كانوا ينظرون إلى أن المصريين دونهم فى كل شىء وحرموهم المناصب العالية ، وأنهم السادة وهم الخدم .

ولذلك كان مناوئا للثورة فى أول الأمر ويعترف بذلك صراحة فيقول : « كنت معروفا بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشغب العسكرى ، وتسوئة رأى الطالبين لتشكيل مجلس النواب على ذلك الوجه ، وبتلك الوسائل الحمقى . مررت ببيت (طلبة) ثالث يوم عيد الفطر فسمعت جلبة ، ورأيت بعضاً من صغار الضباط يجولون من جانب إلى آخر من البيت فدخلت للزيارة ، فوجدت عرابى ، وجمعاً غفيراً من الضباط ، ووجدت معهم أحد

---

(١) كتب محمد عبده مقالات فى الشورى وقد كانت من وحى جمال الدين ولم يكن مؤمنا بها بل كان يرى أن تنشأ أولا المجالس البلدية ثم بعد سنتين تأتى مجالس الإدارة لا على أن تكون آلات تدار ، بل على أن تكون مصادر للآراء والأفكار ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية .

أساتذة المدرسة الحربية ، فجلست واستمر الحديث فى وجهته ، وكان موضوعه الاستبداد والحرية ، وتقييد الحكومة بمجلس النواب ، وأن لا سبيل للأمن على الأرواح والأموال إلا بتحويل الحكومة إلى مقيدة دستورية فأخذت طرفاً من البحث ، فأقمنا على الجدل ثلاث ساعات ، كان عرابى والأستاذ فى طرف والكاتب فى طرف وهما يقولان : إن الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد ، وتقرير حكومة شورية والكاتب يقول : علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين وليس من اللائق أن نفاجىء البلاد بأمر قبل أن نستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشىء قبل بلوغ سن الرشد يفسد المال ، ويفضى إلى التهلكة »(١) :

فأنت تراه يسمى الثورة فتنة وشغباً عسكرياً ، ووسائل حمق ، ويعارض فى قيام حكومة دستورية ، ويرى أن الأمة غير مستعدة للحياة النيابية فى ذلك الحين .

لم يكن محمد عبده مشايعاً للثورة فى أول الأمر ؛ لأنه لم يكن معتقداً بها ولا فى صلاح الأمة لأن تتولى أمورها بيدها ، وأخذ يناهضها ويقول : « ليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له ، فذلك بمثابة تمكين القاصر فى التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد » ويقول مرة أخرى ، وكأنه كان يتكلم بلسان القدر : « إن الأمة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة فى إدارة شئونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى ، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع ؛ لأنه ليس تصويراً لاستعداد الأمة ومطلبها ، ويخشى أن يجر هذا الشغب على البلاد احتلالا أجنبياً يسجل على مسببه اللعنة إلى يوم القيامة »(٢) .

ولم يكن محمد عبده من الموالين لتوفيق باشا حتى يتهم بأنه ناهض الثورة من أجله ، ولكنه كان مستقل الرأى ، وبعد مدة لم يستطع أن يقف مسلوب اليد والأمة كلها فى صف

---

(١) مذكرات محمد عبده عن الثورة العرابية وتاريخه رشيد رضا ج ١ ص ٢١٧ .

(٢) المنار ج ٧ ص ٤١٢ وما بعدها .

واحد ، وهو وفئة قليلة فى صف ، ورأى المسألة تتعلق بكرامة الأمة بعد أن تدخل الأجانب واستعان بهم توفيق ، فانضم للأمة وصار قوة روحية للثورة يأخذ المواثيق ويحرر بيانات الثورة للشعب وللدول ، ويحض قومه للتجنيد ويحمسهم للقتال ، ولا يدخر فى سبيل ذلك وسعا وكان يستعين بالوقائع (وهى الجريدة الرسمية) على نشر أفكار الثورة :[1] وصار يرى أن « مصر أصبحت صالحة لحكم نفسها بنفسها وأن الثورة قد علمت الناس الاتجاه نحو المنافع العامة فلم يعودوا فى حاجة إلى تربية وتعليم » .

وأخيرا أخفقت الثورة وسجن محمد عبده مائة يوم ، وحقق معه وحكم عليه بالنفى فاتخذ بيروت ملجأ[2] .

بعد الثورة :

وفى بيروت التف حوله العلماء والأدباء ودرس بالمدرسة السلطانية وكانت أشبه بمدرسة أولية ، فارتفع بها حتى صارت مدرسة عالية ولكن مقامه بها لم يطل ؛ إذ طلب إليه أستاذه جمال الدين أن يلحق به فى باريس فلبى دعوته[3] وأصدرا معاً مجلة (العروة الوثقى) وقد مر بك شىء كثير عنها ونُبَذٌ من مقالاته بها . وهنا تعجب كيف تغيرت لهجة الشيخ محمد عبده فى (العروة الوثقى) ولم يعد ذلك المصلح المتأنى الذى يأخذ الأمور بالرفق ، ويسعى للاصلاح فى هوادة بل نراه ثورة متأججة وذا قلم عنيف ، كما اتسع غرضه ولم ينظر لمصر وحدها بل شمل العالم الإسلامى كله . الحق أن الشيخ محمد عبده فى العروة الوثقى لم يستطع أن يقاوم تأثير جمال الدين عليه ، وناهيك بجمال الدين قوة وحماسة وناراً مشبوبة .

وعطلت (العروة الوثقى) بعد ثمانية عشر عدداً ، وسافر جمال الدين إلى إيران —

---

(١) المنار جـ ٨ ص ٤١٦ .

(٢) تاريخ محمد عبده جـ ٢ ٢١٧ .

(٣) لم يتجاوز سنه حينذاك أربعة وثلاثين سنة . المنار جـ ٨ ص ٤٥٥ .

وعاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت ، وقد أخفق مرتين : أخفق فى الثورة العرابية ، وأخفق فى استمرار العروة الوثقى . فالتف حوله مريدوه ، وشرح لهم نهج البلاغة ، ومقامات بديع الزمان وأخذ يفسر لهم القرآن الكريم على النحو الذى اتبعه بمصر من غير أن يتقيد بكتاب أو تفسير خاص ، بل اتخذ آيات القرآن مجالا لوصف أدواء المسلمين وعلاجها ، ودرس الفقه على المذهب الحنفى بالمدرسة السلطانية . وهناك ألف رسالة التوحيد ، وصار يكتب بعض المقالات فى جريدة (ثمرة الفنون) مشابهة لمقالاته فى الوقائع المصرية(١) .

كان محكوماً عليه بالنفى ثلاث سنوات ، ولكنه مكث ببيروت ست سنوات وذلك لأن توفيقاً كان غاضباً عليه(٢) ، وكان يجهر بخطيئة توفيق فى حق الوطن ويقول(٣) : « إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ، لأنه مهد لدخولكم (أى الانجليز) بلادنا ، ورجل مثله انضم إلى أعدائنا أيام الحرب لا يمكن أن نشمر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه — إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية » .

فكان من العسير أن يعود إلى مصر فى عهد توفيق ، بيد أن رياض باشا عاد إلى الوزارة ، وكان من الذين يجلون الأستاذ الإمام ويعتقدون فيه النفع والخير لمصر ، فما لبث أن سعى لدى توفيق هو وبعض ذوى النفوذ(٤) حتى عفا عنه ، وكان عفواً قريباً من الاعتذار .

---

(١) ووضع فى هذه الأثناء لائحتين : واحدة فى إصلاح التعليم الدينى بمدارس المملكة العثمانية ورفعها إلى شيخ الإسلام بتركيا ، وفيها يقرر أن ضعف المسلمين سببه سوء العقيدة والجهل بأصل الدين وأن ذلك أضاع أخلاقهم وأفسدها ؛ ووضع لائحة أخرى رفعها إلى والى بيروت تتضمن ، إصلاح سوريا ووصف سوء حالها بانتشار المدارس الأجنبية بها ، واقترح تعميم المدارس الوطنية وإصلاح التعليم الدينى والعناية به ، وهكذا برهن على أنه مصلح فى كل مكان يحل به (تاريخ الإمام ج ٣ ص ٣٣٩ وما بعدها) .

(٢) لأن محمد عبده جاهر بخلع توفيق أثناء الثورة (مشاهير الشرق ج ٢ ص ٢٨٢) .

(٣) من حديث له مع مكاتب (البول ميل جازيت) وهو بإنجلترا .

(٤) المعروف أن من الذين توسطوا فى طلب العفو عنه الأميرة نازلى وكانت ذات مكانة ، والغازى مختار باشا ، ثم اللورد كرومر وقد كان له الفضل الأكبر فى عودته والعفو عنه ؛ وفى الواقع لم يعف عنه =

بعد العودة من المنفى :

عاد محمد عبده إلى مصر فوجد الأمور قد تغيرت وصار الحل والعقد بيد الإنجليز ، ولم يعد الخديو صاحب الأمر والنهى كما كان من قبل ، ورأى لزاماً عليه وهو المصلح ذو المشروعات الحية فى النهوض بالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية أن يعتمد على سلطة تؤيده وتهيىء له الاستمرار فى إصلاحاته ، فسالم الخديو — على الرغم منه — واستعان بالإنجليز على الإصلاح المنشود . ولا تعجب بعد هذا إذا صار جمال الدين حانقا عليه ويرى فيه الرجل الذى تنكر لمبادئه ومد يده لأعدائه يهادنهم ويسالمهم: ورث محمد عبده من جمال الدين آراءه الإصلاحية الاجتماعية ، وورث عبد الله نديم وسعد زغلول ومصطفى كامل آراءه السياسية . وقد ظل محمد عبده متمسكا بسياسة التقرب من الإنجليز والاستعانة بهم حتى آخر حياته ، وكان هذا مثار الطعن فيه والغض من شأنه ، ولكنه كان يصدر فيه عن عقيدة وجرأة ، فقد استفتى مرة فى الاستعانة بالأجانب فكان من فتواه : « قد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين » ونسى قوله تعالى : يا أيها الذين آمنو لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودُّوا ما عَنِتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورُهم أكبر » .

وأمل محمد عبده بعد عودته أن يرجع إلى التدريس بدار العلوم ويتصل بالنشء ، ويربى طائفة من الشباب يعدهم للغد ، يحملون بعده راية الإصلاح ؛ ولكن أبى عليه توفيق ذلك(١) ، وعين قاضياً أهلياً ، ثم مستشاراً فى محكمة الاستئناف ، ووجد نفسه فى بيئة غريبة عنه تدِلُّ بمعرفتها للغة الفرنسية والقوانين الأجنبية فدفعته نفسه الطموح إلى أن يكمل هذا

= توفيق إلا بضغط الإنجليز . فأى صلة كانت بين محمد عبده تلميذ جمال الدين والإنجليز ؟ — يظهر أن أصحاب محمد عبده حين طلبوا عودته إلى مصر تعهدوا بألا يشتغل بالسياسة ، ثم أن كرومر وهو الداهية السياسى رأى أن يجذب نحوه هذا العالم الجليل ويأمن شره ما دام لن يشتغل بالسياسة ، وهذا ما جعل جمال الدين يحنق عليه ويلومه أشد اللوم ، حتى قطعت العلاقة بين الأستاذ وتلميذه ؛ لأنهما اختلفا فى الوسيلة . (راجع المنار حـ ٨ ص ٤٦٧) .

(١) المنار جـ ٨ ص ٤٦٧ ؛ وتاريخ الأستاذ الإمام حـ ٣ ص ٢٤٢ .

النقص ، وبدأ يتعلم الفرنسية[١] وهو فى سن الأربعين أو ما قاربها ، وقد استطاع بعد مدة أن يتقنها وترجم منها كتاب التربية لسبنسر بعد أن نقل من الإنجليزية إلى الفرنسية . وروى لطفى السيد أن محمد عبده هو الذى كان يجلو لإخوانه المصريين ما غمض من عبارات الفيلسوف الفرنسى (تين) فى كتابه المشهور عن (الذهن) .

وقد رأى الأستاذ الإمام فائدة تعلم اللغة الأجنبية ولمسها وفى ذلك يقول : « ثم إن الذى زادنى تعلقا بتعلم لغة أوربية هو أنى وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعى أنه على شىء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ، ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغى إلا إذا كان يعرف لغة أوربية : كيف لا ! وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين فى جميع أقطار الأرض ، وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم ؟ » .

واشتهر محمد عبده بعدله فى القضاء ، ونظره إلى روح القانون ، وعدم تقيده بالقالب والألفاظ ، وقد ساعدته دراسته للشريعة الإسلامية فى هذا كل المساعدة .

إصلاح الأزهر :

مات توفيق وتولى عباس سنة ١٨٩٢ م وقد عاد لتوه من أوربا فتى ممتلئاً حماسة وغيرة وحبا للخير ورغبة فى إنهاض مصر من كبوتها وتخليصها من الاحتلال فغير رجال الحاشية وجمع حوله أقوياء الرجال حتى ضايق الإنجليز فأخذوا يكيدون له . ورأى محمد عبده أن يستفيد من حماسة عباس ، فتقرب منه وبسط آراءه فى الإصلاح ، وهو إصلاح يتناول جهات لا تهم الإنجليز فى شىء وهى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، وليكن البدء بالأزهر ، وارتاح الخديو للشيخ وكلفه بوضع تقرير مشروع للاصلاح ، وسرعان ما وافق

---

(١) روى أن المعلم أتى له بكتاب فى قواعد اللغة الفرنسية فقال له : ليس عندى وقت لأن أبتدىء ، وإنما عندى وقت لأن أنتهى » ؛ قال وتناول المعلم كتاباً (لألكسندر ديوما) وقال له : «أنا أقرأ وأنت تصلح لى النطق وتفسر لى الكلام وما عدا ذلك فهو على ، والنحو يأتى فى أثناء العمل . وهكذا أتممت الكتاب ، وكتاباً بعده وثالثاً عقبه ، وكنت أطالع وحدى بصوت مرتفع كلما وجدت نفسى فى بيتى خاليا فتعلمت مبادىء اللغة الفرنسية ، وحصلت منها ما يمكننى من القراءة والفهم ولكن ما كنت أستطيع الكلام » .

عليه وكوّن مجلس إدارة الأزهر برئاسة الشيخ حسونة النواوى وعين محمد عبده، وعبد الكريم سلمان عضوين به، وهكذا أتيحت للشيخ الفرصة التى طالما نشدها للاصلاح ولكن هل استطاع الإصلاح؟!

إنا نقول كما قال أحمد أمين(١). «يالله وإصلاح الأزهر! ما حاوله أحد ونجح، ولا الشيخ محمد عبده، لأن كل المحاولات كانت تتجه إلى هامش الموضوع لا أساس الموضوع وكانت عن سبيل استرضاء أهله والخوف من أى قلق واضطراب، وهم بتزعمهم طائفة ألفت القديم حتى عدته ديناً، وكرهت الجديد حتى عدته كفراً، وعاشت فى المغارات فلم ترضوءاً وأفنت عمرها فى فهم لفظ، وتخريج جملة وتأويل خطأ، فلم تر حقائق الدنيا، فإذا أتى المصلح سمم أهله الجو حوله، واحتموا بالدين يخيفون به الحكومة، ويكسبون به عامة الشعب.

المشكل لا يحل إلا بالعلاج الحاسم، وهو أن يتبع الأزهر الحكومة تبعية الجامعة، ويستقل استقلالها ويخضع فى نظمه لما ترشد إليه علوم التربية الحديثة ويرق برقيها، ثم ينفذ ذلك من غير خشية».

وأضيف إلى هذا أن بالأزهر اليوم وفى كل حين ثروة معنوية عظيمة تضيع هباء وتوجه وجهة خاطئة، ولا تفيد منها الأمة شيئاً، ولو حولت هذه الجامعة الأزهرية إلى جامعة مدنية ينفق عليها من الأموال الموقوفة على الأزهر، ويتعلم الطلبة فيها بالمجان لما حرمت الأمة هذه الثروة العظيمة، ولنبغ من أبنائها الطبيب النطاسى، والمهندس الفذ، والرياضى القدير، والصيدلى الماهر. أما الدين فتخصص له طائفة، تسد الفراغ وتلى شئونه من وعظ وإمامة وغير ذلك. لقد اتجه الأزهريون اليوم إلى الوظائف، ولم يعودوا يطلبون العلم لذاته كما كان يفعل أسلافهم، فوجب على الأمة والحكومة أن تمدهم الإعداد الصالح لهذه الوظائف وتتولى شئون الأزهر بحزم وتنهض به نهضة تليق باسمه وتاريخه، فيتعلم أبناؤه اللغات الأجنبية فإذا جادلوا فى الدين جادلوا بالحجة القوية وعرفوا مواطن الضعف عند

---

(١) مجلة الثقافة العدد ٣٩٢.

سواهم ، وإذا درسوا الفلسفة والمذاهب الحديثة تفتحت أمامهم سبل الاطلاع ، على أن تتجه جهودهم إلى التعليم المدنى وبذلك تفيد الأمة من هذه الثروة المعنوية الضائعة ، ومصر بحاجة إلى أكثر من جامعة .

حاول الإمام محمد عبده إصلاح الأزهر ، فلم يصلح سوى الشكل من زيادة مرتبات العلماء ووضع لائحة كسى التشريف ، والامتحان ومساكن الطلبة . ولكن حين ابتدأ ينظر إلى الدراسة وطرقها والكتب التى تدرس والمناهج وجد العقبات أمامه جمة وأخفق فى محاولاته ونفض يده من الإصلاح ، لقد كان كارها للطريقة الأزهرية فى معالجة الدرس والشروح والحواشى والتقارير وعلك الألفاظ ، وقد عرفنا آنفا كيف كادت هذه الطريقة أن تحرم مصر إمامها ومصلحها ، ولقد قال له يوماً الشيخ البحيرى مدافعاً فى مجلس إدارة الأزهر عن هذه الطريقة : إننا نعلم الطلاب كما تعلمنا » فقال له الشيخ محمد عبده « وهذا ما أخاف منه » فقال البحيرى مستنكراً : « ألم تتعلم أنت فى الأزهر وقد بلغت مابلغت من مراقى العلم وصرت فيه العلم الفرد ؟! فأجاب الإمام : « إن كان لى حظ من العلم الصحيح الذى تذكره ، فإننى لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغى ماعلق به من وساخة الأزهر ، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة[١] » .

وهذه كلمات تدل على مرارة وألم ، وعلى أن الشيخ لم ير فى الازهر وعلومه ورجاله مايبشر بالنجاح ، فليت شعرى هل تغير الأزهر كثيرا منذ محمد عبده حتى اليوم ؟! .

وتولى محمد عبده منصب الإفتاء فى يولية ١٨٩٩ ، وأضفى عليه وجاهة دينية وجلالا وكان فى منصبه هذا جريئا ، يصدر الفتاوى التى يرى فيها الجامدون زندقة وإلحادا ، وهو يراها اجتهادا وتجديدا وتمشيا مع روح العصر بما لا يخالف حقيقة الدين وجوهره[٢] . ولم

---

(١) من تقرير الشيخ عبد الكريم سلمان عن التعليم فى الأزهر .

(٢) من ذلك فتوى (الترنسفال) وهى إجابة على ثلاثة أسئلة : أحدها : بقر يضربه النصارى على رأسه بالبلطة حتى تضعف مقاومته ثم يذبح قبل أن يموت بدون تسمية الله عليه ، فهل يجوز أكل لحمه ، فأفتى الشيخ بحل هذا اللحم ، وكانت الفتوى ضجة لأن علماء الأزهر يقولون هى الموقوذة التى حرم الله =

تكن العلاقة بينه وبين الخديو عباس طيبة ؛ لأن عباسا يراه مسالماً للانجليز مستعينا بهم وفى ذلك جرح لوطنية الخديو والتجاء إلى خصومه ، وكان الشيخ محمد عبده يعتقد فى مهادنة الإنجليز والاستفادة منهم ، ويرى فى عباس رأيا آخر وهو أنه جشع محب لجمع المال ولومن دماء رعاياه ، وقد اصطدم به مرتين أولاهما : حين أراد استبدال أرض فأبى عليه الشيخ ذلك ورأى أن هذا الاستبدال ليس فى مصلحة الوقف ، وحمل مجلس الأوقاف الأعلى على رفض هذا الاستبدال إلا إذا أعطى للوقف عشرين ألفاً من الجنيهات تعويضا لهم . وثانيهما حينما أراد الخديو منح بعض رجال حاشيته (كسوة تشريفة) ولم يكن هذا المنح منسجما مع اللوائح ، فأوعز الشيخ محمد عبده بعدم تنفيذ أمر الخديو وإعطائها للمستحق ، ولما اجتمع العلماء لدى الخديو وأخذ يؤنب شيخ الأزهر على ذلك انبرى له الشيخ محمد عبده ، وطلب منه إذا أراد التنفيذ أن يغير اللائحة وينسخ القانون السابق ، فاستشاط عباس غضبا ووقف إيذانا للعلماء بالانصراف ، وقد كان لهذا كله أثر فى الحملات الشديدة والمكايد التى دبرها عباس للشيخ وإيعازه للصحافة بالتشهير به وانتهاز فرصة فتاويه الجريئة ورميه بالكفر والإلحاد ، وكلما هَمَّ الخديو بعزله من منصب الإفتاء صرح كرومر بأنه لا يوافق على عزله مهما كانت الأحوال ما دام موجودا . كل هذا ومحمد عبده ماض فى مشروعاته الإصلاحية بالأزهر والمحاكم والأوقاف ، وكان الحزب الوطنى يناوئه ويحمل عليه بشدة لأنه كان يشايع الإنجليز ويتخذهم أعوانه ، وكان الإمام يرى أن مصطفى كامل مخطىء فى صلته بالخديو لأن عباسا لم يكن مخلصاً فى وطنيته ولا هم له إلا جمع المال وإيداعه بالمصارف

= أكلها والشيخ يقول : إن الموقوذة هى التى ضربت بشىء غير محدد كالحجارة والخشب حتى ماتت وهذه ذبحت قبل موتها ، وثانيهما : يوجد أفراد فى بلاد الترنسفال يلبسون القبعات لقضاء مصالحهم ، وتمكنهم القبعة من جنى بعض الفوائد ، فهل يجوز ذلك أم لا ؟ فأفتى الشيخ بالجواز ورأى أن لبس القبعة إذا لم يقصد به الخروج من الإسلام والدخول فى دين غيره فلا يعد مكفراً ، وإذا كان اللبس لحجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه وتيسير مصلحة لم يكره ذلك . وقد أثارت عليه هذه الفتوى حملات شديدة من الجهلة وخصومه السياسيين ، والثالث : يصلى الشافعية خلف الحنفية بدون تسمية . ويصلون خلفهم العيدين فهل تجوز الصلاة ؟ ولم يكن لهذا السؤال ضجة كغيره راجع تاريخ الأستاذ الإمام ج ٣ ص ٨٤، ١٦٧، ١٧٩ والجزء الأول ص ٢٦٧ وتجد نص الفتوى فى تاريخه ج ١ ص ٦٤٦ وما بعدها .

الأجنبية خشية أن يعزله الإنجليز فجأة ، وقد قال محمد عبده فى وصف مقالات مصطفى كامل « إنها مجموعة نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف » .

والحق أن التباين كان شديداً بين عقلية الإمام وعقلية الزعيم الشاب من حيث طريقة التفكير واتخاذ الوسيلة . ولا نستطيع أن ندافع عن موقف الشيخ محمد عبده من الإنجليز واعتماده عليهم إلا أن الخديو هو الملوم فى ذلك ، لأنه لم يمكن هذا المصلح الكبير من السير فى إصلاحاته ، ولأنه أراد أن يلتهم مال الوقف بدون مبرر ؛ وفى مال الوقف قسم كبير جداً للأزهر ، وكلما حاول عباس أن يعبث وقف له محمد عبده بالمرصاد ، وحب المال ضعف بشرى عام ، وكان فى عباس أضعف شىء فيه ، ولكن دفاعنا هذا لا يسوغ لجوء الشيخ إلى خصوم وطنه وخصوم دينه مهما كان الإصلاح المنشود وقيمته ، وما كان له أن يستعين بهم حتى ولو ظل الأزهر على ما هو عليه ، وهل بعد هذه التضحية استطاع أن يصلح الأزهر ؟ كلا ! وقد اعترف بإخفاقه .

ولكن هل تقضى هذه الزلة السياسية على كل ما لمحمد عبده من مجد ؟ اللهم لا ، فقد شاركه فى رأيه السياسى حينذاك كثير من زعماء الأمة كسعد زغلول ، وفتحى زغلول وحسن عاصم ، ومحمود عاصم ، ومحمود سليمان ، وسلطان وغيرهم ، إلا أنه تعرض للهجمات أكثر منهم ؛ لأن الخديو رأى فيه قوة واعتداداً بالنفس ، وعقبة فى سبيل مطامعه فألب عليه العلماء الرجعيين والصحافة المأجورة هزلية وجدية .

وأخيراً اضطر محمد عبده إلى الاستقالة عقب خطبة ألقاها عباس عند توليته الشيخ الشربينى مشيخة الأزهر ، وهى تدل على عظم حنقه وسخطه على محمد عبده وتعريضه به . وجاء فى هذه الخطبة : « إن الأزهر أسس على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر الدين فى مصر وجميع الأقطار العربية . . . ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً ولكن من الأسف رأيت فيه من يخلطون الشغب بالعلم ، ومسائل الشخصيات بالدين ، ويكثرون من أسباب القلاقل . . وأول شىء أطلبه أنا وحكومتى

أن يكون الهدوء سائداً فى الأزهر والشغب بعيداً عنه ، فلا يشغل علماؤه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار ، لأنها مدرسة دينية قبل كل شىء » ثم ذكر أنه قبل استقالة السيد على الببلاوى رعاية لصحته ، وأنه مستعد لقبول كل استقالة من سواه وممن « يحاولون بث الشغب بالوساوس والأوهام أو الإيهام بالأقوال » ويرى أن مثل هذا الشخص يجب أن يكون بعيداً عن الأزهر .

لم يكن محمد عبده صنيعة الإنجليز ، أو ممن يتناول أجراً منهم ، أو ممن يستعدونهم على قومهم ، ويشجعونهم فى أطماعهم الاستعمارية[١] ، وإنما كان يرى أنه مصلح ولا بد له من عضد يسنده فى إصلاحه ويشجعه على السير قدما فى طريق الكمال ، ولم يجد فى عباس هذا العضد ؛ لأنه كان مشغولا بنفسه وبجمع المال وبأهوائه الخاصة ، فلجأ إلى الإنجليز ، وهذا اجتهاد منه اخطأ فيه بيد أنه لا يطوح بكل ماضيه وآرائه ، فالعظيم لا ينظر إليه من ناحية واحدة بل لابد من رؤية جميع خصائصه وميزاته ، وقد كان محمد عبده إماما فى الإصلاح الاجتماعى ، ورائداً فذاً من رواد النهضة الفكرية .

لقد كان ممكناً أن يلتقى عباس ومحمد عبده ومصطفى كامل[٢] ، وينهض الثلاثة بمصر وبالإسلام وبالشرق العربى كله ، ولكن لم يتم هذا ، كما لم يتم اجتماع محمد على والسيد عمر مكرم ومحمد بن عبد الوهاب من قبل ، واضطهد محمد على الزعيم الروحى لمصر عمر مكرم والمصلح الدينى الكبير محمد بن عبد الوهاب وحاربه فى نجد ، وهكذا تكررت المأساة على يد أحد أحفاده بعد خمسين سنة .

---

(١) كما فعل سلطان باشا ، وعمر لطفى ، وكان يكرههما لموقفهما هذا .

(٢) كان مصطفى كامل يعتمد أول الأمر على عباس مالياً فكان من دعاته ، ولعل هذا مما عاق اتصال الشيخ بالزعيم الشاب ، وروى رشيد رضا « أن الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل التقيا على باخرة حملتهما إلى أوربا وقال الزعيم للامام : إذا قبلتنى من مريديك فإن خدمتك للاسلام ومصر تكون مضاعفة وأهدى له كتبا بالفرنسية وأخذ يزوره بعد عودته إلى مصر ولكن الاتصال لم يدم بينهما كما أن مصطفى كامل قطع صلته بعباس بعد ذلك .

وفاته :

استقال محمد عبده من الإفتاء وقد آمن بعجزه عن إصلاح الأزهر عجزا تاما ، ولم يلبث بعد ذلك مدة وجيزة حتى أحس بالمرض ، فعزم على السفر إلى أوربا طلباً للشفاء ، ولم يحل مرضه بينه وبين مايقوم به من أعمال جليلة فى مجلس الشورى وفى الجمعية الخيرية الإسلامية وامتحان دار العلوم ، وإعداده مشروع القضاء ، وإعداد مشروع الجامعة المصرية : بيد أن المرض ألح عليه . واختلف فيه الأطباء ، هل هو المعدة ؟ أو الكبد ؟ ثم ظهر أنه السرطان الذى مات به من قبل أستاذه جمال الدين ، فأشاروا عليه بعدم السفر وفى يوم ١١ من يولية سنة ١٩٠٥ انطفأ هذا المصباح الوهاج عن ست وخمسين سنة برمل الإسكندرية ، واحتفل بتشييع جنازته رسمياً ، وكان حفلا رائعاً لم تشهد مصر مثله من قبل وكان عباس متغيباً عن مصر فلما عاد وسمع بعظم الحفل واشتراك الحكومة فيه أنب كل من أسهم فى هذا .

أثره فى النثر :

لانريد أن نتعرض هنا لآرائه الاجتماعية والسياسية والخلقية بالتفصيل ، وقد مر بنا مايعطينا عنها فكرة واضحة ، وإنما الذى يعنينا حقاً هى آثاره فى الكتابة والنثر . وقد عرفنا أنه ابتدأ يكتب فى الصحف ، وهو بعد طالب فى الأزهر ، وقد طرأ على أسلوبه الكتابى تغيير كثير منذ المقالة الأولى التى أرسلها لجريدة (الأهرام)[1] حتى انتقل إلى جوار ربه ؛ ولمحمد عبده أثر عظيم فى النثر العربى سواء فى أسلوبه هو وجعله مثلا يحتذى به أو فى الأعمال الجليلة التى قام بها لخدمة النثر والكتابة .

١ — أما أسلوبه فنراه يعنى به عناية زائدة ، وإذا قرأت ما كتبه فى جريدة الأهرام تجده متأثراً بالكتب الأزهرية وخاصة ما ألف فى الفسفة الإسلامية من حيث الموضوع وطريقة علاجه ، وتجده كذلك لاتفوته سجعة ، وإن تكلف فى سبيلها المشاق ، ويقدم لموضوعه بمقدمات طويلة تجهد نفس القارىء وتسئمه . وهاك مثلا على هذا الأسلوب من

(١) العدد الخامس الصادر فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦ .

مقالة (الكتابة والقلم) : « ولما انتشر نوعُ الإنسان فى أقطار الأرض ، وبَعُد ما بينهم فى الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاقدات، احتاجو إلى التخاطب فى شئونهم ، مع تنائى أمكنتهم ، وتباعد أوطانهم، فكان لسان المرسل إذ ذاك لسان البريد وما يدريك هل حفظ ما يبدىء المرسل وما يعيد ؛ وإن حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول ، أو حرب تخمد الأنفاس ، وتعمر الأرماس ، ومع ذلك كان خلاف المرام ورمية من غير رام ... فالتجئوا إلى استعمال رقم القلم ووكلوا الأمر إليه فيما به يتكلم » . وهذا النوع من النثر قد وفيناه بحثاً فيما سبق .

ثم لما اتصل بجمال الدين ، ورأى منه قدرته على تصريف المعانى ، وعلى ابتداع أفكار جديدة وقرأ معه بعض كتب الفلسفة والمنطق وخاض فى الموضوعات الاجتماعية والسياسية تدفعه إلى الكتابة عاطفة جياشة وشباب فَتِىٌّ وأثر متقد من نفس أستاذه جمال الدين لم يجد وسيلة إلا أن يتخلص من السجع والتكلف به وأن يتجنب المقدمات الطويلة ، وأن يرتب الموضوعات ترتيباً منطقيا ، ويكثر من استعمال الأقيسة والبراهين ، ويقلب الفكرة على شتى وجوهها ؛ ويرى فى كلامه قوة وحرارة إيمان بما يكتب ، وهذ النوع من النثر يتجلى فى مقالات (الوقائع المصرية) وقد تدرج فى إصلاح أسلوبه حتى اشتد وقوى . ثم بلغ درجة عظيمة من المتانة، وبرزت فيه هذه المزايا التى ذكرناها فى مقالات (العروة الوثقى) فمن نثره فى الوقائع المصرية قوله فى التربية بالمدارس : « من المعلوم البيِّن أن الغرض الحقيقى من تأسيس المدارس والمكاتب ، والعناية بشأن التعليم فيه إنما هو تربية العقول والنفوس وإيصالها إلى حد يمكِّنُ المتربى من نيل كمال السعادة أو معظمها ما دام حياً وبعد موته ، ومرادنا من تربية العقول إخراجها من حيز البساطة الصرفة والخلو من المعلومات، وإبعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة إلى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة تُحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر والضار والنافع ، ويكون النظر بذلك سجية لها ، أى يكون لنور العقل نفوذ تام يفصل بين طيبات الأشياء وخبائثها » .

وهو أسلوب المصلح الاجتماعى وقد عرفت خصائص هذا النوع من النثر قبل ، ولم يكن يعمد فيه الشيخ محمد عبده إلى تفخيم الألفاظ وانتقائها ، وحبك الجمل واستوائها ، وقد يستعمل أحياناً كلمات عامية أو دخيلة للتعبير عما يريد إذا لم تسعفه الكلمة العربية .

أما مقالات (العروة الوثقى) فقد مرت بك نماذج كثيرة منها فلا داعى لذكر جديد .

ثم مرن أسلوب الشيخ محمد عبده واشتد قلمه ، من كثرة ما كتب ، وما تناول من موضوعات وما تأثر به من تجارب وقراءة ، وبلغ أسلوبه غايته فى مقالته التى يرد بها على (هانوتو) وكان وزيراً لخارجية فرنسا ، وقد بحث فى كلمته الأسباب التى تدعو المسلمين إلى النفور من الحكم الأجنبى ، وهل من وسيلة لتحبيبهم فى فرنسا ؟ وإذا لم تفلح الوسائل فلا مناص إذاً من إبادتهم أو إجلائهم عن ديارهم حتى يخلو الجو لفرنسا ، وقد تعرض للاسلام ولماذا كان المسلمون غير مسيحيين ؟ ووازن بين الإسلام والمسيحية ، وتعصب لدينه ، ونشرت جريدة (المؤيد)[1] مقالته فرد عليه الشيخ محمد عبده رداً مفحماً تجلت فيه نصاعة الفكرة ، وصدق العاطفة ومتانة الأسلوب ، وقوة الحجة ، وسلامة البرهان ، مع بساطة فى التركيب ، وسهولة فى الألفاظ وطالت المساجلة بين (هانوتو) والشيخ محمد عبده ، وانتصر فيها الإمام انتصاراً بالغاً وكانت من الأسباب التى مكنت له مقامه بمصر بعد عودته من المنفى ، ووضعته فى مركز الصدارة من مفكرى الأمة والذادة عن الدين .

ويقول فى إحدى هذه المقالات : « إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها وعمل رجال الدين المسيحى على إطفائها عدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت فى أرضهم بعدما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة » .

---

(١) تاريخ الإمام جـ ٢ ص ٣٨٢ ، مقال هانوتو ص ٣٨٢ — ٣٩٥ ورد محمد عبده عليه ص ٣٩٥ — ٤١١ انظر التفاصيل فى تاريخ الإمام جـ ٢ ص ٧٨٩ وما بعدها .

هذا وقد كان للشيخ فى رسائله الإخوانية أسلوب يحتفى فيه بعبارته ، وتصوير مشاعره تصويراً فنياً يدل على ذوق أدبى ، وتمكن من اللغة والأدب ، وعلى أنه ذو موهبة شعرية تمده بالخيالات الطريفة والصور البيانية الجميلة ، وقد ذكرنا فيما سبق خصائص هذا الأسلوب وضربنا عليه أمثلة من كتابة أديب إسحق ، وعبد الله نديم ، وعبد الله فكرى . وهاك مثلا من رسالة للشيخ محمد عبده إلى أحد إخوانه وهو فى سجن القاهرة بعد أن اتهم بالاشتراك فى حوادث الثورة العرابية ، وذلك فى ٩ من المحرم سنة ١٣٢٠ الموافق ٢٠ من نوفمبر سنة ١٨٨١ م :

عزيزى :

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة   كأننى صارم فى كف منهزم

هذه حالتى : اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره من مراكز الأرض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب وامتدت إلى القطبين ، فاستحجرت فى طباع الناس ! إذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الإنسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة فتبارك الله أقدر الخالقين .

. . . .

رأيت نفسى اليوم فى مهمه لا يأتى البصر على أطرافه ، فى ليلة داجية ، غطى فيها وجه السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركاماً ؛ لا أرى إنساناً ، ولا أسمع ناطقاً ، ولا أتوهم مجيباً :

أسمع ذئاباً تعوى ، وسباعا تزأر ، وكلاباً تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة وهى ذات الكاتب ، والتف على رجلى تنينان عظيمان ، وقد حويت بطون الكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع ، ومن كانت هذه حاله فهو لا ريب من الهالكين .

تقطع حبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء وضل الاعتقاد

بالأصفياء ، وبطل القول بإجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحقت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء والناس أجمعين .

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، ومزقت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق الاهوى يتحكم وشهوات تقضى وغيظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة الغدر ، والله لايهدى كيد الخائنين .

ذهب ذوو السلطة فى بحور الحوادث الماضية يغوصون لطلب أصداف من الشُّبَه ومقذوفات من التهم وسواقط من اللمم ليموهوها بمياه السفسطة ويُغشوها بأغشية من معادن القوة ليبرزوها فى معرض السطوة ويَغُشّوا بها أعين الناظرين ، لايطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكشفونه ، أو لحق خفى فيظهرونه ، أو خرق بدافير تقونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلا بل ليثبتوا أنهم فى حبس من حبسوه غير مخطئين »(١)

ولعلك تلمس فى تلك الشكوى المرة من الخيانة والغدروعدم الوفاء ، وتحكم الأهواء وهى التى سمعتها من قبل على لسان البارودى بعد أن غدر به أصحابه ، وأخفقت الثورة وزج به غياهب السجن . ولقد كان الشيخ فى نثره شاعراً جياش العاطفة بارع التصوير لحاله ولآلامه ، ولمرارة السجن .

هذا ولم يعن محمد عبده بأسلوبه فحسب بل حاول أن يحمل الكتاب على العناية بكتاباتهم وله فى هذا المضمار ، وفى النهوض بالكتابة آثار منها :

١ — مكن له منصبه فى الوقائع المصرية من الإشراف على الجرائد والمجلات ومراجعة مايحرره كتبة الدواوين فى شئون الحكومة ، وقد مر بك كيف أنذر صاحب إحدى الجرائد بالتعطيل إن لم تغير أحد كتابها أو تحمله على تحسين أسلوبه ؛ وقد التف حوله

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ص ٥٢١ — ٥٢٢ طبعة أولى سنة ١٣٢٤ بالمنار .

فريق من طليعة كتاب مصر والشرق ، وافسح لهم فى الوقائع المصرية ، يدبجون المقالات الاجتماعية والأدبية والسياسية بإرشاده . وكان يرى أن اللغة العربية هى أساس الدين[١] وأن حياة المسلمين بدون حياة لغتهم من المحال[٢] .

٣ — وفى بيروت شرح نَهْج البلاغة ليسهل على الناس قراءته والإفادة منه ، وشرح مقامات بديع الزمان الهمذانى ونشرها حتى تكون زاداً يتغذى به طلاب الأدب ومن ينشدون قوة الأسلوب وسلامة التعبير .

ولما عاد إلى مصر كانت دروسه فى البلاغة تختلف عن تلك الكتب التى أفسدتها عجمة مؤلفيها ، واختار من كتبِ البلاغة دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ، وكان السبب فى نشرها لينتفع الناس بهما وقد نشرهما المنار .

وأنشأ جمعية لإحياء الكتب العربية نشرت المخصص لابن سيده ، وفى نشره تيسير على طلاب اللغة ؛ لأنه من معجمات المعانى ، فقد يكون بذهنك المعنى ولكن يُعْوِزك اللفظ المعبر عنه فتلتمسه فى المخصص وفى أمثاله من المعجمات ، وقام بتصحيح المخصص العالم اللغوى الشهير الشيخ محمد محمود الشنقيطى وقد حماه الشيخ محمد عبده وشجعه على الإقامة بمصر ، ولولاه مابقى[٣] . كما شرع فى طبع الموطأ للامام مالك بعد أن جاء بنسخ خطية له من تونس وفاس وغيرها[٤] .

٤ — وعهد إلى الأستاذ سيد بن على المرصفى فى تدريس كتب الأدب بالأزهر أمثال الكامل للمبرد ، وديوان الحماسة لأبى تمام ، وكانت هذه الدروس غريبة عن الأزهر ولاعهد له بها ، وقد تتلمذ على المرصفى عدد كبير من أدباء مصر البارزين اليوم أمثال

---

(١) تاريخ الإمام ج ٣ س ٢٥٩ .
(٢) المنار ج ٨ ص ٤٩١ .
(٣) بروكلمان ج ١ س ٣٠٩ .
(٤) المنار ج ٨ ص ٤٩١ .

المنفلوطى ، وطه حسين ، والزيات ، والزنانى وغيرهم فهم أثر من آثار توجيهه وإرشاده .

وبهذه الوسائل استطاع محمد عبده أن يقدم للنثر العربى خدمة جليلة ، ويوجه الكتاب إلى العناية بما يكتبون ، غير مقيدين بذلك السجع السخيف ، ومنصرفين إلى المعانى وتقتيقها ودراسة الموضوع دراسة جيدة تفيد القارىء ، وتجدى على الأمة .

هذا ما كان من أثره فى النثر ، ولايسعنا ونحن نختم هذه العجالة عن محمد عبده إلا أن نقرر أنه أيقظ فى مصر الشعور الدينى ، والرغبة فى الإصلاح الاجتماعى ، وأن الأولى بالمسلمين أن يعتمدوا فى الإصلاح على أنفسهم ، ويدعوا الفخر بماضيهم ؛ ودعا إلى أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عرف بالعقل . كما دعا إلى الاجتهاد ، وعدم الوقوف بالتشريع وبمسائل الدين عند الحد الذى قرر من قرون عديدة ، وذلك لكى نواجه المسائل الجديدة بتشريع دينى سليم قبل أن نغلب على أمرنا ، وكان يرى أن أكبر سلاح فى الدنيا هو العلم ، وأكبر مقوم للأخلاق ومهذب لها هو الدين ، والدين الإسلامى لحسن الحظ يتمشى مع العقل ، ويحض على مكارم الأخلاق ،ويفسح صدره للعلم .

لقد خلف محمد عبده تلاميذ بررة تأثروا بتعاليمه وظلوا ردحاً طويلا من الزمن يفتخرون بانتسابهم إليه وبالأخذ عنه ، ومنهم سعد زغلول ، وحافظ إبراهيم ، وإبراهيم المويلحى ، والهلباوى ، ومصطفى صادق الرافعى بمصر ، وإبراهيم اليازجى ، وأحمد الحصانى بسوريا وعدد كثير سواهم ممن حملو لواء الإصلاح بعده وكان لهم الأثر البالغ فى أوطانهم ونهضتها . وإن كان قد صبغهم فى أثناء حياته بطابعه السياسى الخاص، ووجه ميولهم صوب الإنجليز ، فهادنوهم ، وتعاونوا معهم فى كل شى ، فلما توفى الشيخ محمد عبده أسرع بعضهم إلى جبهة الوطنيين مثل حافظ ابراهيم ، وتأخر الزمن قليلا ببعضهم عن ذلك المضمار ولكن ما لبث بعضهم حتى صار زعيم الوطنية بمصر كسعد زغلول .

٣ — عبد الله نديم :

أعجوبة من أعاجيب عصره ، يقف وحده فى كل ما تميز به من سجايا ، لا يدانيه فيها امرؤ من أهل زمانه ؛ ويخيل إليك وأنت تقرأ سيرته أنك أمام رجل من رجال الأساطير يروعك بذكائه الخارق ، وقوة عارضته ، ومتين حجته ، وشجاعته الفائقة ، وبحياته المليئة بالأحداث ، وبما بلغ من شهرة ، وبما حارب من أبطال ، وبما أفزع من دول ، ولم يكن فى حسب جمال الدين وعلمه ، ولم يدرس ما درس محمد عبده وإنما نشأ فى بيئة فقيرة(١) ؛ فعانى البؤس وشظف العيش ؛ ولكن الله الذى يهب العبقرية لمن يشاء أودع حظاً كبيراً منها فى رأس عبدالله نديم ، وزوده بنفس شجاعة ، ويد سخية ، وكانت هذه الخلال رأس ماله الذى واجه به الحياة ، وقد استطاع أن يسجل اسمه لامعاً فى سجل الخلود .

دراسته وتجاربه :

لم يرق لعبد الله العلم الذى وجده بمسجد الشيخ ابراهيم باشا ، وهو علم شبيه بما كان يدرس فى الأزهر حينذاك ، ووجد فى جفاف العلوم ، وعقم الطريقة ، ورداءة الكتب وركاكة عباراتها ما نفره من الأزهر الصغير ، وحبب إليه نوع آخر من الدراسة تهواه نفسه ، وينسجم مع ما أودع فيها من مواهب ؛ فغشى مجالس الأدباء ، يسمع شعراً وزجلا ، ونوادر وقصصا فتهتز نفسه طرباً ، ويتمنى أن يكون أحد هؤلاء الشعراء أو الزجالين ؛ وكانت له ذاكرة حادة تلتقط كل ما تسمع فوعى كثيراً .

وقد كان لهذا أثر كبير فى حياته الأدبية ، ولاسيما وقد خالط أبناء الطبقة الفقيرة وجمهرة الشعب ووقف على عاداتهم وأمثالهم ونوادرهم وظروفهم وسرعة بديهتهم ، فتأثرت بذلك نفسه الحساسة وذوقه المرهف .

---

(١) كان أبوه مصباح ابراهيم نجارا فى أول أمره ، ثم خبازاً ، ويحصل من مخبزه على الكفاف من العيش : ويعول أسرة كبيرة العدد ، يعيش فى مسكن متواضع . وقد أرسل ابنه عبدالله إلى الكتب ثم الى مسجد الشيخ ابراهيم باشا بالإسكندرية ، وغاية ما يرجوه أن يتعلم قليلا منه ثم يعود إليه ليعاونه فى مهنته .

ولكن هيهات أن يرضى أبوه بهذه الدراسة غير المنتظمة وهو رجل يكد ويتعب لينال الكفاف وكان يؤمل أن يرى ابنه عالماً كبيراً كهؤلاء الذين يرى الناس يقبّلون أيديهم ، أو على الأقل يساعده بما تعلم من حساب ولغة ، فلما بدت هذه النزعة نفض منه يده ، وأخذ عبد الله يعول نفسه ، وتعلم فن الإشارات (التلغرافية) ، وأتيح له بعد أن أتقن هذا الفن أن يشغل وظيفة بقصر والدة الخديو إسماعيل بالقاهرة ، فشاهد الغنى والجاه ، وألواناً من الحياة والعيش لم يرها من قبل ؛ شاهد العز فى أوجه ، كما عرف الفقر فى أبشع صوره من قبل .

وعاوده بالقاهرة حنينه إلى مجلس الأدباء والشعراء فصار يجد فى البحث عنهم ، فتارة يذهب إلى الأزهر ، ويطلع على ما أخذ رفقاؤه[١] ، وأحياناً يغشى منازل الأدباء ويتعرف عليهم ويستفيد منهم ، فتوثقت صلته بالبارودى ، وعلى أبى النصر ، وعبد الله فكرى ، ومحمود صفوت الساعاتى ، والشيخ أحمد الزرقانى ، ومحمد بك سعيد بن جعفر مظهر باشا الشاعر الناثر . وعبد العزيز بك حافظ[٢] ، وغيرهم من الأدباء أو محبى الأدب ، فاتسعت ثقافته الأدبية بهذا الاختلاط ، وعرف مزايا كل منهم ، ووقف على فنه ، وشاركهم فى مجلس أنسهم وطربهم ومطارحاتهم فأضاف إلى خزينة أدبه ما وعاه فى هذه المجالس من طرف وملح ورواية .

ولكن مقامه بالقاهرة لم يطل ؛ إذ زل قلمه وهو فى الوظيفة فأغضب خليل أغا[٣] المشرف على القصر ، وناهيك به فى ذاك الوقت جباراً ، لا يرد له أمر ، وبذلك فقد عبد الله وظيفته ، وضاقت عليه القاهرة بما رحبت ، فضرب فى البلاد هائماً على وجهه حتى وصل إلى (بدواى) بمديرية الدقهلية ، وأخذ يعلم أبناء عمدتها القراءة ، ولكن هذا العمدة ضن عليه

---

(١) وكان من رفقائه الخلصاء الشيخ حمزة فتح الله .

(٢) ولقد دبج عبد الله نديم مقالا فى هؤلاء الأدباء أثنى فيه عليهم ووصف كلا منهم ببعض النعوت والمدائح ، راجع سلافة النديم ج١ ص ٣٤ .

(٣) وهو خصى كان ذا حظوة عظيمة لدى إسماعيل وأمه ، وكانت إشارته حكم وطاعته غنم كأنه كافور الأخشيدى أو يزيد .

بالأجر ، فثارت ثائرة عبد الله نديم ، وأخذ يصوغ فى هجاء هذا العمدة ألوانا مقذعة من الهجاء كانت أول ماعرف من أدبه ، وأكتشف فى نفسه أديباً ذا سطوة فى القول ، حاد اللسان عنيف الخصام حاضر البديهة .

ثم نراه فى المنصورة يتجر فى (العصائب) ويجمع حوله الأدباء والشعراء فأكل الربحُ رأسَ المال الذى جاد به عليه أحد الكرماء ، ووجد نفسه بعد مدة فى دكان مملوء بالشعراء خلو من السلع ؛ فهام على وجهه مرة أخرى بالبلاد حتى وصل إلى طنطا إبان مولد السيد البدوى واتصل بشاهين باشا كنج[1] ، وكان رجلا ذا جاه يجتمع حوله الأدباء والظرفاء وله ببيته منتدى يضم أخلاطاً شتى من ذوى اللسن والنكتة والفكاهة ، وقد مكث عبدالله

---

(١) وقد وقع له مع شاهين باشا حادثة تدل على مبلغ بديهة عبد الله نديم واستعداده الأدبى فقد قال هو عن نفسه : « كنت بمولد السيد البدوى ومعى السيد على أبو النصر والشيخ حلاوة وجلسنا على قهوة الصباغ نتفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهم لانتقادنا عليهما استلفت أخاه إلينا ، وخصانا بالكلام ، فأخذا يمدحاننا واحداً فواحداً إلى أن جاء دورها إلى فقال أحدهما يخاطبنى :

أنعم بقرشك يا جندى ولا اكسنا أمل يا أفندى
إلا أنا وحياتك عندى بقى لى شهرين طول جوعان

فقلت على سبيل المزاح :

أما الفلوس أنا مديهى وأنت تقول لى ما امشيهى
يطلع على حشيشى أقوم أدّى لك لودان

ولما بلغ شاهين باشا ذلك وأنى غلبت هؤلاء (الأدباتية) ، طلب شيخهم ، ووعده إن غلبونى يعطيهم ألف قرش ، وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين (سوطاً) ، واجتمع لذلك حشد من الناس كبير ، وابتدأ كبيرهم فقال :

أول كلامى حمد الله ثم الصلاة على الهادى
ماذا تريد يا عبد الله قدام أميرنا وأسيادى

فقلت :

انى أريد أحمد ربى بعد الصلاة على المختار
وان كنت تطمع فى أدبى أسمعك حسن الأشعار

فقال : دعنا من الأدب المشهور وادخل بنا باب الدعكة
ندخل على أسيادنا بسرور ونغنم الخير والبركة

فقلت : هيا احتكم فى البحر وشوف فن النديم ولا فنك
دلوقت تسمع يا منحوف أحسن أدب وحياة دقنك

وهكذا استمر عبد الله نديم يساجل هؤلاء الأدباتية حتى أفحمهم . وتجد نصاً لا بأس به بمجلة الأستاذ كتبه النديم بنفسه ، ونقله أحمد باشا تيمور فى كتابه (تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر) .

نديم فى ضيافته مدة ينعم بكرم وأصب وراحة ، وكان واسطة العقد يبهر الناس بأدبه وطلاقة لسانه وسرعة بديهته ، وكان يتحداه الأدباء ، ويحاولون تعجيزه ولكنه بهرهم بمواهبه ؛ وقد روى أن بعضهم اقترح عليه أن يعارض دالية المتنبى المشهورة التى مطلعها :

أقل فعالى بَلْهَ أكثره مجد   وذا الجد فيه نلت أولم أنل جَدُّ

وادعى المقترح أنه لايتأتى لشاعر أن يعارض المتنبى فى قوله بهذه القصيد :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدواً له ما من صداقته بد

فقبل النديم التحدى ، وأنشأ قصيدة مطلعها :

سيوف الثنا تصدا ، ومقولى النمد   ومن صارفى نصرى تكفله الحد

ومنها يعارض بيت المتنبى :

ومن عجب الأيام شهم أخو حجا   يعارضه غر ويفحمه وغد

ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدماء   لتحفظ أعراض تكفلها المجد

وليس هذا شعراً صادراً عن عاطفة أو فكرة ، وإن هو إلا مهارة لسانية ، وإظهار لمقدرة كلامية ، وقوة عارضة ، وتوقد خاطر ، وأثر الصنعة بادعليه ، ولكن الشعر فى عصر عبد الله نديم كان كذلك .

ثم عاد إلى الإسكندرية فى سنة ١٨٧٩ ، بعد أن غاب عنها طويلا ووجد الأمور والأحداث قد بدلت حديث الناس وسمرهم ، ولم يعد الشعر وروايته ، والأدب ودرايته هى مايشغل المستنيرين بمصر بعامة ، والإسكندرية بخاصة ، وإنما كان يشغل الناس حينذاك إسراف إسماعيل وتهوره ، وتدخل الأجنبى فى شئون البلاد وتجبره ، ووجد بالإسكندرية جمعية سرية تسمى (مصر الفتاة) تنقد اسماعيل وأعماله صراحة ، وتعبر عن آلام الأمة وآمالها ، ووجد الصحف قد تغيرت لهجتها ، وصارت بفضل تعاليم جمال الدين ميداناً فيه الأقلام المرهفة الحادة على الظلم والعنفوان ، والاستبداد والقسوة وتطلب الشورى وإنصاف الشعب . ورأى عبدالله نديم أن هذا الأدب الجديد ينسجم مع نفسه فألقى بها فى هذا التيار تيار السياسة القوى حتى صار من قواد الأمة السياسيين ، ورائداً من رواد الوطنية

الأوائل ، فأخذ يغذى الصحف بمقالاته السياسية ، وحوّل هذه الجمعية السرية إلى جمعية علنية تعمل فى ضوء النهار ، وسماها الجمعية الخيرية الإسلامية ، وقد مر بك شىء عنها ؛ وكان من أغراضها تأسيس معاهد العلم يربى فيها النشء تربية وطنية ، ويلقنون العلم بطرق حديثة تحببه إليهم ، وتغرس فى نفوسهم المثل العليا ، وتعودهم قيادة الأمة وإرشادها،ولذلك عمد إلى تشجيع تلاميذ المدرسة على الخطابة ، فصاروا ينشئون الخطب بأنفسهم وهو يصلحها لهم ، ويزج بهم فى الحفلات يخطبون ، فتدرب على يديه فريق ممن يحسنون الكتابة ويجيدون الخطابة ، ولم يكتف بهذا بل كان يؤلف روايات تمثيلية فى نقد بعض العيوب الاجتماعية ، ويمثلها هو وتلاميذه أمام جمهور المتعلمين بالمدينة كرواية (الوطن وطالع التوفيق) و (العرب) ، وقد حضرها الخديو توفيق تشجيعاً ، ولقى نجاحاً ملحوظاً أثار عليه حسد بعض الناس .

ولم يلبث أن ترك الجمعية الخيرية ومدرستها حين ظهر بها خلل نسب إليه ، فتفرغ للصحافة وأنشأ جريدة « التبكيت والتنكيت »(١) ، يدبج فيها مقالات ظاهرها هزل وباطنها جد يصور فيها عيوب المجتمع المصرى تصويراً شائقاً بأسلوب تهكمي لاذع ، ويطلب من القراء أن يعاونوا فى تحريرها بقوله : « كونوا معى فى المشرب الذى التزمته والمذهب الذى انتحلته . أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية وأمثال أدبية وتبكيت ينادى بقبح الجهالة وذم الخرافات لنتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مُثْلَةً فى الوجود من ركوب متن الغواية واتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل » . وسنتعرض لنهجها وطريقة كتابته بها فيما بعد وحسبنا أن نقول الآن : إن أسلوب هذه الجريدة والموضوعات التى عالجتها ، والحرارة التى كتبت بها هذه الموضوعات ، والجرأة الأدبية التى تمثلت فى صراحتها وهجماتها على كثير من قلاع الفساد بعصر حببها إلى جمهرة القراء ، وبغضها إلى المنافقين وأدعياء الوطنية .

ثم قامت الثورة العرابية فى الظروف التى علمتها من قبل ، وصادفت هوى فى نفس

---

(١) صدر أول عدد منها فى ٨ رجب سنة ١٢٩٨ هـ ، ٦ يوليه سنة ١٨٨١ .

النديم ؛ لأن مبادئها كانت تنادى بالإصلاح السياسى والاجتماعى الذى طالما دعا إليه فى جريدته ، ووجد الثوار أنفسهم فى حاجة إلى خطيب ذلق اللسان ، حاضر البديهة، جياش العاطفة مصرى غيور على وطنه . يكون لسانهم الناطق وداعيتهم المحبوب ، فلم يجدوا خيراً من عبدالله النديم فألحوا عليه حتى شايعهم فكان معهم كما أرادوا وزيادة ، وطلب منه عرابى أن يغير اسم جريدته[1] ويسميها (الطائف) تيمنا باسم طائف الحجاز ، وتفاؤلا بأنها تطوف المسكونة كما جابتها جوائب الشدياق .

وابتدأت الطائف قوية عنيفة اللهجة تنقد اسماعيل نقداً مراً ، وتشرح للناس كيف أسرف ، وكيف استولى على الأراضى ، وتصور بؤس الفلاحين فى السخرة — أيام اسماعيل[2] - والعذاب المهين الذى يصبه الرؤساء على الناس ويلهبون ظهورهم بالسياط فى سبيل الجباية ودفع الضرائب ، ويضيف إلى كل ذلك ما رآه بنفسه من مشاهد دامية ، وقلوب قاسية ، ورؤساء يزدادون غلظة طمعاً فى الترقية . وما لجأ عبدالله نديم إلى كل هذه الموضوعات إلا ليسوغ طلب الثوار الحكم النيابى ضمانا للعدالة ، وجبا للاستبداد وعهوده ؛ وطلب الثوار من وزارة الداخلية أن تعتمد الطائف لسانهم المعبر فوافقت على ذلك، وصارت الطائف مقياساً لتطور الثورة ، فتارة تذم الأوربيين وتحمل عليهم حملات شعواء لتدخلهم فى شئون البلاد ، وآونة تصب نقمتها على توفيق ؛ لأنه مكن لهم فى مصر ، وغض الطرف عن ازدياد نفوذهم وكان النديم فى الطائف يدلس فى أخبار الثورة والقتال تهدئة للناس فيصور الهزيمة نصراً حتى تمت الهزيمة ، وأسقط فى يد الثوار .

ولم يكن الطائف وحده هو الذى يدعو إلى الثورة ويحرض عليها ، ويشجع الناس على التطوع والتبرع ، بل كانت خطبه المؤثرة وحماسته المتدفقة ، وقدرته على تصنيف الكلام ،

---

(١) وكان آخر عدد صدر من التنكيت فى ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ هـ ، وصدر منها ثمانية عشر عدداً .

(٢) لأن من حسنات رياض التى تذكر له أنه ألغى السخرة فى أوائل عهد توفيق كإقامة الجسور على النيل أيام الفيضان ، وحفر الترع من غير أجر ، وكان كثير من الملاك يسخرون الفلاحين فى أرضهم بدون أجر فنعهم رياض من ذلك منعاً باتاً فأثار حفيظتهم ؛ ولعل ذلك ما جعل محمد عبده ينظر إليه دائماً بأنه المستبد العادل الذى يجب أن يحكم البلاد خمس عشر سنة حتى يصلح شئونها .

ومخاطبة كل طائفة بالأسلوب الذى تفهمه، من أشد العوامل على إشعال نار الثورة ، وازدياد لهيبها[١] .

كان عبد الله نديم يمثل الروح المصرية أتم تمثيل ، ويعرف عادات البلاد وصفات أهلها أتم المعرفة ، ويحس بشعورهم وآلامهم ، ومايعانونه من جور وقسوة ، على يد حكامهم ولا بدع فقد خالطهم ، ونشأ بينهم ، وتشرب بمشربهم،وعانى مثل ماعانوا ؛ تربى فى أحضان الفقر والفاقة ، واختلط بشتى الطبقات ،وكثرت تجاربه فى الحياة،ولذلك كان يتحرق شوقاً إلى الحرية ، وإلى رفع الظلم عن كواهل مواطنيه . ورفع مستواهم الاجتماعى والثقافى ، وأن يعيشوا فى بحبوحة من العيش .

وكانت موهبته الحقة فى لسانه ، ويعرف أن دعوته إلى الإصلاح وإلى الثورة ، وإلى التعبئة القومية أيام الثورة العرابية لن تصل إلى أسماع العامة وقلوبهم إلا عن طريق الخطابة ، لفشو الأمية ، ولتأثر الناس بالسماع والمشاهدة .

وقد أوتى فصاحة اللسان ، وقوة الحجة والبيان ، ومعرفة عميقة بنفسية الشعب وكيف يهجيه بعذب الكلام ، استمع إليه يحث الناس على مجاهدة الإنجليز وحربهم بعد أن نزلوا الإسكندرية ، وبدا منهم الغدر والعدوان ، بذلك الأسلوب الساحر القصير الفقرات الذى يمزجه بآيات القرآن ، وأبيات الشعر فيزداد قوة ورونقاً وتحميساً :

أيا نخوة الإسلام هزّى رجالنا لحرب بها عز البــلاد يدوم

يابنى مصر :

هذه أيام النزال ، هذه أيام النضال ، هذه أيام الذود عن الحياض ، هذه أيام الذب عن الأعراض . هذه أيام يمتطى فيها بنو مصر صهوات الحماسة ، وغوارب الشجاعة ، ومتون الإقدام لمحاربة عدو مصر بل العرب ، بل عدو الإسلام ، الدولة الإنجليزية خذلها الله ، ورد كيدها فى نحرها فقاتلوهم قتال المستميتين ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع

(١) كان يخطب فى كل مجتمع : فى الأزهر وطلبته ، والجيش وجنوده ، وفى حفلات الأفراح ، فلا يكون مجتمع إلا ويطمع أن يكون فيه عبد الله نديم خطيباً هو وجماعة من تلاميذه .

المتقين . قوم نقضوا العهود ، ونكثوا الإيمان ، وهموا بإخراج أهل الحكم ، وهم بدءوكم أول مرة : أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين .

يا أهل مصر ! :

إنما الإنجليز نجس فلا يقربوا البلاد بعد عملهم هذا ، وإن خفتم ضعفاً فتعاونوا وتآزروا ينصركم الله عليهم إن الله قوى عزيز ، كيف وإن يظهروا عليكم لا يراقبوا فيكم إلاً ولا ذمة يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلك بلاء من ربكم عظيم » .

لقد صحب الثورة العرابية من أول يوم هبت شملتها ، والتقت روحه بأرواح زعمائها ، وعدوه لسانهم الناطق ، وكان يصحبهم فى كل مكان ؛ كان مع الجيش فى يوم ثورة عابدين يشد أزرهم ، ويثبت قلوبهم يقول عرابى : « فجال صديقى الأعز الهمام ، صاحب الغيرة والعزم القوى السيد عبد الله نديم بين الصفوف ينادى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » فكان معى ثانى اثنين فى حفظ قلوب الرجال من الزيغ والارتجاف ، وأخذ يردد هذه الآية الكريمة كأنهم لم يسمعوها إلا من فمه فى تلك الساعة »(١) .

ولما سافرت فرقة عبد العال حلمى إلى دمياط فى أول أكتوبر عام ١٨٨١ خطب النديم فى جموع المودعين بمحطة القاهرة محيياً الجنود ، داعياً الناس إلى الالتفاف حولهم قائلا :

« حماة البلاد وفرسانها ! من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف ، وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم إليها سابق ، ولا يلحقكم فى إدراكها لاحق ، ألا وهى حماية البلاد ، وحفظ العباد ، وكف يد الاستبداد عنهما ، فلكم الذكر الجميل ، والمجد المخلد ، يباهى بكم الحاضرين من أهلنا ، ويفاخر بما تركتم الآتى من أبنائنا ، لقد حيى الوطن حياة طيبة ، بعد أن بلغت الروح التراقى ، فإن الأمة جسد والجند روحه ، ولا حياة للجسم بلا روح ، وهذا وطنكم العزيز يناديكم ويقول :

---

(١) كشف الستار ص ٢٦٦ .

إليكم يُرَدُّ الأمرُ وهو عظيم   فإنى بكم طول الزمان رحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى   فمن أين يأتى للديار نعيم
وإن الفتى إن لم ينـازل زمانه   تأخر عنـه صاحب وحميم
إذا لم تكن للعائذين حماية   فأنت ومخضوب البنان قسيم[١]

كان النديم يرتجل خطبه ولا يزوِّرها ، وإنما هى كلمات ملتهبة تعبر عن عواطف جياشة تتحرك فى صدره ، تصور آلامه وآلام أمته ، كما تصور آمالهم وأحلامهم ، وما مثله يحتاج إلى التحضير والتحبير وقد أوتى اللسان المطواع الذَّرب ، وملك أعنة الكلام ؛ ولقد تراه يخطب فى المحفل الواحد خمس مرات ، فما يكرر كلاماً قاله ، ولا يتردد أو يتلعثم ، وكان يجوب القرى والعساكر فيخلب قلوب الفلاحين بسحر بيانه وعذب لسانه وروائع خطبه ، يحرضهم على الإباء والكرامة ، والغضبة للوطن المكلوم ، حتى عرف بخطيب الشرق . وكان يدعى بالبرق إلى الإسكندرية وغيرها ليخطب فيلبى الدعوة زميعاً ، « ويرتجل من حر القول البليغ القوى القويم الحجة ما يترك الألباب سكارى من غير مدام »[٢] .

ولعلك لاحظت أنه لم يكن يتكلف السجع فى خطبه أو غيره من المحسنات ، ومع ذلك تحس لكلامه أسْراً وقوة ، ورصانة وموسيقية أخاذة ، وأنه كان يعمد إلى التهويل والمبالغة والتزيد حتى يقنع ويهيج العواطف ، ويلجأ إلى الإيحاء والدفع ، ويكثر من الشعر والحديث والاقتباس من آى الله الحكيم ، يؤيد بها حجته ، ويعلى كلمته ، وليكون كلامه أعظم تأثيراً وأقوى بياناً .

وكانت كتابته خطباً مكتوبة من حيث الموضوع والأسلوب ، ولا سيما تلك التى كتبها فى أيام الثورة العرابية ، وفى إبان الحرب بين مصر وانجلترا فى جريدة الطائف . فكان لها فعل السحر فى النفوس ، ورفع الروح المعنوية ، وتثبيت القلوب الواجفة ، والأفئدة المضطربة الخائفة .

---

(١) مصر للمصريين جـ٤ ص ٩١ ، وكشف الستار ص ٢٥٩ .
(٢) سلافة النديم جـ١ ص ١٩ .

فلا بدع إذا جد فى أثره الطلب حين أخفقت الثورة ؛ إذ رأى فيه توفيق والإنجليز المحرض الأكبر للثوار وناشر آرائهم بقلمه ولسانه ، ولكنه اختفى من وجه السلطة فلم يعثر عليه ؛ لأنه كان يعلم جد العلم أنه لن يغفر له ذنب ، أو تقال له عثرة إذا أسر ، ولن يجديه الإنكار فتيلا فأقواله مأثورة ، وخطبه مشهورة ، والطائف خير شهيد ، وسيكون العقاب صارماً أليماً . لقد ذل كثير من كبار الثوار والتمسوا الرأفة ؛ ولكن عبد الله نديم آثر التشرد والاختفاء على إحناء الرأس ، وذلة الطرف ، وهو إنما خاض الثورة عن إيمان وعلم .

وقصة إختفاء النديم وحيله التى ضلل بها السلطة ، على الرغم من المكافآت التى رصدتها لمن يأتى به ، جديرة بأن توضع فى رواية تمثيلية ، وستكون رواية غاية فى القوة ، لأنه أجاد التنكر إجادة يعجز عنها أمهر الممثلين اليوم فى بلاد (الخيالة) ، واسمعه يصف بإيجاز هذا التنكر الذى دام تسع سنين وهو بمصر لم يبرحها ويمر بين رجال الحكومة ، وصنائع الإنجليز دون أن يدركوه ، أو يعرفوه : « خرجت من مصر مختفياً فدرت فى البلاد متنكراً ، أدخل كل بلد بلباس مخصوص ، وأتكلم فى كل قرية بلسان يوافق دعواى التى أدعيها ، من قولى إنى مغربى أو يمنى أو مدنى أو فيومى أو شرقاوى أو نجدى ، وأصلح لحيتى إصلاحا يوافق الدعوى أيضاً ، فأطيلها فى مكان عند دعوى المشيخة ، وأقصرها فى آخر عند دعوى السياحة — مثلا — وأبيضها فى بلد وأحمرها فى قرية ، وأسودها فى عزبة » وتغيرت الأسماء التى انتحلها[1] ، والناس فى عجب من أمره

---

(١) فتارة اسمه الشيخ يوسف المدنى ، وتارة الشيخ محمد الفيومى ، وأحيانا سى الحاج على المغربى ، وكان إذا ادعى أنه مغربى تكلم بلسان مغربى محكم ، أو مدنى فكذلك وادعى مرة أنه عالم يمنى وكان بالقرشية عند أحمد النشاوى . وذاعت شهرته حتى بلغت رياض — وهو الرجل الذى يطارده ويضع له الأرصاد فى كل طريق ، ويقف المال فى سبيل أسره إرضاء لتوفيق — فأرسل سعد زغلول ليسأله عن مثل ورد ذكره فى بعض الجرائد ولم يفهمه ، فقابل سعدا على أنه عالم يمنى وفسره له .

وقد استعان على تضليل الحكومة بإشاعة سفره إلى خارج القطر على لسان صديق فرنسى كان يثق به ، ونقلت كل الجرائد خبر سفره هذا فصدقت الحكومة وعفت رجال الأمن على إهمالهم وتمكينهم له من الهرب ، وقد وجد عطفاً زائدا من كثير من الناس فأعانوه على الاختفاء ، وأمدوه وخادمه بالمال ؛ فقد أتى مرة عيد أضحى وهو فى (برية المندرة) يسكن الحقول ، لا أحد معه إلا زوجته ، ولا يجد =

كالمقدرة مقدرة النديم ، ولكنه يختلف عنه فى الشكل والصوت واللهجة ، فيقولون : سبحان الله جل من لا شبيه له ! !

وقد أتيح له من الفراغ وهو فى اختفائه هذا ما مكنه من مواصلة دراسته ، وشغل نفسه بالتأليف وقرض الشعر ، وقد ألف فى كثير من العلوم ، وفى هذا يقول من رسالة لصديق له « تارة اشتغل بكتابة فصول فى علم الأصول ، وأجمع عقائد أهل السنة بما تعظم به لله المنة ، وحيناً اشتغل بنظم فرائد فى صورة قصائد ، ووقتاً أكتب رسائل مؤلفة فى فنون مختلفة ، وآونة أكتب فى التصوف والسلوك وسير الأخبار والملوك ، وزمنا أكتب فى العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان على سفينة تاريخ الزمان ، ويوما اشتغل بشرح أنواع البديع فى مدح الشفيع . . . وقد تم لى الآن عشرون مؤلفا بين صغير وكبير ، فانظر إلى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة وسيلة المنحة والمنة، أترانى كنت أكتب هذه العلوم فى ذلك الوقت المعلوم ، وقد كنت أشغل من مرضعة اثنين ، وفى حجرها ثالث ، وعلى كتفها رابع ، وأتعب من مربى عشرة وليس له تابع » .

وانتهى به المطاف إلى بلدة (الجميزة) فعرفه عمدتها وكتم أمره ، ولكن أحد جواسيس الحكومة عرفه ، فوشى به طمعا فى المكافأة(١) ، وأطبق عليه رجال الشرطة ،

= القوت الضرورى ويأتيه خادمه يشكو البؤس والفاقة ، وإذا برجل من أهل البر والمروءة يملأ بيت النديم قمحا وعسلا وسمنا وثيابا من أطلس وحرير للزوجة والخادم وزوجته .

ولكن مرت عليه مع ذلك أيام حالكة السواد ، مليئة بالمصائب ، فقد اختفى مرة فى قاعة مظلمة لا يتوصل اليها إلا من سرداب طويل مظلم ، يرشح الماء من أرضها لقربها من ترعة ولا يتمكن من القراءة والكتابة إلا على مصباح صغير به ذبالة تملأ الحجرة دخاناً ، وقد مكث بهذا السرداب ستة أشهر وكان إذا أراد الكتابة صنع المداد من سناج السراج مع قليل من قرظ السنط ، ويتخذ أقلامه من الحجناء كل هذا وهو صابر لا يشكو ولا يتململ . وكان فى أول أمره شديد الحنين لأمه وأبيه وأخيه لا يعرف ما صاروا إليه ، فلما خف عنه الطلب ، ويئست الحكومة من العثور عليه ، تمكن من الاتصال بأهله اتصالا منتظما وكان حريصا على ما خلفه بديته بالإسكندرية من كتب ومؤلفات ، ولكنها ضاعت بالسكة الحديدية حين وضعها أبوه فى صناديق وهو مهاجر من الثغر بعد ضربه بالمدافع الإنجليزية ، فلما اشتد الزحام بالقطار عمد رجال السكة الحديدية إلى التخلص من البضائع ليفسحوا المجال للناس فألقوا بهذه الصناديق المملوءة كتبا وهم لا يعلمون قيمتها عند عبد الله نديم .

(١) كان ميعاد المكافأة قد انتهى فلم ينل شيئا .

ولم يستطيع النجاة بحيله المعهودة ، فسلم نفسه[١] ومن حسن حظه لم يفحصوا عن أوراقه ، إذ كان فى بعضها هجاء مقذع لتوفيق ، ولو تنبهوا لذلك لكان أمره غير ما عرفنا . ثم أرسل إلى طنطا للتحقيق معه ، وكان المحقق قاسم بك أمين فأكرمه وواساه وأمده بالمال من عنده ثم صدر أمر توفيق بالعفو عنه وإبعاده عن مصر . فاختار (يافا) دار إقامة ، وطوف ما شاء له هواه فى فلسطين وعرف كثيراً من بقاعها[٢] .

ولما مات توفيق وتولى عباس عفا عنه ، وسمح له بالعودة إلى مصر فرجع إليها سنة ١٨٩٢ وأنشأ جريدة (الأستاذ) فكانت صفحة مجيدة فى تاريخ الجهاد القومى ؛ لأن علاقة الخديو عباس بالإنجليز كانت سيئة أول الأمر ، وكان يجمع حوله الوطنيين وكبار المفكرين كما علمت آنفاً ، وأخذ النديم يناصر عباساً بكل ما أوتى من قوه ، وكان فى استطاعته أن يجنح للسلم ويهادن الإنجليز ، ويعين فى أعظم المناصب بالمعارف أو الأزهر ، وهو كفء أديب ولكن أبت عليه نفسه العفة ، ووطنيته المتقدة أن يلين لعدوه مهما كانت الأيام قد حاربته فى الماضى ، ولقى إبان اختفائه من عنت وآلام .

شهر قلمه فى وجه الإنجليز غير مبال بهم وبسلطانهم القوى بوادى النيل ، فأثار بذلك حفيظتهم وخافوا إن تركوه وشأنه أن يتسع الخرق ، ويفسد الأمر ويعيدها جذعاً ، فأوقفوا مجلته ، ورحلوه إلى يافا[٣] منفياً بعد أن منحوه أربعمائة دينار ، وأجروا عليه خمسة وعشرين

---

(١) كان اختفاؤه فى سنة ١٢٩٩ هـ والقبض عليه فى سنة ١٣٠٩ هـ .

(٢) وكان فى أول أمره يرتدى الثياب الإفرنجية الملونة ؛ فلما ظهر بعد الاختفاء لبس الجبة والقباء واعتم بعمامة خضراء إشارة إلى الشرف ، ولكن كثيراً من ذوى الخبرة ينكرون هذا النسب ، ولعل هذا الادعاء لشعوره بضعة نسبه فأراد أن يستره بهذه الصلة .

(٣) ولقد ودع قراءه فى آخر عدد صدر من مجلة الأستاذ فى ١٣ من يونيه سنة ١٨٩٣ بكلمة مؤثرة قال فيها : ما خلقت الرجال إلا لمسايرة الأهوال ومصادمة النوائب ؛ والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظمة والجلال ، وإن كان للبدأ صعوبة وكدراً فى أعين الواقفين عند الظواهر ، وعلى هذا فإنى أودع إخوانى قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى ... أحب لقاكم والخلود إليكم

وما عن قلى كان الرحيل وإنما ... دواع تبدت فالسلام عليكم

كل شهر ، واشترطوا عليه ألا يكتب شيئاً بشأن مصر ، ولم ينفعه الخديو ، ويحول بينه وبين النفى لأنه كان مغلول اليد والسلطة كلها بيد الإنجليز .

ولم يكن بيافا أسعد منه حظاً وهو بمصر ، إذ وشى به جماعة لدى السلطان عبد الحميد فأمر بإبعاده ، فعاد إلى الأسكندرية فى حيرة من أمره بعد أن لفظته بلاد الدولة العثمانية ، بيد أن الغازى مختار باشا تشفع له عند عبد الحميد حتى سمح له بالسفر إلى تركيا وهناك التقى بأستاذه الأكبر جمال الدين ، وكان كلاهما فى أسر وإن اختلف القفصان . فجمال الدين فى قفص من ذهب ينسجم مع حسبه ومكانته ، والنديم فى قفص من حديد يليق بمقامه .

وعين النديم مفتشاً للمطبوعات وهى وظيفة اسمية تكفل له راتباً مقداره خمسة وأربعون مجيديا ، وطبعى أنه لم يزاول العمل بمهنته تلك ، وهى أبعد الوظائف عن طبعه وحريته ؛ وفى الآستانة عادى أكبر قوة بها فى ذياك الوقت وهو أبو الهدى الصيادى(١) ولعله تأثر فى عداوته له بجمال الدين ، وقد عرفت من أمرهما معاً بعض الشىء أو لعل الصيادى — وهو الأرجح — كان عدواً لكل حر كريم . ولم يعبأ النديم بسطوة الصيادى وجاهه وقدرته على الانتقام ، وهو رجل كانت له فى كل مكان عيون تنقل له الأخبار ؛ وقد اصطنع بمعروفه كثيراً من عظماء الدولة فهم طوع يديه ورهن إشارته ، وقد سخر كل ما بتركيا لخدمته وكم نفذ أمره وأبطل أمر السلطان ، وكم تدلل على عبد الحميد فبالغ فى استرضائه . ولكن النديم لا يهمه الصيادى ولا عبد الحميد وأخذ يخوض فى سيرته بلسان حاد بذىء ، ووضع فيه كتابا سماه (المسامير) كله هجو مقذع فاحش .لا يشرف الصيادى ، ولا يشرف النديم ، .وحاول الصيادى أن يعثر على هذا الكتاب ، وهربه (جورج كرتشى) الذى كان متصلا بجمال الدين وعبد الله نديم إلى مصر ، ثم طبعه .

---

(١) الصيادى سورى من حلب فقير من المال والحسب دفعته المقادير إلى الآستانة ، وكان ماهراً ذكياً وسيم المحيا ، ماضى العزيمة استطاع أن يتغلب على السلطان عبد الحميد ويخضعه لمشيئته . بأحلامه وتفسيراته والطرق ومشيختها ، وربط نسبه بأعلى نسب وادعى أنه قرشى هاشمى ، وحياته وأعماله تمثل دوراً هاماً أشبه بدور راسبوتين عند قياصرة الروس .

وأصيب النديم بالسل بعد ذلك بقليل ، واشتدت عليه العلة فمات فى الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ١٣١٤ ، العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦ ، ودفن بتركيا وهو فى الرابعة والخمسين من عمره .

آثاره وأثره :

ولعلك قد أدركت من هذه السيرة أن النديم قد جرب كثيراً من شئون الحياة ، وعرف حلوها ومرها ، وخالط الفقراء والأغنياء ، وعاشر أصنافاً شتى من مختلف الأجناس وعرك الدهر حتى استحصدت مِرّته ، وقويت شكيمته ، وإنى أدعه يسرد تجربته بنفسه فستعيننا فى تعرف أدبه ، قال : « أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة وأدركت ماهم فيه من جهالة ، وممن يتألمون ، وماذا يرجون ، وخالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين وألمت بما انطبع فى صدورهم من أشعة الغربيين ، وصاحبت جماً من أفاضل الشرقيين المتعلمين فى الغرب ممن ثبتت أقدامهم فى وظيفتهم ، وعرفت كثيراً من الغربيين ورأيت أفكارهم عالية أو سافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم ، واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ماهم عليه من السير فى المعاملة أو السياسية ؛ وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلقت بقراءة الجرائد مدة ، واستخدمت فى الحكومة المصرية زمناً ، واتجرت برهة ، وفلحت حيناً ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتا وبالخطابة والجرائد آونة ، واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذى وصلت إليه بعنا ، وكسانى نحول الشيخوخة فى زمن بضاضة الصبا وتوجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ، فصورتى تريك هيئة أبناء السبعين ، وحقيقتى لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين » .

ولو عاش النديم — مع تجربته هذه التى قلما تتاح لأديب ، ومع ذوقه المرهف ومواهبه المديدة وقدرته على التعبير — فى عصرنا هذا وعرف ألوان الأدب ، وفنونه ، واطلع على طريقة الغرب وأساليبه من قصة ومسرحية ، وأفكار ، لكان أديباً عالمياً ممتازاً تفاخر كل أمة بانتسابه إليها . ولكنه كان متعلقاً إلى حد كبير بأذيال الماضى ، يكتب بأسلوب مقيد بصنوف عديدة من الأغلال ، ولم تكن كنوز المعانى قد حطمت أغلاقها ولا ألوان الأدب الغربى المديدة قد عرفت ودرست . ومع ذلك فالنديم يعد فى الطليعة من رواد الأدب الحديث .

أما آثاره فيحدثنا أحمد سمير مترجم حياته ، بأن النديم « لما كان فى يافا أول مرة بعث إلى محرّراً يكلفنى به أن أطلب ديوان شعره الصغير من صديقه المرحوم عبد العزيز حافظ فلما قصدته وجدته مصاباً فى قواه العقلية بما لم يدع للطلب مجالا . ثم كتب إلى كتاباً ثانيا بأن ديوانه الأوسط عند « م . ن » فطلبته منه ، فاعتذر بأنه ضاع فلما أنبأت المترجم بذلك أرسل إلى فى مكتوبه الثالث أنه إنما طلبهما ليحرقهما براءة منهما ومن أمثالهما ؛ لأن فيهما هُجراً كثيراً وختم المكتوب بهذه العبارة : [قد خلعت تلك الثياب الدنسة ، ولبست ثوب (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)] » :

وهذه قصة تذكرنا بما كان من الشيخ على الليثى من قبل وبمكانة الشعر عند هؤلاء القوم ، وفى الواقع أنه لم يكن شعراً بالمعنى الذى نعرفه اليوم ، ولكنه كان كما ذكرنا من قبل نظماً تظهر به المقدرة على التعبير والمهارة اللسانية ، وتصريف الكلام وسنرى نماذج من هذا الشعر فيما بعد ، وقد بقى لنا قليل ينبىء عن نوع هذه الدواوين التى لم يعثر عليها .

١ — أما نثره ، فقد كتب مقالات شتى فى التنكيت والتبكيت ، وقد وعدنا بالرجوع إليها لننظر فى موضوعاتها وقيمتها . وحسبنا أن نتصفح العدد الأول منها وقد حرره النديم بقلمه فنجد مقالات شتى تمس حياة الأمة وتعالج مشكلاتها .

فمقال عنوانه : « مجلس طبى لمصاب بالأفرنجى » ، وهى قصة شاب قوى الجسم سليم البنية ، جميل الطلعة ، لطيف الشكل ، نشأ تحوطه العناية وتكلأه الرعاية ، ويدلله أهله

ويحمونه حتى لا تصل إليه يد عدو ، ولا حيلة محتال ، ولكن استطاع دجال ماهر أتقن فن الخداع والحيلة أن يتسلل إليه ، وأن يوهم أهله أنه من ذوى الورع والتقوى ، فأمنوا جانبه ، وأسلموه له ، فأخذ يعرضه فى الأسواق والطرقات وجلب له من الغوانى الحسان من تعارض الشمس بحسنها وتكسف البدر بنورها ، يغازلن أهله بحركات تحرك الجبان ، فانصرف الأهل إليهن ، وتركوا مراقبة الفتى المليح ، فانفرد به ذلك المحتال الخداع ، وأغرى به الفتيات الملاح ، فتمنّع حيناً ، وعصمه حياؤه وطهر نشأته زمناً طويلا ، ولكن رأى أن الإغراء شديد ، والخصم عنيد ، وأن لا قبل له بهؤلاء الشياطين ، ولا سيما وقد وجد أهله عاكفين على التزلف لهؤلاء النسوة ، والتدله فى حبهن ، فسار فى الطريق التى رسمها من قبل هذا المنافق الدجال فما هى إلا رشفة كأس حتى أصيب بالداء الأفرنجى (الزهرى) فاصفر لونه وارتخت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عيناه وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع ، وفطن إليه بعض أهله فلما رأى ما به بكى وانتحب ، وأخذ يذرف العبرات ويصعد الزفرات ، ويلفظ الحسرات ، وجمع له الأطباء يشخصون داءه ، ويركبون الدواء علّه يبرئه من علته ويقف سريان الداء ، وأقبل أهله متلهفين لسماع نصح الأطباء ورأيهم فطلبوا إليهم الهدوء والسكون ، ومساعدتهم فى خدمته ، وتنظيف محله وتطهير أعضائه وحفظه حتى لا يقربه غريب ، ولا يمكن أجنبى من الوصول إليه فيفسد العلاج ، ويسعى فى إتلافه أكثر مما صنع هو وقومه ، وأخذ أهله يعملون بمشورة الأطباء ويبذلون الجهد فى وقايته وصيانته » .

وهذه قصة رمزية تصور ما كان من إصابة مصر على يد إسماعيل وإسرافه وتدخل الأجانب فى شئونها ، والمراقبة الثنائية ، وصندوق الدين ، وتصور كذلك ألم الناس من هذا المرض الأفرنجى ، وأملهم فى النجاة بسعى العقلاء وتفكير المستنيرين . وتوريته (بالأفرنجى) عن هذه المصائب التى حلت بالبلاد تورية بارعة .

ونرى بالعدد الأول من التنكيت والتبكيت مقالا آخر بعنوان (عزبى تفرنج) وهى قصة شاب من صميم الريف أبوه فلاح مسكين ، لم يستطع أن يعلمه ، بل تركه جاهلا

يساعده فى حقله ويأكل البصل ، ولا يرى اللحم إلا فى العيد ، ثم مر به أحد التجار فأغراه على أن يدفع به إلى المدرسة ، ولما أتم تعليمه بمصر أرسل إلى أوربا ، وعاد إلى بلاده متنكراً لأهله ، مستقبحاً عادات قومه ، مهجناً طريقتهم فى التحية ، مستفهماً بقحة عن اسم البصل الذى أكله لأنه نسى الاسم العربى ، ولم يعد يتذكر إلا الاسم الفرنسى[1] ولما شكى أبوه إلى أحد النابهين قال له : « ولدك لم يتهذب صغيراً ولا تعلم حقوق وطنه ، ولا عرفه حتى لغته ، ولا قدر شرف أمته ، ولا ثمرة الحرص على عوائد أهله ولا مزية الوطنية ، فهو وإن كان تعلم علوماً إلا أنها لا تفيد وطنه » .

وهذا داء استشرى فى مصر بعد النديم ، وحاكى كثير ممن درسوا فى بلاد الغرب أوربا فى كل شىء حتى هجنت عاداتنا وتقاليدنا ، وفقد شبابنا كثيراً من مقومات الوطنية الصادقة ؛ وإن كانت هذه الفتنة قد ابتدأت تخف وتنتبه الأمة إلى التمسك بلغتها وعاداتها ومزاياها ، وتعتز بها .

ويلى ذلك قصة جماعة من الموسرين اجتمعوا فى بيت أحدهم ، ودخل عليهم فوجدهم مبهوتين صامتين لا يتكلمون ولا يتحركون ، ولا يرفعون أبصارهم فظن أول الأمر أن رب الدار قد رزىء بخطب فادح ، وقد أتت هذه الجماعة لتواسيه ، وعقد الحزن ألسنتهم ، وران على قلوبهم فتركهم واجمين ، ولكن خاب ظنه هذا ، فسأل هل ثمة معضلة عويصة عرضت لكم وأنتم تبحثون تقدم أوربا فى الصناعات ، وانتشار تجارتها وكيف تصل مصر إلى هذه المنزلة ، فأجابوا بالنفى ، فقال ربما تفكرون فيما يزيد ثروتكم ويعود بالنفع والخير عليكم وعلى أمتكم . فقال رب الدار : هذا أمر لا يهمنا فإن البلاد إذا تقدمت أو تأخرت لا تفيدنا شيئاً أحسن مما نحن فيه ، وأما عن ثروتنا وزيادتها فعندنا من الثروة الكفاية ؛ وهكذا صار يسألهم وهو فى حيرة من أمرهم حتى اكتشف أنهم إنما اجتمعوا

---

(١) وقد ساق النديم هذه القصة بطريقة الحوار بين هذا الشاب المغرور الذى اسماه (زعيط) وبين والده ، وذكر فيها كثيرا من الكلمات العامية حتى يعطى اللون الخاص الذى يريده ؛ وكان يذكر بطريقة تهكمية لاذعة هذه الكلمات الفرنسية التى يلوكها هذا الدعى مثل كلمة (بون أريفى) عند التحية و (أنيون) يريد البصل وهكذا .

لتعاطى (الكيف) ، والمنبهات وغير ذلك ، وعللوا لاجتماعهم هذا بأن (الكيف) لا يُفرح إلا إذا تعاطاه الإنسان فى مجالس . ويختم النديم هذه القصة التى سماها (مهرة الأنطاع) بقوله : هكذا تكون حال من لم يتهذب صغيراً فإنه يخرج أسير شهواته بعيداً عن إدراك المعانى جباناً بليداً غبيا » .

ثم يتعرض فى كلمة أخرى لهؤلاء الذين يلتفون حول القصاص بالمقهى يسمعون قصة عنترة ويتجادلون ويتحزبون لأبطال القصة ؛ ولما رآهم القصاص منصتين إليه أخذ يفترى عبارات ينسبها إلى عنترة ، وكلمات يعزوها إلى عمارة ، وكل فريق يرشوه حتى ينتصر له بتلفيق كلام يصف فيه حزبه ، وأخيراً انتهت الليلة بأسر عنترة ، فقام من الجمع رجل قدم للقصاص عشرة جنيهات ليخلص عنترة من أسره فأبى ، فانهال عليه شتما وسباً ، وتذكر أن عنده قصة عنترة ولكنه أمى ، فذهب إلى ابنه قبيل الفجر وأيقظه ، وهو فى مصيبته التى لحقته تلك الليلة ، حتى ظن الولد أن أمه قد ماتت ، أو أحد إخوته توفى ، أو تجارة أبيه صودرت ، فلما علم أن الأمر يتعلق بعنترة أخذ يهون على والده الأمر ، ويصف القصة بالتلفيق والكذب ، فانهال عليه والده ضربا بالعصا وطرده من البيت .

ثم يقص أمر المزارع والمرابى ، وقد ذكرناها آنفا ، ويتبع ذلك بقصة غنى كبير بنى بيتا واعتنى بأثاثه ورياشه ، ثم دعا فريقا من أصدقائه لزيارته ، ولما وصلوا إلى المكتبة سأله أحدهم عن الكتب التى يهواها ، فأجاب بما يدل على الجهل ، وأنه لا علم له بالكتب وما تحتويه ، وكل ما فى الأمر أنه زار أحد العظماء ووجد فى بيته خزانة كتب ، عليها ستارة خضراء ، وبجانبها منفضة من الريش ، والخادم يمسح زجاجة الخزانة كل يوم فظن أن هذا طراز جديد فى تأثيث البيوت فحاكاه فيه دون أن يعرف شيئاً عن الكتب وما تحتويه فدل على عظيم جهله وعلى أن التقليد الأعمى مضر بالإنسان مزر بمكانته .

أجل ! ضم العدد الأول من المجلة كل هذه الموضوعات التى تصور عيوباً شائعة لا يزال بعضها متفشيا ، وتصف الدواء لهذه العلل الاجتماعية ، ولكن بأسلوب الوعظ والإرشاد ، وإن كان ممزوجا بكثير من التهكم اللاذع والسخرية المرة ، والكلمات القارصة ، وقد فطن

النديم إلى أن التعليم والنقد عن طريق القصة يحمل القارىء على متابعة القراءة ، ويرى مصير أشخاص القصة فيتعظ بهم ، وبذلك يجدى النقد ويؤتى ثمرته ، ولذلك أكثر منه ، ولم يضع هذه القصص فى عبارات منمقة مزوقة بليغة متخيرة الألفاظ ، ولكن ساقها فى أسلوب سهل وكثيراً ما عمد إلى اللغة العامية يعبر بها عن مراده ، لعلمه أن فى الناس الجاهل والعالم ، والعامة والخاصة ، ولكل أسلوب يلائمه فموضوع « الداء الإفرنجى » موضوع سياسى رمزى لا يفهمه إلا الخاصة ولذلك صيغ صياغة أدبية سليمة ، أما موضوع المزابى والمزارع ، وموضوع سمّاعى القصص فمكتوبان للعامة ؛ ولذلك لجأ إلى اللغة العامية يعبر بها حتى يفهمها هؤلاء فيتعظوا .

إن النديم فى هذه الموضوعات قدير على الحوار ، وتراه يبالغ حتى يستفز شعور القارىء ، ويجعله يشمئز من هؤلاء الجهلة الذين يصور حالتهم ، وتراه كذلك يستنفد المعانى ويستقرىء الأسباب ، حتى يكون الحكم ، أو النهاية بالغة العظة ، ولو فطن النديم إلى المسرحية الهزلية وصور هذه الشخصيات فيها لكان (موليير) العرب ؛ لأن عنده القدرة على التصوير ، وخلق الشخصيات والتهكم عليها والمبالغة فى تبشيع المثالب والعيوب ، وهذه كلها تعده لأن يكتب ملهاة متقنة .

٢ — ومن الموضوعات التى كتب فيها بمجلته فيما بعد موضوع الخطابة ، وأثرها فى تاريخ الإسلام ، وفائدتها فى تهذيب الشعب وتربيته ، ورأى أن خطب الجمعة ميتة لا تمت إلى الحياة التى يحياها الناس بصلة ، تتكلم فى أمور بعيدة عن مشكلاتهم الاجتماعية والخلقية والسياسية كل البعد[١] ، واقترح أن يحضر خطب الجمعة فئة من ذوى الفكر السديد والرأى الرشيد ، وتوزعها الحكومة على خطباء المساجد وتبرع هو فوضع نموذجاً لخطبة منبرية ، ضمنها الحث على الاهتمام بشئون البلاد والمحافظة على حقوقها والدعوة إلى

---

(١) من العجيب أن تسعين فى المائة من خطباء المساجد اليوم لا يزالون على الحال التى وصفها النديم وخطبهم بعيدة عن التأثير ، لأنها لا تمس الحياة فى صميمها ولا تعالج مشكلات الناس ، وكل جمعة أحس بضيق وحرج من جراء ما أسمع من خطب ميتة .

الائتلاف للتغلب على الخصم الأجنبى ، وعلى الأخطار التى تحدق بالوادى ، والاتحاد بين المسلمين والأقباط ، والتذكير بمجد مصر السابق ، ومعاملة الأجانب بالحسنى حتى لاتتخذ سوء معاملتهم ذريعة للتدخل الأجنبى ، وغير ذلك من الأمور التى يرى أن الحاجة ماسة إلى التكلم فيها لأول عهد توفيق ، ومن قوله فى أثر الخطابة وفائدتها :

« ألسن الخطباء تحيى وتميت ، حكمةٌ إذا عقلت معناها وقفت على سر الخطابة وحكمة حدوثها ، وعلمت أنها للعقول بمنزلة الغذاء للبدن . وكانت الخطابة فى الأعصر الخالية غير معلومة إلا فى أمتى العرب واليونان فكانت ساحتها فى جزيرة العرب عكاظا ، ومنابرها ظهورَ الإبل ، وهذه الساحة كانت معرضاً للأفكار تجتمع فيه الخطباء والبلغاء والشعراء وأمم كثيرة من المجاورة للجزيرة فيرقى الخطيب ظهر ناقته ويشير بطرف ردائه ، وينثر على الأسماع درراً وبدائع ؛ ثم يباريه آخر ويعارضه غيره فتتضارب الأفكار وتتنبه الأذهان ، وتحيا الهمم ، وتتحرك الدماء ، ويرجع كبار القبائل وأمراؤها لما يشير إليه الخطيب إن صلحاً وإن حربا ، ولم يقصروا فى خطاباتهم على مسائل الحرب والصلح ، بل كانوا يخوضون بحار الأفكار فلا يتركون ملمة إلا شرحوها ، ولا يذرون فضيلة إلاحثوا عليها ، حتى إنهم كانوا يحفظون أسماء الحكماء منهم وأهل المآثر فيذكرونهم فى هذا المعرض إحياء لتذكارهم وتخليداً لأسمائهم ؛ لئلا يجهل الآتى سيرة الماضى فتفتر الهمم ، وتخمد الدماء وتتغير الطباع » .

٣ — وأما مقالاته بالأستاذ فكانت صرخة أخرى مدوية حاول بها إيقاظ مصر كى تتنبه لما يحدق بها من أخطار ، وعالج فى هذه المقالات موضوعات اجتماعية وسياسية وخلقية لم تخطر على بال أحد من قبل . فتراه يتكلم عن التعليم وأثره فى الحضارة والعمران ومايجلبه الجهل من الآفات الاجتماعية والعلل الخلقية ويعدد هذه المثالب ويبين أثرها فى تأخر الأمة ، تارة يحث أبناء مصر على الاتحاد والتآزر والالتفاف حول الوطن والأمير والسلطان والتنكر للأجانب مهما كان شأنهم ، والتحذير من غواياتهم ، وهو أول من دعا إلى أن مصر يجب أن تكون للمصريين لالتركيا ولا للأوربيين ، فكانت لفتة وطنية لاتخرج إلا من قلب عامر بحب بلاده ، ولاسيما فى ذلك الزمان الذى لم تفكر فيه

أية دولة عربية فى هذا المعنى ، وإنما كانت الفكرة الوطنية عندها عاطفةً غامضة تربط مصيرها بمصير تركيا ، ولم تكن الفكرة جلية — كما يجب — عند النديم ، ولكنها خطرات الوطنى المتحمس جملته يفكر مثل هذا التفكير ، وإن كنا نراه أحياناً يشايع الرأى السائد ، ويدعو للسلطان والالتفاف حوله من مثل قوله : « هذه يدى فى يد من أضمها ؟ ضمها فى يد وطنيك ، واعقدا خنصريكما على محبة أمير البلاد ، مرتبطة هذه المحبة بمحبة أمير المؤمنين ، وإلا فقطعها خير من وضعها فى يد أجنبى يستميلك إليه بوعود كاذبة وحيل واهية ، يظهر لك سعيه فى صالحك وحبه لتقدمك ، ويرميك بأوهام لا توجد إلا بينك وبينه ، ويغرك بدعوى انفراده بالسلطة عليك ، وبعد الدول عنك ، ويضلك بنسبة أمرائك للقصور ، وحكامك للجهل والظلم ، ويصور لك الأباطيل فى صورة حق يخدعك به ، ويحول أفكارك الشرقية إلا أفكار غربية تأخذها وتقول بها ، فتكون يده القوية وعونه الأكبر على ضياع حقوقك وإذلال إخوانك ، واسترقاق أهلك وانتزاع سلطة أميرك وسلطانك وأنت لاتشعر بشىء من هذا » .

وقد يفسر كلام النديم بدعوته للسلطان والحض على الولاء له ، بأنه ولاء دينى ، بينما الولاء لأمير البلاد ولاء وطنى ، وهذا هو ماأرجحه ، فإن النديم اشتهر بدعوته الجريئة (مصر للمصريين) وكانت دعوة « عرابى » كذلك وإذا تعارض الدين والوطنية ، فضل الوطنية على الدين ؛ لأن جاذبية الوطن عنده أقوى من جاذبية الدين ، ويعلل لذلك تعليلا فلسفياً فى مقالة نفيسة بالأستاذ هى (تجاذب الجنسيات والأديان) يقول فيها : « لو وقعت حرب بين عربى وعجمى تماثلا دينياً هربت الطباع إلى الجنسية فترى عربياً فى أقصى الأرض يفرح بانتصار مثيله على العجمى والعكس بالعكس » ويعلل لاتحاد الأقباط والمسلمين بمصر ومحبة كل فريق للآخر بقوة الرابطة الجنسية ، فإن كثيراً من مسلمى مصر أقباط أسلموا ، فنداء الدم بليغ وفى هذا يقول : « وأقرب الأماكن إلينا مصر التى نحن فيها ، فإنها بلاد إنسانية مختلطة بقليل من الأقباط للذين تجذبهم الجنسية إلى كثير ممن تولدوا ممن أسلم من سابقيهم ، وتدفعهم الوطنية إلى التلاصق بالمجموع

بجاذبية الوطنية والألفة وطول المعاشرة » ، وهذه خطرات وطنية صادقة العاطفة عميقة الفكرة ، بعيدة النظر ، ولقد قال ولى الدين يكن عن عبدالله نديم : « وإنما أحدث بيننا الخلاف أنه كان عدواً للعثمانيين وهو من قدماء من يقولون : « مصر للمصريين ، ونحن نقول مصر للعثمانيين » .

لقد جهر عبد الله نديم بندائه هذا ، ولم يجاره فى دعوته زعماء السياسة من بعد ، فهذا مصطفى كامل وهو فى مناوأته للإنجليز وبعثه للشعور الوطنى ، ومحاربته للاحتلال الأجنبى لم تنضج عنده الفكرة الوطنية كما نفهمها اليوم ، فلم يقل إن مصر للمصريين بل قال : « حقا إن سياسة التقرب من الدولة العلية لأحكم السياسات وأرشدها،فصلا عن الأسباب الداعية لهذا التقريب فإن العدو واحد ولايليق بنا أن نكون فى فشل وشقاق فى وقت يعمل أعدؤنا على تجزئة دولتنا ، ولاغرو إن كنا نتألم لآلام الدولة العلية فما نحن إلا أبناؤها المستظلون بظلها الوريف المجتمعون حول رايتها . وقصارى القول إن الراية العثمانية هى الراية الوحيدة التى يجب أن نجتمع حولها ، ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد والائتلاف فلنتحد قلبا ولسانا »(١) ولكنه رجع عن هذا الرأى فيما بعد وفسره فى خطبته بالإسكندرية(٢) .

استطاع النديم فى جريدة الأستاذ أن ينبه الأفكار إلى موضوعات حيوية وأن يجادل ويناقش ويثير العقول ويخلق الرأى العام ، ويدعو زعماء الثورة العرابية الذين أذلهم الاحتلال ، وغلبهم الخوف منه إلى البروز والعمل فى سبيل مصر ، ويدعو إلى تأليف الأحزاب حتى تكون لكل جريدة حزبها الذى تنافح عنه ، ولكل حزب منهجه فى الإصلاح . وقد وقف من الأجانب بعامة ومن الإنجليز بخاصة موقفاً صريحاً لا لبس فيه ولاغموض أما الإنجليز فهو عدوهم اللدود ، يصورهم صوراً منكرة ، ويدعو الشعب لتأييد توفيق والالتفاف حوله ، وأما سواهم من المرتزقة الذين هاجروا فى سبيل القوت أوالثروة فينصح بعدم الأمان لهم ، وبالبعد عنهم إلا إذا برهنت التجربة على إخلاصهم « فعليك

---

(١) مصطفى كامل باشا الطبعة الأولى (١٩٢٨) ج ٣ ص ١٩٨ .
(٢) راجع تفصيل ذلك فى كتابنا الأدب الحديث ج ٢ ص ٨٤ الطبعة الرابعة .

بمن إذا حلت المصائب وآب النازحون إلى مقارهم فراراً من مشاركتك فى همومك كان قسيمك فى النكبات ، يتناول معك حمل الخطوب ، ويحملك إذا ضعفت ويُبرك إذا احتجت ، ويعودك إذا مرضت ، وينصرك إذا خذلت ويدفع معك عدوا يحاربك ، ويحفظ معك وطنا لزمته ، ويصون لك عرضا تبذل الروح فى حمايته » والجمهرة من الأجانب فى نظره متسولون إذا أعطيتهم مدحوك ، وهم يمدحونك طالما يجدون عندك نفعا » ومن كانت هذه صفته يصدفه عنك النيز بلقمة يريدها ، فإذا زاده ديناراً على أن يقذفك ويهجوك أضحك الناس بما يفتريه عليك » .

الحق أن النديم فى الأستاذ كان معلما جليلا للوطنية المتطرفة كما يفهمها جيله وكان مخلصا فى نصحه ، وثابتا على مبدئه منذ الثورة واندلاعها لم يلن للخطوب أو يطأطىء الرأس لعدو فكان أكبر مثل يحتذيه الزعماء من بعد .

٤ — وله رسائل أدبية ، ومقالات فى موضوعات شتى احتفى بأسلوبها احتفاء زائداً وقد جمع منها أحمد سمير فى سلافة النديم مقداراً صالحا للحكم عليها من حيث منزلتها الأدبية ؛ فمن ذلك رسالة (لواء النصر فى أدباء العصر) وفيها يصف من تعرف عليهم من أدباء مصر أمثال البارودى وصفوت الساعاتى ، وعبد العزيز حافظ ، وعبد الله فكرى وسواهم .

ومنها رسالة (التنور المسجور) فى المفاخرة بين السفينة و (الوابور) ، ومنها الرسائل المتبادلة بينه وبين بعض الأدباء فى أمور خاصة .

أسلوبه :

١ — التزم عبد الله نديم فى مطلع حياته الأدبية ذلك الأسلوب المسجوع المتكلف ، يكثر فيه من ألوان البديع ولا سيما الجناس ، ويظهر فيه مهارته اللغوية وقدرته على تأليف الكلام ، فى جمل قصيرة الفواصل ، كثيرة المترادفات ، ويعمد فى أغلب الأحيان إلى الخيال والمبالغات المرذولة ، وأحيانا يأتى بجمل لا معنى لها ولكن اقتضاها السجع مثل قوله فى مطلع رسالته يصف كلامه : ......

« حديقة معانى ، ونادى منانى ، وبستان أفكار » فهذه جمل مترادفة ، والجملة الوسطى لا معنى لها .

ومن الجمل الترادفة والجناس المتكلف قوله من الرسالة السابقة : « فكاهة نفوس ، وزينة طروس ، هزلها أدب وجدها طرب ، إن سُئلت أوجزت ، وإن سألت أعجزت ، لو أفرت لها حَكَماً ، وجدها كلها حِكَماً » .

ومن المبالغات السخيفة ، والوصف المتكلف قوله يصف أديبا : « رامى نبال وعظه إلى الأحشاء ، ومفوق سهام بديعه إلى الإنشاء ، حامل لواء العلوم العقلية ، وقائد جيوش الفنون النقلية ، مطلع شمس الأمانى ، ومبارز فرسان المعانى ، إن ألف لم يتكلف ، بل يحمل الإنسجام زينة الكلام ، وإن نَثَرَ كَرَّ بهجوم على سرايا النجوم » .

فهذا الأديب فى حرب دائمة يرى الأحشاء بنبال وعظه ، يفوق سهام بديعه إلى الإنشاء ، ويحمل لواء العلوم العقلية ، واللواء يقتضى الجيوش ، وهكذا تراه يحمل معدات الحرب ويستعملها ، وكثيراً مايعمد إلى هذا الأسلوب ، ويكرر هذا المعنى كقوله : «وكيف لا يكون لسانى قوس البديع ، وكلامى السهم السريع وأنت باريه ورامبه ؟ أم كيف لا يكون مقامى الحصن المنيع وقدرى العزيز الرفيع ، وأنت معليه وبانيه ؟ » .

وله فى مطلع حياته كذلك رسائل التزم فيها مالايلزم من ألوان السجع إظهاراً لبراعته وعرضا لقدرته ومهارته ، فتارة تراه يأتى بمجموعة من السجعات كل اثنتين متشابهتين فى القافية ، وفى ختامها سجعة من قافية مختلفة ، ثم يكرر هذا القواف بالترتيب الذى ساقها به أولا ، وتارة يفرد هذه السجعات ثم يعيدها بعد خمس أو ست على الترتيب الأول ، وأحيانا يلتزم فى السجعة الثانية أن تكون آية من آيات القرآن ، ومن النوع الأول قوله « لعبت به الأشواق فى مصارع العشاق لعب الراح بالأرواح فى مجلس الأنس ، وجرته به الأتواق(١) فى ميادين الأذواق جرى السحاب والأرواح فى حومة الشمس » .

ومن الثانى قوله : منحتنا اللهم سلامة الروح فلله الحمد على هذه المنحة حمداً بلا عد ،

---

(١) تاق إليه توقاً بفتح فسكون : اشتاق .

ووهبتنا صحة لب البيان فلله الشكر على هذه الصحة شكراً بلا حد ، يلوح بدره ، ويفوح عطره ، روح هو عين الحياة ، ومدد العقل ، ولب هو منطق للشفاه ، وسند النقل ، طال عمره وجال أمره » .

ومثل النوع الثالث الذى يأتى فيه بسجعة قرآنية تكمل المعنى قوله من رسالة كتب بها إلى صديقه المرحوم عبد العزيز حافظ تنبيها له حينما رآه يجتمع ببعض المغاربة ويشتغل معهم بخرافات باطلة : « لاحول ولا قوة إلاّ بالله اشتبه المراقب باللاه ، واستبدل الحلو بالمر ، ، وقدم الرقيق على الحر ، وبيع الدر بالخزف ، والخز بالحشف ، وأظهر كل لئيم كبره إن فى ذلك لعبرة ، سمما سمما ؟ فالوشاة إن سعوا لايعقلوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار فى صفة العنبر وقد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ؟ وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم وزُجر ؛ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر » إلى أن يقول له : « وأنت يا عزيز العليا ووحيد الدنيا ، قد بينت لك فعلهم فبما رحمةٍ منَ اللهِ لِنت لهم ؛ ولكنهم طمعوا فى عميم قولك ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، أتراهم يعقلون كلامك أو يفهمون ، لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » .

ومعظم رسائله الأدبية ، من هذا الطراز الذى يكثر فيه ألوان البديع ويلتزم السجع ويفتن فى عرضه ، ونراه لا يمدح رسالة وصلت إليه إلا بأن البديع قد كمل نظمه ، والسجع قد لطف من مثل قوله : « إذا قرأت لفظه ، وسمعت وعظه ورأيت مافيه من المرقص والمطرب ، والمدهش والمعجب ، وتلوت ما فيه من الرقائق ، ونظرت ما حاز من الدقائق ، علمت أنه معجزة المتنبي وإن تأخر زمانها ، وفطنة المعرّى ، وإن بعد مكانها وكيف لا وعطر نرجس بلاغته أزرى بطيب الريحانة ، وحسن دمية بيانه نبَّه على ضيق الخزانة ، وانسجام رقائق كلماته أغنى عن البديعيات ، ورقة لطف سجعاته تاهت على الأرتقيات[1] » .

---

(١) نسبة إلى الدولة الأرتقية وأول من أسس الدولة الأرتقية معين الدولة سليمان بن أرتق بعد أن استولى على حصن (كيفا) سنة ٣٨٥ هـ من الأمير موسى التركمانى ؛ وكان ارتق جد معين الدولة مملوكا من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقى ، وأحد قواده ، والارتقيات القصائد والمدائح التى كان يقولها الشعراء لملوك هذه الأسرة ، واستمرت الأسرة الأرتقية حتى القرن التاسع الهجرى .

وهذا النوع من النثر بما فيه من تلاعب وافتنان فى الازدواج والفواصل والسجعات، تقليد لمقامات الحريرى وما ورد على مثالها من الرسائل ، ومما يؤيد هذا الاتجاه عند النديم أنه كتب رسالة على لسان أحد أصدقائه يطلب إليه فيها أن يراسله ، ويشترط أن تكون رسائله مشتملة على أفانين خاصة من البديع وغيره ، وينفذ النديم الشرط فيضع عدة رسائل منفذاً بها شروط صديقه التى ذكرها فى قوله : « أحب أن تتواصل إلىّ رسائلك وتسامرنى وسائلك ، بشرط أن تكون أسطرها عشرين فما فوق ، وأن يكون بعضها فى غزل وعشق وبعضها نكتاً أدبية وبعضها فوائد عربية ، هذه محاوزة ، والأخرى مسايرة ، تارة طرائف خمرية ومرة لطائف عمَرية ، وهكذا ترشف من كل دَن ، وتستطع فى كل فن على أن تكون بحكاياتٍ ما طرأت على الأفكار ، ولا خرجت من الأوكار ، وتلتزم الجناس فى الفِقَر ، وألا تأخذ من شعر غيرك إلا بيتا أو بيتين » وقد استجاب النديم لهذا الطلب فوضع عدة رسائل متكلفة لا معنى لها ، وقد أثبت منها (أحمد سمير فى السلافة) رسالتين .

والشعر الذى يرصع به الرسائل وأمثالها — وهو كثير بحيث لا تخلو منه رسالة — شعر يمثل هذا التعمل من مثل قوله يتلاعب بلفظ النوى :

لست الملول مع التدلل والقوى　　　إن لم يكن روحى على مجرى نوى
ما دام يَرْضى مُنينى فقد استوت　　　عندى الإقامة فى شبين أو نوى
أطعمته أثمار ودى كلهـــا　　　وغُذيت من ثمْر المحبة بالنوى

ويأتى النديم أحيانا بتعبيرات غريبة شاذة متكلفة الاستعارات كقوله : « وطلاؤه مرمر البدر معجون بليلة القـــدر » وأحيانا يأتى بتعبيرات فى منتهى اللطف كقوله : « واختلسنا النوم من جفون الزهر » أو قوله : « وأرق من خفر فى بكر » .

وشعر النديم الموجود قليل ، وهو كنثره الأدبى مصنوع متكلف ، يشبه إلى حد كبير شعر أبى النصر وعلى الليثى ، مع فارق واحد هو قوة السبك ، ولكنه لا يختلف عن شعرهما فى الصياغة والزخرفة والمعانى ، ومن أحسن ما روى له قوله فى الغزل :

سلوه عن الأرواح فهى ملاعبه   وكفوا إذا سل المهندَ حاجبُه
وعودوا إذا نامت أراقم شعره   وولوا إذا دبت إليكم عقاربه
ولا تذكروا الأشباح بالله عنده   فلو أتلف الأرواح منذا يُطالبه
أراه بعينى والدموع تكاتبه   ويحجب عنى والفؤاد يراقبه
فلا حاجة تدنى الحبيب لصبه   سوى زفرة تثنى الحشا وتجاذبه
فلا أنا ممن يتقيه حبيبه   ولا أنا ممن بالصدود يعاتبه
ولو أن طرفى أرسل الدمع مرة   سفيراً لقلبى ما توالت كتائبه

وتراه يستعمل التأريخ الشعرى كقوله يؤرخ موت توفيق وهو بيافا من قصيدة أرسلها إلى مصر يرثيه بها على الرغم من أنه نفاه :

فلاتك الجنات قالت أرخوا   توفيق فى عزّ النعيم السرمدى ١٣٠٩

ومن شعره قوله من رسالة كتبها لأحد أصدقائه أيام أن كان بالمنفى وفيها يظهر أله ويندب سوء حظه .

يا صاحبى دع عنك قول الهازل   واسمع نصيحة عارف بالحاصل
اجهل تجد صفو الزمان فإنه   من قسمة القدم الغبى الجاهل
ودع التعقل بالتغفل يستقم   أمر المعاش لحظه للغافل
وارض البلادةَ تغتنم من بابها   مالا وجاهاً بعد ذكر خامل
وإذا أبيت سوى العلوم فلا تضق   بحروب دهر لا يميل لفاضل
قلِّب تواريخ الألى سبقوا تجد   دُنياك ما قِيدت بغير الباطل

ومن شعره قصيدة فى الفخر يظهر فيها ولوعه بالبديع وفيها يقول :

أتحسبنا إذا قلنا بلينا   بَلينا ، أو يروم القلب لينا

خمم ؟ للمجد تقتحم الدواهى فيحسب خامل أنّا دُهينا
تعاورشنا فنقهرها خطوب ترى ليث العرين لها قرينا

إلى أن يقول :

ولسنا الساخطين إذا رزينا نعم يلقى القضا قلباً رَزينا
فإنا فى عداد الناس قوم بما يرضى الإله لنا رضينا
إذا طاش الزمان بنا حلمنا ولكنا نُهينا أن نَهينا

وله قصيدة طويلة من رواية الوطن التى مثلها أمام الخديوى توفيق ، وفى هذه القصيدة جبكت المصريين على افتخارهم الدائم بآبائهم بينما هم فى خمول وتقصير فتركوا الصناعات والعلوم ، واستمرءوا الصفات التى تذل الشعوب وتضعها ، وقد قال القصيدة معارضة لنونية ابن زيدون المشهورة ، وفيها يقول :

هذى معالمنا تبكى وتنشدنا قول ابن زيدون إذ قامت تعزينا
« بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا »
قل للنفوس التى ماتت بلا أجل أين القلوب التى كانت تجارينا ؟
أين العلوم التى كانت توصلنا باب السعود فصارت من أعادينا ؟
أين الصنائع أين العارفون بها ؟ أين الديار التى كانت لأهلينا
كانت وكانوا وصار الكل فى عدم واستعبدتنا بما نهوى أمانينا
إذا سمعنا خطيبا ذاكراً حكما قلنا له عزة الآباء تكفينا[1]

وحسبنا هذا القدر من شعره فهو يعطينا صورة عن منزلته فى الشعر وعن فهمه له .

٢ — أما مقالاته فى التنكيت والتبكيت وأسلوبه الكتابى فى هذه الصحيفة .

---

(١) وهذا ترديد لما قاله السيد جمال الدين من قبل راجع ٢٤٣ من هذا الكتاب .

فقد ذكرنا آنفاً أنها احتوت موضوعات للخاصة يكتبها بأسلوب أدبى محرر من السجع ومن ألوان البديع ، ويتوخى فيها السهولة ، « ليست منمقة بمجاز واستعارات ولا مزخرفة بتورية واستخدام ولا مفتخرة برقة قلم محررها ، وفخامة لفظه وبلاغة عبارته ، ولا معربة عن غزارة علمه وتوقد ذكائه . ولكنها أحاديث تعودنا عليها ، ولغة ألفنا المسامرة بها ، لاتلجئك إلى قاموس الفيروزابادى ، ولا تلزمك مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ولا تضطرك لترجمان يعبر لك عن موضوعها ، ولاشيخ يفسر لك معانيها ، فهى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفى بيتك كخادم يطلب منك ماتقدر عليه ، ونديم يسامرك بما تحب وتهوى » . ومن أمثلة موضوعات الخاصة مقالته المشهورة (مجلس طبي على مصاب بالأفرنجى) وفيها يقول : « كان المصاب صحيح البنية قوى الأعصاب جميل الصورة لطيف الشكل ، مارآه فارغ القلب إلا صبا ، ولا سمع بذكره بعيد إلا طار إليه شوقاً ، نشأ فى العالم روضة ، ودار به أهله يحفظونه عن الأعداء ، ويدفعون عنه الوشاة والرقباء ، وقد مات فى حبه جملة من العشاق الذين خاطروا فى وصاله بالأرواح والأموال ، وكلما وصل إليه واحد سجره برقة ألفاظه وعذوبة كلامه ، وسلب عقله ببهجة يحار الطرف فيها ، وعزة لايشاركه فيها مشارك » وأنت ترى أسلوباً خالياً من السجع ليفرغ كاتبه إلى المعانى التى يريدها ، ويسير فى سهولة ووضوح .

وهناك موضوعات للعامة كتبت باللغة العامية الدارجة بمصر حتى يفهموها ، ويعملوا بها كموضوع المزارع والمرابى ، وكموضوع « عربى تفرنج » ويقول فى الأخير : «ولد لأحد الفلاحين ولد فسماه زعيط ، وتركه يلعب فى التراب ، وينام فى الوحل حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة ، فسرحه مع البهائم إلى الغيط يسوق الساقية ويحول الماء وكان يعطيه كل يوم أربع حندويلات ، وأربعة أمخاخ بصل ، وفى العيد يقدم له اليخنى ليتمه بأكل اللحم والبصل » .

وأما أسلوبه فى الأستاذ فهو أسلوب صحفى أدبى يمتاز بالسهولة والتدفق ، والخلو من السجع والبديع والمجاز ، وقد مر بك نماذج منه .

ويلاحظ أن النديم يستعمل الأسلوب الخبرى الممتزج بالخطابى فى معظم كتاباته ، وهو أسلوب يصلح للوعظ ، وتراه كثير التهكم والسخرية فى موضوعاته الاجتماعية ، يلجأ إلى الحوار فى الموضوعات التى كتبها للعامة ، وكان ينطق كل شخص بما يوافق طبعه وصنعته ودرجة علمه ، مما يدل على خبرة واسعة بالناس وطباعهم ولغة حديثهم ، وله مقالات اختار لها عناوين من العامية الدارجة تدل على تمكنه من تفهم البيئة الفقيرة ولغتها ، وعلى روح الفكاهة والسخرية عنده مثل : « الشنة والرنة فى أولاد مصر الزنة » ومثل : « حاورينى ياطيطة فى الطربوش والبرنيطة » و « شد الدبلاق فى أكتاف أهل بولاق » وإن كانت المقالات نفسها مفقودة مع دواوين شعره .

منزلته :

واشتهر عبدالله النديم بالخطابة ، وتملكه لناصية القول ، فكان لسان الأمة فى عهده بخطبه المملوءة حماسة وقوة وصراحة ، يذيعها فى كل مجلس بكل مكان لا يكل ولا يمل ، وقد استطاع بهذا أن ينشر آراءه فى أكبر عدد ممكن من الأمة وأسهم فى تكوين رأى عام ــ سواء بخطبه أو بقلمه ــ يؤمن بحكم الشورى ، ويثور ضد الأجانب ، ويتطلع إلى إصلاح المفاسد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وإذا كان السيد جمال الدين رسول الخاصة فى هذه المعانى ، فعبدالله نديم أوتى المقدرة واللباقة على أن يبسط آراء جمال الدين ونظريات الإصلاح المنشود فى كل نواحى الحياة ، حتى يفهمها العامة ، من الفلاح فى حقله والتلميذ فى مدرسته ، والصانع فى دكانه .

وقد شهد بمقدرته على الحديث والخطابة وبراعته فى تنميق الكلام كثير من ذوى الخبرة بوجوه الكلام ، فهذا جمال الدين الأفغانى ، وهو من عرفت ذكاء وقوة عارضة ، ومقدرة على الحديث يقول : « إنه ما رأى مثل النديم طول حياته فى توقد الذهن وصفاء القريحة ، وشدة العارضة . ووضوح الدليل ، ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إن خطب أو كتب »(١) .

---

(١) سلافة النديم ص ١٧ .

وأحمد تيمور العالم المحقق يقول فى الترجمة التى كتبها له[1] : « كان شهى الحديث، حلو الفكاهة إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز . لقيته مرة فى آخر إقاماته بمصر، فرأيت رجلا فى ذكاء إياس وفصاحة سحبان، وقبح الجاحظ . أما شعره فأقل من نثره، ونثره أقل من لسانه، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا » .

ويقول عنه جورجى زيدان[2] : أما أخلاقه فإنه كان براً بوالديه وذوى قرابته وقصاده ولو لم يكن يعرفهم، فما أقرض أحداً شيئا وطالبه به . ولارد يوماسائلا، ولاخضع لعظيم قط، وإنما كان يلين ويتواضع لصغار الناس وأوساطهم، وكان ذكياً فطناً قوى الحافظة فصيحاً جريئاً شاعراً مطبوعا، وكاتباً ثائراً » .

ويقول عنه عبد الرحمن الرافعى[3] : « وهو الزعيم الوحيد بين العرابيين الذى استمر فى جهاده السياسى ونضاله عن مصر فى عهد الاحتلال، وهى ميزة كبرى انفرد بها دون بقية الزعماء الذين أثرت فيهم الهزيمة فوهنت لها روحهم المعنوية، وانطفأت فيهم شعلة الأمل والحماسة والجهاد . أما هو فقد ظل على عهده واستمر يجاهد ويناضل حتى آخر نسمة من حياته، وهذا وحده يدلك على مبلغ علو نفسه، وقوة شخصيته ؛ إذ لم تنل منه الشدائد، ولم يضعف إزاء المحن والكوارث، ولم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا » .

ويقول عنه الأستاذ أحمد أمين[4] : « طالما غذى الناس بقلمه، وهيجهم بأفكاره وأضحكهم وأبكاهم، وحير رجال الشرطة، وأقلق بال الساسة، ونازل خصومه من رجال الصحافة، فنال منهم أكثر مما نالوا منه، ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حل، وعلى أى حال كان، حتى هدأه الموت الذى يهدىء كل ثائر، ومهما أخذ عليه فقد كان عظيما . وكانت جريدة « الأستاذ » هى الأستاذ لمصطفى كامل تعلم منها الاتجاه والنغمة، اختلفا من حيث الثقافة والأسلوب بحكم الزمن والأحداث والظروف » .

---

(١) تراجم أعيان القرن الثالث وأوائل الرابع عشر لأحمد باشا تيمور ص ٧٧ .

(٢) مشاهير الشرق ج ٢ ص ١١١ .

(٣) الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ص ٥٢٧ .

(٤) مجلة الثقافة العدد ٢٧٩ .

ويقول الأستاذ العقاد[١] : « ولقد كان عبد الله النديم خطيباً مطبوعاً ، ومحدثاً ظريفاً من الطراز الأول كما شهد له عدوه وصديقه ، وكان إذا كتب فكأنما يرتجل الخطابة لسهولة منحاه وتدفق كلامه ، وتناسق عباراته ، إلا حين يكتب الخطب المنبرية أو المقامات المصنوعة . . . على أنك قد تقول ما بدا لك في شعر عبد الله نديم وفي خطبه وفي كتاباته وفي تحقيقه العلمي وملكاته الأدبية ، ولكنك لا تستطيع أن تنكر عليه أنه كان أعجب نموذج من نماذج الشخصيات في تاريخ الأدب المصري الحديث » .

أما نحن فقد أصدرنا حكمنا عليه في هذه الترجمة ، ووفينا أدبه درساً ، وبينا خصائصه كما ظهر لنا من آثاره القليلة التي أبقى عليها الزمان .

٤ — أحمد عرابي :

إذا كان جمال الدين الأفغاني قد أثر في مصر بتعاليمه وفلسفته ووحي تجاربه التي أفادها من رحلاته الكثيرة ، وإذا كان قد قصد إلى إيجاد قطر قوى من أقطار الإسلام يكون نواة لوحدة إسلامية كبرى ، يعيد للمسلمين سالف مجدهم وغابر عزهم ، وإذا كان قد مهد للثورة العرابية وهيأ النفوس لها ؛ فإن أحمد عرابي لا يقل عنه خطراً ولا أثراً ، وأغلب الظن أنهما لم يلتقيا ، وإن اتفقا في كثير من الأمور واختلفا في الغاية والوسيلة .

أما الغاية فإن أحمد عرابي كان همه الأول تخليص المصريين من العذاب والذل والاستبداد والسخرة والاستغلال واستصفاء مصر لأهلها ينعمون بخيرها وبرها ، ويعيشون فيها أحراراً على قدم المساواة مع هؤلاء الذين شاءت الأقدار أن يكونوا حكاما لها ، ولم يكن يهدف إلى تكوين وحدة إسلامية ، بل لم يكن متعصبا تعصبا دينيا ألبتة ، وأما الوسيلة فإنه لجأ إلى عامة الشعب لا إلى الخاصة من المثقفين ، ولم يكن يميل إلى العنف وإنما اضطر إليه اضطراراً رداً للعدوان ، ودفاعا عن الحقوق المهضومة والنفوس المظلومة .

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٩٣ — ٩٦ .

ولم يكن تلاميذ جمال الدين وعلى رأسهم محمد عبده راضين عنه أول الأمر. بل كانوا ينظرون إليه بازدراء ، ويعدونه زعيم غوغاء وإن أرغمتهم الحوادث ، والشعور الوطنى الجارف على أن ينضووا تحت لوائه ، ويخوضوا معه غمار الثورة .

فى أحمد عرابى يتمثل العنصر المصرى الأصيل بصفاته الجسمية والخلقية ، وفيه تركزت آمال الأمة وآلامها ، وتعد ثورته أول ثورة مصرية واعية على الظلم الذى طال أمده ، وتعد ثورة شعب لا ثورة فرد ، ولم يكن أحمد عرابى إلا لسان ذلك الشعب يعبر عن أحاسيسه ، ويترجم عن آماله وآلامه ، فاكتسب بذلك عـــداوة الخديو وآل بيته ، وعداوة الارستقراطية الكاذبة التى مُكن لها بمصر ، والتى كانت تتمثل فى المماليك والجراكسة والأتراك . هؤلاء الذين كانوا ينظرون إلى الفلاح المصرى بعين الزراية والاحتقار ، وهم ينعمون بكده وثمرة شقائه ، وعداوة الإنجليز الذين حاربهم وأظهر خبث طويتهم وسوء نيتهم ، والذين كانوا يتربصون بمصر الدوائر ، ويدبرون لها المكايد منذ أن هزموا فى معركة رشيد سنة ١٨٠٧ .

نشأته وشخصيته :

تضافرت عدة عناصر على تكوين شخصية عرابى ، وجعلته أصدق مثل للفلاح المصرى المكافح المضطهد ، الذى يشعر بالظلم ، ويأنف منه ، ويطالب بالحرية والكرامة فى قوة وصرامة .

ولد بقرية (هرية رزنة) بالقرب من الزقازيق سنة ١٨٤١ . من أسرة تنتسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعتز بانتسابها إليه ، وكان والده محمد عرابى على شىء من العلم والدين معروفاً بالتقوى ، وكان فقيه القرية يقرىء أطفالها القرآن ويعلمهم مبادىء القراءة والكتابة ، وعلى يديه تعلم ابنه أحمد حتى حفظ القرآن ، ثم دخل الأزهر ومكث به أربع سنوات ، عاد بعدها ليكدح فى الحقل كما يكدح ذووه .

ثم شاء الله أن يعده لشيء آخر ، حين أراد « سعيد » أن ينهض بالجيش ، وأن يجند أبناء العمد والمشايخ وأعيان الفلاحين ، وكان يميل إلى المصريين ويعدهم أساس مصر ، ولا سبيل إلى نهضتها إلا بهم ، فجند أحمد عرابى ، وسرعان ما ظهر تفوقه ، وترق بسرعة خاطفة حتى وصل إلى رتبة « قائمقام » وهى رتبة لم يصل إليها فلاح قبله ، وذلك بفضل ذكائه وطموحه ويقول عن نفسه فى تلك الأيام : « وكنت أطمع إلى منصب عال يماثل منصب مديريتنا(١) » .

بيد أنه مكث فى هذه الرتبة تسعة عشر عاماً ، أى طوال حكم إسماعيل كله ، وذلك لأن إسماعيل كان على النقيض من سعيد يؤثر الجراكسة بالترقية ، ويزدرى المصريين ، وأحس عرابى بالظلم وابتدأ يطالب بحقه(٢) فاضطهد ، وكان رئيسه خسرو كما يقول عرابى « رجلا جاهلا ، متعصبا لجنسه الجركسى تعصباً زائداً عن حد المعقول ، متفانياً فى الحقد على العنصر الوطنى ، يكره أن يكون تحت إمرته رجل شريف مثلى ، فعمل على إقصائى من مركزى(٣) » وفصل عرابى من الجيش ظلما وعسفا ، ولكنه لم يستكن للضيم ، وظل يطالب بحقه فعين فى وظيفة مدنية قام بشئونها فى همة وأمانة جوزى عليها بالتقاعد من غير معاش « فيالله ما أمر وأصعب تلك المكافآت المقلوبة على النفوس الحساسة الشريفة ، وما أكثر العجائب فى الحكومات المطلقة المستبدة الظالمة »(٤) .

وثار عرابى ، ولم يهدأ حتى أعيد للجيش ، وشعر بمرارة الظلم وقسوته ، وزاده شعوراً باضطهاد المصريين اشتراكه وزملاؤه فى حملة الحبشة ، حيث لمسوا من قوادهم ضعفا وخيانة ولم يجد هو وزملاؤه عطفا من أولى الأمر بل اضطهاداً لهم ومحاباة للأجانب الذين « اصطفاهم الخديو بالرتب والنياشين والجوارى الحسان ، والأراضى الواسعة الخصبة والبيوت الرحبة ،

(١) من تاريخه الذى قدمه إلى بلنت . التاريخ المصرى ص ٣٤٤ .
(٢) الرافعى : الثورة العرابية ص ٧٨ .
(٣) كشف الستار لأحمد عرابى ص ٢١ .
(٤) نفس المرجع ص ٢٢ .

وحباهم بالأموال الكثيرة والحلى الثمينة من دم المصريين المساكين وعرق جبينهم »[١] .

كانت نشأته الريفية ، وتربيته الدينية . وإحساسه بالاضطهاد لأنه فلاح مصرى من أهم العناصر التى كونت شخصيته ، أضف إلى ذلك أنه تأثر بكتاب أهدى إليه عن نابليون والثورة الفرنسية ، وبقراءاته فى التاريخ العربى ، وبخطبة ألقاها « سعيد » يشيد فيها بالمصريين وضرورة تربيتهم حتى ينفعوا بلادهم ، ويستغنوا عن الأجانب ويقول عرابى : إنه اعتبر هذه الخطبة أول حجر فى أساس نظام مصر « للمصريين »[٢] . وكان ياوراً لسعيد ، ورافقه فى رحلته للحجاز وتأثر بآرائه فى « المساواة بين الطبقات ، وفى الاحترام الواجب للفلاح باعتباره العنصر الأساسى الجد فى الجيش المصرى[٣] » .

وبدأ عرابى منذ عودته من حرب الحبشة يعمل على توحيد صفوف الضباط المصريين فى الجيش والتفافهم حوله ، وإشعارهم بالظلم الواقع عليهم وحرمانهم الترقية بينما يتمتع بها سواهم من الأجانب .

ومن الصفات المميزة لشخصية عرابى شدة إيمانه ، فلم يعرف عنه أن هذه الصفة فارقته حتى فى أشد ساعات الضنك والشدة ، وكان شديد التدين ، حتى عرف بين الجند حينئذ بالشيخ أحمد عرابى ، ويقول عنه محمد عبده ، وكان دائم الزراية به .

ما كان أحسنه شيخاً بزاوية   يغشى النساء بوعظ كان عليه[٤]

كانت العاطفة الدينية قوية جداً فى نفسه ، ولكنه لم يكن متعصبا ، وهذه العاطفة الدينية من خصائص الفلاح المصرى ، ولا سيما فى تلك الأزمان ، وكان عرابى يمجد الإنسانية عامة لا يتعصب تعصبا أعمى ، يقول بلنت بعد أن ذكر تمجيد عرابى للورد بيرون لدفاعه عن حرية أهل اليونان : وقد عنيت بذكر هذه النقطة لدلالتها على عطف عرابى على الإنسانية

---

(١) نفس المرجع ص ٤٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٥ .

(٣) بلنت : التاريخ السرى ص ٩٨ .

(٤) تاريخ محمد عبده لرشيد رضا ج ١ ص ١٥٤ .

كلها ، وعدم تفريقه فى ذلك بين الأجناس والأديان [١] وكان بلنت يعد هذه الإنسانية فى عرابى إحدى عيوبه ، وسبباً من أسباب إخفاقه فى حرب الإنجليز[٢] وإليها أشار « جريجورى » فى حديثه معه ، ومن الأسس التى أقام عليها « برودلى دفاعه عن عرابى « مروءته وتطرفه فى الإنسانية[٣] » .

ومن مظاهر هذه الإنسانية أنه بعد أن أطلق الجند سراحه عَنوه من سجن قصر النيل الذى حبسه فيه الجراكسة ، هموا بالفتك بهم ، ولكن عرابى حمى هؤلاء الذين آذوه وسجنوه ولولاه لكانت مذبحة .

ومن سمات شخصية عرابى صفاته الجسمية ، فقد كان طويل القامة ، عظيم الهامة ، ثقيل الأطراف ، بطىء الحركة نوعا ، كأنه يمثل تلك القوة العظيمة التى اشتهر بها الفلاح العامل[٤] ، وكان شديد البنية متين التركيب ، تلوح على وجهه إمارات الشهامة العسكرية ، وسمات الهيبة والوقار ، والجد مع القوة والبأس .

كان عرابى كثير الاهتمام بالتاريخ ، قرأ سيرة نابليون والثورة الفرنسية كما ذكرنا آنفاً ، ويوجه إليها اهتماماً كبيراً ، وقرأ قدراً كافياً من تواريخ الدول وعظماء الأمم فى الشرق والغرب ، كما كان يقرأ كثيراً فى نهج البلاغة ومنه استمد قدرته الخطابية والتعبيرية ، ويقول بلنت عن آراء عرابى : « إنها تعتمد على العلم بالتاريخ ، وعلى تقاليد الأفكار العربية الحرة الموروثة من أيام حرية الإسلام » .

كما كان يعرف كثيراً عن إيطاليا وجهادها فى سبيل وحدتها واستقلالها ، ويعجب أشد الإعجاب بـ (غريبا لدى) ، ويمكن أن نقول : إن ثقافة عرابى كانت دينية أدبية تاريخية فى حدود مطالعاته العربية .

---

(١) بلنت . ص ٢٨٤ .
(٢) بلنت : ص ٩٩ ، ١١٤ ، ١٢٨ وما بعدها .
(٣) نفس المرجع ص ٢٣٢ .
(٤) التاريخ السرى ص ١٠٤ ، و Broodely : How we Defended Arabi. pp. 62—64.

لقد نال قدراً ضئيلا من الثقافة ، ولـكن خصوبة ذهنه أحالت هذه البذور القليلة أشجاراً ضخمة مثمرة ، أتت أكلها وطنية دافقة ، وفهماً للحرية والديمقراطية والمساواة ، وتقديراً للحقوق العامة وقواعد الإدارة والنظام[١] .

يقول العقاد[٢] : « ويلوح لنا أن الرجل مخلوق من طينة العبقرية التى يمتحن صاحبها بشقوتها كما يمتحن بنعمتها وفضلها ، على أن العلامة التى لا تخطىء من علامات العبقرية هى الخصوبة الذهنية ، وهى أن يثمر الذهن محصولا وافراً من بذور قليلة ، وقد كانت الدروس التى تلقاها عرابى فى صباه قسطا مشتركا بينه وبين كل صبى من صبيان القرى حضر مبادىء القراءة والحساب وما إليها فى الـكتاتيب وأروقة الأزهر المعدة للمبتدئين ، ولـكننا نقرأ أقواله فى الحـكم النيابى والمبادىء الديمقراطية والحقوق العامة وقواعد الإدارة والنظام فيتمثل أمامنا حظ وافر من الفهم والمعرفة لا يتهيأ للـكثيرين ممن أحاطوا بالمعلومات المستفيضة فى هذه الشئون » .

عرابى الخطيب الزعيم :

لقد أجمع الذين شهدوا عرابى خطيباً ، وحادثوه على أن جودة الـكلام أهم مزاياه ، وأنه كان محدثاً لبقاً ذا خلابة وسيطرة على النفوس ، وأنه كان خطيباً فصيحاً ذا تأثير كبير على سامعيه ، وأن ذلك كان أكبر مقومات شخصيته .

يقول ماليت : « كان لحديثه أحسن وقع فى النفوس »[٣] ، وكان مراسل التيمس يسميه « الداعى الفصيح إلى الحرية العربية[٤] » ، ويرى بلنت « أنه كان فصيحاً قادراً على شرح آرائه باللغة التى يفهمها مواطنوه ويحبونها ومن ثم كان له نفوذ كبير[٥] » ،

---

(١) بلنت : ص ١٢٩ .

(٢) العقاد : ١١ يوليو ص ١٠٧ .

(٣ ، ٤) تاريخ المسألة المصرية — تيودور روتستين ترجمة العبادى وبدران ص ١٤٣ .

(٥) التاريخ السرى ص ٩٩ .

ويقول جريجوري : « ويظهر في بادىء الأمر أنه ثقيل ، إلى أن يتأثر فتتقد عيناه ، ويتكلم بشهامة ، وأخبرني الذي يعرفون اللغة العربية أن فصاحته أشهر من أن تذكر[(١)] » .

أما الشيخ محمد عبده فكان يزدريه ويقول عنه في قصيدته التي هجاه بها :

وقائد الجند شهم في مكالمة ... أشل قلباً إذا الهيجا تناديه

ومع ذلك يشهد له بأنه « كان أجرأ إخوانه على القول ، وأقدرهم على إقامة الحجة[(٢)] » .

وعلى الرغم من أن الرافعي قد أنكر بعض مزاياه ، فلم يسعه إلا أن يعترف بقدرته الخطابية حيث يقول : « كل ما امتاز به هو لسان ذلق ، وصوت جهوري وترسل في الحديث فقد كان خطيباً فصيحاً ، وأقواله كانت تقع من نفوس الضباط والسامعين موقع الاقتناع[(٣)] » .

ترك عرابي طائفة من الآثار نتبين منها جهاده في سبيل مصر قولاً وعملا وكتابة ، تتمثل في مجموعة كبيرة من أحاديثه وخطبه ورسائله إبان الثورة ، ويلحق بها ما قاله في أثناء محاكمته ، ثم المذكرات التي تركها قبيل وفاته وسماها « كشف الستار » وتاريخه المختصر الذي كتبه بعد عودته ، وهو مثبت في آخر التاريخ النثري .

ابتدأ عرابي دعوته سرية في داخل الجيش وخارجه ، وقد اختاره زملاءه الضباط زعيما لهم ، لأنه كان أشد المجتمعين إحساساً بالظلم ، وأقدرهم على التعبير عنه ، وأجرأهم في مهاجمة الظالمين ، وقد « كان للباقته وفصاحته في الكلام واستشهاده ببعض الأحاديث النبوية الشريفة والحكم المأثورة تأثير كبير في نفوس الضباط . اجتذبهم إليه ومال بهم إلى تلبية ندائه ، والاستماع لنصحه والاقتناع بآرائه[(٤)] .

---

(١) الوطن : العدد ٢١٤ .

(٢) تاريخ محمد عبده لرشيد رضا ج ١ ص ١٩٢ .

(٣) عبد الرحمن الرافعي : الثورة العرابية ص ٨٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٨ .

ثم تخرج الدعوة إلى النور ، ونرى جماعة من الضباط يذهبون إليه فى بيته ليناقشوه فى الأوامر التى أصدرها عثمان رفقى وأنهم يريدون الاحتجاج على ذلك ، وقد اختاروه ليمثلهم فيحاول أن يثنيهم بالرفق أو يختاروا غيره ، ولكنهم أصروا على اختياره ، فقال لهم : إن من يتصدى لزعامة هذا الأمر هالك لا محالة ، فأقسموا له على أن يفدوه من كل شر ، فكتب الاحتجاج ووقعه معهم وقد جاء فيه : « إن عثمان رفقى يعامل ضباط الجهادية بالذل والاحتقار ويسعى فيما يوجب لهم الحرمان والإضرار ، كأننا الأعداء الألداء ، وكأن الله سبحانه وتعالى يطلب منه ظلم المصريين والإجحاف بحقوقهم » ، ويقدمها إلى رياض ، ويدور بينهما الحوار الآتى : —

رياض — إن أمر هذه « العريضة » مهلك .

عرابى — إننا لم نطلب إلا حقاً وعدلا ، وليس فى طلب الحق من خطر ، وإننا لنعتبرك أباً للمصريين ، فما هذا التلويح والتخويف ؟ .

رياض — ليس فى البلاد من هو أهل لأن يكون عضواً فى مجلس النواب .

عرابى — إنك مصرى وباقى النظار مصريون ، والخديو أيضاً مصرى ، أتظن أن مصر ولدتكم ثم عقمت ؟ كلا ! فإن فيها العلماء والحكماء والنبهاء ، وعلى فرض أن ليس فيها من يليق لأن يكون عضواً فى مجلس النواب ، أفلا يمكن إنشاء مجلس يستمد من معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية تخرج لنا بعد خمسة أعوام رجالا يخدمون الوطن بصائب فكرهم ويعضدون الحكومة فى مشروعاتها الوطنية[1] » .

ويقبض الجراكسة على عرابى ويسجن فى قصر النيل فيقتحمه الجند ويطلقون سراحه ويهمون بذبح الجراكسة لولا تدخل عرابى حيث وقف فيهم خطيباً ونصح لهم « بألا يعدوا يداً بسوء إلى أحد من الجراكسة ولا إلى غيرهم لأنهم إخواننا ولئن آثروا أنفسهم

(١) كشف الستار ص ١٥٥ .

علينا فإننا لا نريد إلا النَّصفة والمساواة[١] » .

ويسير عرابى إلى عابدين فى مظاهرة عسكرية صاخبة ، وتعدل القوانين ، ويقام لذلك حفل فى قصر النيل أقامه البارودى وزير الحربية وحضره الوزراء يخطب عرابى قائلا : « إننا لا نريد إلا الإصلاح وإقامة العدل على قاعدة الحرية والإخاء والمساواة وذلك لا يتم إلا بإنشاء مجلس النواب وإيجاده فعلا ، ونحن مطيعون للحكومة بل نحن الآلة المنفذة لأوامرها العادلة »[٢] .

ثم عزل البارودى وتولى مكانه داود يكن الذى قسا على الضباط فاجتمعوا لدى عرابى واستحلفهم على السيف والمصحف أن تكون أرواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الأعداء والاحتراس على موارد إيراده من أيدى الطمع وبأن يكونوا جميعاً على قلب رجل واحد ، وأعلمهم بأنه قد اجتمعت الكلمة على أن يتولى الزعامة[٣] ، وأخذ يرسل إلى القرى والمدن ينشر فيها دعوته ويبين لأهلها « أن الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم ، وليس لها من نية سوى العمل على ما فيه اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من بيع الأراضى الكثيرة للأجانب وتسليم أغلب مصالح الحكومة لهم وإعطائهم الرواتب الفادحة المثقلة على أكتافهم ، وإن سكوتنا وإضرابنا عن هذا كله يعد من الجبن والعجز والتفريط فى وطننا[٣] » وطلب منهم فى النهاية أن ينيبوه عنهم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد ، وأن يوقعوا على ذلك .

وبهذا هيأ عرابى لثورة ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، وقد دار بينه وبين توفيق فى ذلك اليوم حوار بدأ هادئاً ثم اشتد ، قال عرابى : « جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة » وسرعان ما انقلب عرابى ثائراً « ولقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » فهرب توفيق

---

(١) سليم نقاش : مصر للمصريين ج ٤ ص ١٧٦ ، وتاريخ محمد عبده ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) الكاف : ليخائيل شاروبيم ج ٤ ص ٢٤٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٦ ، ومصر للمصريين ج ٤ ص ٩٠ .

وترك الأمر لبعض حاشيته ، وقد سلم توفيق لعرابى بكل ما طلب .

وألف شريف الوزارة الجديدة ، وذهب عرابى مع وفد من الضباط لتهنئته ، وخطب خطبة ضافية أكد فيها حقوق البلاد ، وقبل أن ينقل إلى الزقازيق مع فرقته وقد وقف فى محطة القاهرة يودع الألوف التى جاءت لتحيته وارتجل هذه الخطبة «سادتى وإخوانى ! بكم ولكم قمنا وطلبنا الحرية ، وقطعنا غرس الاستعباد ، ولا نثنى عن عزمنا حتى تحيا البلاد وأهلها وما قصدنا بسعينا إفساداً ولا تدميراً ، ولكن لما رأينا أننا بتنا فى إذلال واستعباد ، ولا يتمتع فى بلادنا إلا الغرباء حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية إلى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الأمة .

ومن قرأ التواريخ يعلم أن الدول الأوربية ما تحصلت على الحرية إلا بالنهور وإراقة الدماء ، وهتك الأعراض وتدمير البلاد ، ونحن اكتسبناها فى ساعة واحدة من غير أن نريق قطرة دم أو نخيف قلبا أو نضيع حقاً أو نخدش شرفاً .

وما أوصلنا إلى هذه الدرجة القصوى إلا الاتحاد والتضافر على حفظ شرف البلاد . .

نحن الآن فى نعمة جليلة وعزة جميلة وقد فتحنا باب الحرية فى الشرق ، ليقتدى بنا من يطلبها من إخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة ويجانب حدوث ما يكدر صفو الراحة ، ونحن قادمون إلى رأس الوادى ، ليعلم الجميع أن قيامنا كان لطلب الحقوق لا للعقوق ، وأن الطمأنينة عادت كما كانت ، وعدنا إلى ما نشأنا عليه من طاعة ، وأحض إخوانى فى الجهادية بحفظ وحدة الاتحاد ، وعدم الإصغاء إلى الوشاة والحساد ، فإنكم تعلمون أننا جاهدنا فى هذا الأمر أعواما طوالا حتى ربطنا القلوب ، وألفنا النفوس ، وبيننا من الأعداء من يسعى فى تفريق كلمتنا وإضرام نار الفتنة بيننا ، فاردعوهم بلسان التقريع ، واحفظوا لنا ما عاهدنا كم عليه ، فالبلاد محتاجة إلينا ، وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات ، وإلا ضاعت مبادئنا ، ووقعنا فى شرك الاستبداد بعد التخلص منه . . »(١) .

وأنت تراه هنا حريصا كل الحرص على المبادىء التى دعا إليها ، وعلى أن يؤكد أنه

---

(١) عبد الله نديم : التنكيت والتبكيت العدد ١٧ ، ومصر للمصريين ج ٤ ص ٩٦ ، وكشف الستار ص ٣٦٢ .

رجل سلام لا رجل شغب ، وعلى أنه يَعد نفسه أحد زعماء الشرق ، وقد سن له القدوة الحميدة فى المطالبة بالحرية ، وأنه حريص كذلك على وحدة الصفوف متنبه إلى كيد الأعداء ووشاياتهم وحسدهم .

وخطب فى الزقازيق عند وصوله ، كما خطب فى حفل أقامه أمين الشمسى لتكريمه وجاء فيه « وأنتم الآن مهيئون للانتخاب ، فلا تملككم الأهواء والأغراض لانتخاب ذوى الغايات ، بل عولوا على الأذكياء والنبهاء الذين يعرفون حقوقكم ويدفعون المظالم عنكم ويفتحون باب العدل والإنصاف فى بلادنا ، فلا تأخذكم الأراجيف ، واطمئنوا فى بلادكم ، والتفتوا إلى أشغالكم ومصالحكم ، وكونوا على يقين من حفظ البلاد »[١] .

ثم يرسل إليه نوبار يشكره على إنقاذ البلاد ، ويعرض عليه عودته لتولى الحكومة ، ويقول عرابى « فعجبنا لذلك وأجبناه بأن مبدأنا هو أن مصر للمصريين وللنزلاء عندنا حسن الضيافة ومزيد الإكرام[٢] » وهى الكلمة التى رددها فيما بعد الزعيم مصطفى كامل « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » .

ويعود إلى القاهرة ويقابله كثير من مراسلى الصحف الأجنبية ويؤكد لهم عدم التعصب الدينى ، وأنه إنما يتحدث باسم الأمة ، وأنه سيقاوم كل اعتداء أجنبى على البلاد ، ثم يتولى وزارة الحربية ويستقبله (بلنت) ويتحدث معه فى مشروعات كثيرة يقوم بتنفيذها ، وطالما فاخر بها فيما بعد لورد كرومر ، ويقول بلنت : « عزى للموظفين البريطانيين فى عهد الاحتلال » . وادعى لورد كرومر أنه مبتكر كثير منها فمن ذلك : إلغاء السخرة التى كان يفرضها الباشاوات الترك على الفلاحين واحتكار بيع الماء فى مدة الفيضان ، وحماية الفلاحين من المرابين واليونانيين ، وإنشاء بنك زراعى تشرف عليه الحكومة ، وهذا هو البنك الذى باهى به كثيراً اللورد كرومر ، وكذلك تناقشنا فى الإصلاحات القضائية وفى نظم تربية الذكور

---

(١) كشف الستار ص ٢٦٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٦٩ .

والإناث ، وفى طريقة الانتخاب للبرلمان الجديد وفى مسألة الرقيق »[١] .

غدر وخيانة :

ولكن أنى للأمور أن تسير كما قدر عرابى ؟ وكيف يمكن من الإصلاح ، وينشر الوعى فى البلاد ، وينهض بمصر ، والإنجليز والفرنسيون يريدونها متأخرة ، بل يريدون اغتصابها ، وامتصاص دمها ، ولذلك أرسلا مذكرة إلى توفيق بنفى عرابى وإبعاد رفيقه واستقالة الوزارة ، وقد قبل توفيق المذكرة . واجتمع على أثر ذلك كثير من الضباط والنواب بمنزل سلطان باشا ، وخطب فيهم عرابى ، وأخذ يعدد مساوىء الخديو ومعايب أسلافه وما جلبوه على البلاد وأهلها من المظالم والمغارم وغير ذلك من أنواع البلايا والرزايا . واشتد الهرج فصاح عرابى : « ما بالكم لا تسمعون ، وكأنكم خشب مسندة ، وإن كنتم لا تنادون بخلعه ، فنحن قد خلعناه ، قد خلعناه ، فصاح عند ذلك سائر العسكر ، قد خلعناه ثلاثا »[٢] .

ويصل وفد من تركيا ، ويحاول إغراء عرابى بالذهاب إليها فيرفض عرابى ، وترفض الأمة ويقول لهم : « ليقل الناس ما يشاءون فإنى ولدت فى بلاد الفراعنة ، وستظل الأهرام الخالدة قبرى »[٣] .

وتحدث مذبحة الأسكندرية وتتوالى الأحداث ، وهو دائماً يوجه ، ويثبت القلوب الخائفة ، وحينما دارت الحرب لم يفقد أعصابه ، وقد انتصر فى موقعة كفر الدوار انتصاراً ساحقا ، وارتد الإنجليز إلى الإسكندرية فطاردهم الجيش إلى تفتيش (سيوف) وأوقع بهم بيد أنهم انتهكوا حرمة القناة ، ولم يكن عرابى يقدر أنهم سيهاجمونه من الشرق ، وقد طلب إليه أن يردم القناة ، فخشى مغبة هذا العمل ، وتألب الدول عليه . ثم يهزم عرابى فى التل الكبير بسبب الخيانة التى دبت فى صفوف الجيش ، وقد حاول جهده أن يثبت الفارين

---

(١) التاريخ السرى ص ١٥٤ .
(٢) ميخائيل شاروبيم . الكافى ج ٤ ص ٢٩٦ .
(٣) التاريخ السرى ص ٤٣٢ .

ولـكنهم أبوا الاستماع إليه ، وفى ذلك يقول عرابى فى مرارة وأسى : « دعوناهم للهجوم معنا فامتنعوا ودهشوا ، فذكرناهم بحماية الدين والعرض والشرف والوطن فلم يُجْدِ كل ذلك نفعاً ، لأن الرعب كان قد أخذ من قلوبهم كل مأخذ »(١) .

محاكمة :

ويحاكم عرابى ، فلم تلن قناته ، ولم يجبن عن مصارحة المحكمة بالحق ، وعن الأسباب التى دعته للثورة ، سألوه عن الماضى كله ، لماذا قام بمظاهرة عابدين ، ولماذا أحاط الجيش بالقصر فقال : « إن الأسباب التى دعت إلى ذلك هى عدم الأخذ بالعدل والمساواة فى المعاملات ، شأن البلاد التى لم يكن فيها قوانين ، ويقص عليهم بعض ما كان يلقاه المصريون من ظلم وإجحاف وإهدار للكرامة ، ثم يقول : « فاجتمعت إذن أفكار الناس على أنه لا مخلص لهم من تلك المظالم إلا وجود مجلس نيابى من شأنه حفظ الأرواح والحقوق والأموال ، مع قوانين عادلة تكفل لهم حقوقهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك ، ولخوفهم من البطش بهم أنابونى مع إخوانى الضباط فى عرض طلباتهم ، لكوننا إخوانهم وأبناءهم ، وهم أهلونا ، يضرنا ما يضرهم ، وينفعنا ماينفعهم ، وأن البلاد التى ليس بها مجلس نيابى يحفظ للأمة حقوقها . فى كافة ممالك الأرض يحصل فيها أكثر من ذلك ، بحيث يسفك فيها كثير من الدماء ، وهذا لا يخفى على كل متذكر ، لأن الحاكم المستبد لا يعلم فى الشورى بسهولة ، فمن أجل ذلك الظلم ولشمولنا مع أهلينا بحقوق واحدة حصل ما تقدم ذكره بدون أن تسفك شعرة واحدة من رأس أى إنسان » .

ولما سئل عن خطبته فى القدح والذم فى توفيق والمناداة بخلعه ، لم يتلجلج لسانه ، ولم ينكر ما حدث وقال « ما كان من الممكن قبول هذه اللائحة ، ولو أدى ذلك لخلعه وكنت أنا وكل الناس على هذا الرأى »(٢) .

---

(١) مخطوط عرابى .
(٢) نصوص المحاكمة فى مخطوط عرابى وفى الجزء السابع من كتاب مصر للمصريين .

ويحكم على عرابى بالسجن ، ونراه فى سجنه أشجع زملائه ، ويرد بعقل قوى على اتهام الجوانب له ولزملائه بأنهم عصاة مارقون . وتنشر له جريدة التيمس ردّه هذا وفى آخره يقول : إننا كنا ندافع عن وطننا بطريقة تقرها شريعة الله والإنسان ، وكل من يقول غير هذا كائناً من كان فهو عبد للهوى والمال .

يادعاة الحق ! أمن العدل أن يحرم أبناء الوطن من كل وظيفة ، ويأخذ الأجانب أماكنهم ، ومن حضر إلى مصر من الشراكسة والألبان والبلقان ؟ . . . . ولكننا سنجد بين حماة الإنسانية من يدافعون عن الحق فى وجه طغيان هذا العهد الذى يسودّ منه وجه الإنسان »(١) .

ونراه حين يجرد من ألقابه وأمواله يقول : « لا أعبأ بالآلام ولا بالسجن ، ولا بالسباب ولا بأى شىء يوجه إلى بعد ذلك ، ما دمت قد وقفت نفسى على حرية بلادى ، ولا شىء يهمنى الآن إلا أن أنقذ بلادى من هذه الهوة المملوءة بالأفاعى السامة ، وأن انتشلهم من مخالب هذا التنين الفظيع .

وإنى لا أعبأ بهذه الألقاب العارضة التى لم أكن أرغب فيها فى أى وقت من الأوقات ، وإنى مكتف بشرفى الشخصى الذى سوف يلازمنى ما حييت ، ويبقى بعدى إذا مت ، وسوف يرضينى دائماً أن أنادى بأحمد عرابى المصرى فقط وبغير ألقاب »(٢) .

ثم ينفى عرابى فما جزع حين ترك مصر ، ولا تضعضع فى المنفى ، بل كان أهل سرنديب ينظرون إليه نظرة إكبار وإجلال ، ويعده المسلمون هناك زعيماً من زعماء الإسلام الأبطال وكان يرد على الصحف المصرية والأجنبية التى تتهجم عليه وعلى إخوانه بلسان عضب ، وحجة قوية ، وقد نشرت له جريدة « التيمس » كتاباً طويلا يدافع فيه عن ثورته ويبين أسبابها(٣) .

(١) أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه ص ٥٠٦ .
(٢) التاريخ المصرى ص ٤١٢ .
(٣) مخطوط عرابى ص ٢٥٩ .

ويعود عرابى من المنفى وهو فى الستين من عمره ، وقد وصف عودته منذ أن ودعه أهل سيلان حتى رست به الباخرة على شواطىء مصر وصفاً مؤثراً[١] . وقد ألف بعد عودته كتابه « كشف الستار » وقد عنى فيه بالحركة الأدبية إبان الثورة العرابية ، حتى مقالات هؤلاء الذين تجنوا عليه ومفترياتهم ، وقد دحضها ورد عليها فمن ذلك تعليقه على ما كتب حمزة فتح الله الذى كان يدعو إلى الهزيمة والتسليم ، ويعد عرابى وإخوانه خونة مارقين عن طاعة الخديو ، ويجب أن يفسحوا المجال للانجليز كى يعيدوا الأمن والطمأنينة للبلاد ، فيقول عرابى : « من الأقوال المأثورة ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا تعلموا أولاد السفلة العلم) وهو قول حكيم لأنهم يتخذون العلم ذريعة لتضليل العامة ، وآلة للتلبيس على الناس ، ينصرون الباطل على الحق ابتغاء حطام يسير ، أو ابتسامة أمير ، أضلهم الله على علم فهم لا يهتدون ، ومصداق ذلك أن الشيخ حمزة فتح الله — أنشأ مقالة مفتراة نشرتها جريدة الاعتدال التى أنشئت إذ ذاك ضمنها من الأكاذيب ما يعجز عنه مسيلمة الكذاب » ويوردها عرابى ويعلق على بعض أجزائها بقوله : « يريد الشيخ تسليم البلاد للعدو بلا قتال ، لقد باع دنياه وآخرته بثمن بخس ، لا رعى الله الغنى من سبيل الخيانة والتزلف ، وحبذا الفقر مع الأمانة والقناعة ، كل إناء بما فيه ينضح . . الخ[٢] » .

ويذكر بعض الرسائل والقصائد التى كتبها له أهل سرنديب ويختم كتابه بدعوة « الناشئة المصرية أن تجد وتجتهد وتعمل ليلاً ونهاراً على استرداد مجدها واستقلالها وحريتها المسلوبة منها ، ومطالبة الإنجليز بالجلاء حتى ينكشف هذا البلاء[٣] .

وهكذا ظل عرابى وطنياً حتى آخر كلمة سطرها ، وفياً لبلاده ولمبدئه على الرغم من المحن التى توالت عليه ، وقد ظلمه التاريخ ، وتجنى عليه الكتاب تملقاً للأسرة الحاكمة حتى شوقى قال يستقبله عند عودته من المنفى .

---

(١) نفس المرجع ص ٣٤٢ .

(٢) مخطوط عرابى ص ٣٤٢ .

(٣) مخطوط عرابى ص ٧١٢ .

صَغارٌ فى الذَّهاب وفى الإياب أهذا كلُّ شأنك يا عرابى

حتى مصطفى كامل كان من المتجنين عليه عقب عودته .

ولكنه اليوم استرد مكانته الحقة فى التاريخ ، وأنه كان ممثلا لشعب بأكمله ، يتكلم بلسانه ويشعر بشعوره ، وإذا كانت الأيام قد آذته والتقدير قد أخطأه . فما يغض ذلك منه ولا من ثورته وقد استجاب شباب مصر لندائه وحررت على أيديهم البلاد ، وطرد الإنجليز وأذلو أيمَّا إذلال ، كما طردت الأسرة الظالمة شرطردة ، وكانت ثورة ١٩٥٢ امتداداً لثورته ، وإن تأخر بها الزمن ، إلا أنها جاءت محكمة قاضية موفقة .

تعقيب :

رأيى أن عرابى كان خطيب الثورة ، ولا يقل شأناً عن عبد الله نديم ، وإن اختلفا أسلوباً ومنهجاً ؛ لقد كان عرابى قدوة للمصريين فى جرأته ومطالبته بالحرية والعدالة وإنصاف الفلاحين الـكادحين ، وأن يعيش المصريون مكرمين فى ديارهم لا مستغلين ولا مهانين ، وأن تـكون خيراتها لهم لا للأجانب وأفاق الأرض .

ولذلك كان شعاره « مصر للمصريين » . أجل ! كان قدوة لعبد الله نديم ، ومصطفى كامل وسعد زغلول وجمال عبد الناصر ، وضرب لهم المثل وهو الفلاح المصرى فى كيف يجابهون السادة المتألهين ، وكيف يدمغونهم بالظلم ، وكيف يثورون لـكرامتهم ، وكيف يحافظون على هذه الـكرامة حتى فى أحلك الأوقات وأشدها يأساً ، وكيف يتمسكون بحقوقهم لا يلينون ولا يضعفون أمام جبروت الطغاة .

ولقد رأيت من خطبه أنها كانت من وحى العاطفة المتأججة فى حنايا صدره ، وأنها كانت هادئة فى قوة ؛ إذ لم يكن عصبياً ولا حادَّ المزاج ولا مُهيجاً ، على النقيض من عبد الله نديم ، ولم يكن متمهلا ولا جامداً شأن الذى يقرأ درساً من الدروس ، بل متحمساً فى رزانة ووقار ، وبدا فى كلامه الإيمان بالحق الصريح والإشارات العميقة المتأصلة .

وكان كلامه مؤثراً فى نفوس السامعين كما أقر ذلك كل من سمعه لا خلابة فيه

وتزويق ، ولـكن لأنه صادر عن إيمان وعاطفة جياشة ، ولأنه ينبعث من نفس طيبة صهرتها الأحداث ، وأحست بما تحس به ملايين القلوب على ضفاف النيل منذ زمن قديم ، فوجدت كلماته صدى عميقاً فى نفوس مواطنيه ، لأنها عبّرت فى وضوح عما يختلج فى كل صدر ، ويعتمل فى كل قلب .

لم يكن صاحب صنعة فى خطبه أو كتابته ، فلم يتـكلف أى لون من ألوان البديع ، ولم يكن يقصد غير الوضوح ، ومع هذا تحس أن فيه صفة الخطيب الجيد ، فجمله قصيرة الفواصل ترتاح عندها النفس وتستوعبها الآذان ، ولها جرس موسيقى خلاب ، وأنها تتدفق فى يسر وقوة ، مشحونة بالعاطفة والصدق . وقلما اقتبس من الشعر والحـكم والأمثال ، وإذا أتى بشىء منها كان موفقاً كل التوفيق ، ولـكنه كان يكثر من الاستشهاد بآى الله الحـكيم وبالحديث الشريف ، وقضايا الدين وحوادث التاريخ الإسلامى ، وبخاصة زمن الحرب لضرورة الإقناع والتأثير .

وكانت ألفاظه سليمة ليس فيها من العامى المبتذل إلا القليل، وإذا راعينا ظروفه وظروف عصره غفرناها له ، ولم يكن يعرف أصول المنطق والجدل ، ويأتى بالمقدمات الطويلة ، كما كان يفعل جمال الدين ومحمد عبده ، وذلك لأنه لم يكن فيلسوفاً ، ولا متعلماً عميق الغور ، وإنما كان زعيما شعبياً يطالب بحق بسيط صريح ، وهو الحرية والعدالة والمساواة .

وقد غلب عليه الأسلوب الخطابى حتى فى كتابته ، وكان واقعياً فى تعبيراته ، فلم يـكن يعمد إلى الخيال الأدبى ولا إلى العبارة المحلاّة ، ولم يـكن رجل أحلام وأوهام ، بل رجل واقع وتجارب ، وهو رجل مثل عليا ، كما فصلنا ذلك عند الـكلام على مبادئه وشخصيته .

لقد كان من آثار الثورة العرابية فى الأدب أن ألهمت الناس الحماسة ، وجرأتهم على الخطابة فظهر عشرات من الخطباء إبّان الثورة . وإذا عرفنا أن الخطابة باللغة العربية كانت قد ماتت قبل الثورة ،وأن خطباء المساجد كانوا يرددون خطبهم من كتب ويقرءونها على الناس ، أدركنا مدى مادبّ فى اللغة من قوة ، وفى الخطابة من حياة على يد الثورة

العرابية ، لأنها كانت ثورة شعبية عامة ، وقد وجد الناس مجال القول فسيحاً ، ووجدوا في قائد الثورة خطيبا مفوهاً فقلدوه . ولقد كانت الثورة فى حاجة إلى الخطباء أكثر من حاجتها إلى الشعراء ؛ حتى تنتشر الدعوة ، ويفهم جمهور الشعب مبادئها ، ويعضد الثورة ويَثبُت في الميدان ، ولايسمح للخيانة والغدر بالتسلل إلى صفوفه .

ولا بدع إذا كان مصطفى كامل وسعد زغلول فيما بعد من الخطباء المقاويل ، واعتمدوا فى تجميع شعور الأمة على الخطابة .

هذه بعض آثار عرابي وثورته فى الأدب لقد خرج الأدب إلى ميدان الحياة والكفاح بعد أن كان أدباً شخصياً ، لايعرف سوى التملق والدهان والرياء ، وقد فصلنا ذلك فى مقدمة هذا الفصل .

الفصل السادس

الاتصال بالأدب الأجنبي

مر بك في الفصول السابقة شيء عن الترجمة في عهدى محمد على وإسماعيل ، وكيف أن الاتجاه في عهد محمد على كان علمياً بحتاً لحاجة النهضة إلى العلوم ، وأن الآداب لم يكن لها إلا نصيب ضئيل ، ثم جاء عصر إسماعيل وزاد الاهتمام بالآداب ، وترجمت بعض الكتب الأدبية في عصره . ولكن منيت مصر بعد ذلك بالاحتلال الإنجليزى ، وازداد نفوذ الأجانب ، وفرضت اللغة الانجليزية فرضاً على تلاميذ المدارس المصرية ، واتصل الأدب العربي والفكر العربى اتصالا مباشراً بالفكر الغربى ، وقد كان لهذا أثر في الاتجاه الذى سلكه الأدب العربي حتى يومنا هذا ، وسنرى إلى أى حد أثر الأدب الغربى فى الفكر العربي وفى ألوان الأدب واتجاهاته وأساليبه شعراً ونثراً ، وإن كان هذا الفصل لا يتسع لكل هذا ؛ لأن الأدب الأجنبي لا يزال حتى اليوم يغذى أدبنا العربى ، وظهرت منذ الثورة العرابية حتى الحرب العالمية الثانية آثار عديدة لعشرات من الكتاب والشعراء يتضح في كثير منها ذلك الأثر الأجنبي فى صور شتى ؛ وستكون دراسة هذه الآثار وترجمة أصحابها فى الأجزاء التالية إن شاء الله وحسبنا هنا أن نسجل الخطوات التى دفعت بالأدب العربى إلى هذا النهج ، وأن ندرس بعض الألوان الجديدة التى قدمت للقارىء العربي في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

١ — الترجمة والتأليف :

رأينا آنفا أن الثقافة الأجنبية التى نهلت منها مصر منذ عصر محمد على كانت الثقافة الفرنسية ، وأن مدرسة رفاعة من التراجمة والمعربين لم يهتموا بالثقافات الأجنبية الأخرى إلا قليلا ، وكان معظم رجال البعثات فى عصرى محمد على وإسماعيل يذهبون إلى فرنسا

ويعودون متشبعين بالفكر الفرنسى وبالثقافة الفرنسية ، ولكن كان كل شىء ينقل إلى اللغة العربية من طب وهندسة وعلوم رياضية وعسكرية وما شاكل هذا ، فاتسعت اللغة العربية ، وزادت ثروتها بما بذل المعربون فى سبيل مدها بالكلمات الجديدة ، أو إحياء الكلمات القديمة التى تحقق غرضهم ، ولو استمرت النهضة العلمية فى هذا الاتجاه ، وحمل العلماء والأدباء ورجال الفن والقانون الذين يلجأون إلى الثقافات الأجنبية المختلفة ويتزودون من معينها ، وينقلون من آثارها ، على تعريب كل ما يفيدهم ، لأصبحت اللغة العربية اليوم من أقوى اللغات على تمثيل الحضارة الحديثة وإبرازها فى صورها المتباينة ، ولأخذت الكلمات المعربة صبغاً عربياً خاصاً على مر السنين ، وتركزت معانيها بكثرة استعمالها ، وسهل على الجامعات العربية تدريس شتى العلوم ، وأحدث النظريات باللغة العربية ..

ولكن واأسفاه ! أبى الإنجليز حين دخلوا مصر إلا أن يرغموها على تعلم لغتهم فى مدارسها الابتدائية والثانوية والعالية ، وصار حظ اللغة العربية من اليوم المدرسى ضئيلا ، ولم يفعل الإنجليز ذلك دفعة واحدة ، وإنما مهدوا له تمهيداً بطيئاً . . .

دخل الإنجليز مصر فى سنة ١٨٨٢ ، بعد أن ازداد نفوذ الأجانب ، وقويت شوكتهم وعظمت شركاتهم ، وبعد أن فرضت الرقابة الثنائية ، ودخل الوزارة المصرية وزيران أجنبيان ، وشعر المثقفون المصريون بتغلغل الأجانب فى كل مصالح مصر ، ورأوهم معتدين بلغاتهم وبجنسياتهم ، وأن مدارسهم وإرسالياتهم تجد فى تدريس اللغات الأجنبية ، ومن يتخرج فيها يكون له التفوق فى ميادين الاقتصاد والسياسة ، فأدى كل هذا إلى اهتمام مصر حتى قبل الاحتلال الإنجليزى — بتعليم اللغات الأجنبية فى مدارسها ، وقد تقدم على إبراهيم ناظر المعارف فى سنة ١٨٨٠ يطلب إنشاء مدرسة تسمى (دار العلوم التوفيقية) لتخرج مدرسين فى اللغات الأوربية وسائر العلوم الغربية ، على غرار دار العلوم العربية ؛ وكانت مدرسة الألسن لا تزال موجودة ، ولكن ضعف التعليم فيها ، إذ ألغيت منها اللغة التركية والألمانية ، واقتصر على تعليم الإنجليزية والفرنسية والعربية ، وفى سنة ١٨٨١ تقرر إنشاء مكتب للترجمة والتحرير تولى إدارته حينئذ أديب إسحق الكاتب المشهور ،

ثم تحول هذا المكتب إلى مدرسة المعلمين الخديوية فى سنة ١٨٨٩ ؛ كى تخرج مدرسين مصريين لتعليم اللغة الإنجليزية بالمدارس الابتدائية .

ولما ألغيت مدرسة الألسن أنشىء بدلها مدرسة الإدارة والحقوق سنة ١٨٨٦ — وكان غرض الإنجليز جعل الثقافة المصرية ثقافة ديوانية بحتة — وقد ظلت كذلك طويلا حتى بعد أن كفوا أيديهم عن التدخل فى وزارة المعارف ؛ لأن المشرفين على نظم التعليم بمصر كانوا متشبعين بمبادىء هذه المدرسة الديوانية ، ولذلك صار الموظف المصرى عبداً لوظيفته إذا فقدها ، أو إذا خرج إلى ميدان الحياة ، صار كالسمكة التى جف من حولها الماء ، وإنما اختط الإنجليز هذا النهج حتى لا يفطن المصريون إلى الأعمال الحرة والنهوض ببلادهم عن سبيل التجارة والاقتصاد ، وينفرد بها الأجانب بعامة والإنجليز بخاصة ، وبحسب المصرى أن يوفر لهؤلاء الدخلاء الطمأنينة والرفاهية والنظام ، وله من الأجر لقيمات تقيم صلبه وحياة دونها حياة الخدم والأجراء . أما الربح الوفير ، والعيش الرغيد والعربات الفارهة ، والقصور الشامخة والتجارة العالية فهى وقف على هؤلاء الأفاقين الذين دخلوا ديارنا ضيوفاً فاستبدوا بثروتها المادية والمعنوية ، وتبجحوا فى معاملاتهم لأبناء البلاد ، يمشون فى تيه وخيلاء وصلف وكبرياء حتى تنبهت مصر لهم ، وكفت من غلوائهم ، وألغت امتيازاتهم .

أجل ! كان هذا بعض ما رسمه الإنجليز للشعب المصرى ، وأشرفوا على تنفيذه ، فإن مدرسة الحقوق حينما أنشئت ، قسمت قسمين : ابتدائى وعالى ، يعد الابتدائى المحضرين والمترجين ، وأصناف الموظفين لأقلام الكتاب والنيابة بجميع المحاكم ، وأقلام الحكومة والوزارات ، وشتى المصالح التى تحتاج لأشخاص عندهم معلومات قانونية ؛ ويعد القسم العالى لوظائف الكتاب فى الدرجة الأولى والثانية ، ووكلاء النيابة وما شاكل هذا .

ولم يفكر المستعمرون — طبعاً — فى إنشاء المدارس التى تمد شبان مصر لميدان الحياة العملى من تجارة وزراعة وهندسة وصناعة وغيرها ، وليتهم حافظوا على لغة البلاد ، وهى مصدر عزتهم ، ورمز وطنيتهم وقوميتهم ، وإنما عمدوا فى سنة ١٨٨٨ إلى الغض من شأنها ، والحد من تعليمها ، وإفساح المدى أمام اللغات الأجنبية ، وهاك ما أورده

أمين باشا سامى فى كتابه (التعليم فى مصر) خاصاً بهذا التحول الخطير وهو فى صورة تقرير مقدم من وزارة المعارف إلى الخديو : « إن تعليم اللغات الأجنبية التى لها فى هذا العصر من الأهمية ما لا يخفى بمصر خاصة ، لم يأت إلى الآن فى مدارسنا بالنتائج المطلوبة ، وليس ذلك لتقصير من المعلمين ، أو فتور فى همتهم ، فإنهم فى الواقع أهل لما عهد إليهم من الوظائف ، غير أن الوقت المخصص لتعليم هذه اللغات غير كاف ، حتى تكتسب التلامذة ملكة استعمال اللغة ، ويسهل عليهم التكلم بها ، وهو أمر لا يمكن الحصول عليه إلا بعد تمرين طويل مستمر ، فلتلافى هذا الأمر بقدر الإمكان تقرر أن مواد العلوم الجارى تدريسها للآن باللغة العربية تعلم من الآن فصاعدا بمعرفة مدرس اللغة الأجنبية إما باللغة الفرنسية ، وإما باللغة الإنجليزية ، فإذا درس التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية بلغات أجنبية ، وضم هذا إلى تعليم اللغة المقصودة بالذات سهل نيل المقصود »

ثم ألغيت بعد ذلك اللغة الفرنسية من المدارس الأميرية الابتدائية ، وحلت محلها اللغة الإنجليزية ، وإن بقى للفرنسية بعض القوة والانتشار لكثرة المدارس التبشيرية التى تتخذها أساساً للتعليم بمصر .

وفى سنة ١٨٩٨ رأت الحكومة — أو رأى المستعمر — أن يغير منهج مدرسة الطب ، وأن يحول بينها وبين الرسالة العظيمة التى اضطلعت بأدائها منذ عصر محمد على ، ألا وهى نقل الطب الغربى الحديث إلى اللسان العربى المبين فعين لها مدير إنجليزى أدخل بعض الإصلاحات فيها ، واشترط لنجاحه فى مهمته أن تكون لغة التدريس بالمدرسة هى الإنجليزية ، فأجيب إلى طلبه ، وعطلت الترجمة ، وصار كل الأساتذة من الإنجليز وظلت الإنجليزية هى لغة الطب بمصر حتى يومنا هذا .

وإذا كانت اللغة العربية قد حوربت فى كل معهد ، واشتد ساعد اللغات الأجنبية ولا سيما الإنجليزية ، فقد استطاعت بما كمن فيها من قوة أن تقف أمام المحنة ، وأن تسترد سلطانها المفقود بعد لأى ، وأن ترغم العدو الغاصب على الاعتراف لها بالحيوية ، وأنه ليس من السهل القضاء على لغة ذات تاريخ مجيد ، وتراث تليد ، ودين سماوى مكين كاللغة العربية .

ظهرت سطوتها أول الأمر حينما اضطرت المحاكم الأهلية إلى تعيين المترجمين بين القضاة الأجانب، وبين الأهالي والمترافعين لأول عهدها سنة ١٨٨٣؛ إذ لم تجد الحكومة من بين المصريين أكفاء يلون شئون القضاء. ولقد أدى إنشاء المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٦، وإنشاء المحاكم الأهلية بعد ذلك إلى نهضة قانونية قوية بمصر فوضعت القوانين، وكثرت عليها شروح العلماء(١).

وترجمت كتب كثيرة من الفرنسية في هذا الباب مثل: أصول النواميس والشرائع لبنتام نقله فتحي زغلول(٢) وهو في الخامس والعشرين من عمره، وحقوق الملل ومعاهدات الدول للأمير أمين أرسلان، والطعن في الأحكام بطريق النقض والإبرام ترجمة عزيز خانكي سنة ١٩٠٠.

ووضعت المعاجم القضائية لتيسر على المشتغلين بالقضاء والمحاماة الاطلاع على المواد اللازمة أو الأوامر العالية، ومن أشهر هذه المعاجم: قاموس الإدارة والقضاء لفليب جلاد في ست مجلدات سنة ١٨٩٩، والقضاء المصري الأهلي لإبراهيم الجمال وهو معجم للقواعد

---

(١) من ذلك: ١ — توضيح المشكلات في شرح قانون المرافعات لأحمد عفيفي. ٢ — شرح قانون التجارة لعبد العزيز كحيل، ويوسف وهبه ١٨٨٥. ٣ — ورسالة في قوة الأحكام المدنية لعبد العزيز كحيل ١٨٨٩. ٤ — طلبة الراغبين في بيان حقوق الدائنين لعبد العزيز محمد ومحمد توفيق نسيم ١٨٩٣. ٥ — شرح الأموال على القانون المدني لمراد فرج ١٨٩٣. ٦ — شرح باب إثبات الديون وإثبات التخلص منها لعلي ذو الفقار ١٨٩٣. ٧ — رسالة في تزوير الأوراق لفتحي زغلول سنة ١٨٩٥؛ وغير ذلك كثير راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٤ ص٣٦٢.

(٢) ولد سنة ١٨٦٣ بمصر، ودرس الحقوق بها، واشتغل بالقضاء حتى وصل الى وكيل لوزارة العدل. قال فيه المنفلوطي: «إنه نابغة الأمة العربية علما وفضلا، ونادرتها ذكاء وفهما، وأقدر كتابها على الترجمة الصحيحة التي لا يضيع فيها معنى، ولا يضطرب فيها لفظ. وما انتفعت هذه الأمة في عصرها الحاضر بعلم أحد من علمائها انتفاعها بمؤلفاته ومترجماته ويمتاز في كتابته بالبيان والإيضاح والدقة في وضع الألفاظ بإزاء المعاني، فلا يتجوز إلا قليلا، ولا يتخيل إلا نادراً، ولا يغرب، ولا يتندر بحال من الأحوال» مختارات المنفلوطي ص ١١١. ولقد ترك أحمد فتحي زغلول ثروة علمية عظيمة من التآليف والتعاريب في القانون والإدارة والاجتماع فترجم: روح الاجتماع لجوستاف لوبون، وتطور الأمم لجوستاف لوبون، وسر تقدم الإنجليز السكسونيين لأدمون دومولان، وشرح القانون المدني، وكرم من أجله (١٩١٣) وله كتاب المحاماة ١٩٠٠، وتوفي فتحي زغلول سنة ١٩١٤.

القانونية المأخوذة من أحكام المحاكم الأهلية .

وصدرت مع هذه التراجم العديدة ، والمؤلفات الكثيرة ، مجلات قضائية من أشهرها مجلة الحقوق لأمين شميل ، ثم آلت لابراهيم الجمال ، ومجلة الأحكام لنقولا توما ، ومجلة القضاء للشراباتى وغيرها .

إن هذه النهضة القانونية قد أفادت اللغة كثيراً ، وأضافت إلى المعجم العربى عشرات الكلمات الاصطلاحية ، ولبى العلماء دعوة فتحى زغلول حين أهاب بهم أن يهيئوا لغتهم للحياة الجديدة ، ورسم لهم الطريق الصالحة بقوله : « عليكم بالتقدم فادخلوا أبوابه المفتحة أمامكم ولا تتأخروا فلستم وحدكم فى هذا الوجود ، ولاتقدم لكم إلا بلغتكم ، فاعتنوا بها وأصلحوها وهيئوها ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك أو التجوز ، ثم لاتقفوا بها موقف الجمود ، والعجمة تهددها على ألسنة العامة ، وهى لاتلبث أن تدخل على لغة الخاصة وأقيموا فى وجه هذا السيل الجارف سداً من الاشتقاق المقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين[1] » .

ومع هذه الفائدة الجليلة التى أحرزتها اللغة العربية بهذه النهضة القانونية فإن من المؤسف حقاً أن تهمل الشريعة الإسلامية وأحكامها ، وأن يغلبنا الأجانب على أمرنا ، ويتمكنوا من حملنا على التنكر للقانون السماوى الذى يتمشى مع الغرائز الإنسانية ،والطبيعة البشرية وبرهنت الأيام على أنه أعدل القوانين وأقواها وأرحمها ؛ إن القوانين الوضعية ، ولاسيما القوانين التى وضعت لأناس سوانا لهم عادات وتقاليد وبيئة غير مانحن عليه ، لم تصلح المجتمع المصرى بل أفسدته ، ولو حاول المصلحون فى مصر تنظيم أحكام الشريعة الإسلامية ووضعها فى مواد حسب أبواب القانون ،ووازنوا بينها وبين غيرها من القوانين، واجتهدوا فى استنباط الأحكام ووصلوا الماضى التليد بالعهد الجديد ، ليرهنوا على أنهم من أمة لها كرامة ، وبها حرص على تراثها،والسير بنهضتها فى السبيل المستقيم ، أما عملهم هذا فهو مسخ وتشويه للأمة ، وتقليد سخيف ، وهو عنوان الضعف ، والشعور بالخزى أمام

(١) مختارات المنفلوطى ص ١١١ من مقال لفتحى باشا زغلول بعنوان « ماهية اللغة » .

الأجانب ، وعدم القدرة على الدفاع عن مقومات شخصيتنا .

ولقد حاول بعض العلماء فى ذلك الوقت ممن كان لهم شعور صادق بهذه الكارثة أن يبرهنوا لهؤلاء الأجانب على أن الشريعة الإسلامية تستطيع أن تنهض بالمجتمع المصرى كل النهوض ، وأن بها من الأحكام ما يجعل الأمم الإسلامية فى غنى عن قانون نابليون أو القانون الرومانى ، وهناك عمر لطفى[1] يضع باللغة الفرنسية بعض موادالشريعةالإسلامية ليدحض دعاوى هؤلاء المغرورين بمدنيتهم الزائفة ومن اف لفهم ممن لم يعرفوا حقيقة الشريعة الإسلامية . ومن هذه المؤلفات التى قدمها عمر لطفى بالفرنسية للموازنة .

١ — الدعوى الجنائية فى الشريعة الإسلامية ، وقد أعجب به الفرنج أيما إعجاب .

٢ — حرمة المساكن .

٣ — وحق المرأة .

٤ — وحق الدفاع .

إن الاتجاه الذى سلكه العراق منذ سنوات حين انتدب الدكتور عبد الرازق السنهورى لوضع قانون للمحاكم العراقية مستنبط من الشريعة الإسلامية والاتجاه الذى اتجهته سوريا فى دستورها قبل الوحدة ، اتجاه سليم يدل على يقظة وإدراك صحيح لقيم التراث الإسلامى ، وحرص على عدم المسخ والفناء فى الأمم الأجنبية .

وظهرت قوة اللغة العربية كذلك ، وأنها تستطيع أن تتحدى الاستعمار ، وتسير فى النهج العريض الذى خطه محمد على وعَبَّدته حكومة إسماعيل ، على الرغم من العقبات التى أقامها الإنجليز أمامها : فى رغبة العلماء والأدباء فى أن يعرِّفوا أبناء أمتهم كثيراً من أسس الحضارة الغربية ، لعلهم أن الاستعمار مهما كان جامحاً عنيفاً لا يستطيع أن يستولى على إرادة العلماء

---

(١) أصله من أسرة مغربية ، ولد بالإسكندرية سنة ١٨٦٧ . ولعلم بها ، ثم جاء إلى القاهرة ودرس الحقوق وتقلب فى مناصب الدولة حتى صار وكيلا لمدرسة الحقوق ، وكان له نشاط بارز فى ميدان الحياة فأنشأ كثيراً من النقابات الزراعيه وغيرها ؛ وأنشأ نادى للمدارس العليا ، وله فى هذا الباب كتاب إنشاء شركات التعاون . ومن أشهر مؤلفاته غير ما ذكرنا كتاب الامتيازات الأجنبية ، وكان أول كتاب من نوعه فى اللغة العربية ، وتوفى عمر لطفى سنة ١٩١٢ .

ويمنعهم من الاستقرار فى تغذية اللغة العربية بهذه النفائس . وقد شملت الترجمة فى هذا العصر الذى نؤرخ له ألوانا جديدة من الفكر الغربى ، فهناك (الاقتصاد السياسى) ، وكان العرب يطلقون عليه المعاش ومن الكتب التى وضعت أو ترجمت فى هذا الموضوع :

١ — كتاب الاقتصاد السياسى أو فن تدبير المنزل لخليل غانم ١٨٧٩

٢ — أصول الاقتصاد السياسى لرفلة جرجس ١٨٨٩ ، وهو مقتبس من كتب أفرنجية عديدة .

٣ — كتاب الاقتصاد السياسى لجيفرنس نقلته جمعية التعريب سنة ١٨٩٢ .

٤ — مبادىء الاقتصاد السياسى تأليف محمد حسين فهمى .

٥ — الموجز فى علم الاقتصاد لـ (بول لروابوليه) نقله حافظ إبراهيم وخليل مطران فى خمسة أجزاء بأمر حشمت ناظر المعارف سنة ١٩١٣ .

وهناك (علم الاجتماع) وقد مربك كيف بدأ هذا العلم على يد جمال الدين ومدرسته وكيف شخصت أدواء الأمة الاجتماعية ، ووصف لها الدواء على يد أديب اسحق وعبدالله نديم ومحمد عبده ، ولكن ما كتبه هؤلاء لم يبن على أصول علمية ثابتة ، وقواعد مقررة ، وإنما كان وليد الخبرة والملاحظة والتجربة . وكان لابد للنهوض بهذا العلم من دراسته عند علماء الغرب ونقل أجل آثاره ، مع تطبيق نظرياته على المجتمع المصرى وعاداته وتقاليده وشرائعه وبيئته .

وليس علم الاجتماع غريباً عن اللغة العربية ، فإن ابن خلدون فى مقدمته قد وضع له أسساً متينة ونظريات سليمة بنى عليها مونتوسكيو[1] وسواه أبحاثهم ، ثم تطور هذا العلم

---

(١) سبق ابن خلدون بنظرياته الاجتماعية علماء الغرب فنظرية التقليد الاجتماعى مثلا التى قال بها ، وملخصها انتقال العادات والطباع بين الأجيال والأمم المختلفة لميل النفس إلى اعتقاد الكمال فيمن تنقاد إليه كما بين الأبناء وآبائهم والتلاميذ وأساتذتهم ، بنى عليها (جبريل تادر) كتابه (قوانين التقليد) ، وفى كتاب مونتسكيو (روح القوانين) Esprit des Lois تجد أثر ابن خلدون واضحا كقوله بضرورة الحكومات ، وأثر البيئة فى الناس وعاداتهم ، وكقوله بتقسيم الناس إلى طبقات حسب مكانتهم الاقتصادية وقد شابه الاشتراكيين فى قوله . بأن « الطبقات تسعى لاستثمار بعضها بعضا استنادا إلى ما لها من السلطة الاجتماعية والسياسية فإن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من =

والغرب واتسعت موضوعاته . ونظمت أبحاثه، وقد فطن لذلك علماء مصر فترجم فتحى زغلول بك من كتابى روح الاجتماع، وتطور الأمم لـ (غوستان لوبون) ونقل كذلك تقدم الإنجليز السكسونيين ، وهو من الكتب الممتعة التى قرأناها بشغف ، ونقل محمد زكى صالح نشوء الاجتماع لـ (بنيامين كِد) .

ومن الكتاب الاجتماعيين الذين أفادوا هذا العلم ، وحاولوا إصلاع الأمة عن طريق الدرس والتمحيص والتحليل ، والاستقراء والاستنباط ، السيد عبد الرحمن الكواكبى[1]، ومن كتبه النفسية التى بهرت أبناء جيله ، وصار لها أكبر الأثر فى اليقظة القومية بالشرق :

١ — طبائع الاستبداد .
٢ — أم القرى .

وقد وضع كتبه فى شكل روائى ، وفيها تحليل دقيق للأمراض الاجتماعية والسياسية وفيها حملات شديدة على الحكومة العثمانية ، وفيها علاج إيجابى سليم لأدواء المسلمين . وامتاز الكواكبى فى كتابته بالذكاء والتخصص والتعمق والرزانة ولو أتيح له أن يعرف لغة أجنبية فيطلع على أبحاث علم الاجتماع عند الغربيين لكان له — مع غزارة فكرة وصدق نظره — فى تقدم هذا العلم وتطوره شأن يذكر .

= الطباق ، والجاه داخل على الناس فى جميع أبواب المعاش فإذا كان الجاه متسعا كان الكسب الناشىء عنه كذلك .

وإذا أردت المزيد من آراء ابن خلدون الاجتماعية والموازنة بينها وبين آراء علماء الغرب ومن معرفة مكانته لدى الغربيين فارجع إلى :

١ — ابن خلدون ؛ منتخبات لجميل صليبا ، وكامل عياد .
٢ — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية للدكتور طه حسين .
٣ — ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربى القرن الرابع عشر للعلامة فون فيسندنك وترجمة محمد عبد الله عنان .
٤ — كتاب روبرت فلنت فى تاريخ التطور العلمى Rober. t. Flint .

(١) من أسرة حلبية مشهورة ، نشأ ميالا للعلم شغوفاً بالسياسة ، وحرر مدة فى جريدة الفرات الرسمية ثم أنشأ جريدة (الشهباء) ، وتقلب فى مناصب الحكومة . ولما رأى ما فيها من فساد أخذ ينقد رجال الدولة العلية ، فاضطهدوه ففر الى مصر ، ورحل الى بلاد كثيرة كزنجبار والحبشة وأواسط جزيرة العرب والهند ، ثم عاد إلى مصر واستقر بها حتى توفى سنة ١٩٠٢ . راجع مشاهير الشرق ص : ٣٥ ج ١ (طبعة ثانية) ومجلة الثقافة العدد ٣٠٧ .

ومن المشكلات الاجتماعية التى أثيرت فى هذه الفترة ، وكان لها دوى عظيم مسألة الحجاب والسفور ، ومركز المرأة فى المجتمع ، ولقد أدى اختلاطنا الشديد بالأجانب ، وتطلعنا إلى محاكتهم فى كل شىء ، والسير على نهجهم فى مدنيتهم — إلى ظهور هذه المشكلة ، وكان بعض المفكرين يرى سفور المرأة المسلمة ومساواتها بالرجل فى كل شىء مغالاة منهم فى المحاكاة ، ولكنهم لم يجرءوا على الجهر بآرائهم أمام جمهور المسلمين فى ذاك الوقت لتمكن عادة الحجاب من النفوس ، حتى ظهر قاسم أمين[1] فنشر كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) ، وقد كان لهما أثر بليغ فى الحياة المصرية ، وإن لم يظهر هذا الأثر سريعاً ، بل ظلت المرأة مدة يتجاذبها السفور تارة والحجاب تارات ، حتى خلعته أخيراً ولم يعد له أثر إلا فى بيئات محدودة .

أما (الأدب) وهو الذى يعنينا فى كتابنا هذا أكثر من سواه ، فقد اشتدت فيه حركة التعريب ، ولاسيما الروايات والقصص ؛ وقد عرفت فيما سبق أن الكلية الأمريكية ببيروت أسست سنة ١٨٦٠ ثم أسست الكلية اليسوعية بعدها بقليل ، وقد كان لهاتين الكليتين أثر بارز فى توجيه النشء إلى القصة الغربية ، ولما هاجر كثير من نصارى لبنان إلى مصر حيث الحرية والشهرة والثروة أخذ هؤلاء المهاجرون يترجمون القصص الأوربى ويذيعونه فى الناس ، وكانت بيروت قد شهدت من قبل قيام (مارون نقاش) يؤلف بعض المسرحيات أو يقتبسها من الأدب الغربى مثل مسرحية البخيل لـ (موليير) ، وكان يدعو فنه هذا « الذهب الأفرنجى المسبوك » وكان لمارون ابن أخ اسمه سليم نقاش رحل بعد موت عمه إلى مصر ، وسعى فيها حتى أنشأ مسرحاً وفرقة ، وظهر بمصر فى ذلك الوقت رجل

---

(١) من أصل كردى نزح أبوه إلى مصر فى عهد اسماعيل ، وانتظم فى الجيش المصرى وارتقى إلى رتبة أميرالاى ؛ وولد قاسم بمصر ودرس القانون ، وتولى مناصب القضاء حتى صار مستشارا بالاستئناف وتوفى سنة ١٩٠٨ . وللمرأة الجديدة مدينة إليه بالشىء الكثير فهو الذى شق لها طريق التحرر كما تريد وإن لم يكن أول من نادى بذلك ، فقد عرفنا أن رفاعة الطهطاوى نادى بتحرير المرأة وتعليمها ، ولكن الزمن والبيئة والأمة كانت كلها غير مستعدة لتلبية دعوته حينذاك ، فلما أتى قاسم أمين وجد من المسلمين من يستجيب له ، وقد سارت المرأة فى سفورها شوطا بعيدا أكثر مما قدر قاسم أمين أو أراد .

يهودى اسمه « يعقوب صنوع » أسس مسرحاً عربياً بالقاهرة ترجم له عشرات الروايات الفرنسية الغرامية بلغة عامية ركيكة وقد تقدم الكلام عنه[١] ، وظل المسرح منذ ذلك الوقت يعتمد على الروايات الأجنبية الممصرة ، وأحياناً يضع له بعض المؤلفين مسرحيات لا تمثل الحياة المصرية فى شىء ، وبها كثير من عادات الغرب وتقاليده ولم يتجه المسرح وجهة إصلاحية إلا نادراً مثل ما مر بك من روايات عبد الله نديم وأضرابه[٢] .

على أن الاهتمام بالمسرح وبالتمثيليات لم يكن كبيراً ، وإنما عنى المترجمون بنقل القصص الغربى بأنواعه وألوانه ؛ ومن أقدم الذين اشتغلوا بترجمة القصص نجيب حداد اللبنانى[٣] فنقل إلى العربية رواية صلاح الدين تأليف (ولترسكوت) ورواية السيد Cid تأليف كورنى Corneille وسماها غرام وانتقام ، ورواية (هير نانى) تأليف هوجو ، وسماها (حمدان) ورواية روميو وجوليت تأليف شكسبير وسماها (شهداء الغرام) ، ورواية البخيل لـ(موليير) ورواية الفرسان الثلاثة تأليف اسكندر دوماس فى أربعة أجزاء طبعت لأول مرة سنة ١٨٨٨ .

وفى أواخر القرن التاسع عشر (يونيو سنة ١٨٩٧) حضر إلى مصر كل من نقولا رزق الله ، وخليل مطران ، وطانيوس عبده ، واشتغلوا بالصحافة ، ثم التحق نقولا بجريدة الأهرام ، وعكف على ترجمة الروايات بأسلوب سهل جذاب ، وفى سنة ١٩٠٤ ترجم رواية (سقوط نابليون الثالث) فى أكثر من ألف صفحة ، وقد استهوت هذه الروايات الناشئة فى مصر والبلاد العربية ، فأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، وأخذ بعض المسلمين يقلد هؤلاء المترجين حتى لقد أنشأ أحدهم مجلة باسم (مسامرات الشعب) يحشد فيها كثيراً من القصص الرخيص ، وأخرج نقولا رزق الله[٤] « سلسلة الروايات الجديدة » وكان العدد يحتوى على شذرات من الشعر القديم ، وقصصاً قصيرة إلى جانب الرواية الرئيسية ، وأنشأ طانيوس عبده

---

(١) راجع ص ٩٩ من هذا الكتاب .

(٢) وقد ذكرنا فى كتابنا (المسرحية) تاريخ المسرحية المصرية بالتفصيل وسقنا ثمة نماذج عليها .

(٣) ولد سنه ١٨٦٧ واشتغل بالصحافة فحرر فى جريدة الأهرام الموسنة ١٨٨٤ ثم اعتزلها وأنشأ (لسان العرب) بالأسكندرية سنة ١٨٨٩ .

(٤) توفى نقولا رزق الله فى مارس ١٩٠٥ .

مجلة الراوى وفيها أخذ فى تعريب الروايات الشهيرة مثل (فوست) و (الملكة إيزابو) .

وترجم فرح أنطون[١] (الكوخ الهندى) و (بول وفرجينى) و (أتالا) وغيرها من الروايات كما ترجم خليل مطران كثيراً من روايات شكسبير التمثيلية .

وكان من الطبيعى بعد أن كثرت هذه الروايات فى أيدى الشباب والرجال أن يبدأ الأدباء فى محاكاتها ، وكان أول المقلدين وأنشطهم جرجى زيدان[٢] فنحا فى تأليف الروايات منحى (ولترسكوت) الإنجليزى ، واستمد من التاريخ العربى قصصه وأبطاله ، وغيّر فى حقائق التاريخ وبدّل حتى يدخل عامل التشويق والتتابع القصصى ، وأخرج عدداً كبيراً من هذه القصص التاريخية منها : فتاة غسان ، وأرمانوسه المصرية ، وعذراء قريش وغادة كربلاء ، والحجاج ، وفتح الأندلس ، وشارل وعبد الرحمن . . . الخ هذه السلسلة الطويلة التى بلغت ثمانى عشرة قصة مستمدة من التاريخ الإسلامى ، وأربع قصص أخرى مكتوبة كلها بأسلوب صحفى ، خالية من التحليل النفسى ، والنظريات الفلسفية ، وما هى إلا تاريخ فى قالب قصة لم تكمل شروطها الفنية ، وتاريخ لم يحافظ فيه على الحقائق ، وإن كانت الحقائق التاريخية ليست شرطاً فى القصة التاريخية كما نرى عند (سكوت) ، وكما نرى عند شكسبير فى (أنطونى وكليوباترة) و (يوليوس قيصر) وغيرهما من الروايات والمسرحيات التاريخية ، ولكن هذه القصص فيها نفحة الأديب . وخيال الشاعر ، وعبقرية الفنان ، وليست سرداً تاريخياً مكتوباً بأسلوب صحفى ، ومثل زيدان فى هذا سليم البستانى[٣] فى رواية (زنوبيا وبدور) وغيره ممن سلكوا هذا النهج التاريخى ، وزيدان أسلم من سواه

(١) توفى فرح أنطون فى ١٩٢٢ .

(٢) ولد ببيروت سنة ١٨٦١ ، ودرس اللغة الإنجليزية فى مدرسة ليلية مدة خمسة عشر شهراً ، وفى سنة ١٨٨١ خطر له أن يدرس الطب ولكنه لم يتم دراسته بالكلية الأمريكية ، ونال شهادة من الخارج فى الصيدلة ثم أتى مصر ، وتولى تحرير جريدة الزمان سنة . ورافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ مترجماً بقلم المخابرات ، ثم رجع الى بيروت عضواً فى المجمع العلمى الشرقى فدرس العبرية والسريانية وزار انجلترا فى سنة ١٨٨٦ ؛ وتردد طويلا على (المتحف البريطانى) بلندن ، ثم عاد إلى مصر وساعد فى تحرير المقتطف ، ولكنه استقال بعد مدة ، واشتغل بالتدريس سنتين وفى سنة ١٨٩٢ أنشأ الهلال وتوفى سنة ١٩١٤ .

(٣) توفى فى سنة ١٨٩٤ وبذلك سبق زيدان فى تأليف القصص التاريخية وله كذلك قيس وليلى والإسكندر .

عاقبة . ثم ظهرت بعد ذلك ، وللأسف ، قصص رخيصة تتملق النزعات الدنيا عند الشعوب ، وتقرأ لقتل الوقت ، وتمثل كثيراً من وجوه الحياة الإنسانية المخزية ، فالإجرام بأنواعه وطرقه ، والعشق السافل ، وما شاكل ذلك من نواحى الضعف الإنسانى ، ولا سيما وهى فى المدنية الغربية المسمومة قد زحفت فى صورة قصص مزرية بالأدب مطوحة به فى مهواة سحيقة ، مضللة عقول النشء ، ومفسدة لأهوائهم وأخلاقهم ، وباعثه منازع الشر والإجرام على طريقة رعاع باريس ، وغوغاء لندن ، وصماليك برلين وشطار نيويورك وشيكاغو ، من أمثال : (اللص الشريف) و (جونسون) و (ملتون توب) و (طرزان) ؛ وغير ذلك مما لا يخرج عما كان متداولا فى مصر إبان عصور الضعف من قصة (أحمد الدنف) أو (دليلة المحتالة) ومغامرات العيارين والشطار ، وإن اختلف اللون والزمان والحوادث ، ولكن الفكرة واحدة ، والنهج متشابه ، والغاية السلوى وقتل الوقت ، وتملق النزعات الدنيا . وأين هذا من الأدب ؟ .

وظل هذا الفيض من السخف يغمر المطابع العربية حتى قامت الحرب العالمية الأولى ، واستمر بعدها ولا زال للآن ، ولكننا نكتفى بتتبعه عند هذا الحد ، ولنا فى الكلام عن القصة ومنزلتها فى الأدب عودة قبل أن نفرغ من هذا الفصل إن شاء الله ، وحسبنا أن نقول هنا كلمة طالما رددناها فى هذا النوع من الاتجار بعقلية الجماهير : لقد تفتحت أعيننا فى الصبا فإذا نحن فى بيداء موحشة نخبط فى دروب ملتوية ونعرج يمنة ويسرة بعيدين عن جادة الحق ، وأبواق الثقافة الدخيلة يقودون القافلة إلى مصرعها الوخيم ، وينفثون فيها السموم المخدرة حتى تستكين لهم وتُسلم قيادها وهى فى غفلة عما انطوت عليه جوانحهم ، جاءوا وهى ترزح تحت أصفاد الجهل والانحلال ، وأرادوا مسخها وتشويهها ، حتى تتناسى ماضيها وتفقد ما كن فيها من عزة وأنفة .

.

جاءوا بقصص خليع يثير الشهوة ، ويقتل الحياء ، ويلطم وجه الفضيلة والشرف ، ويوحى بالإجرام والفسق ، وجاءوها بمهازل تمثل على المسارح باسم الفن ، وأدب موبوء يزلزل العقيدة ، ويخدش وجه العفاف ويعرض على الناس باسم القصة ، إنه أدب نغِل ،

وورد آسن وغذاء عفن ، التقطه من يتجرون بعقلية الجماهير ، ومن وقعوا وقوع الذباب على الفضلات الفاسدة من نفايات الحضارة الأوربية وقدموه لقومهم فى شكل زرى .

إن النفوس المريضة ، والعقول الهزيلة هى التى يخلبها الزَّيف ، وتغويها المظاهر الخداعة والقلوب الخالية من الإيمان هى التى تهيم بالأباطيل فتمتسف الطريق ، وتنفذ فى سراديب البهتان ؛ وإذا أرادت أمة أن تنهض وتنشىء جيلا طموحاً فتياً صدفت وعفت عن هذه الآداب المرقعة ، والقصص الهزيلة ، وجدّت فى تثقيف الجمهور وتهذيبه فلا تترضاه أو تتملقه ، أو تناشد عواطفه الجامحة النابية طمعاً فى ثروة زائلة ، وجاه مؤقت ، وعليها أن تقود هذا الجمهور الساذج إلى المعين العذب فتشذب خلقه ، وتروض نفسه ، وتطبعه على الخير وتزوده عما ينهض به .

لم نعرضُ أدواء الأمم الأجنبية ومثالبها على جمهور قرائنا ، وقد وضع هذا القصص الغريب لبيئة غير بيئتنا ، وليعالج مشكلات لا وجود لها عندنا ؟ ؟ إن القصة سلاح ذو حدين ، واستعماله يحتاج إلى مهارة وخبرة ، وقد أساء المترجمون استعماله فطعنوا قومهم ومجتمعاتهم الطيبة فى الصميم ، وجنوا عليها جناية لا تغتفر .

وقد انتشر هذا اللون من القصص بأوربا فى أخريات القرن التاسع عشر باسم الواقعية وقد لخصنا السمات العامة للمذهب الواقعى فى كتابنا (المسرحية) ولا يزال الأدب الأوربى والأمريكى واقعاً تحت تأثير المذهب الواقعى ، ولقد جنى على بعض الأمم الغربية جناية فظيعة وأشاع فيها التحلل والضعف . ولذلك أخذ كثير من أدباء الغرب يناهضونه .

ولعلك أدركت مما سبق كيف أن الأدب الأجنبى قد طغى تياره واشتد ، فالمدارس تفرض فيها اللغة الإنجليزية فى كل الدروس ، ولا يعنى إلا درس العربية والدين ، والأدب أخذ يغرف من بحور الغرب دون تحر أو تدقيق ، وجمهرة المثقفين تجد فيما ينقل إليها صوراً من حياة الغرب لم تعهدها ، والغرب هو المتملك القاهر ، والنفوس تشرئب لمعرفة عاداته وسر قوته وكثير من ألوان حياته .

ظلت المدارس المصرية خاضعة لهذه السيطرة الأجنبية حتى تولى سعد زغلول وزارة

المعارف فى سنة ١٩٠٦ ، ونازع المستشار الإنجليز (دانلوب) فى سطوته وجبروته ، وألزمه حده لا يتعداه ، وذلك بتشجيع الجمعية التشريعية التى أصرت على إرجاع اللغة العربية ، وعمل جاهداً على غسل هذه الوصمة ، والرجوع بلغة التدريس إلى العربية ، فكان لها ما أرادت ، وكانت حسنة لا تنسى له وللجمعية التشريعية لأنها أعادت التيار إلى مجراه القديم ، وأخذ العلم الحديث يتدفق فى هذا المجرى كتباً طريفة التأليف ، بارعة العرض جذابة الأسلوب وسار نهر العربية زخاراً صوب الكمال حتى يومنا هذا .

وبقى درس اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزى درساً أصيلا فى المدارس ، يقف منه الشباب على لون من التفكير الأوربى ، وكان لهذا أثره العميق فى التفكير العربى والنتاج الأدبى فيما بعد ، وسنعود إلى هذا الموضوع بشىء من التفصيل فى مقدمة الجزء الثانى إن شاء الله .

(ب) المستشرقون :

ومن أهم العوامل فى النهضة الأدبية الحديثة ، والاتصال بالفكر الأوربى بجانب الترجمة ماقام به المستشرقون من جهد فى سبيل اللغة العربية وآدابها ، وبحث العقيدة الإسلامية ومذاهبها ، ونشر ماعفت عليه الدهور ، وأغفلته يد النسيان من كنوز اللغة العربية .

اتصل الغرب بالشرق بادىء الأمر حينما كان الشرق فى عنفوان صولته ، وقمة مجده يغص بالمدارس الجامعة ، ويزخر بالكتب الثمينة ، ويشمخ بعلمائه وفلاسفته ورياضييه ، وكانت أوربا لا تزال فى سنة من النوم حينما فرغ الشرق أو كاد من يقظته الطويلة وجهاده العنيف فى سبيل العلم والمدنية ، ولما استيقظت أوربا قليلا ، تلفتت فوجدت شعبا غريباً يعمر جزءاً خصباً من قارتها ، وقد أحاله جنة فينانة ترف فيها العلوم والفنون والآداب ، فتطلع أهله إلى الأندلس منذ ذلك الحين ، يرمقونها بعيون دهشة ، وأفواه فاغرة ، وبودهم أن يعرفوا بعض ماعليه أهلها من علم .

وطئت أقدام العرب كثيراً من أرض القارة الأوربية ، وعبرت بعضها عبور المسافر أو المغامر أو التاجر ، ووقفت فى بعضها وقفة الفاتح القادر ، فعبروا فرنسا عبوراً سريعاً ،

وامتد طوفانهم إلى أودية (بوردو) ، وتألب عليهم أوشاب أوربا من فرنسيين وألمان وسواهم حتى انحسر طوفان العرب عن فرنسا غب معركة (بواتييه) أو بلاط الشهداء ، بيد أن مقامهم قد طال نوعاً فى جنوب فرنسا من جهة البحر الأبيض المتوسط ، وتركوا ثمة آثاراً فى صميم الحياة الفرنسية تدل على طول المكث والعشرة ولا سيما فى مقاطعة (بروفانس) وقد امتد نفوذهم منها حتى سويسرا عبر جبال الألب .

وأقاموا بصقلية قرنين ونصف من الزمان ، وتركوا من المساجد والآثار فى (بالرمو) مايشهد بعزهم وثروتهم وحضارتهم واحتلوا أكثر مرافىء إيطاليا خطراً ، واستولوا على كل جزر البحر المتوسط .وفى كل بلد يحلون به ينشرون لغتهم ودينهم وآدابهم وحضارتهم ، ولم يكن من السهل التخلص من ثقافتهم وآثارهم حتى بعد جلائهم عن بعض تلك البلاد والثغور ، ولا أدل على ذلك من صقلية فقد ظلت العربية فى بلاط ملوكها وعلى ألسنة أهلها بعد نزوحهم عنها بقرون . وقد بلغ من سلطانهم أن ملوك صقلية تزيوا بزى العرب ، ورأس وزاراتهم وقاد جيوشهم وأشرف على أمورهم عرب أقحاح ممن تخلف فى الجزيرة بعد نزوح جمهرتهم[1] ، وهاك ابن جبير يقول فى رحلته المشهورة حين زار صقلية سنة ١١٨٧ فى عهد الملك غليوم : « وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين . . . وهو كثير الثقة بهم وساكن إليهم فى أحواله والمهم من أشغاله ، حتى إن الناظر فى مطبخه رجل من المسلمين ، وعليهم قائد منهم . . ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وشماره على ما أعلمنا أحد المختصين به (الحمد لله ، حق حمده) » .

ولا عجب فالعرب فى ذياك الوقت قد بلغوا شأواً عظيما من الحضارة ، وكان أهل أوربا فى أشد الحاجة لمونتهم وثقافتهم ، وهاك (دوزى) يؤكد بعد أن وقف بالدرس فى كنه الحضارة العربية فى الأندلس : « أنه لم يكن فى كل الأندلس أمى يوم لم يكن فى كل أوربا من يعرف القراءة والكتابة إلا فى الطبقة العليا من القساوسة » وصارت جامعة

---

(١) نزح العرب من صقلية ١٠٧٢ م .

طليطلة قبلة الطلاب من كل بقاع أوربا فى القرن الثانى عشر حتى بعد أن تقلص ظل الملك العربى عن معظم بلاد الأندلس ، وبقيت العربية لغة الثقافة والمعاملات والعقود حتى سنة ١٥٨٠ ،وظلت بعض قرى بلنسية تتكلم العربية حتى القرن التاسع عشر . ولسنا الآن فى صدد تبيان أثر العرب فى الحضارة الأوربية وآدابها وغنائها وموسيقاها ، وبحسبك أن تعلم أن الفلسفة الإسلامية ظلت تدرس فى جامعات أوربا حتى سنة ١٦٥٠ وأن أرسطو لم يكن يفهم إلا بشروح ابن رشد ، وأن طب ابن سينا كان غاية كل مشتغل بالطب فى أوربا أمداً طويلا ، وأن مئات الكلمات العربية التى تنبىء عن الحضارة والعلم قد دخلت اللغات الأوربية واستعجمت من مثل قيثارة وقطران وأميرال وشراب ،وزعفران ، وكافور وقرمز ، وصك ، ورزمة ، وإكسير ، وكيمياء ، وجبر ، وساقية ، وماشا كل ذلك . وهم الذين علموهم صناعة الحرير والتلائل الموشاة وصناعة السلاح والخزف المذهب ، والفسيفساء والبلور والورق والأصباغ والأدهان والمعادن ، وعلم الجبر والحساب بأرقامه(١) .

واتصل الغرب مرة أخرى بالشرق،إبان الحروب الصليبية ، التى شنها متعصبة المسيحيين حينما أنسوا فى عرب الأندلس ضعفاً ، وظلت نحو قرنين وطوفان جنود أوربا يتكسر على صفاة حياة الإسلام ؛ ويرتد ، ثم يعود أشد مما كان بأساً ، فتقابله صدمات تخفف من غلوائه، وهكذا حتى خمد ؛ ولكن خلف هذا الاتصال الطويل آثاراً بعيدة الغور فى كل من المغاربة والمشارقة؛أما المغاربة فدهشوا من حضارة العرب فى بلادهم ووجدوا أشياء كثيرة لاعهد لهم بها ، فقلدوا المشارقة فى لبس الدروع الخفيفة المنسوجة وفى استخدام الموسيقى العسكرية ؛ واصطنعوا السيوف والرماح ، وأخذوا عنهم فن بناء الحصون وحفر الخنادق ، وإقامة الاستحكامات واستعملوا النار لنقل أخبارهم فى الليل والحمام الزاجل بالنهار ؛ وأخذوا كثيراً من أصول الهندسة وتأسيس المنازل بالطنافس والنماذج والسجاد والأوانى الخزفية وغيرها .

---

(١) راجع : تراث الإسلام ، وراجع كذلك غزوات العرب فى أوربا للأمير شكيب أرسلان وأثر العرب فى الغرب ترجمة الدكتور فؤاد حسنين ، وكتابنا الفتوة عند العرب ، الفصل الخاص بالموازنة بين الفتوة العربية والفروسية الغربية .

إن الفلسفة اليونانية التى يعتز بها الغرب ، وعليها بنى حضارته وثقافته ، إنما وصلت إليه عن طريق العرب ، فهم الذين حفظوها وشرحوها وعلقوا عليها وأضافوا إليها فلسفتهم وآراءهم فلما استيقظت أوربا وجدت الطريق ممهداً فسارت فى المدنية بخطى واسعة .

كان هذا استشراقاً غير منظم ، نشأ عن الاختلاط ولم ينتج عن الدرس ، أما الاهتمام بالعلوم العربية ودراستها فقديم يرجع إلى القرن العاشر الميلادى واهتم ملوك أوربا بآداب العرب وعلومهم ، وأول من فعل ذلك فردريك الثانى ملك صقلية سنة ١٢٥٠ ، ثم ألفونس ملك قشتالة فقد جمع الأخير المترجمين كما فعل المأمون من قبل ، وأمر بترجمة كتب العرب وكانوا ينقلونها إلى الأسبانية ثم إلى اللاتينية ، وشاع خبر هذه التراجم فحاكاه كثير من ملوك أوربا ومضت القرون الوسطى والثقافة العربية من طب وهندسة وفلسفة وجبر وحساب وكيمياء وصناعة وأدب[1] هى عماد الثقافة الأوربية ، ولكن مالبثت أوربا أن تخطت دور التعلم ، ومهرت فى شتى أنواع العلوم ، وبنت على هذا القديم الذى نقلته ومحصته ودرسته دراسة عميقة علماً جديداً لا يزال فى نمو واطراد ، وهو عماد الحضارة الغربية اليوم . ومع أن أثر العلوم والآداب العربية لا يجحد فإن هذا الأثر قد ضعف على مر الأيام[2] .

(١) بلغ ما ترجم من الكتب العربية فى القرون الوسطى أكثر من ٣٠٠ كتاب منها ٩٠ فى الفلسفة والطبيعيات ، و ٧٠ فى الرياضيات ، والنجوم . و ٩٠ فى الطب و ٤٠ فى الفلك والكيمياء .

(٢) لا مراء فى أن الأدب الأوربى قد تأثر بالأدب العربى خلال العصور الوسطى ، وظهر هذا الأثر فى صور شتى ، فترى الشعر الغربى يقتبس القافية من الشعر العربى بعد أن لم تكن معروفة فى الشعر اليونانى أو اللاتينى Legacy of Islam p. 373 ، والطروبادور نوع من الشعر الغنائى الغزلى الرقيق ، وقد ظهر فى جنوب أوربا فى القرون الوسطى ، وهو يشبه إلى حد كبير فى أوزانه وقوافيه ومعانيه وحرارته الشعر الغزلى العربى ، ولا سيما الغزل العذرى وكلمة (طروب) عربية لا شك فيها والقصص العربية والحرافات والأمثال والنوادر كان لها أكبر الاثر فى الأدب الأوربى حينذاك ؛ ومن أهم الكتب التى ترجمت كليلة ودمنة فى القرن الثالث عشر ، وكان النواة التى نشأ من حولها أدب قصصى عن الحيوان والطير ، وإذا وازنت بين أشعار (لافونتين) وبين قصص كليلة ودمنة تجد الاقتباس واضحا وقصص بوكاشيو (دى كاميرون) عليها طابع عربى ظاهر ، ولما ترجم ألف ليلة سنة ١٧٠٤ احتفى به الأدباء الأوربيون احتفاء شديدا ، واقتبسوا منه . ونسجوا على منواله . وظهرت قصص أوربية مشهورة فيها النفحة العربية والخيال الشرقى ، خذ مثلا (زاديج) لفولتير أو الكوميديا الإلهية لدانتى فإنك تلمس أثر رسالة الغفران قويا فى الملحمة الإيطالية ، ولم يكن التشابه بمجرد مصادفة ، بل الأمر أعمق من هذا . ومن أشهر الآثار التى تتسم بالطابع الشرقى العربى ديوان الشاعر العالمى (جيته) المسمى ديوان الشرق والغرب .

ومسرحية كورنى (السيد) ومسرحية راسين (باجازيت أى بايزيد) من أثر هذا الاتصال الثقافى .

واستقلت العلوم والآداب الأوربية ، وصارت مرجعاً ومعيناً ، وتراثاً شائعاً للإنسانية . ومع كل هذا فقد تجدد نشاط الغرب فى الاستشراق خلال العصور الحديثة ، وظهر هذا النشاط فى صور عدة :

١ — الجمعيات الأسيوية :

وهى جمعيات أنشأها المستعمرون أول الأمر لدراسة شئون الدول التى يحكمونها ، وتعرف لغاتهم وآدابهم ونفسياتهم ، حتى يكون حكمهم مبنياً على أسس متينة . ومن أقدم هذه الجمعيات تلك التى أنشئت فى بتافيا عاصمة جاوا سنة ١٧٨١ ، ومن أشهرها الجمعية الأسيوية الملكية بلندن ، وقد أسست سنة ١٧٢٣ ونظيرتها الفرنسية ١٨٢٠ . ولكل من الجمعيتين مجلة مشهورة تعنى بالأبحاث الشرقية والإسلامية والعربية ، وتقوم أحيانا بطبع كتب لم تنشر من قبل أو إخراجها بتعليقات قيمة ، ومن ذلك نشر المجلة الأسيوية الإنجليزية لمقامات الحريرى ، وترجمان الأشواق لابن عربى (ترجمها نيكلسون) . وقد اعتنى الفرنسيون بخاصة فى مجلتهم بالمذاهب الإسلامية فبحثوا فى الدروز والشيعة والإسماعيلية والوهابية والنصيرية وما شاكل ذلك .

وحذا كثير من الدول حذو إنجلترا وفرنسا فى إنشاء الجميات الأسيوية فصار لأمريكا الجمعية الشرقية ، ولألمانيا الجمعية الأسيوية ، وفى إيطاليا والنمسا كذلك .

٢ — المؤتمرات :

ومن مظاهر نشاطهم المؤتمرات التى يعقدونها فى إحدى مدنهم المشهورة ، ويؤمها المستشرقون من كل دولة ، وكثير من الأدباء والعلماء فى الدول الشرقية ، وتلقى فيها البحوث ويتناقش المؤتمرون فى شتى المسائل ويطلعون على ما قام به كل من الخدمات فى سبيل الاستشراق ، وأول مؤتمر عقده المستشرقون هو مؤتمر باريس سنة ١٧٧٣ ، وتكررت بعد ذلك المؤتمرات حتى زادت عن العشرين ، وقد أخذت مصر فى العصر الحديث تشترك

فى هذه المؤتمرات ومن أول من اشتركوا فيها عبد الله فكرى ، وحمزة فتح الله ، وحفنى ناصف وأحمد شوقى الشاعر .

٣ — المكتبات :

ومن العجب أن كثيراً من نفائس الفكر العربى والإسلامى ليس فى البلاد العربية ، وإنما اكتنزه الغربيون فى مكاتبهم ، وقد جمعوا كثيراً من هذا التراث فى خلال العصور الماضية ، وأيام محن المسلمين بالأندلس وصقلية وفرنسا وإيطاليا ، وأيام الحروب الصليبية ، وأيام أن دخلوا غزاة فاتحين ، أو تجاراً مستعمرين ، وحرصوا على اقتناء النسخ النادرة والكتب الثمينة ؛ حتى تجمع فى هذه المكتبات ما يزيد على مائتين وخمسين ألف مجلد ، ومن أشهرها : مكتبة برلين ، وباريس ، ولندن ، وليبزيج ، وليدن ، وأكسفورد ، وأدنبرة ، ولينفجراد ، ومدريد .

وقد عز على كثير من أدباء العرب وعلمائهم أن يظل هذا التراث النفيس غريباً محتبساً فى مكاتب أوربا ، فأخذوا منذ تنبهوا يغشون هذه المكتبات وينقلون بعض المخطوطات القيمة ، أو يصورونها ؛ وقد اهتمت بذلك جامعة القاهرة ، ورصدت لهذا العمل الأموال وبعثت العلماء لهذه الغاية ، وقد جدت الجامعة العربية فى نقل كثير من هذه المخطوطات وتصويرها حتى تهيأ لها عدد غير يسير منها سيلقى ولا شك كثيراً من الضوء على الحقائق العلمية والأدبية والتاريخية المتداولة .

على أننا لا زلنا نطمع فى المزيد وأن تنقل كل هذه الكتب وترد صورها على الأقل إلينا فنحن أولى بها من سوانا ولا سيما وقد نشأت بين ظهرانينا طائفة من العلماء المحققين الذين أجادوا إخراج هذه الكتب إخراجاً علمياً صحيحاً . ومن أشهر الذين اهتموا بهذا وجلبوا عشرات الكتب النادرة أو صورها المرحوم أحمد تيمور والمرحوم أحمد زكى ،

٤ — معاهد اللغات الشرقية :

وفى العواصم الكبرى بأوربا ، مدارس للغات الشرقية ، يرد مناهلها طلاب أوربيون يدرسون اللغات كى يتمكنوا من العيش ببعض بلاد الشرق تجاراً أو موظفين أو سياحاً أو مستعمرين كما يؤمها اليوم كثير من أبناء البلاد الشرقية والعربية ، يتزودون من علم كبار المستشرقين ، ويأخذون عنهم طرق البحث ، والاستنباط ، ومن أشهر هذه المعاهد مدرسة اللغات الشرقية بلندن وباريس وبرلين . وكل مدرسة تحوى مكتبة قيمة ، تعنى بدراسة اللهجات وتسجيل الأصوات ، ويدرس بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ما يزيد عن ثلاثين لغة .

٥ — أشهر المستشرقين المحدثين :

١ — دى ساسى الفرنسى توفى سنة ١٨٣٨ .

منشىء الجمعية الأسيوية الفرنسية ، وكان من أعظم المستشرقين وأصبرهم على الدرس وخلف عدة آثار تشهد بفضله ، من ترجمة لكليلة ودمنة ، ومقامات الحريرى ، ورحلة عبد اللطيف البغدادى ، وألفية ابن مالك والبردة ، وكتاب النقود للمقريزى ، وكتاب الزاجل لابن الصباغ ، وترجم كثيراً من أشعار العرب كقصيدة الطغرائى : ياخالى البال ، وله مؤلف فى تاريخ العرب أيام الجاهلية ، وآخر عن ديانة الدروز ، وهو الذى أنشأ مع تلامذته المجلة الأسيوية Journal Asiatique .

٢ — كاترمير Quatremére ١٨٥٧

وهو من تلاميذ دى ساسى الفرنسيين ، ومن أعماله : نقل تاريخ المماليك للمقريزى وطبع مقدمة ابن خلدون فى ستة أجزاء بالعربية والفرنسية ، ونشر منتخبات من أمثال الميدانى متناً وترجمة ، وترجم المعلقات السبع . ومن أبحاثه المشهورة بالمجلة الأسيوية ما كتبه عن النبطيين والعباسيين ، وكتاب الأغانى والفاطميين ، وذوق الشرقيين ، وغير ذلك من الأبحاث المفيدة التى تدل على نشاط جم ، وصبر بليغ .

٣ — مونك — Munk ١٨٦٧ .

وهو ألمانى يهودى درس على ساسى ، وقدم مصر لجمع مخطوطات كثيرة منها تاريخ الهند للبيرونى : ومن آثاره : تأثير اللغة العربية فى اللغة العبرية بعد التوراة ، وبحث ونقد فى ديانة الدروز ، ومجموعة فى الفلسفة العربية واليهودية (وهو كتاب نفيس) .

٤ — دى برسفال De Perceval ١٨٧١ .

وهناك أب وابن بهذا الاسم ، وكلاهما اشتغل بالعلوم الشرقية ، وإنما نعنى بهذا التاريخ الابن ، وقد قام برحلة إلى لبنان ومكث به ثلاث سنوات ، وعين أستاذاً للعربية العامية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم للفصحى فى معهد فرنسا : ومن آثاره : المعلقات السبع (وباكورة تاريخ العرب) فى ثلاثة مجلدات ، وقد طبع مراراً .

٥ — رينان Renan .

وقد درس اللاهوت فى أول نشأته ، وتعمق فى اللغات الشرقية ، وقام برحلة فى بلاد الشرق العربى . ومن مؤلفاته : تاريخ اللغات السامية فى جزئين ، كتاب ابن رشد وقد علق عليه بقوله : « لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو » ، وتاريخ فينيقية ، وقد اشتهر بتعصبه الذميم ضد العرب والمسلمين ، وفى كتابه تاريخ اللغات السامية مطاعن كثيرة على العقلية العربية سنرد على بعضها عما قليل .

٦ - دى فو De Vaux .

واشتهر بأبحاثه الرياضية والفلسفية ، ومن أحسن كتبه : مفكرو الإسلام فى خمسة أجزاء ، وكتاب الفلسفة المشرقية ، وترجم قصيدة ابن سينا فى النفس ، وترجم تائية ابن الفارض .

٧ — Massignon .

وهو من المستشرقين المعاصرين ، وكان عضواً بمجمع اللغة العربية بمصر ، ومن أكثر

المستشرقين نشاطاً ، وأطولهم باعاً ، وقد كان أستاذاً لتاريخ الفلسفة فى الجامعة المصرية ، وتلمذ أول أمره فى الجزائر وتونس وفاس ، ورحل إلى العراق ، وجاب كثيرا من الأقطار العربية . ومن آثاره المهمة : أخبار الحلاج والصوفية، والأمثال البغدادية للطالقانى ، وكتاب مراكش فى القرن السادس عشر ، وله بحوث طيبة فى دائرة المعارف الإسلامية .

٨ — لفى بروفنسال Provençol .

وهو كذلك من المستشرقين الفرنسيين المعاصرين ، ولد بالجزائر سنة ١٨٩٤ ، وقد انتدب أستاذاً زائراً بجامعة القاهرة ، ومن أشهر آثاره : أسبانيا المسلمة فى القرن العاشر والحضارة العربية فى أسبانيا ، وثائق غير منشورة عن تاريخ الموحدين ، وتقويم السير الأندلسية فى القرن الثالث عشر ، وقد عاون فى طبعة الذخيرة لابن بسام من مطبوعات جامعة القاهرة .

أما المستشرقون الإنجليز فمن أشهرهم :

١ — كارليل توفى سنة ١٨٥٠ وهو صاحب كتاب الأبطال المشهور .

٢ — إدوارد لين Lane .

وقد قدم مصر سنة ١٨٢٥ ودرس عاداتها دراسة طيبة ، حتى لقد لقبه أصدقاؤه بمصر بمنصور أفندى لكثرة تقليده للمصريين فى معيشتهم . ومن أجل آثاره : معجمه المشهور سواء العربى أو الانجليزى ، ومعجمه العربى نموذج احتذاه من قام بعمل المعاجم بعده ، ومن آثاره كذلك : كتاب عن أخلاق المصريين وعاداتهم ، وهو تحفة جميلة وقد ترجمه أخيراً الأستاذ عدلى نور بالرسالة ثم نشر على حدة .

٣ — وليم رايت Wright ١٨٦٩ .

ترجم رحلة ابن جبير ونقدها وعلق عليها ، ومن أشهر كتبه وأعمها نفعاً : كتابه فى النحو وقد طبع مرات ، وله كتاب جيد فى الموازنة بين اللغات السامية Comparative Grammer ، واشترك مع (دوزى) فى إخراج نفح الطيب للمقرى ، ونشر كتاب

الكامل للمبرد ، وكتاب تلقيب القوافى لابن كيسان ، وكتاب أخبار الرواد ، وترجم كليلة ودمنة ، وهو صاحب أبحاث الأدب السورى فى دائرة المعارف البريطانية .

٤ — إدوارد براون T.Browne توفى سنة ١٩٢٩ .

وكان أستاذاً بجامعة كمبردج للعربية والفارسية ، ومن آثاره : الطب عند العرب ، وتاريخ الأدب الفارسى ، ونشر كتاب مذكرة الشعراء لدولتشاه ، وكتاب نهاية الأرب فى أخبار الفرس والعرب ، والصحافة والشعر فى إيران الحديثة .

٥ — السير توماس أرنولد Arnold

وهو أول أستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ومن مؤلفاته العظيمة ذات الأثر الجليل كتابه الدعوة إلى الإسلام ، وقد ترجم إلى كثير من اللغات ، وقمنا بترجمته ونشر جزء كبير من هذه الترجمة بمجلة الرسالة سنة ١٩٣٩ ، ولكن حالت دون نشره عوامل مختلفة ، وقد تمت ترجمته إلى العربية ونشر فى هذه السنة على يد بعض الأساتذة . وفيه يظهر توماس أرنولد دون تحيز سر الإسلام وعظمته .

٦ — مرجوليوث : وقد اكتسب شهرة كبيرة فى البلاد العربية ، ونشر معجم الأدباء لياقوت الحموى ، ونشوار المحاضرة ، وديوان ابن التعاويذى ، وحماسة البحترى وترجم فصولا من التمدن الإسلامى لجورجي زيدان .

٧ — نيكلسون : وهو كذلك من أشهر المستشرقين وأبعدهم صيتاً ، ولا سيما فى أبحاثه عن التصوف الإسلامى ، وله فى ذلك كتاب فى ثمانى مجلدات ، ونشر ترجمان الأشواق لابن عربى ، وترجم لابن الفارض فى المجلة الأسيوية ، وفكرة الشخصية فى الصوفية ، وله كتاب مشهور فى تاريخ الأدب العربى ، وتوفى نيكلسون منذ أمد وجيز .

٨ — جب Gibb

وهو من أشهر المستشرقين الإنجليز ، وقد درسنا عليه بمدرسة اللغات الشرقية بلندن

وكان عضواً بمجمع اللغة العربية بمصر وله عناية فائقة بالأدب الحديث فى مصر والشام نشرت فى مجلة معهد اللغات الشرقية بلندن من سنة ١٩٢٧ — ١٩٣٠ وله كتاب موجز عن تاريخ الأدب العربى ، ومن أحدث كتبه وأنفعها كتاب « الميول الحديثة فى الإسلام» غير أنه شديد العناية بتركيا وتطورها ، وله أبحاث عن الفتوحات العربية فى آسيا الوسطى وعلاقتها ببلاد الصين ، وصار محرراً لدائرة المعارف الإسلامية ، وهو أستاذ بجامعة (هارفرد) بأمريكا ، وله خبرة واسعة ببلاد الشرق العربى .

أما المستشرقون الألمان فقد كان الحافز لهم على الاستشراق فى مبدأ الأمر الاشتغال بالمسائل الدينية وترجمة التوراة فاضطروا إلى دراسة العبرية ثم العربية . وبعد ذلك حفزتهم عوامل سياسية وتجارية إلى الاهتمام باللغات الشرقية ، وإن لم يتهيأ لهم أن يكونوا مستعمرين لهم أملاك واسعة وإمبراطوريات شرقية ، مترامية الأطراف كالفرنسيين والإنجليز ومع هذا فقد نبغ منهم عدد أفادوا الدراسات الشرقية والإسلامية فائدة لاتنكر ، ومن أشهرهم :

١ — فَرَيْتاخ توفى سنة ١٨٦١ .

وتعلم على دى ساسى فى باريس ، واشتغل بالتدريس فى جامعة (بون) ، ومن آثاره ديوان الحماسة لأبى تمام مع شرح التبريزى وبترجمة لاتينية ، وأمثال لقمان ، وأمثال العرب وأمثال الميدانى بترجمة لاتينية ، وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه ؛ وله معجم عربى لاتينى فى أربعة أجزاء . وطبع معجم البلدان لياقوت مع فهارس قيمة وتذييل

٢ — فلوجل توفى سنة ١٨٧٠ :

ومن آثاره : نشر كتاب كشف الظنون لحاجى خليفة مع ترجمة لاتينية فى سبعة مجلدات ، ودراسة عن الكندى الفليسوف العربى ، ونشر كتاب التعريفات للجرجانى وأتبعه بدراسة عن ابن عربى ومدارس العرب النحوية حتى القرن العاشر ، ونشر الفهرس لابن النديم كذلك .

٣ — فليشر توفى سنة ١٨٨٨ .

مؤسس الجمعية الشرقية الألمانية ، وقد نشرت هذه الجمعية كثيراً من الكتب القيمة مثل معجم البلدان تصحيح (وستنفلد) وشرح المفصل لابن يعيش تصحيح (يان) ، وكتاب الآثار الباقية للبيرونى تصحيح (سخو)

ومن آثاره : ترجمة ألف ليلة وليلة فى تسعة مجلدات وتفسير القرآن للبيضاوى وعجائب المخلوقات للقزوينى .

٤ — وستنفلد سنة ١٨٩٩ .

ومن آثاره : مختلف القبائل ومؤتلفها لمحمد بن حبيب ، وتاريخ مكة للأزرقى ، وأخبار قبط مصر للمقريزى ، وجغرافية مصر للقلقشندى ، وتاريخ الخلفاء الفاطميين ، وتاريخ أطباء العرب ، وديوان علقمة الفحل ، وكتاب الاشتقاق لابن دريد ، ومعجم البلدان لياقوت فى جزءين ، وآثار البلاد للقزوينى ، وطبقات الحفاظ للذهبى ، وغير ذلك من الكتب القيمة وكلها تدل على نشاط وافر ، ورغبة صادقة فى خدمة الأدب العربى والتاريخ الإسلامى .

نولدكه توفى سنة ١٩٣١ .

ومن آثاره قواعد اللغة العربية ، وتقارب اللهجات ، وتاريخ القرآن ، ودراسة عن المعلقات ، وتاريخ عروة بن الورد ، وتاريخ الفرس والعرب ، والعرب فى عهد الساسانيين وله مختارات شعرية من العصر الجاهلى والإسلامى الأول ، وجمعت مقالاته فى مجلدين فبلغت خمسمائة مقالة .

ولم يقتصر الاستشراق على علماء هذه الدول ، بل نرى فى معظم البلاد الأوربية وفى أمريكا مستشرقين لهم باع طويل فى نشر الكتب وتصحيحها وترجمة بعضها إلى لغاتهم، حتى ولو لم يكن لهم مطمع استعمارى ، أومقصد تجارى أوتبشيرى ، ومن هؤلاء المستشرقين :

١ — كراتشوفسكى الروسى(١) (ولا يزال حياً) وقد عنى عناية خاصة بالأدب العربى الحديث ، وانتدب أستاذاً بجامعة القاهرة ، ومن آثاره التى يقال إنها لا تقل عن الثلاثمائة بين مصنف ومترجم ومفسر : الرواية التاريخية فى الأدب العربى المعاصر ، نشرت سنة ١٩١١ ، ونشر مخطوطتين مجهولتين عن الجغرافية وعلم الفلك فى الحبشة وأسبانيا السلمة والمتنبى وأبى العلاء ، وطبع كتاب البديع لابن المعتز بتفسير وتعليق ومقدمة فى ثمانين صفحة .

٢ — دوزى الهولاندى توفى سنة ١٨٨٣ .

ولد بليدن ، وهى من أشهر المدن اهتماما بنشر الكتب العربية ، ومن أشهر مؤلفاته : تاريخ الإسلام فى إسبانيا فى أربعة أجزاء ، بدأه بدرس القبائل العربية فى العصر الجاهلى ثم عهد النبى عليه السلام ، ثم عصر الأمويين ، وتخلص إلى الأندلس فأرخها من سنة ٧١١ إلى ١١١٠ ، وله كتاب « كلام كتاب العرب فى دولة العباديين فى ثلاثة أجزاء » ، ومن أجل آثاره ملحق للمعاجم العربية ذكر فيه الألفاظ التى لم ترد بها ويقع فى جزءين ، ومما نشره تاريخ ابن زمان ، وتاريخ المعجب للمراكشى ، وجغرافية الأدريسى .

٣ — دى جويه De Goeje المتوفى سنة ١٩٠٩ وهو هولندى ، وقد اشتهر بنشر المؤلفات العربية الهامة بعد تصحيحها وضبطها ، فما نشره : فتوح البلدان للبلاذرى . وديوان مسلم بن الوليد ، والمكتبة الجغرافية العربية فى ثمانية مجلدات ، وتاريخ الطبرى الكبير فى خمسة عشر مجلداً مع فهارس قيمة ، وغريب الحديث لأبى عبد القاسم بن سلام (وهو أقدم المخطوطات العربية بأوربا بعد القرآن) ، ونشر كذلك رحلة ابن جبير ، والمسالك والممالك لابن حوقل ، وأحسن التقاسيم للمقدسى البشارى ، والأعلاق النفيسة لابن رسته ، وجزءاً من تجارب الأمم لابن مسكوية ، وجغرافية الأصطخرى ، ورسالة حى بن يقظان ، والتمدن

---

(١) راجع ترجمته بالتفصيل إذا شئت فى كتاب (المستشرقون) لنجيب العقيقى ص ١٣٢ ومابعدها وقد اعتمدنا فى الكلام عن المستشرقين على هذا الكتاب ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان وتاريخ الآداب العربية للأب لويس شيخو وعلى صلاتنا ببعض هؤلاء المستشرقين ولاسيما المعاصرين منهم .

الإسلامى لجرجى زيدان ، وسيرة الرسول (عليه السلام) لابن هشام .. . وعشرات الكتب والمخطوطات القيمة .

٤ — جولد زيهير المجرى — وتوفى سنة ١٩٢٩ .

وهو إسرائيلى تبحر فى اللغة العربية ، والشريعة الإسلامية ، له فيهما أبحاث تدل على سعة اطلاع ، وطول باع ، ومن أشهر آثاره : العقيدة والشريعة فى الإسلام وقد ترجم أخيراً إلى العربية ، وكتاب آداب الجدل عند الشيعة ، والفقه العربى ، والتقية فى الإسلام ونشر كتاب المستظهرى فى الفضائح الباطنية وفضائح المستظهرية للغزالى ، وغير ذلك من الكتب التى تدل على اهتمامه بالعقائد والمذاهب .

هذا وقد اشتهر فى كثير من الدول بعض أفراد من المستشرقين مثل : سانتلانا ، ونيلنو ، وجويدى الكبير ، وجويدى الابن فى إيطاليا[1] ، والبارون كريمر والدكتور موزر فى النمسا ، وفنديك ، وماكدونالد وشارلز آدمس فى أمريكا ، وكريمرسكى فى بولندا وبول كراوس فى تشيكوسلوفاكيا[2] ، وبركلمن فى ألمانيا ، وكتابه فى تاريخ الأدب العربى من أهم المراجع المتمدة ولاسيما تلك اللاحق التى يضيفها إليه فى كل عام وقد قام بترجمته زميلنا المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار .

أثر المستشرقين :

تفرغ المستشرقون للبحث ، ومنحتهم أممهم المال والوقت ، وتحت أيديهم المكاتب العامرة بالأبحاث وبالمخطوطات النادرة ، وكلهم يعرف عدة لغات عربية وشرقية ؛ فكان

---

(١) وكل هؤلاء المستشرقون كانت لهم صلات وثيقة بمصر ، وقد درسوا فى جامعة القاهرة ، وفى الجامعة المصرية القديمة ، واشتهر سانتلانا بأبحاثه الفلسفية ، ونلينو بأبحاثه الفلكية والتصوف ، وجويدى الكبير بالأدب والتاريخ واللغة الحبشية والحميرية وجويدى الابن بأبحاثه فى الأدب وفقه اللغة والعقائد والمذاهب الإسلامية .

(٢) انتدبته الجامعة المصرية للتدريس بها من ١٩٣٦ حتى انتحاره فى سنة ١٩٤٤ واشتهر بأبحاثه عن الفرق الدينية وتراجم رجالها ، وقد اعترف له كثير من المستشرقين بالفضل والدأب .

من الطبيعى أن تتسم آثارهم بسمات التحقيق والمثابرة والاطلاع والموازنة ومراجعة الأصول أو المخطوطات ووضع الفهارس وغير ذلك مما كان مفقوداً فى الكتب العربية .

ولقد مهدوا السبيل أمام الباحثين بنشرهم المخطوطات الثمينة فى طبعات أنيقة مصححة ، مزودة بتعليقات نفيسة ، وبفهارس تيسر الاطلاع وتجمع الأشخاص والأماكن ، والموضوعات . واشتهروا بتحقيقاتهم اللغوية ، وبأبحاثهم فى أصول اللغات ، وفقه اللغة ، والساميات ، وباكتشافاتهم الأثرية فى بلاد العرب ، وقد غيرت هذه الاكتشافات كثيراً من نظريات التاريخ وحقائقه المتداولة . وامتازت أبحاثهم بحسن العرض ، وبالتدقيق العلمى ، وبالنظرات الشاملة . وأهم أثر للمستشرقين يتضح فى الكتب العربية التى ألفت على نمط كتبهم ؛ ولا يهولنَّك هذا ، فهم كما ذكرت لك قد أتقنوا طرق البحث فى لغتهم ، وطبقوها على الدراسات الشرقية التى يضطلعون بها ، وعندهم من الوقت والمال ما يمكنهم من حسن الإخراج وجمال الأداء .

إن الدراسات الأدبية وتاريخ الأدب بصورته التى نعرفها اليوم هى أثر من آثار المستشرقين وحسنة من حسناتهم ؛ ولا تعجب فالكتب العربية منذ طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى وما أتى بعده من كتب التراجم كمعجم الأدباء لياقوت ، ووفيات الأعيان لابن خلكان لم تبحث فى الأسباب والعلل والنتائج والبيئة والظواهر السياسية والاجتماعية ، وتفاعل الأديب وعصره كما نرى اليوم فى الدراسات الأدبية ، وإنما كان الأديب وحدة منفصلة لا تربطه بغيره روابط .

ومن الكتب التى ظهرت فى هذه الحقبة التى نؤرخ لها (أى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) وتجلت فيها آثار المستشرقين وطريقة بحثهم بل وكثير من آرائهم وأحكامهم وأبحاثهم :

١ — كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، وقد اعتمد فيه على بروكلمن الألمانى فى كتابه تاريخ الأدب العربى ، ولم يقف بروكلمن عند القرن التاسع عشر بل أصدر

ملاحق عديدة يسجل فيها تطور الآداب العربية فى عصرنا هذا ، وينقد معظم الأدب الذى تصدره المطبعة العربية ويتتبع الأديب منذ نشأته ، ويسجل تطورات أدبه .

٢ — كتاب الأب لويس شيخو فى الأدب العربى إبان القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، وكتابه هذا محاولة أولية لمحاكاة المستشرقين فى كتاباتهم ، وفيه كثير من طرق البحث القديمة ، ويمكنك أن تدرك الفرق بين ما يكتب اليوم وما كتبه الأب شيخو منذ ربع قرن .

٣ — وتاريخ أدب العرب لمصطفى صادق الرافعى ، وهو من الكتب التى تدل على غزارة علم وسعة اطلاع ، وبذل كثير من الجهد ، ولكنه لم يبلغ فى بعض أحكامه وطريقة عرضه ما بلغته الأبحاث الأدبية بعد ، ويعد فى الطليعة من الكتب التى ألفت على الطريقة الحديثة ، وقد وفق فيه مؤلفه لكثير من اللمحات والأحكام الصائبة . مع أن الرافعى لم يكن يعرف إلا القليل من اللغات الأجنبية .

٤ — وآداب اللغة العربية فى العصر العباسى للشيخ أحمد الإسكندرى .

٥ — وبلوغ الأرب فى أحوال العرب للسيد محمود شكرى الألوسى البغدادى[1] .

٦ — وعلم الأدب لحفنى ناصف .

٧ — والاشتقاق والتعريب لعبد القادر المغربى .

وكانت هذه الكتب بواكير الدراسات الأدبية التى نحا فيها الكتاب العرب منحى المستشرقين وتأثروا بهم فى منهج أبحاثهم . ولكن لم تر الجامعة المصرية القديمة ، ولا جامعة

---

(١) صاحب هذا الكتاب السيد محمود شكرى الألوسى البغدادى ولد سنة ١٢٧٣ هـ ، ١٨٥٦ م ودرس على الطريقة الأزهرية الكتب اللغوية والدينية ، ولكن كتابه هذا يعد الآن كتاباً قوياً فى مادته يدل على علم صاحبه وقدرته على التأليف ، وهو من المراجع القيمة فى أحوال عرب الجاهلية ، وقد قدمه لمؤتمر المستشرقين فى استوكهلم سنه ١٨٨٩ ، ونال به الجائزة الأولى من المؤتمر . وقد احتل كتابه هذا مكانته اللائقة به فى عالم التأليف ، ولا يزال حتى اليوم حجة فى موضعه ، ينتفع به كثير من طلاب الأدب على الرغم من أن البيئة التى نشأ بها المؤلف كانت متأخرة . هذا وقد توفى السيد محمود شكرى الألوسى سنة ١٣٤٢ هـ ، ١٩٢٤ م ببغداد ، وحسبه هذا الكتاب ذكرى طيبة وعملا صالحا . راجع تاريخ حياته وبقية آثاره وأشعاره فى أعلام العراق للسيد محمد بهجت الأثرى :

القاهرة عقب إنشائها غناء عن المستشرقين ، فأخذت تنتدبهم للقيام بالتدريس فيها ، ونشر طرقهم السديدة فى البحث بين طلاب الأدب . ولقد ظهر هذا الأثر جلياً واضحاً فى الأبحاث التى تلت ذلك ، ولازلنا سائرين فى هذا الطريق ، نعتمد على أنفسنا مرة ، ونستأنس بآرائهم مرة ، والبحوث الأدبية تكثر وتتنوع ويظهر عليها أثر التحقيق العلمى السليم .

ولعلك تسأل : أترى المستشرقين أعلم منا بلغاتنا وبأصول عقائدنا وفرقنا الدينية ، وهل هم معصومون من التعصب والخطأ ؟ !

فى الحق إن كثيراً من المستشرقين على حظ كبير من العلم والمعرفة ، ولكن الأمر الذى يهمنا نحن ليس العلم ، وإنما المنهج وطريقة الاستقراء والاستنباط والدرس وتكوين الحكم بعد الموازنات ، ومراجعة الأصول والمخطوطات وكل ماقيل حول الموضوع ؛ ولقد ذكرت لك آنفاً أن مكتبات أوربا تحوى مائتين وخمسين ألف كتاب عربى بين مخطوط ومطبوع ، وهذه الثروة الهائلة حرية أن تتيح لمن يعيش معها — وقد كفلت له أسباب البحث الأخرى — أن يتسع اطلاعه ويعمق نظره ؛ ويقرب حكمه من الصواب ، فلابدع إذا كان بعض المستشرقين حجة فى أبحاثهم التى تصدوا لها .

أجل ! إننا لانبرىء كثيراً منهم من التعصب ، ولاسيما فى المسائل التى تتعلق بالدين والعقيدة والجنس ، وهيهات أن يكتب أحد عن الإسلام أو عن العرب دون أن ينزع فى كتابته إلى ماينم عن تعصبه وقليل منهم من استطاع أن يتجرد من عواطفه ونزعاته حين البحث مثل (السير توماس أرنولد) فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) .

أما عن الأدب فلا داعى للتعصب اللهم إلى ما أشاعوه عن أسطورة العقلية السامية والآرية حين كلامهم عن خلو الأدب العربى من القصة ، وتعليلهم لهذا بذلك التعليل السخيف ، وهو عقم الخيال العربى وإجدابه[1] ، ولعلك لم تنس الضجة التى أثيرت حول كتاب (فى الشعر الجاهلى) للدكتور طه حسين ، وماثبت من أنه تأثر فيه برأى (مرجوليوث)

---

(١) سنخص القصة بكلمة فى هذا الفصل باعتبارها لونا من ألوان الأدب لم يكن موجوداً لدى العرب

وأخذه آراء هذا المستشرق قضية لاجدال فيها ، فأنكر فيما أنكر قصة إبراهيم وإسماعيل وشك مثله فى معظم الشعر الجاهلى (١) وقَلّ منهم من خلا من التعصب الدينى أو الجنسى .

وللمستشرقين أخطاء كثيرة ، يرجع بعضها إلى جهل بالمصطلحات العربية وعدم معرفة معانيها الصحيحة ، فتضللهم هذه المصطلحات ، وتدعوهم إلى استنباطات فاسدة ، فكازانوفا مثلا يترجم كلمة أمى بشعبى ، وكازميرسكى يترجم قول الله تعالى للملائكة . « اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » باعبدوا آدم . وأحياناً يبالغون فى التحليل والتعليل والتأويل ، ويحاولون أن يجدوا شيئاً لم يوجد قط ، فيضلون سواء السبيل ، فترى كازنوفا مثلا عند بحثه فى (إخوان الصفا) يقع على نص فى رسائلهم ، ويجتهد فى أن يستنبط منه تاريخ تأليفهم الرسائل بطريقة مضحكة أبعدته عن الصواب كل البعد (٢) .

وعلى الرغم من كل هذا ، فأخطاؤهم العلمية قليلة ، وهى مغتفرة لهم إذا راعينا إنهم يبحثون فى ديانات غيرهم ولغاتهم وآدابهم وأخلاقهم ، وأخطاؤنا نحن أكثر من أخطائهم وأشنع ، ولا نستطيع أن نغمطهم حقهم ، وننكر أياديهم على الأدب العربى والأبحاث الإسلامية واللغوية والاجتماعية ، ونشرهم مئات الكتب والمخطوطات الثمينه التى أتاحت لنا معرفة ما كان عليه أسلافنا حق المعرفة . إننا لازلنا نتلقى عنهم الكثير ، وسوف نظل كذلك إلى أن يتاح لنا نقل صورة صحيحة من المخطوطات النادرة الموجودة لديهم ، ونسخ الكتب القيمة التى تعوزنا فى البحث ، وإلى أن يتفرغ منا العلماء للبحث الطويل الشاق دون مراعاة الزمان والجهد كما يفعلون ، وحينئذ نستطيع أن نجاريهم فى مضمارهم ، ولهم فضل السبق .

(م) أثر الاتصال بالأدب الأجنبى :

كان من الطبيعى أن يتأثر الشرق العربى ، ولاسيما مصر ولبنان ، بهذا الاتصال

(١) راجع كتاب النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى تأليف الأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، ومقدمة الأمير شكيب أرسلان له .

(٢) راجع (إخوان الصفا) لمؤلف هذا الكتاب ص ٦٨ وما بعدها .

المباشر بالأدب الأجنبى ، ففى مصر يجثم الاحتلال الإنجليزى على صدر الوادى الخصيب ، ويشتد نفوذ الأجانب من كل دولة ؛ يفدون أفواجاً ينشدون الغنى والسعادة فى هذه البلد المضيافة والأرض البكر ، وتفرض اللغة الإنجليزية على تلاميذ المدارس المصرية ، ويعمد الأدباء اللبنانيون والسوريون الذين عموا صوب مصر هرباً بحرياتهم إلى الأدب الغربى ينقلون منه ألواناً شتى إلى اللغة العربية .

ولا أريد فى هذه العجالة أن أتقصى أثر الفكر الغربى فى العقل العربى والنتاج الأدبى فإن هذا الامتزاج بين الثقافتين لم تظهر آثاره الحقيقية إلا بعد فترة طويلة من الحقبة التى نؤرخ لها ، حين شب جيل من الأدباء فى هـــذه البيئة التى تلتقى فيها تعاليم محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ووطنية عبدالله نديم ، وأدب حسين المرصفى والسيدبن على المرصفى بقصص هوجو وفولتير وراسين وكورنى وشكسبير وعشرات من قصاص فرنسا وإنجلترا وغيرهما . ولكن كانت السمة الغالبة على أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هى ازدياد نفوذ الأدب الأجنبى وإعجاب أبناء البلاد العربية به ، فتمنى الشعراء أن يجددوا فى الشعر ، وأن ينسجوا على منوال شعراء الغرب ، بل كان منهم من يود التحرر من قيود الشعر العربى ويأخذ بحرية الشعر الفرنجى ، فهتف حافظ بقوله .

آن ياشعر أن نفك قيودا قيدتنا بهـا دعاة المحال

فارفعوا هذه الكمائم عنـا ودعونا نَشَم ريح الشمال

ويقصد بالشمال بلاد الغرب ، وإن عجز حافظ عن فك هذه القيود ولم يستطع أن يخرج خروجا تاما على الصور القديمة مهما كانت روحه التجديدية راغبة فى ذلك[1] ، ولكن مما لاريب فيه أن كثيراً من المعانى الجديدة والصور الغربية والخيال الأوربى قد ابتدأ يتسرب إلى أفكار الشعراء وأخيلتهم ، وإن لم يظهر أثره إلا بعد مدة ، وفى جيل غير هذا الجيل الذى شهد زحف الآداب الغربية أول الأمر . وكم كان بودى أن أقف هنـا وقفة طويلة لأبين هذا الأثر ، ولكن موعدنا به فى الجزء التالى إن شاءالله .

---

(١) الإسلام والتجديد للدكتور شارلس آدمس ص ٢٠٩ .

أما النثر فقد كان التأثير فيه شديداً ؛ لانطلاقه وعدم تقيده بقوالب وأوزان وقواف ، ولأن النثر الغربى المترجم كان الكثرة الغالبة ولا سيما القصة كما رأيت[1] . وهنا يجدر بنا أن نتأنى قليلا ، فإن القصة قد صار لها فى عالم الأدب العربى شأن كبير ، وكانت الحقبة التى نؤرخ لها هى حقبة الحضانة التى نمت فيها القصة ، وأخذت بعد ذلك تتفتح وتزدهر وتجرى على الألسنة والأقلام . والقصة هى أكثر أنواع الأدب شيوعاً فى الغرب ، بل إن الأدب الغربى يتسم بأنه أدب القصة ، وليس كذلك الأدب العربى ، فلم كان هذا ؟ وهل مايدعيه بعض النقاد الغربيين ، ويتبعهم فى ذلك كثير من الكتاب العرب — من أن العقلية العربية مجدبة عقيمة الخيال ادعاء صحيح ؟ ؟ . إن هذا الموضوع يتطلب منا كلمة موجزة قبل أن نفرغ من هذا الكتاب لأن النثر — وهو كما قلنا قد تأثر بالأدب الغربى أكثر من الشعر — قد صار له ثوبان يظهر فيهما : القصة والمقالة .

١ — القصة :

وموضوع القصة موضوع طويل وشائق ، فهناك تاريخ القصة ونشأتها فى العالم ، وأنواع القصة من : خرافة ومثل ، وحكاية وأقصوصة ورواية ؛ ثم ألوان الرواية من : واقعية أو خيالية أو تاريخية أو نفسية إلى آخر هذه الأبحاث ، ثم هناك شروط القصة وكيفية بنائها وما يشترط فى المقدمة والحوادث والعقدة والجو والحل ، وهل تخالف القصة القصيرة فى تركيبها وإنشائها الرواية؟وبعدذلك كله هناك القصص الأوربى ، والقصص العربى ، وهل الأدب العربى كما يزعم بعض الباحثين مجدب من القصة ؛ كل هذه موضوعات كنا نود البحث فيها ، وإيفاءها حقها[2] ، ولكنها كما ترى طويلة وتحتاج إلى كتاب خاص يتناول فيه القصص منذ نشأته إلى اليوم ، ويتعرض للقصص العربى بالتفصيل مبتدئاً بالعصر الجاهلى والموازنة بين خرافات الجاهلية وأساطير اليونان والرومان ؛ ثم يتكلم على قصص القرآن ، ثم القصص الإبداعى فى العصر الأموى أى قصص الحب العذرى ، ثم تأثر الأدب العربى بالآداب الأجنبية ، ولاسيما الأدب الفارسى وظهور كليلة ودمنة ، وقصص ابن عبدوس

(١) راجع فى تأثر النثر العربى الحديث بالقصة الغربية كتاب الدكتور إسماعيل أدهم عن (توفيق الحكيم الفنان الحائر) حلب سنة ١٩٣٩ .

(٢) راجع دراسات أدبية ج ١ للمؤلف ، ففيه فصل ضاف عن أدب القصة .

الجهشيارى ، والصادح والباغم ؛ ثم ظهور المقامات ، وبعد ذلك كله ظهور ألف ليلة وليلة ومقدار ما به من فن ، ومنزلته فى عالم الأدب ، ويتعرض الباحث فى الأدب العربى حين يكتب فى كل هذا للأثر العربى الخالص فى هـــذه القصص ، وللتأثير الأجنبى فيها ؛ ليستخلص من كل ذلك حكما على العقلية العربية . ولعلك قد رأيت من إثارة هـذه الموضوعات أمامك أنها تحتاج إلى كتاب خاص ، يتكلم عنها بإسهاب ويوفيها حقها من البحث والتمحيص ، ولعل ذلك يكون قريباً .

أما الآن فإنى أتعرض للقصة من ناحية واحدة ، دعانى إليها كثرة ماترجم من أدب الغرب وقصصه فى أخريات القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ودعوى الغربيين بأنها نتاج يصعب على العرب إخراج مثله ؛ إذ ينقصهم الخيال المبتكر والعقل الخالق .

يدعى هؤلاء أن السبب فى فقدان القصة من الأدب العربى هى البيئة التى عاش فيها العرب دهوراً طويلة فى صحرائهم الجدبة ، التى قلما يطرأ على بساطها تغير ، فشمسها ضاحية وهواؤها راكد ، لاغابات فيها تشق أشجارُها أجواز الفضاء، وتتلون أوراقها ألواناً مختلفة تبعاً لتغير فصول السنة ، ويشعر من يغشاها برهبة تملأ جوانحه ، وقشعريرة تسرى فى بدنه ولا كهوف فيها تتحدث عن شعوب اتخذتها مسكناً أمداً غير يسير ، ثم هجرتها بعد أن تحضرت ، وخلفت فيها آثاراً لاتزال ناطقة ولاسماء صـــاخبة متقلبة مزمجرة هادرة ، ولاجبال يكسوها الثلج فيخطف البصر ويظهر جبروت الطبيعة ؛ وإنما هى فضاء ممتد يسبح فيه النظر إلى مسير أيام وأيام دون أن يقف فى سبيله مايرده ، وهنا وهناك كثبان وتلال وجبال متجهمة الأديم ، عارية إلا من الصخر والرمل؛فلابدع إذا جاء الخيال السامى صورة من هذه الصحراء . وعلى العكس من ذلك البيئة التى عاش فيها الآريون قبل أن يدخلوا إلى أوربا ، وهى شمال بلاد الهند ، فإن الطبيعة فيها قاسية قسوة عارمة ، والمناظر متنوعة ، والغابات كثيفة دكناء والجو متقلب لايستقر على حال فالرعود القاصفة ، والريح العاصفة والمطر الهطال والبروق الخاطفة والسحب تتراكم فى السماء كأنها جيوش يدفع بعضها بعضاً . وقد بثت هذه الطبيعة فى نفس الإنسان الذى عاش فى أحضانها شيئاً من الخشية والرعب

وألهمته الأساطير والخرافات ، فكان ذلك بدء القصة ، وقد اختزن العقل الأوربى من صور هذه الحياة الأولى شيئاً غير قليل ، وكان له بهذا : الخيال المجنح ، والعقلية الخصبة ، والنظرة الفاحصة ، وهذه المواهب هى القصة .

فالقصة فى نظرهم الصورة المثلى التى يتجلى فيها الخيال وتظهر العبقرية ، وخلو الأدب العربى منها فيما يزعمون دليل على ضعف العقلية العربية ، وقد جاراهم فى هذا بعض أدبائنا غير مدركين ما فى هذه الدعوى من خداع وأخطاء . استمع إلى الأستاذ أحمد أمين وكيف يجعل من قلمه صدى لهذه الفكرة الخاطئة فيقول عن العربى : « إن خياله محدود وغير متنوع ، وقلما يرسم له خياله عيشة خيراً من عيشته ، وحياة خيراً من حياته يسعى وراءها ، لذلك لم يعرف المثل الأعلى ، لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له فى لغته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم يشر إليه فيما نعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعرى فى عالم جديد يستق منه معنى جديداً ولكنه فى دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب » ؛ ويقول فى موضع آخر : « والمزاج العصبى يستتبع عادة الذكاء ، وفى الحق إن العربى ذكى يظهر ذكاؤه فى لغته فكثيرا ما يعتمد على اللمحة الدالة ، والإشارة البعيدة ، كما يظهر فى حضور بديهته ، فما هو إلا أن يُفجأ بالأمر فيفجؤك بالجوابْ الحسن ، ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر ، فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة فيبهرك تفنّنه فى القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى ، وإن شئت فقل : إن لسانه أمهرُ من عقله »[١] .

هذا هو ما يقول الأستاذ أحمد أمين ، ويقول مثله توفيق الحكيم[٢] وعباسْ العقاد فى الفصول[٣] ونسى الأستاذ أحمد أمين حين أنكر أن العرب عرفوا المثل الأعلى أو أشاروا إليه قوله تعالى : للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثلُ السوْء ، ولله المثلُ الأعلى وهو العزيز الحكيم[٤] ، وقوله تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلْق ثم يعيده ، وهو أهون عليه وله المثل

---

(١) راجع فجر الإسلام ص ٤٦ ، ٤٧ . (٢) فى كتابه تحت شمس الفكر ص ٦٣ـ٨٤ .

(٣) راجع كتاب : الفصول للعقاد وما نقله عنه Widmer فى دراسته عن محمود تيمور القصاص المصرى ص ١٥ . وانظر كذلك خليل مطران فى المقتطف م ٨٢ ج إبريل ١٩٣٣ ص ٥٠٠ .

(٤) سورة ١٦ الآية ٦٢ .

الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »(١) ، وأما أن المثل الأعلى كلمة واحدة أو كلمتان فهذا لايقدم فى القضية ولايؤخر ، فلا الكلمة الواحدة تدل على عمق الخيال ولا الكلمتان تدلان على تقصيره ، وهذا الكلام — وللأسف — صدى لما يفتريه الشعوبيون على العرب ، وما يقدمونه للانتقاص منهم والغض من شأنهم قديماً وحديثاً .

ولنعد إلى القصة وإلى هذه الخرافة — خرافة العقلية السامية والعقلية الآرية . فالقصة الفنية لم تعرف فى الأدب الغربى إلى سنة ١٧٤٠ م حين ألف (رتشردسن) قصته (باملا)(٢) ، وعدها النقاد قصة فنية بل عدوها القصه الأولى ، واشترطوا فى القصة الجديرة بهذا الاسم شروطاً أهمها أن تكون واقعية ، وفرقوا بين القصة وبين الشعر فى هذا الباب بقولهم : « الشعر صوتٌ ينطق بما هو خارق للمألوف ، وبما هو أسمى من مجرى الحياة المعهودة وبالإحساس النادر الذى لايلم بالإنسان إلاقبسات متباعدة ، فهو على الجملة يتحرك فى مجال أعلى من مجال الحياة الواقعة . أما النثر فهو — على نقيض ذلك — أداة تعبر عن الحياة الجارية المألوفة الشائعة التى لاغرابة فيها ولاشذوذ ولاسمو . . ، ففى مقدور النثر أن يعبر عن كل هذه الأشياء تعبيراً أدق وأوفى مما يستطيع الشعر ... من هنا كان النثر أداة ملائمة للتعبير عن حوادث الحياة اليومية التى تجرى على المألوف ، ولاتكون عظيمة المغزى ولما كانت القصة حكايه تروى بالنثروجها من أوجه النشاط والحركة فى حياة الإنسان ، نخير لها إذاً أن تقصَّ قصة عادية عن الإنسان العادى الحقيقى كما تجرى حياتهُ فى عالم الواقع المتكرر كل يوم » .

« الحكاية النثرية المثلى — أى القصة الجيدة — هى التى تستغل كل ما للنثر من قدرة على التعبير ، وقد علمت أن النثر من شأنه أن يعالج الواقعى المألوف ، وإذافروعةالقصة وبراعتها أن تروى حكاية الحوادث المألوفة الواقعية الجارية . . . ولايمكن لقصة بمعناها الصيح أن تنشأ إلا إذا اهتم الناس أولا بأجزاء الحياة وتفصيلاتها اهتماماً يحول التافه إلى

---

(١) سورة ٣٠ الآية ٢٦ .

(٢) راجع Encyclopedia Britanica : Story .

شيء ذي وزن وشأن ، وإلا اذا أخذوا يستمتعون بمطالعة أوجه الحياة المألوفة كما تقع كل يوم » .

« على أن القصة الفنية الصحيحة تختار بطلها رجلا عادياً ممن أهملتهم صحائف التاريخ ووثائقه ؛ إذ ليست القصة بحاجة إلى الرجوع إلى الماضي لانتقاء أبطالها من بين أعلام التاريخ وأولى لها أن تقصد إلى تصوير هؤلاء الناس الذين نعيش بينهم . أضف إلى ذلك أن معرفة الدقائق التي أحاطت بحياة البطل التاريخي متعذرة أو مستحيلة »(١) هذه هي القصة في عرف النقاد الغربيين تُعنى بالوقائع وبالجزئيات وبالتفاصيل وتبعد عن الخيال كل البعد ، وإذا كان الأمر يحتاج إلى خيال وإلى مثل أعلى فالشعر هو وسيلة التعبير وهذا الرأي الذي قررنا هو رأي المدرسة الواقعية في الأدب والتي ابتدأت تتجه نحو واقع الحياة منذ القرن الثامن عشر ، ولها اليوم السيطرة على الأدب الغربي كله . وقد فصلنا الكلام عن المذهب الواقعي في كتابنا (المسرحية) وأظنك أدركتَ الغرض الذي من أجله سقنا لك رأي نقاد الغرب في القصة لأن العرب إذا لم يبرزوا في هذه القصة بمعناها الفني عند الغربيين فذلك لسببين :

(١) قوة الخيال عند العرب ، وسطوة ذلك الخيال ، فهو دائماً مجنح يسبح في عالم المثل العليا (لا كما يقول الأستاذ أحمد أمين) ، ويأبى أن يعنى بالتوافه وبالحياة الواقعية وبالتفصيلات والجزئيات ، وبالرجل العادي الذي أهمله التاريخ ، والذي لا يأبه له الناس وإنما يعمد دائماً إلى ما هو أسمى من ذلك وأجل شأناً ، ولذلك كان الشعر أعلى صور البيان عند العرب ، ومفخرة أدبائهم .

ومن العجب أن يَرْجِع الأستاذ توفيق الحكيم عن تمظيم شأن القصة ، ويفرق بينها وبين الأدب بقوله : الفرق بين الأدب وبين القصة كالفرق بين المناطق العليا في الإنسان والمناطق الأخرى ، وإذا كانت القصة تصور الإنسان في حياته ، فإن الأدب

(١) راجع فنون الأدب تأليف تشارلتن وتعريب الدكتور زكي نجيب محمود من ص ١١٥ إلى ١٤٠ .

يصوِّر الفكر فى حياة الإنسان ، ذلك أن الإنسان ليس مجرد شخصية تتحرك فى محيط البيئة المادية من ريف أوحضر أومنزل أومقهى أومكان عمل مما درج القصاصون على تسميته بالحياة الواقعية ، ولكن الإنسان أيضاً فوق ذلك وأ كثر من ذلك عقلٌ يتحرك فى عوالم فكرية مرتفعة ، وهو روح يسبح فى معان شعرية سامقة . فالعناية بحياة هذا الجزء الأعلى من الإنسان هو من اختصاص الأدب . ولكن انتشار القصة باعتبارهامطالعة سهلة قد دفع الكثيرين إلى اختصار الطريق ، والهرب من الجهد ، واتخاذ القصة مركباً هيناً ، لايكلف أ كثر من سرد حوادث محلية ، وحبك مواقف ، ووصف أشخاص ، ورسم مناظر من الحياة الجارية بأى أسلوب اتفق ، ليطلق على هذا العمل الزهيد بمدئذ اسم الأدب المبتكر والخلق الأصيل(١) » .

إذاً فالقضية على عكس مايدعى الشعوبيون ، ومن انخدع بأقوالهم ، ويؤيد قولنا هذا أن العربى لما اتصل قديما بآداب الفرس والهند لم يعجبه منها إلا النوع الخيالى المجنح الذى ينطق الحيوان ، ويشخص الجماد ، ويحلق بعيداً عن مستوى الحياة الواقعية وأفعال الناس وأقوالهم ، وقد أخذ العرب يحاكون هذا النوع من القصص حتى برعوا فيه ، وعد ابن النديم فى الفهرست من كتب الأسمار والقصص التى ألفها العرب على نمط كليلة ودمنة والصادح والباغم لابن الهبارية مائة وأربعين كتاباً .

ولما ترجمت المجموعة الأولى من كتاب ألف ليلة وليلة ، كانت تحتوى ألف خرافة فارسية وتسمى (هازار إفسانه) غير فيها العرب وبدلوا ، وأضافوا إليها أشياء كثيرة حتى خرج من كل ذلك كتاب ألف ليلة وليلة ، وهو ما هو عند الغربيين فى الخيال الغريب والتأليف المعجيب ، والأجواء الساحرة ، والافتنان فى تصوير الشخصيات وأنواع الملذات فصار مضرب المثل ، ومنبعاً ينهل منه كل من يريد أن يوصف بسعة الخيال وشروده وجموحه ؛ وقد أثر هذا الكتاب كثيرا فى الأدب الغربى منذ ترجم إلى اليوم كما مر بك .

---

(١) من مقال للأستاذ توفيق الحكيم بجريدة أخبار اليوم بتاريخ ١٩٤٨/٣/٢٨ .

مع أن جمهرة أدباء العرب لايعترفون بسمو أدبه ، ولايقرون بعبقرية فنه ، بل يعدونه أدباً شعبياً يصلح للعامة فى أسمارهم ، والنساء فى أويقات سرورهن ، والأطفال فى لهوهم وأحاديثهم. وفى العصر الحديث حين اتصل العرب بالأدب الغربى لم يرقهم منه إلا الأدب الإبداعى (الرومانطيق)[1] الذى يُصوِّر الأبطال ، ويُغرب فى الخيال ، ويترجم عن العواطف الجياشة وظلوا حتى اليوم يعربونه ويحاكونه معرضين عن الأدب الواقعى إلا القليل ، مع أن الغربيين قد نفضوا أيديهم من هذا اللون الأدبى منذ مائة سنة ، وعمدوا إلى الأدب الواقعى التحليلى كى يعالجوا به مشكلاتهم الاجتماعية المعقدة ، وقد حاولت مدرسة لطفى السيد الأدبية أن تدخل الأدب التحليلى الواقعى ، وظهرت لذلك آثار لم ترق بعد إلى المرتبة التى وصل إليها المنفلوطى أو الزيادات فى الأدب الرومانطيق[2].

كل هذا يدلنا على أنه ليس الخيال العربى ، وعدم عمقه هو الذى حال بين العرب وبين القصة الواقعية التى لايعترف النقد الحديث فى أوربا بسواها بل الخيال العربى المجنح وما به من عمق هو الذى ربأ بالعرب عن أن ينزلوا إلى هذا القصص الواقعى .

وثمة أمر آخر حال بين العرب وبين هذا اللون من الأدب ، وهو أن الأدب الواقعى يعالج مشكلات اجتماعية وأخلاقية ، ويتخذه المفكرون والمصلحون الاجتماعيون مطية لبث أفكارهم ، وعرض مقترحاتهم فى المشكلات القائمة بمجتمعاتهم ، ويعرضون حلولا يعتقدون أنها تذلل هذه المشكلات ، وتنير لأولى الأمر السبيل حين يشرعون أو يطبقون القوانين ؛ ويعمدون أحياناً إلى المسرحية ويظهرون الشخصيات التى تمثل الناس فى حياتهم المألوفة ، وأحياناً يلجأون إلى القصة الواقعية أو الأقصوصة ويدعون الشخصيات التى يصورونها تتحدث كما هى فى الحياة من غير أن يظهر المؤلف عواطفه أو يبرز شخصيته ، حتى تكون قصته أقرب إلى الحقيقة وأدنى من الواقع . ولم يكن المجتمع الإسلامى فى العصر الذهبى للأدب العربى أيام العباسيين وأيام أن عرفوا شيئاً من القصص الفارسى وغيره بحاجة إلى

(١) راجع الدكتور إسماعيل أدهم فى كتابه عن توفيق الحكيم الفنان الحائر ص ١٤ — ٢٥ .
(٢) المصدر نفسه .

لمن يحل له مشكلاته الاجتماعية والخلقية ، ويشرع له القوانين ويبين له كيف يطبقها ، فقد كان الشرع الإسلامى قائماً وهو تشريع من عند الله يعتقد الناس أنه الحق والعدل ، وأنهم فى غنى عن سواه من القوانين ، وأن كل قضاياهم تحل على ضوئه ، لايجوز لأحد أن يقترح تشريعاً مخالفاً أو حلا لا يوافق الشرع ، ولذلك بطلت حاجتهم إلى مثل هذا القصص الواقعى الذى يصور الرجل العادى فى حياته المألوفة ويحل مشكلاته ومشكلات مجتمعه .

إن أسطورة العقل الآرى وفضله على العقل السامى التى طالما رددها أدباؤنا من غير أن يفطنوا إلى مافيها من شعوبية كامنة ، ومن غير أن يتبينوا وجه الصواب بعد أن غشى عليهم الحق ما عليه الشعوب العربية من هوان وضعف ، فاعتقدوا باطلا أن الحق مع القوة وأن العقلية الآرية لابد أن تكون متفوقة مادام أصحاب هذه العقلية هم السيطرون على شعوب الأرض . إن هذه الأسطورة تنم عن تعصب مكين فى نفوس قائليها وعلى مغالطة ظاهرة ، فهذا (أرنست رينان) وهو من غلاة الشعوبيين وأشدهم قسوة على العرب ودينهم والساميين وعقليتهم ؛ يقرر ما أورده أحمد أمين ويحقر من العقلية السامية[1] ويقول : « يبدو أن التفكير الفلسفى للبحث عن (الحقيقة) كان وقفا على الجنس المسمى بالهندى الأوربى أو الآرى الذى يمتد من الهند إلى أقصى الغرب وإلى أقصى الشمال ، والذى كان يبحث منذ أقدم العصور إلى الآن فى تفسير الله والإنسان والعالم تفسيراً عقلياً وقد ترك وراءه فى كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقى . أما الساميون فإنهم بدون تفكير أو تدليل — أى بدون فلسفة — وصلوا إلى أصفى وأنقى صورة دينية عرفها التاريخ ... والساميون تنقصهم الدهشة التى تدعو إلى التساؤل والتفكير ؛ لأن اعتقادهم فى قدرة الله يجعلهم لايدهشون لشىء » .

ثم ينتقل إلى الخصائص الأدبية التى ميزت العرب بالشعر ووصمت غيرهم بالقصة فيقول : « والتوحيد أثر أيضاً فى الشعر العربى ؛ لأن الشعر العربى يعوزه الاختلاف ، فموضوعات

---

(١) راجع Histoire Génerale et Systéme Comparé, des Langues Sémitiques Par, Ernest Renan. p. 1/18.

الشعر أى أغراضه محدودة ، قليلة العدد جداً عند الساميين ، والشعر العربى الذى تمثله القصيدة يعبر عن إحساس شخصى ، وعن حالة نفسية خاصة والأبطال فى هذا الشعر نفس منشئيه ، وهذه الصفة الشخصية التى تجدها فى الشعر العربى والشعر الإسرائيلى ترجع إلى خاصية أخرى من خصائص النفس السامية ، وهى انعدام المخيلة الخالقة ، ومن هنا لا نجد عندهم أثراً للشعر القصصى أو التمثيلى (١) » .

ولقد أردت بهذا النص الذى سقته لك من (رينان) أن أبين التعصب الذميم الذى يوحى إلى هؤلاء الشعوبيين بمثل هذا الكلام ، فيسلبون أمما قوية لها مجدها التاريخى والأدبى كل الفضائل العقلية — وهم فى ذلك على باطل — ويتبعهم وللأسف فئة من أدبائنا . فيكونون حرباً على قومهم . ليس ثمة فرق — كما رأيت — بين كلام (رينان) وكلام (أحمد أمين) إن رينان ينعى على العقلية السامية أنها لم يكن لها (ميثولوجيا) أى خرافات دينية كما عند اليونان . وليس أبعث على الضحك من التنوية بعظم العقلية اليونانية وما رزقته من عبقرية لأنها آمنت بالخرافات ، وألهت الأشخاص والأبطال ، والتمست الطريق إلى الحقيقة فضلت سواء السبيل ، وأمعنت فى الأساطير دون أن تصل إلى الله (٢) . لقد جعل هؤلاء الباطل حقاً ، وأشادوا باليونان لأنهم أخفقوا فى الاهتداء إلى وحدانية الله التى آمن العالم بها فيما بعد على يد موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام والتى آمنت بها أوربا الآرية ، وكفرت بآلهة (الأولمب) وميثولجيا اليونان .

---

(١) ويقول رينان فى موضع آخر : « الجنس السامى أدنى من الجنس الآرى إذا قورن به ، ذلك أن الجنس السامى ليست له هذه الروحانية التى عرفها الهندو والألمان . وليس للجنس السامى هذا الإحساس بالجمال الذى بلغ حد الكمال عند اليونان ، وليست له هذه الحاسة الرقيقة العميقة التى هى الصفة الغالبة عند السلتيين (سكان فرنسا وبعض البلجيك) وإنما يختص الساميون بالبديهة الحاضرة ، ولكنها بديهة محدودة وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب ، فالتوحيد هو أهم خصائصهم ، وهو الذى يلخص ويفسر جميع صفاتهم ، ففخر الساميين فى كونهم أول من عرف التوحيد ، وعنهم أخذ العالم الديانات ، والصحراء هى ملهمة الوحدانية لمنظرها الواحد المتشابه » .

(٢) راجع فى أسباب تعدد الآلهية عند اليونان القدماء :
The Martyrdom of man. by. Winwood Read, p. 144.

ولعلك تعجب إذا قررنا لك أن المدنية الأوربية الحديثة بنظمها الاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية وحياتها العلمية هى من أثر العقلية السامية قديماً حين تتلمذوا على العرب وشروحهم للفلسفة اليونانية والطب والكيمياء والجبر والهندسة وغيرها . وحديثاً ممثلة فى بنى إسرائيل الذين نزحوا إليها من مئات السنين بعد أن عاشوا طويلا فى الصحراء ، ولو كانت البيئة الصحراوية لاتنتج إلا عقولا مجدبة وخيالات ضحلة ، وفكراً غير قادر على الخلق والابتكار ، ونفساً لا تعرف الفلسفة ولا تقدرها لظل اليهود كذلك فى رحلتهم الدائمة بأوربا مهما تغيرت بهم البلاد والبيئات . ولكنا نرى الأوربيين فى كثير من الأحيان يعترفون للتوراة بالفضل ، وللشعب الإسرائيلى وليد الصحراء بالعبقرية والنبوغ ؛ والعقلية السامية متكافأة فى اقتدارها وعالميتها ، واللغة العربية والعبرية توأمتان نشأتا من أصل واحد . وهذا (رينان) يقول : « ليس فى ماضى النوع الإنسانى مايثير اهتمام الفكر الفلسفى سوى تاريخ ثلاثة شعوب : تاريخ إسرائيل ، والتاريخ الأغريقى ، والتاريخ الرومانى ! » .

وما بالنا نقص عليك أقوال الأوربيين ، ولا نسوق لك الأمثلة الحية الصادقة على أن اليهود هم الذين أسسوا الحضارة الأوربية الحديثة ، وهم قادة الفكر فيها حتى اليوم ، على الرغم من أنهم قلة مضطهدة .

إن الفلسفة فى ألمانيا ابتدأت فى القرن السابع عشر حين ظهر فيها الفيلسوف اليهودى باروخ (سبونزا)[1] فى أمستردام ، بعد أن درس ماجاء به فلاسفة قومه من أمثال ابن ميمون ، وابن عزرا ، وفلسفة ابن جبريل الصوفية ، وموسى القرطبى وغيرهم من فلاسفة

---

(١) سبونزا Spinoza ١٦٣٢ م — ١٦٧٧ ولد من أسرة برتغالية يهودية هاجرت إلى هولندا بسبب الاضطهاد الدينى الذى لقيه اليهود بعد أن رحل العرب عنها ، ومات سبونزا فى سن الأربعين بعد أن لاقى فى سبيل فلسفته عناء كبيرا . راجع قصة الفلسفة الحديثة ج ١ ص ٢٨ .

اليهود بالأندلس . وهو الذى يقول فيه هيجل الفيلسوف الألمانى : « لن تكون فيلسوفاً إلا إذا درست سبونزا أولا »(١) .

وكما بدأ سبونزا الفلسفة الحديثة فى ألمانيا ، وبنى على نظرياته أوحاول الرد عليها من أتى بعده من فلاسفة الألمان أمثال (كانت ، وهيجل ، وشوبنهور ، ونتيشه) فإن كارل ماركس ١٨١٨ ، وماكس نوردو ١٨٤٩ اليهوديين قد توجا هذه الفلسفة النظرية التى ابتدأت تؤتى ثمارها فى القرن العشرين ، فهيجل الألمانى ، وكارل ماركس اليهودى — واضع كتاب رأس المال ومنشىء أول جمعية شيوعية ثورية ، ومؤسس جماعة العمل الدولية ومؤلف المتن الاشتراكى فى السياسة الاقتصادية — قد بعثا الشيوعية . وفى كارل ماركس اليهودى يقول برناردشو الفيلسوف الإنجليزى المعاصر : « لا يدعى نبى الشيوعية عيسى أو محمداً أو لوثر أو أغسطين ، ولكنه يسمى كارل ماركس ، وتبتدى فلسفتهم بالفيلسوف الألمانى هيجل ، وفيورباخ ، ويتوجها كتاب كارل ماركس : رأس المال ، وهو توراة الطبقة العاملة وإنجيلها، ويصفونه بأنه مُلْهَم ومعصوم، ومحيط بكل شىء خُبرا»(٢) ولم يتجرد كارل ماركس — الذى اعتنقت روسيا بأسرها وعشرات الملايين فى العالم تعاليمه . . من يهوديته . فقد كان عضواً بالجمعية اليهودية بباريس ، وأما نوردو صاحب كتاب (الانحلال) فكان فى بودابست من أكبر أعوان (تيودر هرتزل) مؤسس الحركة الصهيونية فى أواخر القرن التاسع عشر ، ووضع خطة إنشاء الدولة اليهودية بفلسطين .

وإذا أردنا أن نعد فلاسفة اليهود ومفكريهم الذين أثروا فى الحركة الفكرية بأوربا أعجزنا الحصر ، ولكن لاننسى (فرويد) واضع فكرة التحاليل النفسية ،وصاحب نظرية العقل الباطن ، وناهيك بما لها اليوم من مكانة فى عالم الفكر ، ولاننسى (برجسون) اليهودى الفرنسى شيخ الفلسفة الحديثة وصاحب نظرية مقاومة المادية فى أوربا(٣)

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) راجع The Intelligent Woman's Guide To Socialism, Sovietism And Fascism. by G. B. Shaw. p. 314 In Pelican Books.

(٣) قصة الفلسفة الحديثة ص ٥٦٠ .

وبرناردشو أشهر الفلاسفة المعاصرين مدين بفلسفته وآرائه لأستاذه اليهودى (صمويل بتلر) صاحب المبادىء العائلية الثورية ، التى نادى فيها بإعطاء أفراد الأسرة من : الأم والفتيات والغلمان حق التصرف حسب أهوائهم على الرغم من إرادة الأبوين .

و (أينشتين) صاحب نظرية النسبية ، وأكبر علماء العصر الحديث يهودى قح ، و (توماس مان) و (أميل لو دفج) الكاتبان الألمانيان المشهوران من نبغاء اليهود فى العصر الحاضر .

إن جامعات أوربا تغص بالأساتذة الإسرائيليين ، ويسيطر اليهود على شئون المال والاقتصاد والطب وصناعة الأفلام وإخراجها ، والصحافة بأنواعها : حتى لا تخلو صحيفة فى أوربا وأمريكا من نفوذ يهودى إما فى رأس المال أو التحرير ، وهكذا يستولى اليهود اليوم وقبل الحرب الأخيرة ، وفى القرن الماضى على عقلية الشعوب الأوربية فيقرءون ما يريد اليهود ، ويشاهدون فى الخيالة ما يخرج اليهود . وهذا هو السر فى أن هذه الفئة القليلة من الناس هى التى تتحكم فى سياسة أوربا وأمريكا ، وتخضعها لمشيئتها ، وهذا هو السر فى انتصار أوربا لهم فى القضية الفلسيطينية ، وذلك لشدة سيطرتهم على الرأى العام الأوربى والأمريكى على السواء .

فهل بعد ذلك يفخر الجنس الآرى بالخلق والابتكار وهو خاضع لسيطرة أدنى العنصرين الساميين ؟ لو كانت المسألة ترجع إلى البيئة الأولى التى خرج منها الجنس السامى ما كان لهؤلاء اليهود شأن يذكر فى قيادة الفكر الأوربى ، وقيادة الشعوب الغربية وإخضاعها لسلطانها ، على الرغم من قلة عددهم وهوان أمرهم(١) .

وأما المثل الأعلى الذى يدعى الشعوبيون أنه مفقود عند العرب فحسبنا أن نقول فى الرد

---

(١) لامنى بعض الأصدقاء عند ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب على كتابة هذا الفصل عن اليهود وإظهار سلطانهم الفكرى على أوربا ، ولقد سقت هذه الأمثلة . كما يرى القارىء لدحض تلك الفرية — فرية السامية — التى يتغنى بها الأوربيون المتعصبون .
وإذا كان اليهود علماء ومفكرين فهذا لا يمنع أنهم من أردأ شعوب الأرض أخلاقا ، ولطالما حملت عليهم حملات شعواء على صفحات مجلة الرسالة فى سنوات عديدة .

على دعواهم : إن الحياة العربية فى الجاهلية كانت مليئة بأمثلة الوفاء والكرم والشجاعة ، كانت الفضائل والذكر الحسن هى الغاية التى يصبو إليها كثير من أبناء الصحراء ، وكلها مثل عليا لو سارت عليها الإنسانية لسعدت[1] ، ولقد برهنت لك على أن الكلمة موجودة فى اللغة العربية وفى القرآن الكريم الذى نزل على عرب الجاهلية ، ولو لم يعرف العرب هذه الكلمة ويفهموا مدلولها ما نزل بها القرآن الكريم . على أن الغرب لا يعرف فى لغة من لغاته كلمات كثيرة تملأ الحياة العربية ، وتفخر بها الإنسانية فكلمات (العِرْض) و (المروءة) و (النجدة) ليس لها ما يقابلها فى الأعجمية .

وإذا عدنا إلى الناحية الأدبية وجدنا الشعر العربى — وهو مفخرة العرب ومجتلى بيانهم تكثر فيه ألوان الحكمة مصوغة صياغة متقنة ، وما الحكمة إلا حقيقة مجردة تدل على تفهم لأسرار الوجود ، وعلى الخيال الشامل الذى ينتظم طبائع البشر وأحوالهم ، ويصدر عليهم حكما يصلح لكل زمان ومكان ، وينطبق على كثير منهم مهما اختلفت عصورهم وبيئاتهم

وبعد فلنسأل سؤالا آخر وهو : أحقاً توجد فوارق عقلية أصيلة بين الشعوب ، يمتاز أحدها بالذكاء الغالب ، والعقلية الخالقة ، والخيال المبتكر ، وتسلب الطبيعة أحدها فهو قَدِمٌ فى جملته بطىء التفكير ، ليس له قدرة على الخلق والابتكار وإن أجاد التقليد ؟ ؟ . وإذا وُجِدت الفروق العقلية بين الشعوب كما يدعى المتعصبون لأجناسهم ، المنساقون وراء عواطفهم ، فهل هذه صفات لازمة للشعب لا تتغير بتغير البيئة والزمان ؟ وعلى أى أساس وجدت هذه الفروق العقلية ؟ أهى نتيجة للبيئة الطبيعية أم البيئة الاجتماعية ؟

يقول سِرِل بِرْت C. Burt فى كتابه كيف يعمل العقل[2] : إن هذه التعميات التى تشغف بها بعض الجهات لتفضيل ما يسمونه الأجناس الآرية على السامية ، والشعوب البيضاء على الصفراء والسوداء لا يمكن الأخذ بها على علاتها . حقيقة إن ذكاء الزنجى

---

(١) راجع كتابنا (الفتوة عند العرب) فقد وفينا هذا الموضوع بحثا ثمة .

(٢) الجزء الثانى ترجمة الأستاذ محمد خلف الله ص ١٦٥ .

المتوسط فى الاختبارات التى طبقت إلى الآن لا يبلغ إلا تسعة أعشار المتوسط من الشعوب البيضاء ولكن الصينيين واليابانيين لا يقلون عن مستوى الغرب . وقد قام اثنان من طلبتى باختبارات أثبتا بها أن ذكاء اليهود أعلى من ذكاء غيرهم . . . ونتائج بعض الباحثين فى الولايات المتحدة تؤيد هذا . . . على أن هذه الفروق بين الأجناس مهما تميزت وتحددت فإنها ليست قط على درجة من العظم ، فما لاحظناه قبل بين الذكور والإناث ينطبق هنا أيضاً على الأجناس المختلفة . فالفروق الواسعة فى الذكاء بين الأفراد المنتمين إلى شعب واحد أوسع وأبعد مدى من الفروق بين شعب وآخر فإذا أردنا فروقاً بينه بين قوم وآخرين فلنبحث عنها فى الطبع أو المزاج ؛ وهنا لا نجد مقاييس علمية نستعين بها ، ولكنا نعتمد على الملاحظة ، وما تكونه من فكرة عامة وهما دليلان غير مأمونين » .

ويقول بعد استعراض أجناس أوربا المختلفة ، وما بينها من خلافات فى شكل الجمجمة وتركيب الأجسام ولون الشعر والعيون ، وما يوصف به رجل الشمال من أنه مخلوق عملى ، ورجل وسط أوربا بميله إلى الحقيقة ، ورجل الجنوب بميله إلى الجمال : « ولكن العالم المدقق لا يكاد يسمع مثل هذه الدعاوى العريضة حتى يبدو عليه القلق والحذر ، فإن حقائق الطبيعة الإنسانية قلما تخضع لمثل هذا التقسيم الحاد(١) » .

وبعد دحض هذه الآراء المبنية على التعصب الجنسى والفخر الكاذب كدعوى الألمان أنهم « من الشعوب الآرية أنبل الناس جميعاً » قال : « والآن أظن أن النقطة التى نستطيع التسليم بها هى أنه لا الجنس وحده ، ولا البيئة الجغرافية وحدها بمستطيعة تعليل التفاوت البين بين المدنيات المتعاقبة(٢) » .

لقد أقر من طعنوا فى الأجناس السامية وانتقصوا عقليتهم بذكاء هذه الأجناس فـ (رينان) يقر للعربى بالذكاء وحضور البديهة كما مر بك ، وأحمد أمين يعلل لهذا الذكاء بأن العربى عصبى المزاج ، « والمزاج العصبى يستتبع عادة ذكاء ، وفى الحق أن العربى ذكى

---

(١) كيف يعمل العقل جـ٢ ص ١٦٧ . وراجع بحثا لنا فى مجلة (نهضة أفريقية) ١٤ فبراير ١٩٠٩ عن الفروق العقلية بين الأجناس .

(٢) نفس المرجع ص ١٨٠ .

يظهر ذكاؤه في لغته ، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة كما يظهر في حضور بديهته(١) » . وقد رأيت منذ لحظةما أثبتتهاختبارات (برت) وتلاميذه من ذكاء اليهود وتفوقهم في ذكائهم .

« والذكاء العظيم هو الركن الأساسي في النبوغ في أي ميدان من ميادينه ، وليس من الضروري أن نفترض أن موهبة الخلق الأدبي ، أو الاستمتاع بالأدب يتوقف على ملكة أخرى خارقة أو خارجة عن حياته العادية » . هذه هي النتيجة التي وصل إليها وارتضاها (برت) في بحثه لطرائق سلوك العقل في الفن فقال : « كل هذه النواحي من البحث أدت إلى نتيجة واحدة ، فالفنان — من حيث موهبته الخاصة رجل مزوّد بهبات نادرة ، غير أن الفرق في الدرجة لا في النوع ، فالمقدرةعلى خلق العمل الفني — كالمقدرة على تذوقه — لا تتوقف على ملكة إضافية خارجة عن مجرى حياتنا اليومية ، وهي في درجاتها العليا ليست إلا إحدى ثمرات الحياة العقلية الطبيعية(٢) » .

فإذا تقرر أن الأجناس السامية على نصيب كبير من الذكاء ، وأن الذكاء العظيم أساس النبوغ في أي ميدان من ميادينه ، وأن موهبة الخلق الأدبي لا تتوقف على ملكة أخرى خارقة ، فالعربي بفطرته ومواهبه مهيأ للخلق الأدبي وللنبوغ ، وليس من الضروري أن يكون النبوغ هو ذلك القصص شعراً أو نثراً — وقد عرفت منزلة القصص وأي لون من ألوان الأدب هو ، وأدركت أن القصة لا تتطلب خيالا جامحاً محلقا عميقاً ، وأن العرب صدفوا عنها لما وهبوه من خيال واسع ، ولأن دينهم أغناهم عن النظر في حلول المشكلات الاجتماعية التي تعنى بها القصة — وقد مهر العربي في ألوان أخرى من الأدب ، بل في أعلى أنواع التعبير وأسماها وهو الشعر . وليست القصة إلا أحد مظاهر الخيال كله ، « فالفخر و[illegible]سة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال(٣) » .

---

(١) فجر الإسلام ص ٤٤ طبعة ثانية .

(٢) راجع (من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده) للاستاذ محمد خلف الله ص ٣٣

(٣) فجر الإسلام ص ٤٣ .

والخيال كما نعلم هو وضع الأشياء فى علاقات جديدة ، وهو نوعان تفسيرى وابتكارى ويتمثل التفسيرى فى تلك الصيغ البيانية الجديدة أما الابتكارى فيتمثل فى خلق أشياء ومناظر وشخصيات ليس لها وجود . وكلا النوعين يغص به الأدب العربى على طريقته الخاصة . وقد أفضت فى بيان ذلك فى غير هذا الكتاب(١). ومع ذلك فالشعر العربى فى كل عصوره ملىء بالقصص المحبوكة العقدة الرائعة الخيال(٢) ولايمنع أنه من الشعر الوجدانى فقد مرت بأوربا فترة ساد فيها الشعر الوجدانى ولاتزال له السيطرة وبطل عهد الملاحم والمسرحيات الشعرية .

ثم هناك سؤال آخر علينا أن نسأله قبل أن ندع الكلام فى هذا الموضوع ، وهو : أحقاً تبتدىء الحضارة الإنسانية بعلوم اليونان وثقافتهم ، لم يسبقهم فى ذلك سابق ، وأن هذه الديانات والميثولوجيا والقوانين والفلسفة هى كلها من ابتكار اليونان وحدهم وبذلك احتلوا هذه المكانة السامية فى التاريخ ، وبهم تميزت الشعوب الأوربية وفاقت غيرها ؟

كثير من الناس الذين لم يبحثوا الموضوع أو بحثوه بحثاً سطحياً يقولون فى غير تردد : أجل ! هذه المدنية والثقافة والفلسفة التى رويت عن اليونان هى من ابتكارهم ، والإنسانية مدينة لهم بالشىء الكثير فى هذا المضمار .

ولكن هناك من شك فى ذلك ، بل هناك من أثبت بأدلة يقينية أن اليونان فى دياناتهم وآلهتهم ، وأسماء بعض هذه الآلهة ، ومانتطلبة الديانة من طقوس ثم فى قوانينهم ، وفى آدابهم تتلمذوا على المصريين القدماء وأخذوا عنهم ، وأثبت أن هوميروس فى الإلياذة اقتبس كثيراً من القصص المصرية بأشخاصها وخيالاتها وأجوائها . بل أخذ قصصاً مصرية

---

(١) راجع كتابنا الفتوة عند العرب .

(٢) خذ مثلا قصيدة الحطيئة التى مطلعها :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

وقصيدة زهير فى الصيد : (وغيث من الوسمى حو تلاعه) وقصيدة امرىء القيس ويومه بدارة جلجل . ومعلقة عمرو بن كلثوم ، ومعظم شعر ابن أبى ربيعة ولاسيما قصيدته الرائية (أمن آل نعم أنت غاد فمبكر) ، وقصيدة البحترى فى الذئب كلها من الشعر القصصى .

معينة وأدخلها فى ملحمته ، وليس هؤلاء العلماء الذين قاموا بهذه الأبحاث من المتجنين على اليونان أو المبغضين لهم ، بل على العكس هم من المعجبين بهم والمعنيين ببحث آثارهم وترجمتها إلى لغاتهم وشرحها والتعليق عليها، ولكن اطلعوا على أشمار مصرية، وآثار قديمة، وقرءوا هيردوت المؤرخ اليونانى المشهور ، ووازنوا بين نصوص الإلياذه ، وهذه النصوص المصرية التى عثروا عليها فوجدوا التشابه بل التطابق .

ومن هؤلاء العلماء فيكتور بيرار **Victor Berard** الفرنسى مترجم الإلياذة وشارحها ، ثم جولنيشيف **M.W. Golénicheff** الروسى أحد علماء المصرولوجيا . وقد أثبت عبد القادر حمزة باشا[١] النصوص المصرية القديمة التى عثر عليها هذان العالمان ، والتى لها مشابه فى الإلياذة ، كما أورد الأدلة القاطعة التى لايأتيها الشك على تلمذة اليونان للمصريين ، ومَن من علمائهم ومشرعيهم وأدبائهم ومؤرخيهم أتى مصر وتأثر بما فيها من علوم ومعارف ودرس على أساتذتها وكهنتها وهو فصل ممتع حقاً ولولا خشية الإطالة للخصناه تتمة للبحث ، ولكن هذا الجزء أوشك على الانتهاء وهناك بعض نقط تحتاج إلى نظرة قبل أن نفرغ منه ، وحسبنا أن نقول كما قال الأستاذ العقاد[٢] فى بدعة السامية والآرية واختلاف العقليتين ، وكيف ظهرت هذه البدعة : « ونشأت فى إبان ذلك بدعة الآرية والسامية ، وهى تلك البدعة التى تقضى للآريين بالسبق والرجحان فى كل فضيلة من فضائل الأمم أو فضائل الأفراد ، وقد ظهر بطلانها الآن ، أو ظهر على الأقل أن الحاجز الذى أقامه مبتدعوها بين أجناس الشعوب مصطنع ملفق لايسلم من ثغرة شك هنا أو ثلمة ضعف هناك ، بل هو ينعكس فى أحوال شتى فتصبح المزية للساميين من حيث أرادها القوم للآريين ، ولكن البدعة قد خدعت أناساً كثيرين فى إبان نشأتها فتحدثوا عنها كتحدث الناس بالغرائب والملح المستطرفة ، ومازالت تجنى على الأفكار ؛ حتى أوغل فيها بعض

---

(١) فى كتابه على هامش التاريخ المصرى القديم ج ١ ص ١٢٥ — ١٧١ :

(٢) فى كتاب سعد زغلول سيرة وتحية لعباس العقاد ص ١٣ — ١٤ فى فصل عن العقلية المصرية وطبيعتها .

الغلاة من دعاتها فاستخرجوا منها دليلا على رجحان بعض الأمم الأوربية على بعض ، واستئثار جماعة من تلك الأمم بشرف السيادة والابتكار وشعائر الحضارة والثقافة دون الجماعة الأخرى ، فتصدى لها يومئذ من الأوربيين من ينكرها ويزيفها ويبالغ فى السخر بها ، بعد أن كانوا يتفقون على ترويجها ، والإغضاء عنها . حين كانت معرفتها لاصقة بالشرق وحده موقوفة عليه دون غيره » .

وبحسبي الآن ماسقته من أدلة[١] على أن أسطورة العقلية السامية والآرية لاتثبت أمام الأدلة العلمية ،وأن القصة — على الرغم من وجودها فى الأدب العربى كما هى موجودة عند كل الأمم ، وإن لم تأخذ القالب الفنى الذى لم يظهر بالقصص الأوربى إلا فى أواسط القرن الثامن عشر — لاتحتل هذه المكانة الممتازة فى عالم الأدب ، ولا يوصف من لم ينبغ فى تأليفها بعقم الخيال وجمود العاطفة وضحالة الفكر .

وكم كان بودى أن أفيض فى أدب القصة ، وأبين أصولها وكيفية إنشائها ، ولكن هذا يحتاج إلى كتاب قائم بنفسه ، وإنما دعانى إلى الخوض فى القصة على هذه الطريقة إقبال المترجين فى العهد الذى نتحدث عنه عليها إقبالا زائداً ، وتأثر الأدب العربى الحديث بها بعد ذلك تأثراً بالغاً ، حتى دعا ذلك إلى القول بأنها لم تكن موجودة عند العرب ، وأن العقلية السامية لا تستطيع إنتاج القصة لما بها من فقر فى الخيال . وقد مر بك من قبل عند كلامنا على الترجمة الجهود التى بذلت فى سبيل ترويج القصة الغربية ، وكان هذا الطور هو طور النقل والتمثيل ولم يكن قد بدأ بعد طور التقليد والمحاكاة ولاسيما فى الرواية وإن ابتدأ فى المسرحية مبكراً نوعاما وسنعود إلى الكلام فى توسع عن القصة فى الأدب المصرى الحديث فى الأجزاء التالية إن شاء الله . أما المسرحية فقد أفردنا لها كتاباً خاصاً هو الآن بين أيدى القراء .

---

(١) وإذا أردت للزيد فاقرأ مقالة مجلة الأنصار بالعدد ٤٦ السنة الرابعة ، شوال ١٣٦٣ وكتابنا (النابغة الذبيانى) فقد تكلمت فيه عن موضوع القصة من زوايا جديدة وأضفت إلى ما نقدمهنا براهين أخرى . ثم كتابنا (الفتوة عند العرب) وفيه فصل ضاف عن ميزة العقل العربى وتفوقه مدعوم بالحجج العلمية القوية .

٢ — المقالة والصحافة :

وإذا كان القرن التاسع عشر قد انقضى ، ولم تحتل فيه القصة العربية الموضوعة مكانها فى عالم الأدب ، وكان أغلب القصص التى تطبع مترجمة من شتى اللغات ، فإن المقالة منذ بدأت الصحافة العربية بإنشاء الوقائع المصرية ، ثم روضة المدارس ، ثم الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، قد صارت عماد الكتاب والأدباء ، والقالب المعتاد الذى يصبون فيه أفكارهم ، وينشرونها بين الناس .

وليست المقالة غريبة عن الأدب العربى القديم ، وإن تغيرت صيغها وشروطها ، فعبد الحميد الكاتب حين تكلم عن الشطرنج أو الصيد أو الكتابة كان يكتب شيئاً قريباً من المقال ، والفصول الأدبية التى أنشأها الجاحظ فى كتبه : البخلاء . والمحاسن والأضداد والحيوان والبيان والتبيين ، مقالات مطولة تنقصها شروط المقالة الحديثة ، وإن كان هذا القول لايرضى بعض النقاد ، بل إنهم لايوافقون على المقالة الأدبية التى يدبجها الكتاب اليوم إذا قاسوها بمقاييس النقد الأجنبية ، ويتطلبون من المقالة أن تكون « على غير نسق من المنطق ، وأن تكون أقرب إلى قطعة مشعثة من الأحراش الحوشية منها إلى الحديقة المنسقة المنظمة » ويحتجون بتعريف (جونسون) ومكانته من الأدب الإنجليزى فى الذروة العليا للمقالة الأدبية بـ « أنها نزوة عقلية لاينبغى أن يكون لها ضابط من نظام ، هى قطعة لاتجرى على نسق معلوم ، ولم يتم هضمها فى نفس كاتبها »[1] ويطبقون هذا القول على المقالة الأدبية فى مصر فيرون ألا يكون لها نقط ولاتبويب ولاتنظيم .

وهذا لعمرى شرط لايوافق عليه الأدباء فى كل أنحاء العالم فقد تغيرت المقالة منذ عهد (جونسون) فى القرن الثامن عشر حتى اليوم ومنذ أن قال (بيكون) يصف مقالاته : « أنها ملاحظات مختصرة كتبت من غير اعتناء » . واشترط النقاد فى المقالة شروطاً أخرى غير تلك التى سار عليها (جونسون أو بيكون) ورأوا أن الكاتب ملزم بالتفكير فيما

---

(١) الدكتور زكى نجيب محمود فى مقدمة كتابه أدب المقالة .

يريد أن يكتب قبل أن يتناول القلم ، ثم السير فى موضوعه سيراً منطقياً متجنباً الفضول ، ومركزاً فكره فى النقط الرئيسية ، على أن يكون لموضوعه وحدة تربط بين أجزائه ، وأن يكون واضحاً فى تعابيره ، منتخباً لكلماته ، ولأسلوبه طلاوة وعليه جمال . وقد يحتاج المقال إلى مقدمة ، وقد لايحتاجها ، ولكن لابد له من نتيجة أو خاتمة ، ولا بد من تنسيق الأفكار ؛ فالأفكار غير المنسقة تدعو إلى اضطراب الكاتب فى كتابته ، وعدم فهم القارىء لما يكتب ، وليست هذه الشروط — كما يقال سخرية — هى شروط الإنشاء المدرسى ، وشتان بين هذا وبين المقال الأدبى ، فإن الفكرة التى يراد التعبير عنها سواء كانت فى نفس طالب مبتدىء أو كاتب نابغ محتاجه إلى الوضوح وإلى التمهيد لها ؛ ثم إلى عرضها عرضاً جيداً منطقياً يفهمه القارىء بيسر ، لا أن تكون مشمشة غامضة تسير فى غير اتساق ونظام ، فإن ذلك قد يؤدى إلى عدم فهمها فضلا عن أنه لا يتفق مع البلاغة فى شىء[١] .

وموضوع المقال يتسع لكل شىء فى الوجود من تعبير عن عاطفة أورغبة أو رحمة أومعرفة أوفكرة . أما أن يقال : إن المقال الأدبى يجب أن يكون وقفاً « على التعبير عن تجربة معينة مست نفس الأديب فأراد أن ينقل الأثر إلى نفوس قرائه » فقد كان ذلك شرطاً مرعياً أيام (جونسون) ، وأيام أن كانت المقالة محدودة الغرض ، ولكن سارت المقالة فى طريقها شوطاً طويلا ، واتسع أفقها حتى شملت كل ألوان الحياة إلى أن زُحزحت عن مكانتها بتقدم القصة والأقصوصة . وإن ظلت إلى اليوم لوناً محبوباً من ألوان الأدب .

هذا وقد تكون المقالة :

١ — إخبارية تقص حادثة ما ، أو مجموعة من الحوادث ، وهى حينئذ قريبة من الأقصوصة تتخذ شكلا قريباً من شكلها ، وفيها ما يثير الشوق ، ويأسر الانتباه ويدعو إلى التقصى والتتبع ، ومن المقالات الإخبارية التراجم .

---

(١) راجع **Essay Writing And Rhetoric by Egerton Smith** طبعة جامعة أكسفورد سنة ١٩١٣ المقدمه والفصل الأول .

وراجع مقدمة **English Essays by J. H. Lobban**

وراجع لنخبة من من كبار الأدباء **Modern literary Essays**

٢ — وقد تكون وصفاً لحادثة أو شخص أو شىء ، تعطى تقريراً كاملا تفصيلياً عنه وعن محيطه .

٣ — وقد تكون معرضاً لفكرة وتوضيحاً لها حينما تكون الفكرة غامضة، والموضوع معنوياً ومهمة العرض أن يفسر لماذا حدث هذا الشىء ، أو كيف يمكن أن يحدث ذلك الشىء ، والفرق بين العرض وبين الوصف أن العرض لايأبه بالتفصيلات ولكن يعنى بالصفات العامة وبالمبادىء ، وبالميزات التى تخص نوعاً ما ؛ وقد تذكر بعض التفاصيل أثناء العرض ، ولكنها لا تحتل المكانة الأولى ، بل تذكر لإيضاح فكرة أوتضرب مثلا على قانون عام . فقد تصف صورة ما ، ولكن الكلام عن التصوير عرض . وقد تصف مسجداً ما ، ولكن الكلام عن هندسة المساجد يحتاج إلى عرض .

٤ — وهناك المقالة الجدلية التى تناقش فكرة ما ، وتبين مابها من خطأ وصواب ، وصدق وكذب ، وقد يكون الموضوع عادة سؤالا يناقشه الكاتب ويجيب عنه بما يراه ؛ كسؤالنا مثلا عن الحرب وهل هى معقولة ؟ أو عن الكذب وهل ثمة ما يسوغه فى الحياة ؟ أنتصدق على الشحاذين ؟ .

وهذه الصور هى التى تظهر فيها المقالة فى الأدب الغربى[١] ، ونرى مثلها فى الأدب العربى الحديث[٢] لأنها صورة طبيعية يلجأ إليها كل كاتب . وقد بينت لك فيما سبق الفرق بين أسلوب المقالة الأدبية والمقالة الصحفية والمقالة الاجتماعية .

والكلام عن المقالة يدعونا حتما إلى الكلام عن الصحافة فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، لأن المقالة لم تظهر إلا فى الصحف ، ونحن قد تتبعنا الصحافة ، فى عصر إسماعيل وأوائل عهد توفيق . أما الصحافة فى عهد الاحتلال فقد تكلمنا آنفا عن مجلة الأستاذ للسيد عبدالله نديم التى أنشئت فى سنة ١٨٩٣ ، وكيف كانت حرباً عواناً ، وناراً مضطرمة على الاحتلال ، والأجانب ، ولكن هؤلاء ضاقوا به ذرعاً فأغلقوا جريدته ونفوه من البلاد .

---

(١) راجع Essay Writing. Rhetoric and Prosody by Egerton Smith p.19.25

(٢) راجع كتابنا نشأة النثر الحديث وتطوره ففيه بحث مستفيض عن تطور المقال الأدبى .

وإذا كان عبد الله نديم قد ترك مصر ، وعطلت جريدته الوطنية الحرة ، فإن الأسباب التى تدعو إلى ظهور مثلها فى حرارتها وصدق لهجتها ، ومحاربتها الاستعمار الإنجليزى كانت قائمة ، على الرغم من أن سياسة الإنجليز فى أوائل عهد الاحتلال كانت ترمى إلى كم الأفواه ، وقتل الروح الوطنية فى نفوس دعاة الحرية ، وإن تظاهروا بأنهم أطلقوا للصحافة العنان وتركوها حرة تقول ما تشاء[١] لأن كرومر ممثل الاحتلال بمصر لم يكن يأبه للصحافة وما قد تثيره من سخط وتحت إمرته جيش إنجليزى جاثم على صدر الوادى يبطش بكل من تحدثه نفسه بالشغب . على أن الصحافة فى رأى كرومر كانت من الهوان والضعف بدرجة لا تدعو إلى القلق والاضطراب ؛ وإذا بدر من إحدى الصحف ما يسىء إلى الإنجليز أو يشوه سمعتهم بمصر عاجلوها بالتعطيل ، ولقد مر بك كيف حاربوا مجلة العروة الوثقى ومنعوها من دخول مصر ، وعطلوا جريدة الأهرام شهراً[٢] لتنديدها بالسياسة الإنجليزية فى سنة ١٨٨٤ ، وتبطش يد الاستعمار بكثير من الجرائد لأتفه الأسباب فتعطل جريدة الوطن مع أنها موالية لهم ، وتلغى الزمان ، ومرآة الشرق لأنهما من محاربى الاحتلال .

وتاريخ الصحافة فى هذه الحقبة متأثر بعدة عوامل .

١ — فتركيا كانت — على الرغم من ضعفها ، وإذعانها للأمر الواقع فى مصر — تحاول إثارة النفوس ضد الاحتلال الإنجليزى ، ضنا بمصر الغنية أن تفلت من يدها إلى الأبد وكان كثير من المصريين يدين لتركيا بالولاء ، وهو ولاء دينى مبعثه وجود الخلافة العثمانية ، والمسلمون مكلفون شرعاً بطاعة الخليفة ، وكانت هذه النزعة تتملك قلوب الجمهرة الغالبة من المصريين وبعض السوريين المقيمين بها . وقد ظهر من الجرائد التى تحمل لواء هذه السياسة

---

(١) وفى ذلك يقول جورج يونج G. Young فى كتابه مصر Egypt مشيرا إلى تقرير اللورد (دفرين) ونصحه لسلطة الاحتلال بمصر أن ترخى العنان للصحافة ، وأن نصيحته قد وجدت أذناً صاغية حتى « أهمل قانون سنة ١٨٨١ إهمالا تاماً : ونالت مصر حرية صحفية لا عهد لدول إفريقية أو غرب آسيا بها » انظر ص 108—178 .

(٢) كانت جريدة الأهرام فى ذلك الوقت تحارب الإنجليز لأنها كانت تعمل لحساب الفرنسيين ، وفى ذلك تقول جريدة الشعب (٨ مايو ١٩١٢) تصف الأهرام وسياستها : « إن سياستها عثمانية مصرية تدافع عن مصالح فرنسا فى مصر سواء كانت اقتصادية أو سياسية وأحيانا تشتد فى نقدها كأكثر الصحف الوطنية تطرفاً » .

وتنفث الحمم ملتهباً ، والسم ناقعاً ضد الإنجليز وسياستهم الاستعمارية جريدة (المؤيد) ، ثم جريدة (اللواء) .

٢ — وهناك الاحتلال البريطانى ، وهو احتلال تديره سياسة محنكة يصفها اللورد كرومر بقوله : « يجب أن تكون السياسة الاستعمارية قائمة على قواعد التبصر والحكمة ، ويجب أن تكون أصول أحكامنا — التى هى الصلة بيننا وبين جميع الشعوب الداخلة فى حكمنا ، من حيث الاعتبار السياسى والاقتصادى والأدبى — قواعد صحيحة سليمة منزهة عن الشائبة والنقص . هذا هو حجر الزاوية فى بناء الإمبراطورية . إن المبرر الأكبر للاستعمار يجب أن يظهر جلياً فى حسن التصرف بما فى أيدى هذه الامبراطورية من القوى[١] » . وأراد الاحتلال أن يجتث نفوذ تركيا من الأساس ، ويقتلع من النفوس هذا الولاء ، وقد استطاع أن يجد لسياسته هذه أنصاراً ومؤيدين وأن يجتذب قلوباً عزيزة المنال تدافع عنه أو تسكت عن مخازية . وجد الاستعمار أنصاره بين بعض السوريين المسيحيين الناقمين على تركيا استبدادها وغلظتها وسوء تصرفها معهم فى ديارهم ، وتفريقها بين عناصر الأمة ، فرأوا فى الإنجليز من يحميهم ويعطف عليهم ، فأنشئوا جريدة المقطم[٢] تشيد بسياستهم ، وتلهج بأعمالهم ، وقد صرح أصحابها بأن غرضهم السياسى من تأسيسها معلوم ظاهر فى كل صفحة من صفحاتها ، « وهو تأييد السياسة الإنجليزية التى لولاها ما كان فى الشرق بلد يستطيع أحد أن يعيش فيه ويجاهر بآرائه وأقواله[٣] » ومن هؤلاء الذين شرعوا أقلامهم فى محاربة الترك وتأييد الإنجليز سليم سركيس صاحب جريدة (المشير) ويقول من مقالة بعنوان (هل مصر عثمانية ؟)[٤] : « لم أجد فى حياتى ، ولاقرأت فى مطالعاتى عن أمة تريد الانتقال من الاستقلال إلى ظلمات العبودية إلا هذا القسم من الأمة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثمانى » . ومن شعره فى التنديد بظلم الأتراك قوله[٥] :

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ج ٤ س ١٠ .

(٢) ١٤ فبراير سنة ١٨٨٩ .

(٣) مجلة الجامعة لفرح أنطون ج ١ س ٨٢ .   (٤) المشير عدد ١٠٢ .

(٥) العوامل الفعالة فى الأدب العربى الحديث لأنيس المقدسى س ٨ .

نرجو صلاح الترك قد خابت أمامنينا الكواذب
هى دولة ظلمت وليس الـ عدل عن ظلم بذاهب
فانشد مى قولا ترد ده المشارق والمغارب
ليس العجيبة فقدها بل عيشها إحدى العجائب

وقد وجد الإنجليز بجانب هؤلاء أقلاماً أخرى تناصرهم لنفورهم من الظلم التركى مثل ولى الدين يكن ، مع أنه كان تركياً صميما لايبغى بتركيا بديلا ، ولكنه كان يحب الإنجليز لحمايتهم — فيما يزعم — الأحرار ، وقد مر بك كيف اجتذبوا إليهم الشيخ محمد عبده وإن لم يكن من صنائعهم ، ولكنه كان من المحتمين بهم المستظلين بظلهم ، وقد استطاعوا أن يطفئوا تلك النار الملتهبة التى يصبها عليهم الشيخ على يوسف وشيمته فى المؤيد ، وأن يسكتوا تلك الأقلام القوية التى تصور فى جرأة وقوة فظائعهم وتملأ القلوب إحناً وبغضاء عليهم[1] ، ولكن لم يستطيعوا مع كل هذا أن يجعلوا من المؤيد بوقاً يدعو لهم وسنعود إليه بعد قليل .

وبذلك انقسمت الصحافة قسمين قسم يشايع تركيا — وفى الغالب يدعو للخديو ويناوىء الإنجليز ، ويندد بالاستعمار إما مدفوعاً بالولاء الدينى ، أو بالكراهة للانجليز أو بتحريض دولة أجنبية مثل الأهرام وفرنسا . وقسم يدافع عن الانجليز ويذيع مساوىء العهد التركى ، ويترنم بنعمة الاحتلال ، وينتقص المصريين وعلى رأسهم الخديو ، ويتمثل فى جريدة المقطم وفى بعض الأقلام التى فتنها بريق الحرية الكاذبة التى لوح بها الإنجليز .

وأكبر ظاهرة تستحق منا العناية قبل أن نفرغ من هذا الجزء ظهور جريدتين إسلاميتين كان لهما شأن عظيم فى تاريخ مصر ، وفى توجيه الحركة والإصلاح الاجتماعى

(١) وقد قال فى هذا التغير حسين شفيق المصرى صاحب (المباحث السياسية) : « المؤيد الذى يقرأ الآن غير المؤيد الذى كان المصريون يحبونه والشيخ على يوسف صاحب المؤيد الحاضر غير الشيخ على يوسف الذى حل على الأعناق بعد حكم قضية التلغراف المشهورة فقد تغيرت الحال مع الصحيفة وصاحبها ، والبون بعيد بين اجتماع الوطنيين لتوابير أم الصحف وأبى الصحفيين وبعد اجتماعهم للنداء بإسقاطهما فى الحضيض الأسفل ، وليس الإقرار بهذه الحقيقة من الأمور التى تسر الوطنيين » راجع تاريخ الصحافة العربية (الفيكونت فيليب دى طرازى) ج ٣ س ٣٨ .

وقد أشرنا إليهما فيما سبق إشارات عابرة ولكن سنخص المؤيد هنا بكلمة ؛ لأن الصحافة اليومية المشهورة بمصر كانت إلى ظهور المؤيد واللواء سورية تتحكم فيها نزعات وأهواء متباينة ، أما اللواء فله شأن آخر وموعدنا به فى الأجزاء التالية إن شاء الله ؛ لأنه أنشىء فى السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والكلام عنه يطول .

المؤيد :

والفضل فى ظهور المؤيد يرجع إلى سياسة الإنجليز واصطناعهم أصحاب المقطم ؛ فإن هذا أثار حفيظة الوطنيين ، فتقدم الشيخ على يوسف[1] صاحب مجلة الآداب لإخراج المؤيد جريدة وطنية مصرية وشجعه رياض باشا وكثير من زعماء مصر[2] ، وغدت المؤيد ميداناً تتألق فيه الأقلام الوطنية الجريئة تثيرها حرباً شعواء على الاستعمار الإنجليزى، وعلى الأجانب الذين يناصرونهم ، ونازلت المقطم نزالا عنيفاً مراً ، فما لبثت أن راجت حتى صارت أقوى جريدة عربية فى الشرق العربى كله . وفسحت صدرها لمصطفى كامل ولفئة صالحة من كتاب الشباب ، وتلاميذ جمال الدين ومحمد عبده [3] وعنيت بالمسائل الوطنية فى جميع نواحيها ، وبالأمور الإسلامية . ولم يستطع الإنجليز أن يعطلوها كما عطلوا الأستاذ لعبدالله

---

(١) الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، ولد بقرية بلصفورة بمدينة جرجا سنة ١٨٦٣ من أسرة شريفة أخنى عليها الدهر ، ودرس فى الأزهر مدة إلا أن ميله الأدبى صرفه عن إتمام دروسه به ، وأنشأ فى سنة ١٨٨٧ (مجلة الآداب) أسبوعية فى ثمانى صفحات ، ولكنها اهتمت بالدراسات القديمة ، وتحررت بأسلوب يعلو على جمهرة القراء ، فتعثرت فى خروجها ، ثم أسس جريدة المؤيد فى أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ ، فكانت أول جريدة مصرية يومية كبيرة ، وراجت رواجاً عظيما . وفى سنة ١٩١٢ أسندت للشيخ على يوسف مشيخة السادة الوفائية ، فاستقال من جريدته ، ومات بعد ذلك فى سنة ١٩١٣ وكان الشيخ (على) قوى العزم أديبا متلافا وقد أثار زواجه من بنت السيد عبد الخالق السادات ضجة عظيمة لأن السيد عبد الخالق عده دونه فى الحسب والنسب ، وشغلت الصحف بذلك وقتا طويلا . وقد رمى بالتعصب الدينى ، ولكنها تهمة يشيعها من لم يفهموا سياسة ذياك الوقت والعوامل التى حركت الصحافة والدوافع التى جعلت من بعض المسلمين متعصبين وسنخصه بترجمة مطولة فى أحد الأجزاء التالية إن شاء الله . على أننا ترجمنا له ترجمة وافية بمجلة الكتاب عدد يوليه ١٩٤٨ وفى كتابنا (دراسات أدبيه) .

(٢) راجع تطور الصحافة لإبراهيم عبده ص ١٥٢ .

(٣) من كتاب المؤيد المشهورين بجانب صاحبه : جميل مدور ، وعبد الحميد الزهراوى . والشيخ عبد القادر المغربى ، ومحمد كرد على ، ومحب الدين الخطيب ، والمنفلوطى ، وحافظ عوض ، ومحمد أبو شادى ، وإمام العبد ، وسليمان فوزى (صاحب الكشكول) .

نديم لقوتها وكثرة قرائها ، ولكن تمكنوا بعد مدة من استمالة الشيخ على يوسف إليهم ، ولعل محبته لمحمد عبده قد أثرت فيه فنهج منهجه فى مسالمتهم .

لقد كانت المؤيد أمل المصريين ، ومدرسة تخرج فيها عدد كبير ممن قادوا الأمه فى الصحافة بعد ذلك ، وكانت غنية منتشرة فى العالم الإسلامى كله ، وهى أول جريدة استعملت مطبعة كهربائية فى الشرق،وقد احتلت منزلة كبيرة فى نفوس الناس حتى اعترف لها بهذه المكانة العدو والصديق،ولذلك عز على المصريين وقوفها موقفاً سلبياً من الاستعمار الإنجليزى بعد أن كانت من أكبر خصومه ، وإن لم تفقد قراءها ؛ لسابق فضلها وقوة تحريرها ، ولسياستها الإسلامية ، ولحسن الدعاية لها . وفى المؤيد وصاحبه يقول حافظ إبراهيم حين أخرج المؤيد فى ثمانى صفحات سنة ١٩٠٦ .

أحييت ميت رجائنا بصحيفة ... أثنى عليها الشرق والإسلام

أضحت مصلى للهداية عندما ... سجدت برحب فنائها الأقلام

فعلى مؤيدك الجـديد تحية ... وعلى مؤيدك القديم سـلام

ويقول ولى الدين يكن عنه :

« الشيخ على يوسف سهل التأليف ، شديد المضاء ، هو فى بيانه أقرب إلى العامة منه إلى الخاصة ، إذا غالب غلب بصورته دون روحه ، صحافى محنك . وليست الكتابة من عمله .

كأنما يراعـه سوطه ... يضرب إن جدَّ ولا يكتب

لاتدع المجمة أسلوبه ... فليس فى أسـلوبه معرب

ولعلك أدركت أن ولى الدين ليس ممن يحبون الشيخ ، وقد كانا على طرفى نقيض فى سياستهما كما مر بك .

وفيه قال يوسف البستانى : « أنظر إليه بعين الصحافى فأراه عظيم البراعة فى تقليب البراعة وشديد الحصافة فى ميدان الصحافة ، ولو وجد قلمه من عواطفه دعامة لرفعه بيننا إلى مقام الزعامة . ولقد زاد فضله أنه من الطبقة العصامية وجهال اللغات الأجنبية »(١)

---

(١) تاريخ الصحافة العربية — الفيكونت فيليب دى طرازى ج ٣ ص ٤٠ .

ويقول تشارلز آدمز « أما الشيخ على يوسف فقد كان صحفياً ماهراً ، له دهاء يشوبه المكر أحياناً ، وقد رفع المؤيد إلى مقام الصدارة فى العالم العربى »[١].

وحسبنا هذه الكلمة الموجزة عن الصحافة فى أخريات القرن التاسع عشر ولنا إليها عودة فى الأجزاء التالية إن شاء الله ؟ لأن كثيراً من الصحف التى ظهرت فى هذه الحقبة ازدهرت ونمت فى القرن العشرين ، وتأثرت بعوامل سياسية واجتماعية كانت وليدة أحداث ظهرت فى أوائل هذا القرن .

---

(١) الإسلام والتجديد لمريب عباس محمود ص ٢١٨ .

المراجع

إبراهيم عبده : ١ — تطور الصحافة المصرية
٢ — أعلام الصحافة

ابن إياس الجركسي : بدائع الزهور في وقائع الدهور

أحمد أمين : ١ — قصة الفلسفة الحديثة جزآن
٢ — فجر الإسلام
٣ — مجلة الثقافة مقالات عن زعماء الإصلاح الاجتماعي

أحمد تيمور : أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر

أحمد سمير : سلافة النديم

أحمد صبري : مجلة الأنصار

أحمد عرابي : كشف الستار (مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٤٢)
ومنه جزء مطبوع بمطبعة مصر

أحمد فارس الشدياق : منتخبات الجوائب

أحمد الإسكندري وآخرون : ١ — المنتخب
٢ — المفصل

إسماعيل أدهم : توفيق الحكيم الفنان الحائر

الجود (P. G. Elgood) : The transit of Egypt

إلياس الأيوبي : تاريخ مصر في عهد إسماعيل (جزءان)

أمين باشا سامي : تقويم النيل الجزء الثاني والثالث

أنيس المقدسي : العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث

برت (C. Burt) : كيف يعمل العقل الجزء الثاني ترجمة محمد خلف الله

برودلي (A. M. Broadley) : How We defended Arabi

بروكلمان (Carl Brockelmann) : Geschichte der arabischen litterature
ملحق الجزء الثاني

(A. G. Berwne) : The Persian Revolution

بطرس البستاني : أدباء العرب الجزء الثالث

بلنت : التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر، ترجمة البلاغ

تشارلتن : فنون الأدب تعريب زكي نجيب محمود

تشارلس آدم : الإسلام والتجديد ترجمة عباس محمود

توفيق الحكيم : ١ — تحت شمس الفكر
٢ — مقالة في مجلة أخبار اليوم ١٩٤٨/٣/٢٧

جاك تاجر : حركة الترجمة بمصر

جب (H. R. Gibb) : Bulletin of the School of Oriental Studies

الجبرتي (الشيخ عبد الرحمن) : عجائب الآثار في التراجم والأخبار .

جميل صليبا ... ... : ابن خلدون — منتخبات
جورجي زيدان ... ... : ١ — تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع
٢ — تراجم مشاهير الشرق جزءان
جومار ... ... : Journal Asiatique عدد أغسطس ١٨٢٨
حسن توفيق العدل ... ... : نيل الأرب في مثلثات العرب
حسين المرصفي ... ... : الوسيلة الأدبية
خليل مطران ... ... : المقتطف ابريل ١٩٣٣
رفاعة الطهطاوي ... ... : (أ) تخليص الإبريز في تلخيص باريز
(ب) مناهج الألباب
(ج) المرشد الأمين
(د) مواقع الأفلاك
روتشين — تيودور ... ... : تاريخ المسألة المصرية ترجمة عبد الحميد العبادي
رينان (Renan) ... ... : Histeire Général et Systéme Comoparé des Langues Semitiques
زكي نجيب محمود ... ... : ١ — قصة الفلسفة الحديثة جزءان
٢ — مقدمة كتاب أدب المقالة
ستودراد ... ... : حاضر العالم الإسلامي أربعة أجزاء ترجمة عجاج نويهض
سليم خليل نقاش ... ... : مصر للمصريين
سليم سركيس ... ... : جريدة المشير
سميث (Egerton Smith) ... ... : Essay writing and Rhetoric
شو (G. B. Shaw) ... ... : The, Intelligent Woman's Guide
شكيب أرسلان ... ... : ١ — تعليقات على هامش حاضر العالم الإسلامي
٢ — مقدمة النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي
صالح مجدي ... ... : حلية الزمن في وصف مناقب خادم الوطن (مخطوط).
طه حسين ... ... : (أ) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تعريب محمد عبد الله عنان
(ب) في الأدب الجاهلي
(ج) حافظ وشوقي
عباس العقاد ... ... : (أ) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي
(ب) سعد زغلول سيرة وتحية (ج) الفصول
(د) ١١ يوليو وضرب الاسكندرية
عثمان أمين ... ... : محمد عبده في سلسلة أعلام الإسلام

عبد الرحمن الرافعى ... ... : ١ — الحركة القومية
٢ — عصر إسماعيل جزءان
٣ — تاريخ الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى
٤ — مصطفى كامل

عبد القادر حمزة ... ... : على هامش التاريخ المصرى القديم ج ١
عبد الله فكرى ... ... : الآثار الفكرية
عبد الله نديم ... ... : الأستاذ والمتنكيت والتبكيت
على أبو النصر ... ... : الديوان
على مبارك ... ... : الخطط التوفيقية

عمر الدسوقى ... ... : ١ — إخوان الصفا
٢ — الفتوة عند العرب
٣ — المسرحية
٤ — دراسات أدبية

فرح أنطون ... ... : مجلة الجامعة
فون فيجديك ... ... : ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربى ترجمة محمد عبد الله عنان
فيليب دى طرازى ... ... : الصحافة العربية أربعة أجزاء
قدرى طوقان ... ... : جمال الدين آراؤه وآثره — محاضرة
كلوت بك ... ... : لمحة عامة إلى مصر
لوبان (J. H. Lobban) ... ... : English Essays

لويس شيخو ... ... : (ا) تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر جزءان
(ب) مجلة الشرق

مارون عبود ... ... : مجلة الكتاب فبراير ١٩٤٨
محمد بهجت الأثرى ... ... : أعلام العراق
محمد حسين هيكل ... ... : مقدمة لديوان البارودى
محمد الخضرى ... ... : محاضرات فى التاريخ الإسلامى (الدولة العباسية)
محمد خلف الله ... ... : من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب
محمد رشيد رضا ... ... : (ا) تاريخ الاستاذ الإمام ثلاثة أجزاء (ب) المنار
محمد صبرى ... ... : La Genése de l'Esprit National Egyptian
محمد صبيح ... ... : محمد عبده كتاب الشهر

محمد عبده ... ... : ١ — الوقائع المصرية
٢ — مجلة العروة الوثقى

محمد عثمان جلال ... ... : العيون اليواقظ

محمد الغمراوي ... ... : النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي

محمد كرد علي ... ... — ... : خطط الشام الجزء السادس

محمد المخزومي ... ... : خاطرات

محمود سامي البارودي ... ... : الديوان

محمود صفوت الساعاتي ... ... : الديوان

محمود الخفيف ... ... : أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه

مصطفى لطفي المنفلوطي ... ... : ١ — مختارات المنفلوطي

٢ — ترجمة الساعاتي في الديوان

ميخائيل شاروبيم ... ... : الكافي في تاريخ مصر

نجيب العقيقي ... ... — ... ... : المستشرقون

يونج (G, Young) Egypt

الفهرس

صفحة

مقدمة الطبعة الأولى ٣
مقدمة الطبعة السابعة ٩

الفصل الأول – البعث ... ... ١١ — ٦٩

قبيل البعث ١١ ـ البعث ١٥ ـ البعثات ١٩ ـ الترجمة ٢٣ ـ رفاعة الطهطاوى ٢٤ ـ أعماله بعد عودته ٢٨ ـ رفاعة والقانون ٣٣ ـ رفاعة والمرأة ٣٣ ـ وفاته ٣٤ ـ صفاته ٣٤ ـ الطباعة والصحافة ٣٩ ـ الصحافة ـ ٤٢ ـ الأدب فى عهد محمد على ٤٦ الشيخ حسن العطار ٤٦ ـ الشيخ حسن قويدر ٤٨ ـ السيد على الدرويش ٥١ المعلم بطرس كرامه ٥٣ ـ الشيخ ناصيف اليازجى ٥٥ ـ الشهاب الألوسى ٥٩ ـ التأليف فى عصر محمد على ٦٣ .

الفصل الثانى — النهضة ... ... ٦٩ — ١٢١

التعليم ٦٩ الجمعيات العلمية ٧٣ ـ الصحافة ٧٦ ـ أحمد فارس الشدياق ٧٧ ـ مجلة اليعسوب ٨٧ ـ مجلة روضة المدارس ٨٧ ـ أديب إسحق ٩١ ـ الطباعة ١٠٤ ـ الترجمة والتأليف ١٠٥ ـ محمد عثمان جلال ١٠٦ ـ النهضة فى بلاد الشام ١١٧ .

الفصل الثالث ـ الأدب فى عصر اسماعيل ... ... ١٢٢ — ١٦٤

المدارس الأدبية فى هذا العصر ١٢٣ ـ السيد على أبو النصر ١٢٥ ـ الشيخ على الليثى ١٢٩ ـ محمود صفوت الساعاتى ١٣٤ ـ عبد الله فكرى ١٤٦ ـ السيد عبد الله الألوسى ١٦٢ ـ حسين بيهم ١٦٣ .

الفصل الرابع ـ بعث الشعر العربى ... ... ١٦٥ — ٢٣٧

محمود البارودى ١٦٧ ـ حياته ١٦٧ ـ أخلاقه ١٧٨ ثقافته ١٨٣ ـ شعره ١٨٥ ـ القديم فى شعره ١٩٠ ـ الجديد فى شعره ١٩٧ ـ الوصف ١٩٧ ـ الشعر السياسى ٢٠٧ ـ النسيب ٢١٩ ـ الهجاء ٢٢٠ ـ المخترعات الحديثة ٢٢٤ ـ نظرة عامة ٢٢٥ ـ الرثاء ٢٢٦ ـ المدح ٢٢٨ ـ فخره ٢٣٠ ـ الزهد ٢٣١ ـ الحكمة ٢٣٢ هنات ٢٣٤ ـ منزلته ٢٣٧ .

الفصل الخامس — نهضة النثر .. .. ٢٣٩ — ٣٠٦

موضوعاته ٢٣٩ ـ مميزاته ٢٥٥ ـ أنواعه ٢٥٦ ـ جمال الدين الأفغانى ٢٥٩ ـ أثره بعصره ٢٦٥ ـ العروة الوثقى ٢٧٠ ـ نبذ من آرائه ٢٧٣ ـ أسلوبه فى الكتابة ٢٧٧ الشيخ محمد عبده ٢٧٩ ـ فى الأزهر ٢٨٢ ـ محمد عبده والثورة ٢٨٩ ـ بعد الثورة ٢٩٢ ـ بعد العودة من المنفى ٢٩٤ ـ إصلاح الأزهر ٢٩٥ ـ وفاته ٣٠١

أثره فى النثر ٣٠١ – عبد الله نديم ٣٠٨ – فى غمار الثورة ٣١٣ – آثاره وأثره ٣٢١ – أسلوبه ٣٣٠ – منزلته ٣٣٧ – أحمد عرابى ٣٣٩ – نشأته وشخصيته ٣٤٠ – عرابى الخطيب الزعيم ٣٤٤ – محاكمته ٣٥١ – أسلوبه وأثره ٣٥٤

الفصل السادس – الاتصال بالأدب الأجنبي ... ... ٣٥٧ — ٤١٧

(ا) الترجمة والتأليف ٣٥٧ – النهضة القانونية ٣٦١ – كتب الاقتصاد السياسى ٣٦٤ – كتب الاجتماع ٣٦٤ – الكواكبي ٣٦٥ – النهضة الأدبية ٣٦٦ – المسرح ٣٦٦ القصص المترجم ٣٦٧ – التأليف فى القصة ٣٦٨ .

(ب) المستشرقون ٣٧١ – الجمعيات الأسيوية ٣٧٥ – المؤتمرات ٣٧٥ – المكتبات ٣٧٦ – معاهد اللغات الشرقية ٣٧٧ – أشهر المستشرقين ٣٧٧ – أثر المستشرقين ٣٨٤ .

(حـ) أثر الاتصال بالأدب الأجنبي – ٣٨٨ – القصة ٣٩٠ – السبب فى عدم اهتمام العرب بالقصة ٣٩١ – مناقشة مزاعم المستشرقين ٣٩٣ – المقالة والصحافة ٤٠٨ – شروط المقالة ٤٠٩ – أنواع المقالة ٤٠٩ – الصحافة الحديثة ٤١١ المؤيد ٤١٤ – المراجع ٤١٧ .

للمؤلف

١ – إخوان الصفاء :

دراسة تاريخية أدبية فلسفية ، تكشف السر عن جماعتهم ونظمها ، وعن فلسفتهم مع مناقشة علمية لكل ما كتب عنهم ، والوصول إلى الحقيقة في أمرهم .

٢ – النابغة الذبياني :

ترجمة مستفيضة مع تصوير شامل للبيئة العربية في العصر الجاهلي ، وتطور اللغة العربية إلى عصر النابغة ودراسة لديوانه وطبعاته ، وشعره مع تحليل ونقد وموازنة .

٣ – الفتوة عند العرب :

أول كتاب في اللغة العربية في موضوعه ، ودراسة تحليلية عميقة جامعة لأمجاد الأمة العربية ، وتاريخ للفتوة منذ نشأة العرب حتى عصر المماليك ، مع موازنة واسعة بين فتوة العرب وفروسية الغرب وصور جذابة تاريخية لشتى ضروب الفتوة في أسلوب قصصي رائع .

٤ – محمود سامي البارودي :

من سلسلة نوابغ الفكر العربي وهي دراسة ممتازة مركزة لعصره وحياته وشعره مع عشرات القصائد المشروحة شرحاً ضافياً .

٥ – المسرحية :

أول كتاب في اللغة العربية يدرس فن المسرحية . دراسة علمية جامعة عميقة ، ويتتبع نشأتها حتى عصرنا الحاضر ، ويفصل أنواعها ويدرس كلا منها ، ويفصل الأسس والأصول التي تبنى عليها المسرحية ، ويختم البحث بتطبيق نقدي على رواية مجنون ليلى لشوقي .

٦ ـ فى الأدب الحديث (الجزء الثانى) :

دراسة شاملة عميقة لأهم العوامل الفعالة فى الشعر الحديث بعد البارودى ، كأثر الثقافة الأجنبية والنهضة الوطنية ، والنقد الأدبى الحديث ومذاهبه ، وللمدارس الشعرية بمصر ثم ترجمة مستفيضة لبعض أعلام المدرسة الاتباعية الحديثة من الشعراء .

٧ ـ دراسات أدبية (الجزء الأول) :

يحتوى على أربعة عشر بحثاً فى صميم الأدب الحديث . ويلقى أضواء مركزة على مشكلات أدبية هامة ، كأدب القصة وواقعية الأدب ، والاستعمار الثقافى كما يفحص عن نواحى تميز بها بعض الشعراء المعاصرين فى دقة وتحليل .

٨ ـ لغتنا القومية :

دراسة واسعة لنشأة اللغة العربية والصراع بين العامية والفصحى ، ودفاع عن الفصحى ضد التيارات الكثيرة . والكلام على اللغة المشتركة .

٩ ـ نشأة النثر الحديث وتطوره (الجزء الأول) :

يتناول بدراسة تفصيلية نشأة النثر الحديث وكبار أعلامه وتطور المقالة وأنواعها إلى نهاية القرن التاسع عشر .

١٠ ـ خريدة القصر للعماد الأصبهانى القسم الرابع (بالاشتراك) ـ الجزء الأول

نشر وتحقيق وتقديم ويشمل هذا القسم الشعر فى صقلية والأندلس مع ترجمة وافية للأعلام التى وردت به .

١١ ـ إظهار الحق للسيد رحمة الله بن خليل الرحمن الهندى :

نشر وتحقيق مع تعريف بأهم الأعلام التى وردت به ، وتقديم له ، وترجمة النصوص الفارسية .